سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ١٢٠

تربية النبي ﷺ لأصحابه

رضوان الله عليهم

تأليف

د. خالد بن عبد الله بن مسلم القرشي

الأستاذ المشارك بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

بجامعة أم القرى



للنشر والتوزيع بالرياض

ⓒ مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٣٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القرشي، خالد عبد الله
تربية النبي ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم. / خالد عبد الله القرشي.- الرياض، ١٤٣٣هـ
٥٣٦ص، ١٧×٢٤سم.- (سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج، ١٢٠)
ردمك: ١ - ٤٩ - ٨٠٣٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - السيرة النبوية ٢ - الصحابة والتابعون ٣ - التربية الإسلامية
أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢٣٩ ١٤٣٣/٧٦٥٦

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية. الرياض
المركز الرئيسي - النازي الشرقي - مخرج ١٥ - جنوب أسواق المجد
ت: ٤٤٥٦٢٢٩ - فاكس: ٤٩٦٢٠١٤ - ص.ب: ٥١٩٢٩ - الرياض ١١٥٥٣
الفروع - طريق خالد بن الوليد (إيكاس سابقاً) ت: ٢٣٢٢٠٩٥
مكة المكرمة - العزيزية - الطريق النازل للحرم - ت ٠٢/٥٧٦١٣٧٧
المدينة النبوية - أمام الجامعة الإسلامية من جهة الجنوب - ت: ٠٤/٨٤٦٧٩٩٩
حساب الدار في موقع تويتر: @Alminhaj

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٨، ٢٩].



المقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا؛ من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجدَ له وليًا مُرشدًا.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد، فإن من الموضوعات المهمة التي ينبغي أن تُبذل فيها الجهود، وتُنفقَ فيها الأوقاتُ: معرفةَ طريقة النبي ﷺ ومنهجه في تربية أصحابه رضوان الله تعالى عليهم، وتعليمهم، ويعرف ذلك من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ: القولية، والعملية، والتَّقريريَّة، ومن الآثار السلوكية للأصحاب التي هي نِتاج تلك التربية النبوية المباركة.

ولَمّا كان من المُتَعَيِّن عليَّ بعد أن انتهيت من السنة المنهجية من الدراسات العليا في قسم الكتاب والسُّنَّة، أن أقدِّم بحثًا في أحد موضوعاته، استقر بيَ الأمر على اختيار موضوع من موضوعات الكتاب والسُّنَّة؛ ألا وهو: «تربية النبي ﷺ لأصحابه في ضوء الكتاب والسُّنَّة».

وكان مِنْ أهم أسباب اختياري لهذا الموضوع ما يأتي:

أولًا: أن العمل قرين العلم، وحقيقة العلم هي معرفة ما جاء في كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ بالطرق الصحيحة، وتأتي التربية على هذا العلم لتثبتَهُ وتقوِّيَهُ، فالاهتمام بهذا الموضوع يجب أن يكون نُصبَ أعيننا؛ لأن له أثرًا كبيرًا في حياتنا.

ثانيًا: أنه قد اختلفت مصادر الناس في استمداد مناهجهم التربوية، واختلفت تَبَعًا لذلك طرائقهم، وكثُرت الأخطاء والسلبيات فيها؛ وكان من اللازم دراسةُ منهج النبي ﷺ في توجيهه أصحابه رضوان الله عليهم؛ لأن هذا المنهج ـ كما هو معلوم ـ قد أخرج خير أمة أخرجت للناس؛ لذلك فلا بد من معرفة مميزاته من خلال دراسة نصوص الكتاب والسُّنَّة والسيرة النبوية المتضمنة لهذا الموضوع.

ثالثًا: أن الاهتمام بمعرفة طريقة النبي ﷺ في تربية أصحابه أمرٌ ضروري؛ لِما يترتب عليه من الآثار الإيجابية في تربية الأجيال، ومعالجة الأخطاء التربوية المنتشرة في الأمة الإسلامية.

رابعًا: أن هذا الموضوع ـ مع ما كتب فيه من بحوث عامة فيها فوائدُ كثيرة ـ ما زال في حاجة إلى زيادة بيان وتفصيل؛ من حيث تتبع نصوص الكتاب والسُّنَّة والسيرة النبوية في هذا المجال، وإيراد فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم في ذلك، مع مناقشة ما يحتاج إلى مناقشة في كل موضع بحسبه.

هذا.. وقد اشتملت الرسالة على مقدمة، وتمهيد، وبابين، وخاتمة:

أما المقدمة: ففيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والمنهج المتبع في البحث.

وأما التمهيد: ففي مفهوم التربية وعلاقتها بالتعليم.

وأما الباب الأول: ففي شمولية منهجه ﷺ في تربيته لأصحابه، وفيه خمسة فصول.

وأما الباب الثاني: فيبحث في وسائله ﷺ في تربيته لأصحابه، وفيه أحد عشر فصلًا.

والخاتمة: ذكرت فيها النتائج التي توصلت إليها.

منهجي في البحث:

* استعرضت كتب الحديث، وخاصة الكتب الستة وشروحَها، وكتب السيرة النبوية، وكتب التفسير؛ وجعلتُها مراجعَ لموضوعات البحث.

* ثم اطَّلعت على كثير مما كُتب في مجال التربية الإسلامية، واستفدت منه في ضوء تلك المراجع السابقة.

* ثم قمت بفرز المادة العلمية التي جمعتها من الكتب السابقة، ورتبتُها على حسب خطتي في البحث، فجعلتُ ما يخصُّ كلَّ موضوع من موضوعات البحث على حِدة، ثم قمتُ بصياغة تلك الموضوعات وترتيبها على حسب التسلسل الموضوعي في البحث.

هذا.. وحسبي أنّي قد بذلتُ ما في وسعي، فإن أصبتُ، فهذا الذي أبغي وأحمد الله تعالى على ذلك، وإن كانت الثانية، فإن الله تعالى ورسولَه ﷺ بريئان منها؛ لأنها منّي ومن ضعفي وتقصيري، ولا أستغني عن معونة الله تعالى، ثم مشورة أهل العلم والفضل ورأيهم السديد.

وأخيرًا، فإنّه مما يُسعدني أن أذكر لأهل الفضل والإحسان فضلَهم وإحسانَهم ـ بعد الحمد والشكر كلّه والثناء العطر لمُجْزِلِ العطاء ربّي وخالقي سبحانه وتعالى ـ عملًا بقول المربي العظيم رسولِنا وقدوتنا ﷺ: **(لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ).**

فأتقدّم بالشكر الجزيل لفضيلة شيخي الدكتور محمد الخضر النَّاجي،

الذي كان مشرفًا على هذه الرسالة في مبدأ الأمر، وقد أفدتُ مِنْ علمه وفضله، فجزاه الله عني خير الجزاء.

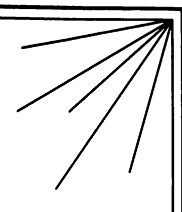
ثم أتقدّم أيضًا بالشكر الجزيل لفضيلة أستاذي وشيخي الدكتور: عبد المجيد محمود عبد المجيد؛ على ما بذله في أثناء مدة الإشراف مِن نُصح وتوجيه، كان له أثرُه البالغُ في إنجاز الرسالة وتقويمها.

كما أشكر كلًّا مِن فضيلة الشيخ الأستاذ محمد قطب إبراهيم، وفضيلة الدكتور السيد عبد المقصود جعفر؛ اللذَيْن تفضَّلا بمناقشة هذه الرسالة وإبداء الملاحظات القيمة عليها. كما أشكر كلَّ مَنْ أسهم في إنجاز البحث برأي أو دعوة أو كتاب أو مشورة أو تعديل وتصحيح. سائلًا الله ﷻ أن يُجزلَ لهم المَثوبَةَ، وأن يجعلَها في موازين حسناتهم، إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

البريد الإلكتروني
Dr.K.q@hotmail.com



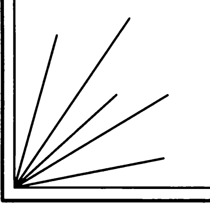



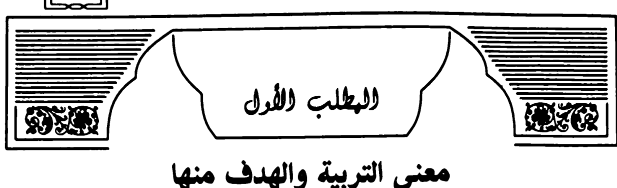
التمهيد

مفهوم التربية وعلاقتها بالتعليم

* وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: معنى التربية والهدف منها.
- المطلب الثاني: الفرق بين التربية والتعليم.



المطلب الأول

معنى التربية والهدف منها

• **التربية في اللغة معناها**: الازدياد والنمو، أو التنشئة والتغذية.

«فالربُّ في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حدِّ التمام، يقال: ربّه، وربّاه، وربَّبه»(١).

ويقال: ربَّى الوالدُ ابنَه بمعنى غذّاه وجعله ينمو؛ أي: حفظه ورعاه ونشَّأه(٢).

والتنشئة والتغذية والرعاية ليست عمليةً مادية فقط مقتصرةً على الطعام والشراب، وإنما هي عمليةٌ متكاملة تشمل جميع جوانب شخصية المتربّي: روحيًا وعقليًا وجسديًا.

ولذا، فإن مِنْ أهم معاني التربية: التهذيبَ، والرفع، والسمو، والترقية، والتزكية للروح والعقل والجسم(٣).

فالتربية عملية تشكيل الشخصية السوية المتكاملة المتَّزنة في جميع جوانبها روحيًا وعقليًا وجسميًا، والقادرة على التكيُّف مع البيئة الاجتماعية التي تعيش فيها(٤).

• **والتربية بالمفهوم الشرعي**: هي إصلاح النفس الإنسانية، وتنمية جوانبها الروحية والعقلية والجسمية، وإحكام بنائها إلى حد الكمال.

وذلك هو المنقول عن السلف؛ قال مجاهد: الرّبّانيون هم الذين

---

(١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ص١٨٤).

(٢) **انظر**: لسان العرب لابن منظور، مادة: (ر ي ب) (١/٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٥).

(٣) **انظر**: أسس التربية الإسلامية في السُّنَّة النبوية، د. عبد الحميد الزنتاني (ص٢٣).

(٤) **انظر**: المرجع السابق (ص٢٥).

يربُّون الناسَ بصغار العلم قبل كباره، فهم أهل الأمر والنهي.

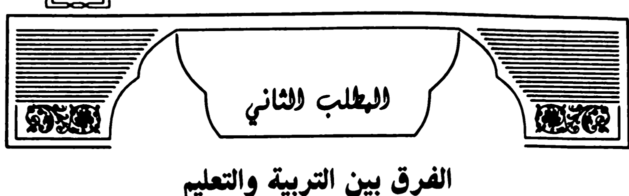
ونُقل عن علي رضي الله عنه أنه قال: «هم الذين يُغَذُّون الناس بالحكمة ويُرَبُّونَهم عليها»(١).

ولفظة «ربَّانيون»: «عربية منسوبة إلى رُبَّان السفينة الذي يُنْزِلُها ويقوم لمصلحتها. ولكن العرب في جاهليتهم لم يكن لهم رَبَّانيُّون؛ لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة مِنَ الله عز وجل»(٢).

وهدف التربية في الإسلام هو تكوين «المؤمن المتكامل الشخصية، ذي النظرة الإيجابية للحياة، الذي قَوِيَت هِمَّتُه، واشتدت عزيمته؛ فلا يلحقه غرور، ولا يحطمه فشل؛ إن وَجَدَ يُسرًا شكر الله تعالى وواصل طريقه، وإن وجد عُسرًا استعان بالله تعالى، وصبر على المكاره، واستمرت محاولته في تَخَطِّي الصعاب والعراقيل التي تعترضه حتى يوفقَه الله تعالى إلى بلوغ آماله»(٣).



(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٦٢)، وانظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (١/ ٤١٣).
(٢) الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٦٣).
(٣) أسس التربية الإسلامية (ص٢٩، ٣٠).



الفرق بين التربية والتعليم

هناك فرق واضح بين عملية التربية من جهة والتعليم من جهة أخرى، فالتعليم يمثل جزءًا من التربية، والتربية تشمل التعليم، والعكس غير صحيح.

فالتربية الإسلامية هي عملية تهدف إلى تنمية متكاملة ومتَّزنة في الوقت نفسه لجميع قوى الإنسان بالوسائل والأساليب المشروعة، حتى يكون الإنسان عضوًا صالحًا في مجتمعه؛ وهي تشمل جميع جوانب الإنسان الروحية والعقلية والجسمية(١).

فالإسلام يسعى لإيجاد الإنسان الصالح لكي يُصلح حاله على الأرض، ويُنَظِّم حياته فيها وَفْقَ منهج محدد رسَمَه له، فيتحرك به على الأرض، وهو في الوقت نفسه متَّجه بروحه إلى الله تعالى(٢).

أما عملية التعليم؛ فهي جزء من عملية التربية الكاملة، تسعى إلى تنمية العقل وصقْله، وتمكينه من اكتساب بعض المعارف والمهارات التي تلزمه في حياته، وتمكينه كذلك من إتقان فنٍّ ما أو حِرفةٍ من الحرف(٣).

فعملية التربية أكثر وأوسع في الشمول والتكامل من عملية التعليم؛ ولأن هدف التربية تنمية جميع جوانب الإنسان وصقلها.

---

(١) انظر: أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، (ص٢٥، ٢٦).
(٢) انظر: منهج التربية الإسلامية للأستاذ محمد قطب، (ص٢٥، ٢٦).
(٣) انظر: أسس التربية الإسلامية (ص٢٦).

يقول رسول الله ﷺ: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً، وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)[1].

وذكر ابن حجر ما قاله القرطبي وغيره فقال:

«ضرب النبيُّ ﷺ لِمَا جاء به مِنَ الدين مثلًا بالغيث العام الذي يأتي الناسَ في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه ﷺ؛ فكما أن الغيث يُحيي البلد الميت فكذا علومُ الدين تُحيي القلبَ الميت. ثم شَبَّه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث: فمنهم العالم العامل المعلِّم، فهو بمنزلة الأرض الطيبة، شربت فانتفعت في نفسها، وأنبتت فنفعت غيرَها. ومنهم الجامع للعلم، المستغرق لزمانه فيه، غير أنه لم يعمل بنوافله، أو لم يتفقَّه فيما جمع، لكنه أدَّاه إلى غيره، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء، فينتفع الناس به، وهو المشارُ إليه بقوله ﷺ: (نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا)[2]. ومنهم مَنْ يسمعُ العلمَ، فلا يحفظه، ولا يعمل به، ولا ينقلُه لغيره، فهو بمنزلة الأرض السَّبْخة، أو

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب فضل من عَلِمَ وعلَّم (١/ ٣٢، ٣٣)، رقم الحديث (٧٩)؛ ورواه مسلم في كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بُعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم (٤/ ١٧٨٧)، رقم الحديث (٢٢٨٢).

(٢) رواه الترمذي في كتاب العلم (٥/ ٣٣)، وقال: «حديث حسن»، ورواه أبو داود في كتاب العلم (٣/ ٣٢٢)، وابن ماجه في المقدمة (١/ ٨٤)؛ كلهم من حديث زيد بن ثابت. ورواه الترمذي من حديث ابن مسعود (٥/ ٣٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة (١/ ٨٥)، ورواه ابن ماجه من حديث جبير بن مطعم في المقدمة (١/ ٨٥).

الملساء التي لا تقبلُ الماءَ، أو تفسده على غيرها. وإنما جمع في المثل بين الطائفتين الأوليَيْن المحمودتين؛ لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأفرد الطائفةَ الثالثة المذمومةَ؛ لعدم النفع بها»[١].

فجمع رسول الله ﷺ في هذا الحديث بين عملية التربية وعملية التعليم، وجعل ﷺ أعلى الطوائف العالِمَ العاملَ المعلِّمَ لغيره، ثم يليه في المرتبة العالمُ غير العامل الذي يُبلِّغُ ما سمع مِنَ الخير بلا تحريفٍ للكَلِم ولا إفسادٍ للمعنى.

فامتدح ﷺ هاتين الطائفتين مِنَ الناس؛ لاشتمالهما على عملية التربية والتعليم، وذمَّ الطائفة الثالثة التي لم يتحقَّق فيها شيءٌ مِنْ ذلك.

فإذا انفصلت عملية التعليم عن العملية التربوية، فإنها تصبح مجردَ تكديس وحَشْو للمعلومات فقط، وعندئذٍ لا تنفع هذه المعلومات في تشكيل الشخصية الإنسانية السويَّة المتكاملة.

«فالحاجة الماسَّة تظهر دائمًا «للمربي الكامل» الذي يمكنه القيامُ بعمليتي التربية والتعليم معًا؛ فيساعد على تكوين الشخصية السوية المتكاملة، لا المعلم الذي يقتصر دورُه على تلقين الدروس والمعارف»[٢].

ولذا؛ فإن مِنَ الواجب على المؤسسات التعليمية ـ وخاصة التي تعنى وتهتم بتعليم الكتاب والسُّنَّة، وما يتعلق بهما من أحكام فقهية إلى غير ذلك ـ أن تهتم بالجانب التربوي إضافة إلى الجانب التعليمي النظري، فتكون بذلك قد ربطت الجانب النظريَّ البحت بالجانب التطبيقي والعملي لهذا العلم الذي عن طريقه يُعبد الله تعالى.

ورَغَّب النبيُّ ﷺ أصحابَه في طلب العلم، وبيَّن لهم فضلَ التفقُّه في الدين على سائر العلوم، بطريقة مشوِّقة للنفوس، محبَّبة إلى القلوب.

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١/ ١٧٧).
(٢) أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية (ص٢٦).

عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**)[١].

وهذا الحديث مشتمل على ثلاث جمل[٢]:

الأولى: فضل التفقُّه في الدين، كما هو واضح في قوله ﷺ: (**مَنْ يُرِد اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**).

الثانية: أن المعطي في الحقيقة هو الله تعالى، وهو المراد بقوله ﷺ: (**وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي**).

الثالثة: أن بعض هذه الأمة يبقى على الحقّ أبدًا. وهو المراد في قوله ﷺ: (**وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**).

وذكر الحافظ ابن حجر أن الجملة الأولى لائقةٌ بأبواب العلم، والثانية لائقةٌ بقسم الصدقات؛ ولهذا أوردها مسلمٌ في كتاب الزكاة، والبخاري في باب الخُمس، والثالثة لائقةٌ بذكر أشراط الساعة، وقد أوردها البخاري في كتاب الاعتصام؛ لالتفاته إلى مسألة عدم خلو الزمان عن مجتهد، ثم قال رحمه الله تعالى: «وقد تتعلَّق هذه الجملُ الثلاث جميعُها بأبواب العلم؛ من جهة إثبات الخير لمن تفقَّه في دين الله، وأن ذلك لا يكون بالاكتساب فقط، بل لمن يفتح الله عليه به، وأن مَنْ يفتح الله عليه بذلك لا يزال جنسُه موجودًا حتى يأتيَ أمرُ الله تعالى»[٣].

«ومفهوم الحديث أنَّ من لم يتفقَّه في الدين ـ أي: يتعلم قواعد الإسلام، وما يتصل بها من الفروع ـ فقد حُرِمَ الخير.. لأن من لم يعرف

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين (١/ ٣٠)، رقم الحديث (٧١).
(٢) انظر: فتح الباري (١/ ١٦٤).
(٣) انظر: فتح الباري (١/ ١٦٤).

أمور دينه لا يكون فقيهًا ولا طالبَ فقهٍ؛ فيصح أن يُوصَفَ بأنه ما أريد به الخيرُ، وفي ذلك بيانٌ ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقُّه في الدين على سائر العلوم»[١].

وفي هذا تربية للصحابة رضوان الله عليهم على الاجتهاد في طلب العلم والتفقُّه في دين الله تعالى، والتَّعَلُّق به، وطلب العون والفتح عليهم منه ﷻ؛ لأنه هو المعطي، وأنه لا مانعَ لِمَا أعطى، ولا معطِيَ لِمَا منع، ولا رادَّ لِمَا قضى ﷻ.

وعلى الدُّعاة إلى الله تعالى أن يسلكوا طريقةَ الرسول ﷺ في تربيته لأصحابه وربط قلوبهم بالله تعالى، فيربُّوا أتباعَهم على التفقُّه في الدين، ويربطوا هذه القلوب المقبلة على الهداية بالله رب العالمين، فلا ترجو إلا الله تعالى، ولا تخاف إلا منه سبحانه، ولا تطلب الخيرَ والمَعونة إلا منه، وأنْ تتعلق به تعلُّقَ المحتاج الملهوف الذي انقطعت عنه جميعُ الأسباب.

ومِنْ خلال هذه الدراسة المتواضعة يتبين لي أن الرسول ﷺ ربَّى أصحابَه على طلب العلم والتفقُّه في الدين، لا لذات العلم والتفقُّه فقط، ولا أن هذا غايةٌ في حد ذاته، وإنما ربى أصحابَه وعلَّمهم على أن العلمَ والتفقُّه في الدين وسيلةٌ إلى غاية عظيمة؛ وهي عبادة الله وحده لا شريك له، على علم وبصيرة؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فالغاية مِنْ تعلُّم العلم - بل من خلق الإنسان على هذه الأرض - هي العبوديةُ الخالصة لله تعالى، والتي تشمَلُ إقامةَ منهج الله تعالى في الأرض وتحكيم شريعته؛ كما دلَّت عليه الآيةُ السابقة؛ إذ إن العبادةَ ليست مقتصرة على الشعائر التعبدية؛ مِنْ صلاة وصدقة وصيام وذبح لله تعالى، وإنما تشمل كذلك جميع جوانبَ الحياة والممات بتحكيم المنهج الربَّاني المتمثّل في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

(١) فتح الباري (١/ ١٦٤).

يقول ابن القيم: «إن العبد لو عرف كلَّ شيء، ولم يعرف ربَّه، فكأنه لم يعرف شيئًا»[١].

وقد ذمَّ رسولُ الله ﷺ الذي يطلب العلم لغير العمل به؛ كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا؛ لَمْ يَجِدْ عَرْفَ[٢] الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ)[٣].

هكذا فهِمَ الصحابةُ رضي الله عنهم مِنْ نبيهم ﷺ تعلُّمَ العلم والتفقُّه في الدين فَهْمًا يتَّسم بالشمول، ويقترن بمصلحة الأمة وحاجاتها؛ فلم يأخذوا العلم لكي يتزيَّنوا ويتجمَّلوا به، ولا لكي يترَقَّوْا به في المناصبِ الزائلة في الدنيا؛ وإنما تعلَّموا وتفقهوا ليعملوا به، ويعبدوا الله وحدَه لا شريك له، ويبيِّنوه للناس.

«إن هذا القرآن هو الذي أنشأ خيرَ أمة أُخرجت للناس، فهو منهج التربية الذي تربى عليه الرسولُ ﷺ وربَّى عليه أمتَه مِنْ بعدُ... إن هذا الدين ليس شعاراتٍ، وليس مُثُلًا مُعلَّقَة في الفضاء، وليس قِيَمًا فكرية تَتَملَّى بالذهن؛ ولكنه واقع يعاش، وهذا هو التَّوَجُّه «التربوي» الأكبر في القرآن: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العنكبوت: ٧]، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. ما مِنْ موضع في القرآن يخلو مِنْ هذا التوجيه، إن الإسلام ليس مشاعرَ إيمانيةً فحسب، فضلًا عن أن يكون كلمةً تُقال باللسان، ولكنه عملٌ كذلك بمقتضى الإيمان. وإذا كان الإسلامُ

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية (١/ ٦٨)، تحقيق محمد حامد الفقي.
(٢) عَرْف الجنة؛ أي: ريحها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢١٧).
(٣) رواه الحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح، ورواته ثقات على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي. وقال الحاكم أيضًا: وقد روي هذا الحديث بإسنادين صحيحين عن جابر بن عبد الله وكعب بن مالك رضي الله عنهما (١/ ٨٥).
ورواه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٣٨).

كذلك، فقد تولَّى القرآنُ مهمةَ تربية الأمة الإسلامية لتكون مسلمة بالفعل؛ أي: تمارس إسلامَها في عالم الواقع»[1].

وهكذا كان رسولُ الله ﷺ، جامعًا بين العمليتين التعليمية والتربوية في تعليمه وتربيته أصحابَه رضوان الله عليهم.



(١) دراسات قرآنية للأستاذ محمد قطب (ص٤٩١، ٤٩٢).



الباب الأول

شمولية منهجه ﷺ في تربيته لأصحابه

* ويشتمل على توطئة:

في المقصود من الشمول والمنهج.

وعلى خمسة فصول:

○ الفصل الأول: منهجه ﷺ في تربية أصحابه على العقيدة وتزكية نفوسهم.

○ الفصل الثاني: منهجه ﷺ في تربية أصحابه على العلم والعمل معًا.

○ الفصل الثالث: منهجه ﷺ في تربية أصحابه على تعليم العلم ونشر الدعوة.

○ الفصل الرابع: منهجه ﷺ في تربية أصحابه على حفظ الجسم وتربية العقل.

○ الفصل الخامس: منهجه ﷺ في تربية أصحابه على الحكمة في معالجة الأمور واتخاذ المواقف.

توطئة
في المقصود من الشمول والمنهج

أولًا: في معنى الشمول:

تقول العرب: «شَمِلَهُمُ الأَمْرُ يَشْمَلُهُمْ: إذا عَمَّهُمْ، ومنه قولهم: الشَّمْلَةُ، وهي كِسَاء يُشْتَمَلُ به، ويقال: اشتريت شملةً تَشْمَلُنِي»(١)، وتقول العرب أيضًا: «هذه شملة تشمَلُك؛ أي: تسَعُك»(٢).

فالشمول في لغة العرب: هو العموم والسعة.

«فإذا عمَّ الشيءُ ووسع قومًا أو فردًا أو أشياء، قالت العرب: شمِلهم، وشمِله، وشمِلها»(٣).

ثانيًا: في معنى المنهج:

إن جميع تصاريف كلمة (منهج) تدلُّ على أن معناها: الطريقُ الواضح البيّن للغاية المقصودة أو المرادة.

فـ (المَنْهَجُ): الطريق الواضح؛ كالمِنْهَجِ، والمِنْهَاج.

و(نَهَجَ)؛ كمَنَعَ، وَوَضَحَ، وأَوْضَحَ، والطريق سَلَكَهُ، واسْتَنْهَجَ الطريقُ صار نهجًا. وفلان يَسْتَنْهِجُ سَبِيْلَ فلان؛ أي: يَسْلُكُ مَسْلَكَه(٤).

وطريقٌ نَهْجٌ: بَيِّنٌ واضحٌ.

---

(١) الصحاح للجوهري، مادة: (ش م ل) (١٧٣٨/٥، ١٧٣٩).

(٢) لسان العرب، مادة: (ش م ل) (٣٦٨/١١).

(٣) الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية (ص١٣٠).

(٤) القاموس المحيط للفيروزآبادي، ١/ باب الجيم، فصل النون.

ومَنْهَجُ الطريق: وضَحُه.

وفي التنزيل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وأَنْهَجَ الطريقُ: وَضَحَ واسْتَبَانَ، وصار نَهْجًا واضِحًا بيِّنًا.

والمِنْهَاجُ: الطريقُ الواضِحُ، واستَنْهَجَ الطريقُ: صار نهْجًا، ونَهَجَ الأمْرُ وأنْهَجَ لُغَتَان، إذا وَضَحَ[1].

فمِنْ هذا يتبيَّنُ أن كل تصاريف كلمة (مَنْهَج) تدور حول معنًى واحد، وهو الطريق الواضح المُسْتَبَان.

ثالثًا: المقصود من شمول المنهج:

المقصود من شمول المنهج هو أن منهجه ﷺ وطريقته البينة الواضحة في تربية أصحابه عامٌّ واسعٌ، يشمل جوانب الكائن البشري جميعها بطريق واضح بيِّنٍ للغاية المقصودة والمرادة؛ فتربيته ﷺ تشمل كل ما يحتاجون إليه على الإطلاق؛ سواء في تربية أنفسهم وتزكيتها؛ أو تربية عقولهم، أو أجسامهم.

وهذا هو المنهج الذي اتَّبعه ﷺ في تربيته لأصحابه حتى جعل منهم ـ بإذن الله تعالى وتوفيقه وتأييده له عليه الصلاة والسلام ـ خير أمة أُخرجت للناس، بما اتَّصفوا به مِنْ صدق الإيمان بالله ورسوله، وجِدِّيَّة التلقِّي من الكتاب والسُّنَّة، وصدق الجهاد في سبيل الله تعالى، والعزيمة الصادقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى وصفهم الله تعالى بهذه الآية الكريمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إن الكيان الإنساني يتكوَّن مِنْ روح، وعقل، وجسم: ولا يمكن فصل أحدها عن الآخر؛ فالكائن البشري ليس نفسًا مستقلةً بذاتها لا ترتبط بالعقل والجسم، وليس عقلًا مستقلًا بذاته عن النفس والجسم، كما أنه ليس جسمًا

---

(١) لسان العرب، مادة: (ن هـ ج) (٢/ ٣٨٣).

مستقلًا بذاته لا علاقة له بالنفس والعقل، وإنما الإنسانُ كيانٌ مترابط الأجزاء لا يمكن فصل جزءٍ مِنْ أجزائه عن الآخر.

فلا يملك أحدٌ أن يتناول أيَّ نشاطٍ جسمانيٍّ للإنسان لا يدخل في نطاق العقل والنفس، أو نشاطٍ عقليٍّ لا يدخل في نطاق النفس والجسم، أو نشاط نفسي لا يدخل في نطاق العقل والجسم؛ لأن الكيان الإنساني لا يمكن لأعضائه الرئيسة فيه أن تؤديَ وظيفتَها منفصلةً بعضها عن بعض، وإنما لا بد من ترابطها وامتزاجها في آنٍ واحد، وإن غلب أحدُها في بعض الأوقات على بقية الأجزاء، إلا أنه لا ينفصلُ، ولا يستقل عنها[1].

والرسول ﷺ ينظر إلى الكائن البشري نظرةً كاملة جامعة، تحوي نفسَه وعقله وجسمه، وعلى ضوْء هذه الطبيعة في الإنسان التي تجمع بين قبضة الطين ونفخة اللهِ مِنْ روحه، أَسَّس المربي العظيم ﷺ منهجَه التربويَّ الذي يرتفع بالإنسان إلى مدارج الرُّقِيِّ النفسي والعقلي والجسمي، ويجعله مؤهلًا لأنْ يحملَ أمانةَ الله في الأرض، فيعيش بها ولها.

وما ذلك إلا لأن الإسلام دينُ الفطرة؛ كما قال الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فهو بهذا يفترق عن بقية المناهج الأرضية التي تهتم بجانب واحدٍ مِنْ جوانب الكيان البشري، وتُغفل بقية الجوانب.

* فمنها ما يهتم بالجانب المحسوس فقط، من الإنسان والحياة؛ فكل ما أدركه الإنسان بحواسِّه فهو حقيقة، وما لا يدركه فلا حقيقةَ له عندها، وهو ساقطٌ من الحساب؛ ولذا فإنه لا يستحق الاهتمام؛ فأخذت هذه النظمُ تهتم بكل محسوس على الأرض، فاهتمت بالزراعة والصناعة والبناء والتشييد والإنتاج المادي، وبذلت كل اهتمامها لذلك، وصار همُّها تيسيرَ

(١) انظر: منهج التربية الإسلامية (١/ ٢١).

الأمور المحسوسة للإنسان - مِنْ مأكلٍ، ومشرب، وملبس، ومسكن، وشهوات - على حساب جانب مهم في الكيان البشري، بل هو مِنْ أهم الجوانب الرئيسة فيه؛ وهو جانب تزكية النفس ورقي الروح.

«وكانت النتيجةُ أنِ استمتعَ الناسُ بحياتهم الأرضية أعظمَ متاع، واستفادوا بالتنظيمات من كل نوع: التنظيمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمادية... ثم انهار المتاع كلُّه نتيجةَ خُواء الروح من الإيمان، وخُواء الحياة من العقيدة، وانقلب المتاعُ السهل الحلو إلى تكالُبٍ على شهوات الأرض يقضُّ المضجع، ويكدِّرُ الحياةَ، ويجعلُها سباقًا دائمًا لا ينقطع، ولا يترك فرصة للراحة: راحة الجسد، أو النفس، أو الضمير، وتزايد الصراع، فما عاد صراعًا في باطن النفس، ولا صراعَ فردٍ مع أفراد، أو صراعَ جماعةٍ مع جماعة، وإنما أصبح صراعَ نفوس وأفراد وجماعات ودول وجيوش وطائرات وصواريخَ ودمارٍ رهيب يهدد وجه الأرض»(١).

وهذا هو الواقع في دول الغرب الكافرة بالله ورسوله، وبالقيم الإسلامية، فأسست مناهجَها على أساس إيمانها بالمحسوس وكفرها بما وراء ذلك، فناقضت الفطرةَ التي فطر اللهُ الناسَ عليها، فوقع الاضطراب والقلق والحَيْرة والانتحار في بعض أبنائها؛ بسبب ابتعادها عن الله تعالى، وإغفالِ تزكية النفس من حسابها، فضَلَّت وأضلَّت، وحقَّت فيها سُنَّة الله الجارية التي قرَّرها بقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

* ومنها ما يهتم بالجانب النفسي من الإنسان، ويغفل ما عداه من العقل والجسم، فيُسقطه من حسابه كأنه غيرُ موجود في الحقيقة.

«وراحت تغذِّي الروحَ بما ترى أنه غذاؤها الحقُّ، راحت تتعبَّد

---

(١) منهج التربية الإسلامية (١/ ١٩).

وتتنسَّك، وترفع الإنسان على ضرورات جسده كلِّها، وتقهر هذا الجسد؛ لأنه دنِسٌ لا تنبغي إطاعتهُ، ورِجْسٌ لا ينبغي له أن يكون.

واستمتع الناس بحياة الروح؛ سبحوا في ملكوتها الطليق من أوهاق الضرورة، النظيفِ مِنْ أدران الشهوات، وحلَّقوا في آفاقٍ عليا من الأفكار والمشاعر جميلة كالأحلام، ثم تمرَّد الجسد المكبوت على خلق الفطرة، وكفَرَ الناس بمتاع الروح، أو أصابتهم السلبية الخاملة التي لا تُنتج شيئًا في واقع الأرض، لا تُنشئ ولا تَعمُر، ولا تهدم ولا تبني، ولا تغيِّر الباطل، ولا تقيم الصحيح من الأوضاع»[١].

وهذا يمثِّل المنهج التربوي عند الصوفية ومَنْ لفَّ لفَّها، واحتذى طريقَها، وهي بهذا تناقض فطرة الله تعالى التي فطَرَ عليها الخلقَ؛ لأنها اهتمت بجانب واحد من جوانب الكيان البشري، وأغفلت بقيةَ الجوانب، فجانبت التوازن، ووقعت في الاضطراب والتفكُّك، فأصبحت حياتُها سلبيةً قاتلةً.

فكِلا المنهجين انحرافٌ عن الصراط المستقيم، ينحرف بالإنسان الذي كرَّمه الله تعالى عن مهمته التي خلقه مِنْ أجلها؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والإسلام وحده هو الذي يجمع بين هذه وتلك في آن واحد؛ فهو يؤمن من الكائن الإنساني بما تدركه حواسُّه وما لا تدركه، فيعطي هذا الكيانَ المحسوسَ ما يطلب حسب ما فيه مِنْ طاقات في حدود ما يصلح له ولا يضرُّ به في اتزان تام وتكامل؛ فيلبِّي حاجاته ومطالبه، فيوفر له مأكلَه وملبسه ومسكنه وشهوته الجنسية، ثم يوجه طاقاتِه لتعملَ في تعمير الأرض، وإنشاء النُّظُم، وتشييد الحضارات[٢]، وَفق المنهج الذي رسمه وقرره في الكتاب والسُّنَّة.

---

(١) منهج التربية الإسلامية (١/ ٢٠).

(٢) انظر: منهج التربية الإسلامية (١/ ٢٠).

وفي الوقت نفسه يؤمن بالكيان النفسي والروحي في الإنسان، فيعطيه ما يطلبه من عقيدة وقيم وصعود وترفُّع، ثم يوجه طاقاته في إصلاح كيان النفس وتزكيتها، والسعي لإصلاح المنكرات في المجتمع، وبذل الوسع والجهد في إقامة الحق والعدل في أرض الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

«فالإسلام وحده هو الذي يصل الإنسان بالله ليصلِحَ حالَه على الأرض وينظِّم حياته، فيسير بجسمه على الأرض، وهو متجه بروحه إلى السماء»[١].

ومن خلال هذا الفهم الشامل والواسع لمنهج التربية النبوية الفريد في شموله ووضوحه واتزانه، استطاع المربي العظيم ـ عليه أفضلُ الصلاة وأتم التسليم ـ أن يربي أولئك الرجال من الصحابة رضوان الله عليهم من خلال الأهداف التربوية الكبرى الروحية منها والعقلية والجسمية، حتى اكتمل بناؤهم، وصُقِلت نفوسُهم، وتعمَّقت معالمُ الإيمان واليقين في كيانهم، حتى تحقَّق وصفُ الله فيهم بقوله سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

❁ ❁ ❁

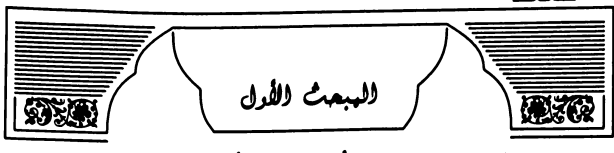
(١) منهج التربية الإسلامية (١/ ١٧).

الفصل الأول

منهجه ﷺ في تربية أصحابه على العقيدة وتزكية نفوسهم

* ويشمل أربعة مباحث:

- المبحث الأول: البدء بالاعتقاد وأهميته والأدلة على ذلك.
- المبحث الثاني: تأسيس الاعتقاد في نفوس الصحابة رضي الله عنهم.
- المبحث الثالث: منهجه ﷺ في تزكيته للنفس.
- المبحث الرابع: حماية الاعتقاد الصحيح.



المبحث الأول

البدء بالاعتقاد وأهميته والأدلة على ذلك

من المعلوم أن الله ﷻ أنزل كتبة كلَّها، وأرسل رسله كلَّهم - ومنهم نبينا محمد ﷺ - ليبيِّنوا للناس الاعتقادَ الصحيح؛ لأن ذلك هو القاعدةُ الكبرى التي يقوم عليها ما سواها مِنْ أوامر الله تعالى ونواهيه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال ﷻ: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وهذا دليل على أن جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم افتتحوا دعوتهم مع أقوامهم بهذا الأصل العظيم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦١].

فالعابد لله وحده هو الذي يطيع أمرَه وأمرَ رسله، ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين، ويعادي أعداءه الكافرين.

فما من رسول إلا وابتدأ دعوتَه مع قومه بهذا الأصل العظيم، وواجههم به، ودعاهم إلى الخضوع والدَّينُونة لله وحده، والإقلاع عما كانوا عليه من الخضوع والدينونة لغيره سبحانه، وأمرهم بإخلاص ذلك له وحده لا شريك له، وأوجب الله عليهم الجهاد لتحقيق ذلك الأصل وتقريره في النفوس؛ لأنه من أجله «نُصبت الموازينُ، ووُضعت الدواوينُ، وقام سوق الجنة والنار، وبه انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار

والفجار، وأُسِّست المِلَّة، ولأجله جُرِّدت السيوف للجهاد، وهو حق الله على جميع العباد»[١].

ولذلك بيَّن الله تعالى هذا الأصل العظيم في السور المكية؛ كسورة الأنعام، والأعراف، وآل «طسم»، وآل «حم»، وآل «المر»، وسُوَر المفصل، وغير ذلك. وفي مواضعَ كثيرةٍ مِنَ السور المدنية، فهو أصل الأصول وقاعدة الدين[٢]؛ لأنه لا صلاحَ للبشرية إلا بالاعتقاد الصحيح الذي هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به.

ولكن الله تعالى ـ بحكمته وتفضُّله على عباده ـ اكتفى منهم بالاعتقاد المجمل الذي يندرج تحته التفصيل، وهو «تصديق خبر الرسول ﷺ جملة وعلى الغيب، والتزام شرائعه جملة وعلى الغيب»[٣].

«فقَبِل منهم في مبدأ الأمر أن يُقِرُّوا بألسنتهم وقلوبهم بأن الله سبحانه هو ربُّهم ومعبودهم بحقٍّ، دون سواه، وأن محمدًا ﷺ هو رسولُ الله، وأن جميع ما جاء به من عند ربه حقٌّ وصدق، وواجب العمل به، وجعل لذلك عنوانًا هو الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»؛ فمَنْ قالها بلسانه، وصدَّق بها بجَنانه، ولم يقرِنْها بما ينقضها من القول أو العمل أو الاعتقاد ـ دخل في دين الله، وفارق الكفر الذي كان عليه»[٤].

وقد ترِدُ شبهةُ أن أركان الإيمان ـ كما وردت بها الأحاديث الصحيحة ـ تزيد على الإيمان بالله، والإيمان برسوله، وأن شرائع الإسلام المطلوبة من المكلَّف أكثرُ مِنْ ذلك، فكيف يُكتفى بالشهادتين لدخول المكلَّف في الإيمان؟

---

(١) الفوائد لابن قيم الجوزية (ص١٤٣) بتصرف يسير، تحقيق جابر يوسف.

(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/٥٣)، دراسات قرآنية للأستاذ محمد قطب (ص٢١).

(٣) حد الإسلام وحقيقة الإيمان للشيخ عبد المجيد الشاذلي (ص١٠).

(٤) كتاب الإيمان، د. محمد نعيم ياسين (ص١٦٢).

«والجواب على ذلك: أن الإيمانَ نوعان: إيمانٌ مجمَل، وإيمانٌ مفصَّل، فالأول: هو الإيمان بالله وبكل ما جاء به رسول الله ﷺ من غير تعرُّض لتفصيل ما جاء به، فعندما يشهد العبد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول ﷺ، يكون قد صَدَّق بكلِّ ما جاء به الرسول وما أخبر به من أركان الإيمان وأركان الإسلام، وإن لم يعرِفْها بالتفصيل، فإنَّ مقتضى ما صدر منه مِنَ الشهادتين: أنه إذا بلغه شيء مما جاء به الرسول ﷺ آمَنَ به وصدَّق.

لكن الذي بلغه التفصيل بالفعل، فآمن به وعمل به، يكون أقوى إيمانًا، وأعظم فضلًا عند الله تعالى.

وأما مَنْ آمن إيمانًا مجملًا، ثم بلغه شيءٌ مما جاء به الرسول ﷺ، فلم يؤمن به، كان ناقضًا لِمَا صدَرَ منه مِنَ الشهادتين، وكان مرتدًا بذلك»[1].

عن محمد بن عبد الملك المصِّيصي، قال: كنا عند سفيان بن عُيينةَ في سنة سبعين ومئة، فسأله رجل عن الإيمان؟

فقال: قول وعمل.

قال: يزيد وينقص؟

قال: يزيد ما شاء الله وينقص، حتى لا يبقى منه مثلُ هذه. وأشار سفيان بيده.

قال الرجل: كيف نصنع بقوم عندنا يزعُمون أن الإيمانَ قول بلا عمل؟

قال سفيان: كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده[2].

إن الله ﷻ بعث نبينا محمدًا ﷺ إلى الناس كافةً أن يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابُهم على الله ﷻ، فلمَّا علم الله ﷻ صِدْقَ ذلك من

(١) كتاب الإيمان، (ص١٦٢، ١٦٣).
(٢) سيأتي الكلام عن أقوال أهل العلم في هذه القضية.

قلوبهم، أمره أن يأمرَهم بالصلاة، فأمرهم ففعلوا؛ فوالله لو لم يفعلوا، ما نفعهمُ الإقرارُ الأول.

فلما علم الله جل وعلا صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرَهم بالهجرة إلى المدينة، فأمرهم ففعلوا؛ فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرارُ الأول ولا صلاتهم.

فلمَّا علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم، أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم حتى يقولوا كقولهم، ويصلُّوا صلاتَهم، ويهاجروا هجرتَهم، فأمرهم ففعلوا، حتى أتى أحدُهم برأس أبيه، فقال: يا رسول الله، هذا رأس شيخ الكافرين؛ فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول، ولا صلاتهم، ولا هجرتُهم، ولا قتلُهم آباءهم، ولا طوافهم.

فلما علم الله تبارك وتعالى الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحُدودِه؛ قال ﷻ لهم: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

قال سفيان: فمن ترك خلَّةً من خِلال الإيمان كان بها عندنا كافرًا، ومَنْ تركها كسلًا أو تهاونًا بها، أدَّبناه وكان عندنا ناقصًا، هكذا السنةُ أبْلِغْها عني مَنْ سألك مِنَ الناس(١).

ولقد بدأ رسول الله ﷺ تربيته لأصحابه ـ بل للناس عامة، أفرادًا وجماعاتٍ ـ بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا.

فبدأ بتصحيح الاعتقاد قبل أيِّ شيء آخرَ؛ وما ذلك إلا لأنه أساسُ التربية وجوهرُها، ليتحقَّقَ به تطهيرُ النفوس من شوائب الشرك، والأخلاق السيئة، وتقويةُ الإيمان الذي يحمل المنهج الرباني وتكاليفه.

وهذا الاعتقاد ـ الذي هو التوحيد ـ قد فطر الله تعالى عليه الناس، ثم جاءت الشياطين، فحوَّلتهم عن هذه الفطرة إلى الشرك والضلال؛ قال الله

(١) كتاب الشريعة لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري (ص١٠٤).

تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ؛ كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟!**)[(١)].

وعن عياضِ بنِ حِمَارِ المُجاشعي ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: (**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي، وَأَنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ[(٢)] عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**)[(٣)].

وقد وضَّح بعض العلماء تلك الحالة التي كانت عليها البشريةُ أيامَ بَعثة النبي ﷺ وقد حوَّلتهم الشياطين عن الحنيفية السَّمحة، وجرفتهم إلى الشرك والضلال، وكيف عالج النبيُّ ﷺ تلك النفوس، وكيف صحَّح تلك الأوضاع الفاسدة؛ فقال رحمه الله تعالى:

«ولقد بُعِثَ رسول الله ﷺ والجزيرة العربية نَهْبٌ مُقَسَّم بين الرومان في الشمال، والفُرس في الجنوب، يضعون أيديهم على أخصب بقاع الجزيرة

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلَّى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (٢/ ١١٩)، رقم الحديث (١٣٥٨).

(٢) قال في لسان العرب: «واجتالهم الشيطان: حوَّلهم عن القصد. وفي الحديث: (**إن الله تعالى يقول: إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالهم الشيطان**)؛ أي: استخفَّهم فجالوا معه». اللسان (١١/ ١٣١).

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/ ٢١٩٧)، رقم الحديث (٢٨٦٥).

وعلى سواحل البحار، وعلى موارد الأرزاق والأنجار، وبُعِثَ ﷺ والأوضاع الاجتماعيةُ والاقتصادية السائدة تمثل عهد الرِّقْ بمعظم سماته المميزة.

وبُعِثَ ﷺ والأخلاقُ هي أخلاقُ الجاهلية في الخمر والزنى والقمار واللهو والشر والفساد.

فلم يبدأ - ولم يوجِّهْه ربُّه إلى البدء - بشيء من هذا كلِّه، وقد كان يملك أن يدعو العرب إلى وحدة قومية لطرد الرومان والفرس من أخصب بقاع الجزيرة، ويوجه طاقة القتال فيهم والثارات بينهم إلى أعدائهم القوميين، فيدينوا له بالزعامة، وينسَوْا ما بينهم من أحقاد.

وقد يرتفعون عن حياة اللهو الهابط شيئًا ما، وكذلك بعد أن يقودَهم من نصر إلى نصر يدعوهم إلى الإسلام، وإلى الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، ويعالج التفاوت الفاحش بين الطبقات.

وكان يملك منذ البدء أن يقدم للعرب نظامًا مفصَّلًا للمجتمع، وتشريعاتٍ محددةً في السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق، ثم يقول لهم: انظروا، هذا خيرٌ مما عندكم، فاتَّبعوني وتعالَوْا ننفِّذ هذا النظامَ وهذه التشريعات، فلا يكون اتِّباعهم له إقرارًا لله بالعبودية واعترافًا لله بالدينونة، إنما يكون ذلك استحسانًا لِمَا معه من النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي، ويكونون هم الحَكَمَ الذي يَستحسن أو يَستهجن، ويَقبل أو يَرفض ما يجيئهم من عند الله، وينقلب الوضع، فبدلًا من أن تكون دينونَتُهم لله هي دينونةَ الرضا والتسليم بعبوديتهم لألوهيته، يصبحون هم في موقف الحَكَم الذي يقبل أو يرفض حُكْمَ الله.

ولكن الله سبحانه كان يَعْلَم، وكان يُعَلِّمُ نَبِيَّهُ وِيُوَجِّهُهُ أنَّ هذا ليس هو الطريقَ، وأنَّ هذا ليس الأساسَ؛ إنَّما الأساس أن يَعرفَ الناسُ ربَّهم الحقَّ، ويدينوا له بالعبودية وحدَه، ويتحرَّروا مِنْ عبادة العباد، ويقبلوا كلَّ ما يجيئهم من عند الله؛ لأنه مِنْ عند الله، في استسلام كامل، هو الإسلام،

وفي رضا بما رضيه الله... ومِنْ ثَمَّ ناط الإيمان بألا يجدوا في أنفسهم حرجًا، وأن يسلِّموا تسليمًا.

وكان الله سبحانه يعلم، وكان يُعلِّمُ نَبِيَّهُ أنَّ ردَّ الاعتداء على سلطان الله الذي يَدَّعيه العبيدُ، والغَيرة على جلال الله الذي يتطاول عليه العبيد، يجب أن يتم قبل رَدِّ الاعتداء على أطراف الجزيرة، وقبل رَدِّ اعتداء بعض الناس على بعض في الجزيرة؛ لأنهم لن يَردُّوا الاعتداء عن أنفسهم أبدًا، وقد ارتضَوُا الاعتداءَ على جلال الله... وأنهم إن تحرَّروا مِنَ المعتدين الغرباء، فإنهم سَيُسْتَعْبَدُون للمعتدين منهم، كما يُسْتَعْبَدُون لهواهم وشهواتهم، وكلُّها عبودية، والعبودية كلُّها سواء، وأنهم ينبغي أن يتحرروا أولًا من عبادة العباد جملةً، وعندئذ ينطلقون في الأرض أحرارًا محرِّرين، يُخْرِجُون مَنْ شاء الله تعالى من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وهذا هو الذي كان، وهذا هو منهج الله الذي لا منهجَ لمسلم سواه».

ومِمَّا يدلُّ على أن رسول الله ﷺ ابتدأ دعوتَه مع الناس ـ أفرادًا وجماعات ـ بتصحيح الاعتقاد قبل أيِّ شيء آخر، وأنه قد يذكر بعض الأمور الإسلامية العملية تَبَعًا لها ومعها، ما يأتي:

* جاء في السيرة أن رسول الله ﷺ عرض الإسلام على أبي بكر رضي الله عنه، فقال له:

(يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَنَبِيُّهُ، بَعَثَنِي لِأُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ، وَأَدْعُوكَ إِلَى اللهِ بِالحَقِّ، فَوَاللهِ إِنَّهُ لَلْحَقُّ، أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تَعْبُدَ غَيْرَهُ، وَالمُوَالَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ أَهْلَ طَاعَتِهِ)، وقرأ عليه القرآن، فلم يفِرَّ ولم ينكر، فأسلم وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد، وأقرَّ بحق الإسلام، ورجع وهو مؤمنٌ مصدِّق، وأظهر إسلامه[1].

ففي هذا الخبر دلالةٌ واضحةٌ على أن رسول الله ﷺ عندما عرض

---

(١) السير والمغازي، محمد بن إسحاق المطلبي (٢/ ١٣٩)، السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٣٣)، السيرة الحلبية، علي برهان الدين (١/ ٤٤٤).

الإسلام على أبي بكر ﷺ، بدأ معه بالمفتاح الأول للتربية الإيمانية؛ ألا وهو تصحيحُ الاعتقاد قبل أيِّ شيء آخر، وركّز عليه، وأكّده بقوله: (فَوَاللهِ إِنَّهُ لَلْحَقُّ).

وفي هذا دلالة أيضًا على أهمية البدء بالاعتقاد الصحيح، وأن المربي عليه الصلاة والسلام بيَّنَ معالمه عند عَرْضِه أوَّل مرة بأنَّ ما يدعو إليه حقٌّ لا شك فيه، وأن حقيقة الاعتقاد تتمثَّلُ في عبادة الله وحده بلا شريك، واطِّراح عبادة ما سواه، وموالاة أهل طاعته، والبراءة من أهل الشرك والضلال، والإقرار بذلك، ثم المحافظة على حق الإسلام إيمانًا وتصديقًا؛ فأسلم أبو بكر الصديق ﷺ، واستجاب لدعوة النبي ﷺ وصَدَّق به، ولم يتردَّد في ذلك، فكفر بالأصنام، وخلع الأنداد، وأقرَّ بحقِّ الإسلام.

ولذلك قال عنه رسول الله ﷺ: (مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ عَنْهُ كَبْوَةٌ وَتَرَدُّدٌ وَنَظَرٌ، إِلَّا أَبَا بَكْرٍ؛ مَا تَرَدَّدَ فِيهِ)(١).

وقال أيضًا ﷺ عن أبي بكر: (إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ)(٢).

* ومما يؤكد أهميةَ البَدْءِ بالاعتقاد، وأن رسول الله ﷺ كان يبدأ دعوته به: جوابُ رسول الله لخالد بن سعيد بن العاص حينما سأله: إلامَ تدعو؟

فقال رسول الله ﷺ:

(أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَتَخْلَعُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ حَجَرٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يَدْرِي مَنْ عَبَدَهُ مِمَّنْ لَا يَعْبُدُهُ).

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة عن ابن إسحاق (٢/ ١٦٤)، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي: لو كنت متخذًا خليلًا (٤/ ٢٣٢)، رقم الحديث (٣٦٦١).

قال خالد: فإني أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسولُ الله. فَسُرَّ رسول الله ﷺ بإسلامه[١].

فهنا واضح أن النبي ﷺ حينما سأله خالدُ بن سعيد بن العاص عن الأمور التي يدعو إليها، أخبره ووجَّه إليه الدعوةَ مباشرةً، فدعاه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وشهادة أنه رسول الله، وأمره باطّراح ما يُناقضُ التوحيدَ الخالص، فأمره بخلع الأنداد، ونَبْذِ عبادةِ ما سوى الله تعالى مِنْ حجارةٍ أو غيرها؛ فإنَّ مِنْ صفات المعبود الحقيقيِّ أنه يسمع ويبصر، وأن بيده الضُّرَّ والنفع، وأنه يثيب مَنْ أطاعه، ويعاقب مَنْ عصاه، وأما هذه الأنداد التي تُعْبَدُ من دون الله تعالى، فإنها لا تسمع ولا تُبصر، ولا تضرُّ ولا تنفع نفسَها، فضلًا عن غيرها، ولا تدري من تَوَجَّه إليها بالعبادة فتثيبه، ولا مَنْ لم يعبدْها فتعاقبه؛ وصدق الله العظيم حيث قال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وبهذا أقام النبيُّ ﷺ الحُجَّةَ والدليل والبرهان على أن الله هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، فاقتنع خالد بن سعيد رضي الله عنه، فأسلم وأقرَّ بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما، وفرح رسول الله ﷺ وسُرَّ بإسلامه رضي الله عنه واستجابته لدعوة رسول الله ﷺ.

* ومما يؤكد أهمية البَدْء بالعقيدة كذلك، وأنَّها ضرورية في استصلاح البشر؛ لأنها هي المفتاح الأول للتربية، وأساس قبول الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وكما أخبر تعالى عن المشركين الذين لم يُقِرُّوا بهذا الأصل العظيم أنَّ جميع أعمالهم باطلةٌ مردودة عليهم؛ فقال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، مما يؤكد هذا: ما جاء

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٧٢ ـ ١٧٣)؛ والسيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٤٥).

عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وسؤاله النبيّ ﷺ لمّا رآه يصلي هو وزوجته خديجةُ رضي الله عنها، فقال: يا محمد، ما هذا؟

فقال ﷺ: (دِينُ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ؛ فَأَدْعُوكَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِلَى عِبَادَتِهِ، وَأَنْ تَكْفُرَ بِاللَّاتِ وَالعُزَّى).

فقال عليّ: هذا أمرٌ لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاضٍ شيئًا حتى أُحدِّثَ به أبا طالب.

فكره رسول الله ﷺ أن يُفشِي عليه سرَّه قبل أن يستعلنَ أمره، فقال له: (يَا عَلِيُّ، إِذَا لَمْ تُسْلِمْ فَاكْتُمْ).

فمكث عليٌّ تلك الليلة، ثم أوقع اللهُ في قلبه الإسلامَ، فأصبح غاديًا على رسول الله ﷺ حتى جاءه، فقال: ماذا عرضت عليَّ يا محمد؟

فقال له: (تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَكْفُرُ بِاللَّاتِ وَالعُزَّى، وَتَبْرَأُ مِنَ الأَنْدَادِ).

ففعل عَلِيٌّ وأسلم، ومكث يأتيه على خوف من أبي طالب، وكتم عليٌّ إسلامَه، وكان مما أنعم الله به عليه أنه كان في حِجْر رسول الله ﷺ وعمره إذ ذاك عشرُ سنين[1].

ففي هذا الخبر دلالةٌ واضحةٌ على أن رسول الله ﷺ ابتدأ دعوته لعليٍّ رضي الله عنه ببيان أن الله واحدٌ لا شريكَ له، وأنه هو الذي يستحقُّ العبادة وحده بلا شريك، وأن الكفر باللات والعُزَّى مِنْ مقتضيات التوحيد الأساسية، وأنه لا بد مِنْ نبذ الأنداد واطِّراحها، والبراءة منها.

ففعل عَلِيٌّ رضي الله عنه من أول الطريق، واستجاب لدعوة المصطفى ﷺ.

* ومما يؤكد اهتمامَ النبي ﷺ بتصحيحِ الاعتقاد، والبدءِ به: ما قاله لوفد قريش حينما جاؤوا إلى عمه أبي طالب يطلبون منه أن يكُفَّ عنهم ابنَ أخيه محمدًا ﷺ؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٢٤ ـ ٤٢٨)؛ السيرة الحلبية (١/ ٤٢٤)؛ تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري (٢/ ٣٠٧ ـ ٣١٣).

«مرض أبو طالب، فجاءته قريشٌ، وجاءه النبيُّ ﷺ، وعند أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعَه، قال: وشكَوْه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد مِنْ قومك؟

قال: (أرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا العَرَبُ، وتُؤَدِّي إلَيْهِمُ العَجَمُ الجِزْيَةَ).

قال: كلمة واحدة؟

قال: (كَلِمَةً وَاحِدَةً).

فقال: (يَا عَمِّ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إلا اللهُ).

فقالوا: إلهًا واحدًا؟ ما سمعنا بهذا في المِلّة الآخرة، إنْ هذا إلا اختلاق.

قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ [صٓ: ١ ـ ٧][1].

فالرسول ﷺ في هذا الخبر يبتدئ دعوته لقريش بقضية تصحيح الاعتقاد قبل أي شيء آخرَ؛ ولذا عندما جاؤوا إلى عمه أبي طالب يطلبون منه أن يكُفَّ عنهم ابنَ أخيه، وأن يمنعَه مِنَ التعرُّض لهم ولأصنامهم التي يعبدونها مِنْ دون الله تعالى؛ قال لهم ﷺ: (قُولُوا: لَا إِلَه إِلَّا اللهُ)، التي تعني التوحيدَ الخالص لله تعالى وحده لا شريك له، وتَرْكَ الشرك في القول والعمل والاعتقاد، وفي هذا دلالة واضحة على أن البدءَ بالاعتقاد هو منهجُه ﷺ في دعوته وتربيته، وأن الاعتقادَ الصحيح بابُ الإسلام الذي لا ينجو أحدٌ إلا به؛ ولذا اعترضوا عليه ﷺ بقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [صٓ: ٥].

وفي هذا دليل على أنهم يعرفون ما تعني هذه الكلمةُ الطيبة، كما أنهم يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يطلب منهم مجردَ التلفُّظ بها فقط، وإنما يعرفون أنه

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة صٓ (٥/ ٣٤١)، وقال: هذا حديث حسن.

يريد منهم العملَ بمقتضاها، الذي هو توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له والإقلاع عن الشرك الذي هم عليه بكلِّ صُوَرِه وأشكاله؛ ولهذا ردُّوا هذه الدعوةَ المباركة المتمثِّلة في الكلمة الطيبة، وصَدُّوا عنها، واعترضوا عليها بأنهم لم يسمعوا بهذا الكلام قبلَ ذلك في مِلَّةِ الآباء والأجداد[١].

وفي هذا دليل واضح على أنهم رفضوا دين الله تعالى ودعوته، على عِلْمٍ بها، وبما تعني كلمةُ «لا إله إلا الله محمد رسول الله» التي هي مفتاح الإسلام الذي تكون به النجاةُ والفلاح والفوز يوم القيامة؛ والدليل على ذلك قولُ الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وكان رسول الله ﷺ يَقرِنُ أحيانًا مع الدعوة إلى الاعتقاد الصحيح، الدعوةَ إلى بعض أصول الإسلام العملية؛ كصلة الأرحام، والصلاة، والزكاة، والحج، وغير ذلك مِنَ الأمور المهمَّة في دين الله تعالى؛ **ومما يدلُّ على ذلك ما يأتي:**

* عن عمرو بن عَبَسَة السُّلَمي، قال: «كنت وأنا في الجاهلية أظنُّ أن الناسَ على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعتُ برجل بمكةَ يُخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي، فقدمتُ عليه، فإذا رسولُ الله ﷺ مستخفيًا جُراَء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكةَ، فقلت له: ما أنت[٢]؟ قال: (**أَنَا نَبِيٌّ**)، فقلت: وما نبيٌّ؟ قال: (**أَرْسَلَنِي اللهُ**). فقلت: وبأيِّ شيء أرسلك؟ قال: (**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ**). قلت له: فمَنْ معك على هذا. قال: (**حُرٌّ وَعَبْدٌ**). قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال مِمَّنْ آمنَ به»[٣].

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٩/ ١٠٠).

(٢) قال النووي: «قوله: «فقلت له: ما أنت» هكذا هو في الأصول «ما أنت»، وإنما قال: «ما أنت» ولم يقل: «من أنت» لأنه سأل عن صفته لا عن ذاته، والصفات مما لا يعقل». صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ١١٥).

(٣) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة (١/ ٥٦٩)، رقم الحديث (٨٣٢).

ففي هذا الحديث ترى أن عمرو بن عَبَسَة سأل رسولَ الله ﷺ عن نفسه، فأخبره رسولُ الله بأنه رسولُ الله، أرسله إلى الناس لكي يدعُوَهم إلى التوحيد، والإقلاع عن الشرك، والسعي لتكسير الأوثان وإهانتها، وإقامة الحجة عليهم في أنها لا تنفع ولا تضرُّ؛ بدليل أنها لا تستطيع أن تدفعَ عن نفسها التكسيرَ والإهانة.

وكذلك أرسله لدعوة الناس إلى صلة الأرحام؛ وفي هذا «دلالة ظاهرة على الحثّ على صلة الأرحام؛ لأن النبيَّ ﷺ قرنها بالتوحيد، ولم يذكر له جَزَبات الأمور، وإنما ذكر مُهِمَّها وبدأ بالصلة»(١).

* ومما يؤكد ما سبق، هذا الخطاب الذي دار بين الرسول ﷺ وبين أبي ذر الغفاري رضي الله عنه؛ يسأله أبو ذرٍّ، ويجيب النبي ﷺ على سؤاله؛ كما روى ذلك عبد الرزاق وغيره مِنْ طريق مجاهد: أن أبا ذر رضي الله عنه سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فتلا عليه قولَ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال الحافظ ابن حجر: «ورجاله ثقات»(٢).

ففي هذا الحديث ترى أن النبي ﷺ رد على سؤال أبي ذر رضي الله عنه بأنْ تلا عليه آيةً جمعت حقيقةَ الإيمان وصفاتِه ومعالمَه، وضمَّت مع الاعتقاد الصحيح كثيرًا من القضايا العملية؛ كالإنفاق على ذوي القُربى والمساكين

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ١١٥).
(٢) ذكر هذا الحديث الحافظ ابن حجر في فتح الباري بعد ذكره قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ التي ذكرها الإمام البخاري دون إيراد هذا الحديث؛ لأنه ليس على شرطه. فتح الباري (١/ ٥٠، ٥١).

والبتامى وابن السبيل، والرقيق، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاءِ بالعهد، والصبرِ عند المصيبة والضُّرّ وأقدارِ الله تعالى؛ وجَعَلَ مَنْ حقّق ذلك من الصادقين في إيمانهم، الذين بلَغوا كمال الإيمان والتقوى.

وفي هذا دليل على أهمية العرض التربوي النبوي المناسب للحالة عند البيان؛ فالآية حصرت التقوى وصدق الإيمان على أصحاب هذه الصفات الإيمانية.

«ووجه الاستدلال بهذه الآية أنها حصرت التقوى على أصحاب هذه الصفات، والمراد: المتَّقون مِنَ الشرك والأعمال السيئة، فإذا فعلوا وتركوا، فهم المؤمنون الكاملون»[1].

وفي إجابة النبي ﷺ لأبي ذر ﷺ بهذه الآية التي جمعت أصول الاعتقاد الصحيح، وبدأت به قبلَ تكاليف النفس والمال، دليلٌ على أهمية البدء بالاعتقاد، وأنَّ بقيةَ تعاليم الإسلام وفروعه تابعةٌ لهذا الأصل العظيم، ويُؤمر بها مع الأمر بالاعتقاد الصحيح وربطها به؛ لأنه الأصلُ والأساس في قَبولها عند الله تعالى.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

«فإنَّ مَنِ اتَّصف بهذه الآية، فقد دخل في عُرى الإسلام كلِّها، وأخذ بمجامع الخير كلِّه، وهو الإيمانُ بالله تعالى، وأنه لا إلهَ إلا هو، وصدَّق بوجود الملائكة الذين هم سَفَرَةٌ بين الله ورسوله... هؤلاء الذين اتَّصفوا بهذه الصفات هم الذين صدَقوا في إيمانهم؛ لأنهم حقَّقوا الإيمان القلبيَّ بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون؛ لأنهم اتقَوُا المحارمَ، وفعلوا الطاعات»[2].

وهكذا تجمع آيةٌ واحدةٌ بين أصول الاعتقاد وتكاليف النفس والمال، وتجعلُها كُلًا لا يتجزَّأ ووحدةً لا تنفصِمُ، وتضع على هذا كلِّه عنوانًا واحدًا

---

(١) فتح الباري (١/ ٥١) بتصرف قليل. (٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٧، ٢٠٩).

هو «البر» الذي هو «جماع الخير»، أو هو «الإيمان»؛ كما ورد في بعض الأثر.

والحق أنها خلاصة كاملة للتصوُّر الإسلامي، ولمبادئ المنهج الإسلامي المتكامل، لا يستقيم بدونها إسلام... أولئك الذين صدقوا ربَّهم في إسلامهم؛ صدقوا في إيمانهم واعتقادهم، وصدقوا في ترجمة هذا الإيمان والاعتقاد إلى مدلولاته الواقعية في الحياة[1].

* ومما يدل على ما سبق أيضًا: ما رواه أبو أيوب ﷺ أن أعرابيًا عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر، فأخذ بخِطام ناقته أو بزِمامها، ثم قال: يا رسول الله، أو يا محمد، أخبرني بما يُقرِّبُني مِنَ الجنة وما يباعدني من النار، قال: فكفَّ النبي ﷺ، ثم ينظر في أصحابه، ثم قال: (لَقَدْ وُفِّقَ، أَوْ لَقَدْ هُدِيَ)، قال: (كَيْفَ قُلْتَ؟) قال: فأعاد. فقال النبي ﷺ: (تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دَعِ النَّاقَةَ)[2].

ففي هذا الحديث يشدُّ النبيُّ ﷺ انتباهَ الصحابة ﷺ إلى سؤال الأعرابي له عمّا يُقَرِّبُه من الجنة وما يُبَاعده عن النار، بنظره ﷺ إليهم، وقوله: (لَقَدْ وُفِّقَ) بسؤاله هذا، وطلب ﷺ مِنَ الأعرابي أن يُعيدَ سؤالَه مرةً ثانية، وقد انتبه السامعون لسماع السؤال، واستعدُّوا لمعرفة الجواب، ثم أجابَ ﷺ على سؤال الأعرابي مبتدئًا بقضية الاعتقاد: (تَعْبُدُ اللهَ، لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)، ثم قرَنَ ذلك بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصِلَةِ الرَّحِم. وفي هذا تربيةٌ للصحابة رضوان الله عليهم على أهمية البدء بالاعتقاد، وأنه ينتقل معه إلى غيره.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى:

«المراد بالعبادة: الطاعةُ مطلقًا، فيدخل جميعُ وظائف الإسلام فيها؛

(١) انظر: دراسات قرآنية (ص٣٠٣).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة، وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة (١/ ٤٢، ٤٣) رقم الحديث (١٣).

لعلى هذا يكون عطف الصلاة وغيرها من باب ذكر الخاصّ بعد العام، تنبيهًا على شرفه ومزيّته؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]، ونظائره، وأما قوله ﷺ: (لَا تُشْرِكْ بِهِ)، فإنما ذكره بعد العبادة؛ لأن الكفار كانوا يعبدونه سبحانه وتعالى في الصورة، ويعبدون معه أوثانًا يزعمون أنها شركاء؛ فنفى هذا»[(١)]. والله أعلم.

* ومما يؤكد ما سبق: حديثُ بشير بن الخَصاصِيَة[(٢)] قال: «أتيت النبيَّ ﷺ لأبايعَه، فاشترط عليَّ شهادةَ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأنْ أُقيمَ الصلاة، وأن أوتِيَ الزكاةَ، وأحجَّ حَجة الإسلام، وأن أصومَ رمضان، وأن أجاهدَ في سبيل الله. فقلت: يا رسول الله، أما اثنتان، فوالله ما أطيقُهما: الجهاد والصدقة. فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حرَّكها، وقال: (فَلَا جِهَادَ وَلَا صَدَقَةَ، فَبِمَ تَدْخُلُ الجَنَّةَ إِذَنْ؟) قلت: أبايعك، فبايعتُه عليهنَّ كلهنَّ»[(٣)].

ففي هذا الحديث يتحدث الصحابي الجليل بشير بن الخصاصية عن دخوله إلى الإسلام ومبايعة النبي ﷺ على ذلك، فبدأ الرسول بقضية الاعتقاد أولًا؛ فاشترط عليه «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله» قبل أمْرِه بالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد؛ لأن هذه الأمور تَبَعٌ للأمر الأول؛ وهو عبادة الله وحده بلا شريك، فهو مفتاح الأعمال كلِّها، وسرُّ قبولها عند الله تعالى، وأنَّ ما بعدَها تَبَعٌ لها؛ ولذلك قرن رسول الله ﷺ ذلك بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأداء الحج، وصيام

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ١٦٢).

(٢) بشير بن الخصاصية: اختلفوا في نسبه، فقالوا: بشير بن يزيد بن معبد، وقيل: بشير بن معبد بن شراحيل. روى عن النبي ﷺ أحاديث صالحة. وهو من المهاجرين من ربيعة، روى عنه أبو المثنى العبدي. أسد الغابة (١/ ٢٢٩).

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٢٤).
ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٨٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
ورواه الطبراني في الكبير (٢/ ٤٤).

رمضان، والجهاد في سبيل الله تعالى، وجعل ذلك من الإيمان ومن أسباب دخول الجنة.

وفي الحديث مِنَ الفوائد: سَعَةُ صدره ﷺ وحِلمُه مع من يخاطبه ويراجعه، وتحمُّله لذلك بصدر رحْب ونفس راضية، مما جعل الصحابةَ يُقبلون عليه ويحبونه ﷺ.

* ومِمَّا يؤكد أن النبي ﷺ كان يقرن مع الدعوة إلى الاعتقاد الصحيح بعضَ التعاليم الإسلامية؛ مِنْ صلاةٍ وزكاة وصيام: ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إنَّ وفدَ عبد القيس لَمَّا أتَوُا النبيَّ ﷺ قال: (مَنِ القَوْمُ - أوْ: مَنِ الوَفْدُ؟)[١] فقالوا: ربيعة. قال: (مَرْحَبًا بِالقَوْمِ أوْ - بِالوَفْدِ - غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى)، فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نستطيع أن نأتيَك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحيُّ مِنْ كفار مُضَر، فمُرْنا بأمرٍ فصلٍ نخبر به مَنْ وراءنا، وندخل به الجنة. وسألوه عن الأشربة، فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع؛ أمرهم: بالإيمان بالله وحده؛ قال: (أتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (شَهَادَةُ أنْ لَا إِلَهَ إلا اللهُ، وَأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإقَامُ الصَّلَاةِ، وَإيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ). ونهاهم عن أربع: عن الحَنْتَمِ[٢]، والدُّبَّاء[٣]، والنَّقِير[٤]، والمُزَفَّت، وربما قال: المقيَّر[٥].

---

(١) قال صاحب التحرير: «الوفد: الجماعة المختارة من القوم ليتقدَّموهم في لُقي العظماء، والمصير إليهم في المهمات. واحدهم: وافد، قال: ووفد عبد القيس هؤلاء تقدموا قبائلَ عبد القيس للمهاجَرة إلى رسول الله ﷺ وكانوا أربعةَ عشرَ راكبًا».
شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٨١).

(٢) **الحنتم**: الواحدة حنتمة. وقد اختُلف فيه، فأصحُّ الأقوال وأقواها أنها جِرارٌ خُضرٌ. هامش صحيح مسلم (١/ ٤٦).

(٣) **الدُّبَّاء**: هو القرع اليابس؛ أي: الوعاء منه. المرجع السابق (١/ ٤٦).

(٤) **النقير**: جذع يُنقر وسطُه. المرجع السابق (١/ ٤٦).

(٥) **المقيَّر**: هو المزفَّت، وهو المطليُّ بالقار، وهو الزِّفت. المرجع السابق (١/ ٤٦). =

وقال: «احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ»(١).

ففي قصة وفد عبد القيس تبرز قضية الاعتقاد جليةً واضحةً؛ حيث بدأ رسولُ الله ﷺ بأمرهم «بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله». فأمرهم بها قبل أيِّ شيءٍ آخرَ؛ وفي هذا تربيةٌ لوفد عبد القيس وللسامعين من الصحابة ـ رضوانُ الله عليهم ـ على أهمية قضية الاعتقاد الصحيح، وأنها ليست قضيةً عابرةً، بل يبدأ بها قبل غيرها، ثم يذكر ما بعدَها مِنَ الأمور تَبَعًا لها ومعها.

ولهذا، فإن المربي العظيم عليه الصلاة والسلام قرنها بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وإعطاء الخُمْس مِنَ الغنيمة، ونهاهم عن بعض الأشربة، ثم أمرهم بحفظ ما أمرهم به، وما نهاهم عنه، ثم أمرهم ثانيةً بإبلاغ هذه الأوامر ـ وفي مقدِّمتها الاعتقادُ الصحيح، المتمثِّلُ في شهادة «لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»، وتلك النواهي الأربع التي ذكرها لهم ـ إلى مَنْ وراءَهم مِنْ أقوامهم، وبيان ذلك لهم ودعوتهم إلى التمسك بها وتطبيقها.

وفي الحديث حثٌّ على العلم وحفظه وتطبيقه، وفيه أيضًا حثٌّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* ومما يؤكد ما سبق أيضًا: قولُ رسول الله ﷺ وهو في مكة لوفد بني شيبانَ: «أَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ

= «وأما معنى النهي عن هذه الأربع؛ فهو: أنه نهى عن الانتباذ فيها، وهو أن يُجعَلَ في الماء حباتٌ من تمر أو زبيب أو نحوهما ليحلُوَ ويُشرَبَ، وإنما خُصَّت هذه بالنهي؛ لأنه يُسرع إليها الإسكارُ فيها، فيصيرُ حرامًا نجِسًا».
من كلام الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في هامش صحيح مسلم (١/ ٤٦).

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (١/ ٢٣)، رقم الحديث (٥٣)، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه، وحفظه وتبليغه مَنْ لم يبلغه (١/ ٤٦)، رقم الحديث (١٧).

تُؤْوُونِي وتَنْصُرُونِي حتَّى أُؤَدِّيَ عَنِ اللهِ الَّذِي أَمَرَنِي بِهِ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ تَظَاهَرَتْ عَلَى أَمْرِ اللهِ، وَكَذَّبَتْ رَسُولَهُ، وَاسْتَغْنَتْ بِالبَاطِلِ عَنِ الحَقِّ...)[(١)].

ففي هذا النص ترى أن النبي ﷺ دعا وفدَ بني شيبان ابتداءً إلى الاعتقاد الصحيح، وقرَنه بطلب النُّصرة والإيواء في الوقت نفسه لكي يؤديَ دعوة الله تعالى التي أمره بتبليغها للناس كافةً، وكذلك أعلن تسفيه أحلام قريش، وأنهم تظاهروا على أمر الله الذي جاءهم به، وكذّبوه، واستغنَوْا بالباطل عن الحق المبين.

* ومِمَّا يدل على ذلك أيضًا: ما رواه عُبادةُ بنُ الصامت ﷺ، وكان شهد بدرًا، وهو أحدُ النقباء ليلةَ العقبة: أن رسول الله ﷺ قال وحولَه عصابةٌ مِنْ أصحابه:

(بَايِعُونِي عَلَى أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُونَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ؛ فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ، فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، ومَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ، فَهُوَ إِلى اللهِ: إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ)، فبايعناه على ذلك[(٢)].

ففي هذا الحديث طلب الرسول ﷺ مِنَ الأنصار أن يبايعوه على عدم الإشراك بالله تعالى، وعلى الابتعاد عن السرقة، وعن الزنى، وعن قتل الأولاد خشيةَ الفقر أو العار، ونهاهم كذلك عن البُهتان والافتراء أيًّا كان نوعُه، وعن معصيته ﷺ في أيِّ معروف يأمرهم به.

فمن الملاحظ أن المربيَ العظيم ـ عليه الصلاة وأتمُّ التسليم ـ بدأ البيعةَ بقضية الاعتقاد، وهو توحيدُ الله وعدمُ الشرك به سبحانه، وقرن به

(١) البداية والنهاية (٣/ ١٥٨، ١٥٩).
(٢) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب (١/ ١٢)، رقم الحديث (١٨).
ورواه مسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها (٣/ ١٣٣٣)، رقم الحديث (١٧٠٩).

دعوتَهم إلى الإقلاع والابتعاد عن المعاصي؛ مِنْ سرقة، وزنًى، وقتل، وبهتان وافتراء، ثم وعدهم بعد ذلك بالأجر مِنَ الله تعالى لِمَنْ وفّى بذلك والتزم به، ووكَلَ أمرَهم إلى الله تعالى، فمَنْ خالف شيئًا مما أمرهم به، فعُوقب عليه في هذه الحياة الدنيا فهو كفارةٌ له، ومَنْ ستره الله تعالى ولم يكشفْ أمرَه، فأمرُ ذلك إلى الله تعالى، فإن شاء غفر له، وإن شاء عذّبه على ما ارتكب مِنْ مخالفة.

وبهذا تمَّتِ البيعةُ، وبايعوه على ذلك، والتزموا بمقتضى تلك البيعةِ رضي الله عنهم وأرضاهم.

وفي هذا تربية للصحابة رضوان الله عليهم، لا سيما وهم حوله يسمعون ويرَوْن أحداثَ المبايعة المباركة.

ومِنْ مجموع هذه الأدلة يتبين أن أصلَ الأصول، وقاعدةَ الدين، ورأسَ الإسلام مطلقًا: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ»؛ ولذا كان النبي ﷺ يبدأ بتحقيقها والدعوة إليها قبل أيِّ شيءٍ آخرَ مَعَ الأفراد والجماعات؛ لأن قَبول الأعمال مترتب على قبولها وتحقُّقها في القلب.

كيف لا، وهي التي لا يدخل العبدُ في الإسلام إلا بها، ولا يكون مقبولًا عند الله تعالى إلا بالاستمرار عليها، ولا يخرج من الإسلام إلا بما ينقضها؛ إما بجحود لِمَا دلَّت عليه، أو باستكبار عما استلزمته؛ ولذلك لم يبدأ رسولُ الله ﷺ بشيءٍ قبلَها، ولا يقبل الله تعالى مِنْ أحدٍ شيئًا دونها؛ لأنها قاعدة الدين وأصله؛ فبشهادة «أن لا إله إلا الله» يعرف المكلَّف معبودَه وما يجب له، وبشهادة «أن محمدًا رسول الله» يعرف كيف يعبده، ومِنْ أي طريق يصل إليه؛ إذ محالٌ أن يؤمَرَ أحدٌ بالعبادة قبل أن يعرف معبودَه سبحانه وكيفية عبادته على الوجه المطلوب؛ لأنه في الحقيقة لا يستحق العبادة إلا اللهُ وحده لا شريك له، ولا يعبد الله تعالى إلا بما شرَعَه على لسان رسوله ﷺ؛ فبشهادة «أن لا إله إلا الله» توحيدُ المعبود الذي ما

خلَقَ الخَلْق إلا ليعبدوه وحده لا شريك له؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبشهادة «أن محمدًا رسول الله» توحيد الطريق الذي لا يوصل إلى الله تعالى إلا منه، ولا يقبل الله دينًا مِمَّن ابتغى غيرَه ورغب عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فعبادة الله وحده هي أمرٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه اعتقادًا وقولًا وعملًا[١].

فالعبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثِّل في شهادة «أن لا إله إلا الله»، والتلقِّي عن رسول الله ﷺ في كيفية هذه العبودية هو شطرُها الثاني المتمثِّل في شهادة «أن محمدًا رسول الله».

والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثَّل فيه هذه القاعدة بشطريها؛ لأنَّ كل ما بعدهما مِنْ مقوِّمات الإيمان، وأركان الإسلام، إنما هو مقتضى لهما؛ فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج، ثم الحدود والتعازيرُ والحِلُّ والحُرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية،،، إنما تقوم كلُّها على قاعدة العبودية لله وحده، والمرجع فيها كُلِّها هو ما بلَّغه لنا رسول الله ﷺ عن ربه»[٢].

هذا.. ولم يثبت عن النبي ﷺ في العهد المكي والعهد المدني أنه بدأ دعوته وتربيته أو دعا لإثبات وجود الله تعالى، ولم يثبت كذلك عنه ﷺ أنه سُئل أو أجاب على سؤال له صلةٌ بقضية إثبات وجود الله تعالى ولو مرة واحدة؛ فما ثبت أن أحدًا سأله: هل الله موجود أم غير موجود؟ لا في العهد المكي ولا في العهد المدني، لا مِنَ الصحابة رضوان الله عليهم ولا

(١) مقتبس من كتاب معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي (٢/٤٦، ٤٧).
(٢) انظر: معالم في الطريق (ص١١٥).

مِنْ غيرهم؛ فلم يثبُت تاريخيًا ولا علميًا أن إثبات وجود الله تعالى كان مدارَ حديث بين رسول الله ﷺ وبين غيره مِنَ الناس[١]؛ لأنها كانت قضية مسلّمًا بها لديهم.

وإنما الذي ثبت في القرآن الكريم عكسُ ذلك تمامًا؛ فقد أخبرنا الله تعالى في كتابه أن العربَ كانوا مُقِرِّين بوجود الله تعالى، بل وبربوبيته، إلا أنهم لم يُقَدِّرُوه حَقَّ قدْره؛ «فكانوا يؤمنون بالله؛ كصانعٍ أتمَّ عمله واعتزل، وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خُلعةَ الرُّبوبية، فأخذوا بأيديهم أزِمَّة الأمر، وتولَّوا إدارة المملكة، وتدبير شؤونها، وتوزيع أرزاقها، إلى غير ذلك مِنْ مصالح الحكومة المنظمة، فكان إيمانُهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية، وكان إيمانُهم بالله وإحالتهم خلق السمٰوات والأرض لا يختلف عن جواب تلميذ مِنْ تلاميذ فنِّ التاريخ، يقال له: مَنْ بنى هذا القصر العتيق؟ فيسمِّي ملِكًا مِنَ الملوك الأقدمين، من غير أن يخافَه ويخضعَ له، فكان دينُهم عاريًا عن الخشوع لله ودعائه، وما كانوا يعرفون عن الله ما يُحَبِّبُهُ إليهم، فكانت معرفتهم مبهمةً غامضة قاصرة مجمَلَةً، لا تبعث في نفوسهم هيبةً ولا محبة»[٢].

إذن، فلم يكن إثبات وجود الله تعالى قضية نقاش؛ لأن الله تعالى فطَرَ الخَلْق على معرفته والإيمان بوجوده، وأخذ عليهم ـ وهم في ظهر أبيهم آدم عليه السلام ـ الميثاق على أنه ربُّهم وخالقُهم؛ فقال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وأثر هذا الاستشهاد ملحوظ في الواقع؛ فالبشر يتوجّهون توجُّهًا فطريًا إلى الله سبحانه وتعالى، ولو لم يدلَّهم عليه أحدٌ؛ يتوجَّهون فطرةً إلى عبادة الله، ولكنهم كثيرًا ما يقعون في الضلال في تصورهم لهذا الخالق

(١) انظر: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي للدكتور رؤوف شلبي (ص٩٦).
(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لأبي الحسن الندوي (ص١٠٠).

سبحانه، فيتخيلونه على غير حقيقته، ويتخيَّلون وجودَ آلهةٍ أخرى معه، ثم يتقدمون بالعبادة له على ما تهوى أنفسُهم بغير ما تعبَّدَهم به تعالى، وما ذلك إلا مِنْ تزيين الشيطان لهم[1].

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩].

ففي هذه الآيات دليلٌ على إقرار المشركين بوجود الله تعالى، وأن انحرافهم كان يحدُث من ناحية الاعتقاد في أنَّ مع الله تعالى آلهةً أخرى؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]؛ «أي: وما يؤمن أكثرُ الناس إلا وهم مشركون، والمراد بـ «أكثر الناس» أهلُ الشرك مِنَ العرب، وهذا إبطالٌ لِمَا يزعُمونه مِنَ الاعتراف بأن الله خالقُهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وبأن إيمانهم بالله تعالى كالعدم؛ لأنهم لا يؤمنون بوجود الله إلا في تشريكهم معه غيرَه في الألوهية، والاستثناء مِنْ عموم الأحوال؛ فجملة «وهم مشركون» حالٌ مِنْ «أكثرهم»، والمقصود مِنْ هذا تشنيعُ حالهم، والأظهر أن يكون هذا مِنْ قبيل تأكيد الشيء بما يشبه ضِدَّه على وجه التهكُّم، وإسناد هذا الحكم إلى «أكثرهم» باعتبار أكثرِ أحوالهم وأقوالهم؛ لأنهم قد تصدُر عنهم أقوالٌ خليَّةٌ عن ذكر الشَّريك، وليس المرادُ أن بعضًا منهم يؤمن بالله غيرَ

---

(١) انظر: دراسات قرآنية (ص٢٦).

مشرك معه إلهًا آخر»[١].

وأما بالنسبة إلى قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فليس في هذه الآية ما يدل على أن هؤلاء الدهريين ينكرون وجود الله تعالى، وإنما تدل على أنهم ينكرون اليوم الآخر، ويكذِّبون بالبعث، ويُبطلون الجزاء الأخرويَّ[٢]، وينسُبون الإماتة إلى الدهر؛ أي: مرور الليالي والأيام، بدلًا مِنْ أن ينسُبوا ذلك إلى الفاعل الحقيقيّ، وهو الله تعالى، وليس في الآية ما يمنع من أن يكونوا مؤمنين بوجود الله تعالى؛ «فالمشركون أصنافٌ؛ منهم هؤلاء، ومنهم مَنْ كان يُثبت الصانعَ وينكر البعث، ومنهم مَنْ كان يشكُّ في البعث، ولا يقطع بإنكاره»[٣].

وأما بالنسبة إلى الشيوعيين «فليسوا - برغم إلحادهم - استثناءً من القاعدة، وإنما الإلحادُ مفروض عليهم فرضًا بالحديد والنار[٤]؛ كالنظام الشيوعي ذاته، ولو خُلِّي بينهم وبين أنفسهم، لكانَ ضلالُهُم في أمر العقيدة كضلال بقية الضالِّين مِنَ البشرية؛ يعرفون الله، ولكن على غيرِ حقيقته؛ ويعبُدونه، ولكن على هوى أنفسهم»[٥].

«ولن نعجب إذا رأينا القرآن الكريم لا يكاد يقف أمام قضية الاعتقاد بـ «وجود الله تعالى»، في حين إن الحديث كلَّه عن توحيد الله سبحانه، والتعريف بصفاته؛ وذلك أن قضية وجود الله تعالى لم تكن ولن

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (١٣/ ٦٣، ٦٤)، وانظر: محاسن التأويل للقاسمي (٩/ ٣٦٠٤).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/ ١٧٠)؛ محاسن التأويل (١٤/ ٥٣٢٥)؛ التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٦١).
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/ ١٧٢).
(٤) والذي فرضه عليهم يعلم أن هناك إلهًا، لكن هواه وحبه للسيطرة جعله يفرض هذا النظام الماكر.
(٥) دراسات قرآنية (ص٢٧) بتصرف قليل.

تكون قضيةً جديدة من قضايا العقيدة؛ فالفطرة ـ حتى في انحرافها وجاهليتها لا تكاد تلمُّ بهذا الخاطر العارض الشاذ الذي انتهى إليه بعض الشاردين من الكنيسة في أوروبا في القرون الثلاثة الأخيرة وهم قلة، وضَجَّة الإلحاد المطلَق أعلى بكثير من حقيقتها، وقيمتها أقلُّ بكثير من مظهرها». انتهى.

ومِنَ الأدلة السابقة تعلم أن توحيد العبادة هو أولُ واجب على المكلَّف؛ لأنه أساسُ الدين وأصل الإسلام؛ قال القسطلَّاني: «إنه أول ما يذكر مِن المقاصد الدينية؛ لأنه ملاكُ الأمر كلِّه، ولأن الباقي منها مبنيٌّ عليه مشروط به، وهو أولُ واجب على المكلَّف»[1].

خلافًا لِمَا قاله أهل الكلام من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم من أن أول واجب على المكلف النظر في الأدلة العقلية على وجود الله تعالى أو القصد إلى النظر أو الشك؛ فهذا القول تُبطله جميع الأدلة من الكتاب والسُّنَّة؛ وذلك لأن أصل العلم الإلهي على الإطلاق ومبدأه: الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ، والاهتداء بما جاء في كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ.

«ولا سبيل إلى ذلك إلا باتباع الوحي الذي جاء به محمد ﷺ فيجب أن يتبع، وأن يكون هو الأصلَ المعولَ عليه في معرفة عبادة الله تعالى، والإيمان به، وبرسله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والإيمان بأسمائه وصفاته وعبادته بها، خلافًا لطريقة المتكلِّمين الذين جعلوا عُمدتَهم عقولَهم في إثبات وجود الله تعالى، بناءً على حدوث الكون، ثم إثبات صفاته نفيًا وإثباتًا بالقياس العقلي، ثم إثبات النبوات، ثم بعد ذلك يتكلمون في السمعيات.

وهذه طريقة المعتزلة، والكرَّامية، والكلابية، والأشعرية؛ غير أن

---

(١) إرشاد الساري (١/ ٨٥) بتصرف يسير.

الأشعرية سلكوا هذه الطريقة في الأصول الاعتقادية العلمية دون العملية.

وأما المعتزلة، فلم يفرّقوا بين العقيدة والعمل في القياس العقلي؛ حتى إنهم ينظرون إلى القدر المشترك في الأفعال بين الرب والعباد؛ فما كان حسنًا من العباد في نظرهم، فهو عندهم حَسَنٌ مِنَ الله تعالى، وما كان قبيحًا منهم فهو من الله تعالى قبيح؛ ولهذا سمَّاهم أهل السُّنَّة مشبِّهةَ الأفعال، نُفاةَ الصفات»[١].

ولذا، فإن الإمام البخاري رحمه الله تعالى ابتدأ صحيحه ببدء الوحي ونزوله على رسوله ﷺ وهو الذي يحصل به الهدى والنور، ثم ثنّاه بكتاب الإيمان الذي هو الإقرارُ بالوحي والانقياد له، ثم ثلَّثه بكتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به رسول الله ﷺ وفقهه؛ وهذا هو الترتيب الحقيقي.

والمطَّلع على أقوال أهل الكلام، يعجب أشدَّ العجب مما جعلوه أصلًا للدين، وبنَوْا عليه أنَّ مَنْ لم يعرفْه، فليس بمسلم[٢].

قال القرطبي: «ولو لم يكن في الكلام إلا مسألتان هما مِنْ مبادئه لكان حقيقًا بالذم:

إحداهما: قول بعضهم: إن أول واجب: الشك؛ إذ هو اللازمُ عن وجوب النظر، أو القصد إلى النظر.

ثانيهما: قول جماعة منهم: إنَّ مَنْ لم يعرف الله بالطرق التي رتبوها والأبحاث التي حرَّروها لم يصحَّ إيمانُه، حتى لقد أُورد على بعضهم أن هذا يلزم منه تكفيرُ أبيك وأسلافك وجيرانك، فقال: لا تشنع عليَّ بكثرة أهل النار».

قال: «وقد ردَّ بعضُ مَنْ لم يقل بهما على مَنْ قال بهما بطريق من الردِّ النظري وهو خطأ منه؛ فإن القائل بالمسألتين كافر شرعًا، لجعلِه الشكَّ في الله واجبًا، ومعظم المسلمين كفارًا حتى يدخل في عموم كلامه السلف

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (ص٤٣)، عبد الله محمد الغنيمان.
(٢) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (ص٤٠).

الصالح من الصحابة والتابعين، وهذا معلوم الفساد مِنَ الدين بالضرورة، وإلا فلا يوجد في الشرعيات ضروري»[(١)].

فالصواب ما جاء في كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، فهما الحجة الدامغة على جميع المناهج الأرضية التي مرجِعُها عقولُ البشر الضِّعاف المهازيل.

والناظر في الكتاب والسُّنَّة يرى أن أول واجب على المكلَّف معرفته والإقرار به هو «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله».

«فأما القرآن العزيز، فليس فيه أن النظرَ أولُ الواجبات، ولا فيه إيجاب النظر على كل أحد، وإنما فيه الأمر بالنظر لبعض الناس، وهذا موافق لقول مَنْ يقول: إنه واجب على مَنْ لم يحصل له الإيمان إلا به، بل هو واجب على كلِّ من لا يؤدي واجبًا إلا به؛ وهذا أصحُّ الأقوال؛ فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨] - وهذا بعد قوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧]، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨] - فالضمير عائد إلى الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٤، ١٨٥]، فهذا مذكور بعد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، ثم قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم﴾، فالضمير عائد إلى المكذِّبين، فإنه تعالى قال: ﴿أَوَلَمْ

(١) ينظر: فتح الباري (١٣/ ٣٥٠).

يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، فقول هؤلاء المتكلمين - كأبي المعالي وغيره -: «أول ما يجب على العاقل البالغ، باستكمال سِنّ البلوغ أو الحُلُم شرعًا، القصد إلى النظر الصحيح المفضي إلى العلم بحدوث العالم» هو في الأصل مِنْ كلام المعتزلة، وهو كلام مخالفٌ لِمَا أجمع عليه أئمة الدين، ولِمَا تواتر عن سيد المرسلين، بل لِمَا عُلِم بالاضطرار من دينه»[١].

وأما بالنسبة إلى النبي ﷺ فلم يثبُتْ عنه أنه: «دعا أحدًا من الخلق إلى النظر ابتداءً، ولا إلى مجرد إثبات الصانع، بل أول ما دعاهم إليه الشهادتان، وبذلك أمر أصحابه. كما قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لَمَّا بعثه إلى اليمن: (إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ)[٢].

وكذلك سائر الأحاديث عن النبي ﷺ موافقة لهذا؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ).

وفي حديث ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: (حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ

(١) درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية (٨/٨ - ١٠).

(٢) رواه البخاري كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله (٨/٢٠٧)، رقم الحديث (٧٣٧٢). ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١/٥١)، رقم الحديث (١٩).

مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»(١).

وهذا مما اتفق عليه أئمة الدين، وعلماء المسلمين من أهل السنة والجماعة؛ فإنهم مجمِعُون على ما عُلِمَ بالاضطرار من دين الرسول ﷺ: أن كلَّ كافر يُدعى إلى الشهادتين، سواء كان معطِّلًا، أو مشركًا، أو كتابيًّا، وبذلك يصير الكافر مسلمًا، ولا يصير مسلمًا من دون ذلك.

قال أبو بكر ابن المنذر: «أجمع كلُّ مَنْ أحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد ﷺ حقٌّ، وأبرأُ إلى الله من كل دينٍ يخالف دينَ الإسلام»، وهو بالغ صحيح يعقِل: أنه مسلمٌ، فإن رجع بعد ذلك، فأظهر الكفر كان مرتدًّا، يجب عليه ما يجب على المرتد»(٢).

ومن هنا تدرك أن التركيز على قضية الاعتقاد والبدء بها قبل غيرها في القرآن الكريم، وفي منهج النبي ﷺ في دعوته وتربيته؛ لم يكن سببُه أن العرب في ذلك الوقت لم يكونوا يؤمنون بالله الواحد، وإنما لأن الاعتقادَ الصحيح هو السبيلُ الوحيدُ لإصلاح البشرية: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ومِن ثَمَّ، فإن الحديثَ عن قضية الاعتقاد لم ينقطع حتى في العهد المدني، وكان قد تربَّى على الاعتقاد الصحيح الصافي جيل كامل على يدَيِ المربي الأول العظيم ﷺ، بعضه تربى قبل الهجرة خلال ثلاثة عشر عامًا في مكة، وبعضه تربى بعد الهجرة في المدينة، وقدَّموا أنفسهم فداءً لهذا الاعتقاد الكريم، وآثروا الموتَ في سبيله؛ ومع هذا كله، فقد كانوا

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم (١/ ١٤)، رقم الحديث (٢٥). ومسلم، الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي ﷺ (١/ ٥١)، رقم الحديث (٢٠).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٦، ٧).

يخاطَبون في أمر الاعتقاد في القرآن الكريم؛ في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

وفي السُّنَّة كما ذُكر آنفًا.

وفي هذا دليل واضح على أن هذا الاهتمام بأمر الاعتقاد في القرآن والسُّنَّة، «كان سببه الأهمية الخاصة لهذا الموضوع ذاته، وأن الحديث عنه ليس درسًا يُعْطَى ثم يُمْضَى عنه إلى غيره، وإنما هو درس يُعطى على الدوام والاستمرار، ثم يُمْضَى معه إلى غيره»(١)؛ ولذا ظلَّ الحديثُ عن قضية الاعتقاد مستمرًّا بلا انقطاع حتى آخر آية نزلت من القرآن الكريم؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، بل حتى آخر خطبة خطَبَها رسول الله ﷺ قبل وفاته؛ كما روتها عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: (**لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**)، قالت عائشة: لولا ذلك لأُبرز قبرُه؛ خشي أن يُتَّخَذَ مسجدًا(٢)، وقال ﷺ أيضًا: (**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**)(٣).

كل ذلك حرصٌ منه ﷺ على المحافظة على الاعتقاد الصحيح عند الصحابة، ولفتٌ لأنظارهم إلى أهمية العقيدة الصافية الخالصة وخطورة الشرك بالله تعالى.

---

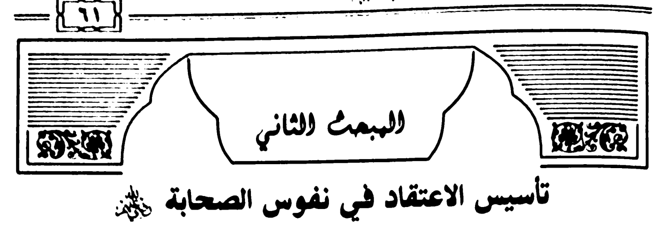
(١) دراسات قرآنية (ص٢١، ٢٢) بتصرف يسير.
(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور (٢/ ١١٢)، رقم الحديث (١٣٣٠)، ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (١/ ٣٧٦)، رقم الحديث (٥٢٩).
(٣) رواه مالك في الموطأ (ص٦٥).

وأختم هذا المبحث بكلام قيّم لأحد علماء الإسلام؛ قال رحمه الله تعالى: «ومِنْ هنا ندرك لماذا نالت قضيةُ الألوهية والعبودية كلَّ هذه العناية في المنهج القرآني الكريم، ولماذا تقدَّمت في المنهج النبوي على كل إصلاح وكل تنظيم، ولماذا كانت هذه الحقيقةُ هي قاعدةَ التصور الإسلامي، ولماذا كانت هي مناطَ الكفر والإسلام في هذا الدين، إنه تقدير الله الذي لا يخطئ، وميزانُ الله الذي لا يميل. ولقد صدق رسولُ الله ﷺ وهو يقول: (بَدَأَ هَذَا الدِّينُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)[1].

ولقد بدأ هذا الدين بالتوحيد الخالص في وجه جاهلية الشرك الشاملة، ولقد عاد هذا الدينُ غريبًا كما بدأ، وعاد يواجه جاهليةَ الشرك الشاملة ـ في صورها الجديدة ـ بالتوحيد الخالص مِنْ جديد.. فمَنْ ـ يا ترى ـ أولئك الغرباء السعداء بدعاء رسول الله ﷺ لهم بالحسنى؟! والذين يحملون راية التوحيد الخالص في وجه جاهلية الشرك الشاملة من جديد؟ ليبدؤوا الجولة الثانية كما بدأ أصحابُ رسول الله ﷺ الجولةَ الأولى؛ لِيُخرجوا مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد؟! إن الراية تنتظر العُصْبَة المؤمنة، وهذا القرآن حاضر، وريح الجنة يفوح مِنْ بعيد، لا بل مِنْ قريب»[2].



(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وأنه يأرز بين المسجدين (١/ ١٣٠)، رقم الحديث (١٤٥).
(٢) مقومات التصور الإسلامي (ص١٨٥ ـ ١٨٦).

تأسيس الاعتقاد في نفوس الصحابة ﷺ

أسَّس رسول الله ﷺ الإيمان بالله وبرسالته وبرسوله وبكتابه واليوم الآخر، في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم، وكان صريحًا في الدعوة إلى ذلك، لا يُكَنِّي، ولا يُلَوِّح، ولا يلين، ولا يُحَابي، ولا يُداهن في شيء مِمَّا أمره الله بإبلاغه حتى حسم مادة الشرك من نفوس أصحابه، بالتربية الحكيمة والمتابعة المتواصلة والاختيار الموفق؛ فأسَّس تلك الدارَ الكريمة «دار الأرقم بن أبي الأرقم» التي جعلها ﷺ مَقرًّا لتربية أصحابه على الاعتقاد الصحيح، وتأسيسهم عليه بعيدًا عن تأثير الجاهلية من حولهم.

يقول الشيخ أبو الأعلى المودودي رحمه الله تعالى:

«انظروا قليلًا فيما تحرَّى النبي ﷺ من التدرُّج والترتيب للبلوغ إلى هذه الغاية؛ فقد قام بدعوة الناس ـ أولًا وقبل كل شيء ـ إلى الإيمان، وأحكمه في قلوبهم، وأتقنَه على أوسع القواعد وأرحبِها، ثم نشّأ في الذين آمنوا تعليمه وتربيته طِبْقًا لمقتضيات هذا الإيمان تدرُّجًا بالطاعة العملية ـ أي: الإسلام ـ والطهارة الخلُقِية ـ أي: التقوى ـ وحب الله والولاء له ـ أي: الإحسان ـ ثم شرع بسعي هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل في تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة واستبدال نظام صالح به، قام على القواعد الخلقية والمدنية المقتبسة من القانون الإلهي المنزل من الرب تعالى.

ثم لَمَّا أصبح هؤلاء الذين آمنوا وَلبَّوا دعوتَه مِنْ كل وجهة ـ بقلوبهم وأذهانهم ونفوسهم وأخلاقهم وأفكارهم وأعمالهم ـ مسلمين مُتَّقين محسنين بالمعنى الحقيقي، وانصرفوا بأنفسهم إلى ذلك العمل الذي ينبغي لعباد الله

المخلصين الأوفياء أن ينصرفوا إليه إذن، وبعد كل ذلك أخذ النبي ﷺ يُرشدهم إلى ما يزين حياة المتقين المحسنين من الآداب والعادات المهذبة؛ في الهيئة والملبس والمأكل والمشرب والمعيشة والقيام والجلوس، وما إلى ذلك من الشؤون الظاهرة، وكأنني به ﷺ فتَنَ الذهب ونقَّاه مِنَ الأوساخ والأقذار أولًا، ثم طبع عليه بطابَع الدينار، ودرَّب المقاتلين أولًا، ثم كساهم زِيَّ القتال، وهذا هو التدرج الصحيح المرضيُّ عند الله في هذا الباب، كما يبدو لكل مَنْ تأمل القرآن والحديث وتبصَّر فيهما»[١].

هكذا كان رسول ﷺ الله ينتخب الأخيارَ العُقلاء، ويدعوهم إلى الإسلام، ويعرضُ عليهم العقيدةَ التي جاء بها من ربِّه ﷻ، وعاونه على ذلك صديقُه الحميم أبو بكر الصديق ﷺ، الذي ما تردَّد عندما عرض عليه الرسولُ ﷺ الإسلام[٢]، وإنما استجاب لنداء الله منذ أن سمعه، فأخذ يدعو إلى الإسلام مَنْ وَثِق به مِنْ قومه[٣].

ومكث ﷺ منذ أن أنزل الله عليه الوحي، ثلاثَ سنين يدعو مَنْ يثق به سرًّا ويتصل بمن اتَّبعه واستجاب له سرًّا لمواصلة الدعوة وتثبيتها، واستكمال التربية للقيادة المختارة بعيدًا عن جاذبية المجتمع؛ إلى أن أَمَرَه الله ﷻ بإعلان الدعوة والصدع بها[٤].

والحكمة في سرية الدعوة في أول أمرها ـ والله أعلم ـ هي: تحقيق التدريج بالنسبة للداعية الأول ﷺ؛ إذ بحيث لو كُلِّف بالصدع بالدعوة مِنَ أول يوم، لكان في ذلك مِنَ المشقة والعناء الشيءُ الكثير[٥].

ومن الحكمة في ذلك أيضًا: التدريج بالنسبة إلى المدعوين؛ فلا تصل

---

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية (ص٧٢).

(٢) انظر (ص٣٦) من هذه الرسالة.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٠)، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

(٥) الغرباء الأولون للشيخ سلمان بن فهد العودة (ص١٧).

الدعوة إلى أسماع العامة إلا وقد كان لها أتباعٌ وأنصار يكونون رِدْءًا وسندًا لها بعد حفظ الله وعونه.

ومن ثَمَّ استطاع ﷺ خلال هذه الفترة الزمنية الوجيزة أن يستقطب عددًا من الأتباع والأنصار من أقاربه وأصدقائه؛ إذ تمكن من مُسَارَّتهم وعرض العقيدة عليهم وتربيتهم حتى أصبحوا عونًا له على توسيع دائرة الدعوة ونشر الاعتقاد الصحيح وانحسار الشرك وكثرة الأتباع والأنصار(١).

وقد كان ﷺ يتخير الأشخاص أولًا، ثم يتولى تربيتهم بالقرآن الكريم وبسيرته العطرة ﷺ، فيغرس في نفوسهم العقيدة ويؤسسهم عليها بعيدًا عن الضغط الاجتماعي من حولهم؛ فعرَّفهم بربهم وخالقهم سبحانه معرفة أكسبتهم محبته وطاعته وامتثال أمره وإجلاله والخضوع له والانقياد لحكمه.

وَغَذَّى أرواحهم بالقرآن الكريم؛ فكان يتلو عليهم ما ينزل عليه من ربه، وهذَّب أخلاقهم؛ فكان يأمرهم بالصدق والأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهاهم عن الفحشاء في القول والعمل، وعن كل ما يدنس النفس الطاهرة من قول الزور وأكل مال اليتيم، حتى كانوا خير أمة أخرجت للناس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

يقول بعض العلماء رحمه الله:

«ولقد كنت ـ وأنا أراجع سيرة الجماعة المسلمة الأولى ـ أقف أمام شعور هذه الجماعة بوجود الله سبحانه، وحضوره في قلوبهم وفي حياتهم، فلا أكاد أُدرك كيف تم هذا؟ كيف أصبحت حقيقة الألوهية حاضرةً في قلوبهم وفي حياتهم على هذا النحو العجيب؟! كيف امتلأت قلوبهم وحياتهم بهذه الحقيقة هذا الامتلاء؟! كيف أصبحت هذه الحقيقة تأخذ

(١) انظر: المرجع السابق (ص١١٨).

عليهم الفِجاج والمسالك والاتجاهات والآفاق، بحيث تواجههم حيثما اتجهوا، وتكون معهم أينما كانوا وكيفما كانوا؟!

كنت أدرك طبيعة وجود هذه الحقيقة، وحضورها في قلوبهم وفي حياتهم، ولكني لم أكن أدرك كيف تمَّ هذا؟ حتى عدتُ إلى القرآن أقرؤه على ضَوْءِ موضوعه الأصيل: تجلية حقيقة الألوهية وتعبيد الناس لها وحدها بعد أن يعرفوها؛ وهنا فقط أدركت كيف تم هذا كلُّه.

أدركت - ولا أقول: إني أحطتُ - سِرَّ الصناعة، عرفت أين صُنِعَ ذلك الجيلُ المتفرِّدُ في تاريخ البشرية، وكيف صُنع؛ إنهم صُنعوا ههنا، صُنعوا في هذا المنهج (على يدي رسول الله ﷺ؛ فغرس في نفوسهم معرفة أن)[1] الله هو الأول والآخر، والله هو الظاهر والباطن، والله هو الخالق والرازق، والله هو المسيطر والمدبِّر، والله هو الرافع والخافض، والله هو المُعِزُّ والمُذِلُّ، والله هو القابض والباسط، والله هو المحيي والمميت، والله هو النافع والضارُّ، والله هو المنتقم الجبار، والله هو الغفور الودود، والله هو العليُّ الكبير، والله هو القريب المجيب، والله هو الذي يَحُول بين المرء وقلبه، والله هو الذي يُجيب المضطرَّ إذا دعاه ويكشف السوء، والله هو العليم بذات الصدور، وهو معهم أينما كانوا، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وهو الذي يُنَزِّل الغيث مِنْ بعد ما قَنَطُوا وينشرُ رحمته، وهو الذي يُولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحيَّ من الميت، ويخرج الميت من الحيِّ، ولا ملجأ من الله إلا إليه، وما لهم مِنْ دونه من وال، وكلُّهم آتيه يوم القيامة فردًا، وهكذا وهكذا...، جَعَلَتْ هذه الحقيقةُ تملأ على الناس حياتَهم، وتواجههم في كل درب، وتتراءى لهم في كل صَوْب، وتأخذُ على أنفسهم أقطارها، وتُعايشهم وتساكنُهم بالليل والنهار، وبالغُدُوِّ والآصال، وحين يستَغْشُون ثيابَهم، وحين تهجس سرائرهم، وحين يستخفون من

---

(١) ما بين القوسين من كلامي.

الناس، بل حين يستخفون من نفوسهم التي بين جنوبهم»[١].

ومِمَّا يدلُّ على أن النبيَّ ﷺ كان يغرِسُ الاعتقادَ الصحيح في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم ويربيهم عليه ما يلي:

١ ـ ما دار بينه وبين حُصَينٍ والدِ عمرانَ؛ فقد دخل حُصينٌ والدُ عمرانَ على النبي ﷺ، فلما رآه قال لأصحابه: (أَوْسِعُوا لِلشَّيْخِ).

فقال حصين: ما هذا الذي بلَغَنا عنك؛ أنك تشتُم آلهتنا؟!

فقال له النبي ﷺ: (يَا حُصَيْنُ، كَمْ تَعْبُدُ مِنْ إِلَهٍ؟).

قال: سبعة؛ ستة في الأرض وواحدٌ في السماء.

فقال النبي ﷺ: (فَإِذَا أَصَابَكَ الضُّرُّ، فَمَنْ تَدْعُو؟).

قال حصين: الذي في السماء.

فقال النبيُّ ﷺ: (فَإِذَا هَلَكَ المَالُ، مَنْ تَدْعُو؟).

قال حصين: الذي في السماء.

فقال ﷺ: (فَيَسْتَجِيبُ لَكَ وَحْدَهُ وَتُشْرِكُ مَعَهُ؟! يَا حُصَيْنُ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ). فَأَسْلَمَ.

فقام إليه ولده عمران رضي الله عنهما فقبَّل رأسَه ويديه ورجليه؛ فبكى رسول الله ﷺ، وقال: (بَكَيْتُ مِنْ صَنِيعِ عِمْرَانَ؛ دَخَلَ حُصَيْنٌ وَهُوَ كَافِرٌ، فَلَمْ يَقُمْ لَهُ عِمْرَانُ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ نَاحِيَتَهُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ وَفَّى حَقَّهُ؛ فَدَخَلَنِي مِنْ ذَلِكَ الرِّقَّةُ).

فلمَّا أراد حصينٌ الخروجَ، قال رسول الله ﷺ: (شَيِّعُوهُ إِلَى مَنْزِلِه). فلمَّا خرج من سُدَّة الباب ـ أي: عَتَبَتِهِ ـ رأته قريش، قالوا: «قد صبأ!» وتفرَّقوا عنه[٢].

ففي قصة إسلام حصين رضي الله عنه ترى أن رسول الله ﷺ ألزمه بما أقرَّ به من التفرُّد بالربوبية لله تعالى، وأن يعمل بمقتضاه، ويلتزم لازِمَه مِنْ توحيد

(١) مقومات التصور الإسلامي (ص١٩٠ ـ ١٩١).

(٢) أورده الحافظ ابن حجر في الإصابة (١/ ٣٣٧)، وذكره صاحب السيرة الحلبية (١/ ٤٥٥).

العبادة، وأن يكفرَ بما يناقض ذلك؛ لأن توحيدَ الربوبية هو أعظمُ حُجَّة على توحيد العبادة، وبه احتج الله تعالى في كتابه في كثير من المواضع على وجوب إفراده تعالى بالعبادة؛ لتلازُم التوحيدين؛ فإنه لا يكون الإله مستحقًا للعبادة إلا إذا كان خالقًا رازقًا مالكًا متصرفًا مدبرًا لكل الأمور، حيًّا بصيرًا قيُّومًا عليمًا حكيمًا غنيًّا عمَّا سواه، مفتقرًا إليه كلُّ مَنْ عداه، وهذه صفات الله تعالى التي لا تنبغي إلا له، ولا يشاركه فيها أحد؛ ومِنْ ثَمَّ فهو الذي يستحق العبادة وحده ولا تجوز لغيره، وفي صرفها لغيره يكون الشرك والكفر والضلال(١).

هكذا أسَّس رسول الله ﷺ الاعتقادَ الصحيح في نفوس أصحابه حتى قَدَروا الله حقَّ قدره، ثم عبدوه حقَّ عبادته عن طريق قيام الحجة بالحوار الهادئ اللطيف؛ فقد كان دأبُه ﷺ إقناعَ الداخل في الإسلام بالحق الذي بعثه الله به، وإيضاح الحجة والدليل على ذلك بالحوار المقنع.

وفي هذا النص فوائدُ غيرُ ما تقدم؛ ففيه حُسن تعامل النبي ﷺ مع المُخالف لتهيئة نفسه لسماع كلام الله تعالى والدعوة إليه، وتدريب الأصحاب الذين حضروا هذا الحوار على حسن التعامل وطريقة الدعوة الصحيحة وتأسيسها في النفوس.

وفيه إشارة إلى قضية الولاء والبراء في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، ولَفْتُ أنظارهم إلى أهمية ذلك، وأنه من أصول الاعتقاد الصحيح وقواعده؛ وذلك ببكائه ﷺ مِنْ صنيع الصحابي الجليل عمران بن حصين الذي حقق الولاء والبراء في هذه الجلسة المباركة، وهو تطبيق عملي لِمَا تعلّمه من رسول الله ﷺ من قبلُ؛ إذ لم يأبَه رضي الله عنه لأبيه حينما دخل وهو كافر، فلما أسلم أعطاه حقَّه كاملًا من البر والصلة والولاء، فقبَّل رأسه ويديه ورجليه، وفرح بإسلامه فرحًا شديدًا.

---

(١) انظر: معارج القبول (٢/ ٣٥٠) وما بعدها.

وفيه أيضًا اهتمامُه ﷺ بمن قَبِلَ الحقَّ وآمن به؛ فقد أمر ﷺ أصحابَه بتشييع حصين ﷺ ومرافقتِه إلى منزله.

وفي هذا توجيه للمربين بأن يستفيدوا من هذا المنهج التربوي الذي قدَّمه رسول الله ﷺ في تربيته وتعليمه لأصحابه رضوان الله عليهم.

٢ ـ ما روته أمُّ سلمة بنتُ أمية بن المغيرة، زوجُ النبي ﷺ بقولها: «لَمَّا نزلنا أرضَ الحبشة جاورنا فيها خيرَ جارٍ؛ النجاشي، أمِنَّا على ديننا، وعبَدْنا اللهَ تعالى، لا نُؤذَى، ولا نسمعُ شيئًا نكرهه... إلى أن قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا إليه، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمَرَنا به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن.

فلما جاؤوا وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا صحائفهم حوله، سألهم، فقال لهم: ما هذا الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد مِنْ هذه المِلَل؟

فكان الذي كلَّمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنَّا قومًا أهلَ جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجِوارَ، ويأكل القويُّ منا الضعيفَ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصِدْقَه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّدَه، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرَنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصِلَة الرَّحِم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقوْل الزور، وأكلِ مال اليتيم، وقذفِ المحصَنات، وأمرَنا أن نعبدَ الله وحده، ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصوم ـ قالت: فَعَدَّد عليه أمورَ الإسلام ـ فَصَدَّقناه، وآمنَّا به، واتَّبعناه على ما جاء به مِنَ الله؛ فعبدنا اللهَ وحده، ولم نشرك به شيئًا، وحَرَّمنا ما حرَّم

علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا...»[1].

ففي هذه المحاورة التي دارت بين النجاشي وبين الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ظهر جليًا مدى العناية الكبرى التي كان يبذلها رسول الله ﷺ في تربية أصحابه، وتأسيسهم على الاعتقاد الصحيح، وربط قلوبهم بالله تعالى وحده لا شريك له.

وقد ظهر أثر هذه العناية واضحًا في تكوين ذلك الجيل الفريد من الطليعة الأولى في الدعوة؛ أمثال جعفر بن أبي طالب وأصحابه؛ فإنَّ جعفرًا رضي الله عنه شرح للنجاشي حقيقة هذا الدين الذي ربَّاهم عليه رسولُ الله ﷺ، وعلَّمهم إياه في الدار المباركة دار الأرقم.

فقد كان «يجلس فيه النبي ﷺ وحوله صفوة السَّبْق إلى الهدى ودين الحق، يعلِّمهم الكتاب والحكمة، ويزكِّيهم بما يعلمه الله من وحيه وتنزيل كتابه، ويؤدبهم بأدبه النفسي الذي رباه الله عليه، ونشَّأه على هَدْيِه، ويفقِّهُهم في الدين، ويُرشدهم إلى مراشد الحياة ومحاسنها، ويلقِّنهم بِسَمْتِه ودَلِّه، وحركاته وسكناته، ونُطقه وصَمْته، منازع الصبر والمصابرة، وضبط النفس، وشجاعة القلوب، ونقاء الباطن، وتحمُّل فوادح البلاء، والحلم مع المقدرة، والصفح والمغفرة، إعدادًا لِمَا ينتظرهم مِنْ شدائد الحياة، ومرارة الكفاح، وعنف النضال في سبيل نشر دعوتهم إلى الحق، وتبليغ رسالة نبيهم ﷺ إلى الدنيا بأقطارها، وأجيالها، أحمرِها وأسودِها»[2].

وهكذا ربّاهم ﷺ على الاعتقاد الصحيح، وأسَّسهم عليه، حتى رسَخ في قلوبهم، ثم أخذ يربِّيهم على تأثير هذا الاعتقاد في نفوسهم وفي الحياة

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣)، (٥/ ٢٩٠ ـ ٢٩٣)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٧ ـ ٣٠) وقال: «ورجاله رجال الصحيح إلا ابن إسحاق، وقد صرَّح بالسماع، فهو صحيح».
وذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٨).

(٢) محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة، بحث وتحقيق الشيخ محمد الصادق عرجون (٢/ ١٥٦)؛ وانظر: الرحيق المختوم (ص١٠٤)، للشيخ صفي الرحمٰن المباركفوري.

من حولهم، فصحح ﷺ أخلاقهم وسلوكهم ومنهجَ حياتهم وَفْقَ المنهج الرباني الذي جاء به من عند ربه، حتى كانوا ـ رضوان الله عليهم ـ خيرَ أمة أخرجت للناس بما اتَّصفُوا به مِنْ إيمان راسخ، ويقين صادق، وأخلاق فاضلة، وسلوك مستقيم، ومسارعةٍ لِمَا يحبُّه الله ويرضاه، والثبات عليه مهما كلَّفهم ذلك من مشقَّة وعنت.

فعلى الدعاة والمربين أن يبذُلوا جهدهم في تأسيس الاعتقاد الصحيح في نفوس مَنْ ولَّاهم الله تربيتَه وتعليمه، وأن يستفيدوا مِنْ هذا النص في التعرُّف إلى المنهج التربوي الذي كان يربِّي النبيُّ ﷺ أصحابَه عليه؛ ويتلخص هذا المنهج النبوي فيما يلي:

أولًا: التربية على الاعتقاد الصحيح، وترسيخ التوحيد الخالص في نفوس الناس، وخَلْع كلِّ عبادة لغير الله تعالى مِنْ حجارة وأوثان وغير ذلك من أنواع المعبودات.

ثانيًا: تزكية النفوس؛ بغرس الفضائل والأخلاق الحسنة؛ من صدق الحديث وأداء الأمانة، وصِلَة الرحم، وحُسْن الجوار، والكَفّ عن المحارم والدماء، وغير ذلك مما يحبُّه الله ويرضاه.

ثالثًا: السعي لاقتلاع الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ من قول الزور، وأكل مال اليتيم، وأكل الحرام بكل أنواعه وأشكاله، وقذف المحصنات، وغير ذلك مما يكرهه الله تعالى ويأباه.

٣ ـ ما رواه البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ عن عبادة بن الصامت، أن رسول الله ﷺ قال: (**تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ، فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**). قال: فبايعناه

على ذلك[١].

وبعد أن تمّت البيعةُ، وانتهى موسم الحج، أرسل النبيُّ ﷺ مع هؤلاء المبايعين أولَ سفير في الإسلام إلى المدينة ليُعَلِّم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويفقههم في الدين، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يدخلوا فيه، واختار لهذه السفارة شابًا من شباب الإسلام، مِنَ السابقين الأوّلين؛ ذلكم هو مصعب بن عمير العبدي رضي الله عنه.

ونزل مصعبُ على أسعد بن زُرارة، وأخذا ينشران الإسلام في أهل المدينة بجدٍّ وحماس، حتى لم يبْقَ دارٌ مِنْ دور المدينة إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان مِنْ دار بني أمية بن زيد وخَطمة ووائل، كان فيهم قيسُ بنُ الأسلت الشاعر، وكانوا يطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمسٍ من الهجرة.

وقبل حلول موسم الحج التالي ـ أي: حج السنة الثالثة عشرة ـ عاد مصعب بن عُمير إلى مكةَ يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائِرَ الفوز والنصر، ويقصُّ عليه خبر قبائل أهل المدينة، وما فيها مِنْ مواهب الخير، وما لها من قوة ومَنَعةٍ[٢].

وواضحٌ في هذا الحديث السابق أن الداعية الأولَ عليه صلوات الله وسلامه، بدأ مبايعتَه للأنصار بدعوتهم إلى الله تعالى، وعدم الإشراك به، والالتزام بطاعته، وترك معصيته، وربَّاهم على ذلك حتى تأسس الاعتقادُ الصحيح في نفوسهم، قبل أن يطلب منهم الحمايةَ والنُّصرة لنفسه.

فقرأ عليهم القرآن، وعرض عليهم الإسلام؛ فآمنوا به، وأذعنوا لِمَا عرضه عليهم، والتزموا بما أخذه عليهم مِن طاعة الله وترك معاصيه، ثم أرسل معهم شابًا مِنَ السابقين إلى الإسلام، ومِمَّن تربَّى على يدي

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٨).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٢/ ٩٠)، وزاد المعاد لابن قيم الجوزية (٢/ ٥١).

رسول الله ﷺ في دار الأرقم؛ ذلكم هو مصعب بن عُمير، الذي انغرس الإيمانُ في قلبه، وتأسَّست معالمُه في نفسه وفكرِه، وتحوَّل من ذلك الشابِّ المُتْرَف البَذِخ إلى ذلك الشاب المؤمن المجاهد، الذي باع نفسَه لله ولرسوله يبتغي بذلك الجنةَ وما فيها من نعيم مقيم؛ فكان رضي الله عنه قدوةً صالحةً لمن أُرسل إليهم ومعهم، فتابع مَنْ بايعَ رسولَ الله ﷺ في بيعة العقبة بتعليمهم شرائعَ الإسلام، وتفقيههم أمورَ هذا الدين، فَربَّاهم كما تربَّى رضي الله عنه ونجح في ذلك بسبب تأسِّيه بالنبي ﷺ في التربية والتعليم.

وبذلك انغرس الاعتقاد الصحيح في نفوس الأنصار، وارتبطت قلوبهم بالله الواحد لا شريك له، واشتاقوا إلى لقاء رسول الله ﷺ؛ لينصروه ويُعزِّروه، ويوقِّروه حتى يُبَلِّغَ ما أُنزل إليه من ربه، وبعد أن أنهى مهمتَه رضي الله عنه جاء يزُفُّ البشرى لرسول الله ﷺ بما وَفَّقه الله من عمل جادٍّ مثمر، وأنه ما من دار من دور المدينة إلا وقد دخلها الإسلامْ، وارتفع فيها ذكر الله تعالى.

وبهذا المنهج النبوي يتَّضح أهميةُ التربية والمتابعة؛ فقد اهتم المربي العظيم محمدُ بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، بتربية أصحابه ومتابعتهم حتى ظهر أثرُ هذه التربية وهذه المتابعة في تصرُّف أصحابه رضوان الله عليهم، ومِنْ بينهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان الساعدَ الأيمنَ لرسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى والتربية على ذلك؛ ودخل بدعوته أُناسٌ كثيرون في دين الله تعالى، بسبب ما اتَّصف به مِن أخلاق عالية اقتبسها من مُرَبِّيه ومعلِّمه ﷺ.

وما ذلك إلا بما اتَّسم به هؤلاء الدعاة الأخيار مِن أخلاق عالية وحِلْم وشَفَقَة وسَعَة صدر على الآخرين، وتحبيب الإيمان في النفوس عن طريق الإقناع والمحاورة، وإقامة الحجة والبرهان على ما يدعون إليه، وهذا ما اقتبسوه مِن مربِّيهم ومعلِّمهم ﷺ عن طريق القدوة المباركة الصادقة التي

تمثّل بها ﷺ، وعن طريق التوجيه المباشر والتعليم لهم، وتربيتهم على ذلك، وصبره وحمله ﷺ عليهم، ومتابعته لِمَا غرَسَه في نفوسهم مِنْ تعاليم قرآنية وأحاديث نبوية، وسيرة عَطِرَة مِن سلوكه ﷺ.

ومِن هذا الخبر يظهر أيضًا أثرُ الصحبة أيًا كان نوعها؛ فصحبة الأخيار لها أثر قوي في النفوس من حيث الإقبالُ على الخير وتعاليمه، والبعدُ عن الشرّ ومفاسده؛ وبهذه الصحبة الخيِّرة تتربّى النفوس وتزكو، وترتفعُ عن سَفْسَافِ الأمور وحقيرها، وتتعلقُ بمعالي الأمور وأسماها.

وهذا واضح من صحبة أسعد بن زُرارةَ لمصعب بن عُمير رضي الله عنهما.

وأما صحبة الأشرار، فتؤدّي إلى الفساد في الخُلُق والدين، وتصُدُّ عن الصراط المستقيم، وتحطُّ مِن قدر النفوس، وتؤدّي بها إلى سَفْسَافِ الأمور وأحقرها.

وهذا واضحٌ مِنْ صُحبة بني أمية بن زيد وخَطمة ووائل للشاعر قيس بن الأسلت.

ويظهر كذلك مِنَ الخبر أهميةُ اختيار المكان المناسب لنشر الدعوة والخير. وهذا واضح من اختيار النبي ﷺ المدينة بعد بيعة العقبة الأولى.

٤ ـ ما رواه جابر بن عبد الله السُّلَمي؛ قال: كان رسولُ الله ﷺ يعلِّمُ أصحابَه الاستخارةَ في الأمور كلِّها كما يعلِّمُ السورةَ من القرآن؛ يقول: (إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لْيَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ. اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ هَذَا الأَمْرَ ـ ثُمَّ تُسَمِّيهِ بِعَيْنِهِ ـ خَيْرًا لِي فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ قال: أو فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أو قال: فِي عَاجِلِ أَمْرِي

وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ)[١].

ففي هذا الحديث يخبر جابر بن عبد الله ﵄ أن رسول ﷺ كان يعلِّمهم الاستخارة؛ أي: كيفية صلاتِها ودعائِها - وهذا مِنْ تمام شفقته ﷺ بأصحابه، وحِرْصِه على حضور الخير لهم، ودفع الشرِّ عنهم - كما يعلِّمهم السورة من القرآن، وفي هذا بيان لشدة اهتمامه ﷺ بالاستخارة والعناية بها، وهذا من مزايا الإسلام الظاهرة لكل عاقل؛ فإن الملجأ الحقيقيَّ للمسلم والحصن الحصين له هو اللهُ تعالى وحده لا شريك له؛ فهو العالم بكل شيء من خير أو شر، والقادرُ على كلِّ شيء، مِنْ جلب نفع، أو دفع ضرٍّ؛ فاللجوء إليه مِن مقتضيات الإيمان به، والاعتراف بألوهيته، وتفرُّدِه في أسمائه وصفاته.

وفي هذا تربيةٌ للصحابة رضوان الله تعالى عليهم ليجتنبوا ما كان يعمله العرب في الجاهلية، فإنهم كانوا إذا همَّ أحدُهم بأمرٍ، أو حَزَبَه شيءٌ، ذهب أحدُهم «يستقسم بالأزلام، أو ذهب يزجُر الطير ليستدلَّ بطيرانه أو نُعابِه على ما سيحصل له في المستقبل، أو ذهب إلى الكَهَنة وإخوانِ الشياطين، وهذا كلُّه رَجْم بالغيب وشرك بالله، فعوَّضه الإسلامُ عن ذلك بالفزع إلى مَن بيده أَزِمَّةُ الأمور كلِّها، ومَن يملك الخير والشر، فيقدمون بين يدي ذلك ركعتين، لتكونا وسيلةً بين يدي الطلب، ثم يتوجهون إلى ربِّهم بهذا الدعاء الذي فيه التوسُّل إليه تعالى بأسمائه وصفاته، وتوحيد الطلب والنية والقصد»[٢].

وفي هذه التربية وهذا العوض بالتوجه إلى من بيده أزمة الأمور تعظيمٌ لله تعالى وتعظيمٌ لقدرته سبحانه، وأنه سبحانه عرَّف عبادَه بصفاته وعجائبِ مخلوقاته، وأنه هو المعبودُ وحده سبحانه، المتّصف بصفات

---

(١) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى (٢/ ٦٤)، رقم الحديث (١١٦٢).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٢٠٥).

الكمال والجمال على ما يليقُ بجلالِهِ سبحانه وتعالى وعظيمِ سلطانه.

وبمثل هذا يُعْلَمُ أنَّ النبيَّ ﷺ لم يتركْ ما يعتقده الأصحاب والأمة مِنْ بعدهم في ربِّهم سبحانه من الإيمان بأسمائه وصفاته، وما يجب له سبحانه، وما ينبغي أن يُنَزَّه عنه سبحانه ـ دون إيضاح وبيان.

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي عليه رحمة الله تعالى:

«واعلموا أن هنا قاعدةً أصوليةً أطبق عليها مَنْ يُعْتَدُّ به مِنْ أهل العلم؛ وهي أن النبي ﷺ لا يجوز في حقِّه تأخيرُ البيان عن وقت الحاجة، ولا سيما في العقائد، ولا سيما لو مشينا على فرضهم الباطل أن ظاهر آيات الصفاتِ الكفر؛ فالنبي ﷺ لم يُؤَوِّلِ الاستواءَ بالاستيلاء، ولم يؤوِّل شيئًا مِنْ هذه التأويلات، ولو كان المراد بها هذه التأويلات لبادَرَ النبيُّ ﷺ إلى بيانها؛ لأنه لا يجوز في حقِّه تأخيرُ البيان عن وقت الحاجة؛ فالحاصل أنه يجب على كلِّ مسلم أن يعتقدَ هذا الاعتقادَ الذي يَحِلُّ جميع الشُّبَه، ويُجِيبُ عن جميع الأسئلة؛ وهو: أن الإنسان إذا سمع وصفًا وصف به خالقُ السمٰوات والأرض نفسَه، أو وصفَه به رسولُه ﷺ، امتلأ صدرُه مِنَ التعظيم، فيجزم بأن ذلك الوصف بالغٌ مِنْ غايات الكمال والشرف والعُلُوِّ ما يقطع جميعَ علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيكون القلب مُنَزِّهًا مُعَظِّمًا له جَلَّ وعلا، غيرَ متنجِّس بأقذار التشبيه، فتكون أرضُ قلبه قابلةً للإيمان والتصديق بصفات الله التي تمدَّح بها، أو أثنى عليه بها نبيُّه ﷺ؛ على غرار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، والشَّرُّ في عدم تعظيم الله تعالى، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تُشبه صفةَ المخلوق، فيضطر المسكين أن ينفي صفةَ الخالق بهذه الدعوى الكاذبة. ولا بدَّ في هذا المقام من نقط يُنَبَّه إليها طالبُ العلم:

أولًا: أن يعلم طالب العلم أن جميع الصفات مِنْ بابٍ واحدٍ؛ إذ لا فرق بينها البتة؛ لأن الموصوف بها واحدٌ، وهو الله جَلَّ وعلا، ولا يشبه الخلق في شيء من صفاتهم البتة، فكما أنكم أثبتم له سمعًا وبصرًا لائقَيْن

بجلاله، لا يشبهان شيئًا من أسماع الحوادث وأبصارهم، فكذلك يلزم أن تُجْرُوا هذا بعينه في صفة الاستواء والنزول والمجيء، إلى غير ذلك من صفات الجلال والكمال التي أثنى الله بها على نفسه.

واعلموا أن رَبَّ السمٰوات والأرض يستحيل عقلًا أن يصف نفسه بما يلزمه محذور، أو يلزمه محالٌ، أو يؤدي إلى نقص؛ كل ذلك مستحيل عقلًا؛ فإن الله لا يصف نفسه إلا بوصفٍ بالغٍ من الشرف والعلوّ والكمال ما يقطع جميع علائقِ أوهام المشابَهة بينه وبين صفات المخلوقين على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثانيًا: أن يعلموا أن الصفاتِ والذاتَ من باب واحد؛ فكما أننا نثبت ذات الله جل وعلا إثباتَ وجودٍ وإيمان، لا إثباتَ كيفية مكيَّفة، فكذلك نثبت لهذه الذات الكريمة المقدسة صفاتٍ إثباتَ إيمانٍ ووجودٍ، لا إثباتَ كيفية وتحديد.

واعلموا أن آياتِ الصفاتِ، كثيرٌ من الناس يطلق عليها اسمَ المتشابه، وهذا من جهةٍ غلطٌ، ومن جهة قد يَسُوغُ كما يثبته الإمام مالك بن أنس. أما المعاني، فهي معروفة عند العرب، كما قال الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة»؛ كذلك يقال في النزول: النزول غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة. وأفرده في جميع الصفات؛ لأن هذه الصفات معروفة عند العرب، إلا أن ما وصف به خالق السمٰوات والأرض منها أكمل وأجلُّ وأعظم من أن يُشْبِهَ شيئًا من صفات المخلوقين، كما أن ذات الخالق جل وعلا حقٌّ، والمخلوقون لهم ذواتٌ، وذات الخالق جل وعلا أكمل وأنزه وأجلُّ من أن تشبه شيئًا من ذوات المخلوقين.

فعلى كل حال، الشَّرُّ كلُّ الشَّرِّ في تشبيه الخالق بالمخلوق، وتنجيس القلب بقذَر التشبيه؛ فالإنسان المسلم إذا سمع صفةً وُصِفَ بها اللهُ، أول ما يجب عليه أن يعتقد أن تلك الصفة بالغةٌ من الجلال والكمال ما يقطع

أوهام علائق المشابهة بينها وبين المخلوقين، فتكون أرضُ قلبه طيبةً طاهرةً قابلة للإيمان بالصفات على أساس التنزيه؛ على نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]»(١).

٥ - ما رواه البخاري بسنده، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ بارزًا يومًا للناس، فأتاه رجل، فقال: ما الإيمان؟ قال: (الإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالبَعْثِ).

قال: ما الإسلام؟

قال: (الإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ).

قال: ما الإحسان؟

قال: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ).

قال: متى الساعة؟

قال: (مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البَهْمِ فِي البُنْيَانِ؛ فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ)، ثم تلا النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآية [لقمان: ٣٤]، ثم أدبر. فقال: (رُدُّوهُ)، فلم يرَوْا شيئًا، فقال: (هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ)(٢).

ففي هذا الحديث تربيةٌ للصحابة رضوان الله تعالى عليهم وللأمة كلها، على الاعتقاد الصحيح، وتعليمٌ لهم أمورَ هذا الدين الحنيف.

والسبب في مجيء جبريلَ عليه السلام إلى النبي ﷺ والصحابةُ حولَه جلوسٌ،

(١) منهج دراسات لآيات الأسماء والصفات (ص٢٠، ٢٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، وبيان النبي ﷺ له (١/ ٢٢)، رقم الحديث (٥٠).

ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله ﷻ (١/ ٣٩)، رقم الحديث (٩).

ثم سؤالُ جبريلَ رسولَ الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن الساعة، وهو الواسطة بين الله تعالى وبين رسله، فهو الذي ينزل بالآيات والأوامر بأمر ربه عليهم - هو تعليمُ الصحابة وتربيتُهم على الاعتقاد الصحيح بربط قلوبهم بالله تعالى، وغرس ذلك في نفوسهم، وتأسيسهم عليه حتى تطهرَ قلوبُهم، فلا يبقى فيها لغيره سبحانه نصيب، فتخلُصُ نفوسُهم مِنْ حظّ نفوسهم، ببركة متابعة النبي ﷺ المتواصلة والعميقة في تربيتهم وتعليمهم، والصبر عليهم؛ حتى أصبحوا جيلًا فريدًا بحقٍّ؛ ولذلك لفت الرسولُ ﷺ أنظار الصحابة بقوله: (هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ).

فكان هذا تعليمًا عميقًا واضحًا بحق، ذا سلطان على أرواحهم وعقولهم وجوارحهم، وذا تأثير عميق في أخلاقهم وسلوكهم، وذا سيطرة على الحياة من حولهم وما يتصل بها.

فَحَقَّقُوا الإيمان الذي عَلَّمهم إياه رسولُهم ومعلمهم ﷺ وأسَّسهم عليه، «فآمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، آمنوا برب العالمين الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور، العزيز الحكيم الغفور الودود، الرؤوف الرحيم، له الخلْقُ والأمر، بيده مَلَكُوت كلِّ شيء، يُجير ولا يُجار عليه، إلى آخر ما جاء في القرآن مِنْ وصفه تعالى، يثيب بالجنة ويعذب بالنار، ويبسُط الرزق لمن يشاء ويقدر، يعلم الخَبْء في السمٰوات والأرض، ويعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرُّفه وعلمه؛ فانقلبت نفوسُهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلابًا عجيبًا، فإذا آمن أحدٌ بالله، وشهد أنْ لا إله إلا الله انقلبت حياته ظَهْرًا لِبَطْن، تغلغل الإيمان في أحشائه وتسرَّب إلى جميع عروقه ومشاعره، وجرى منه مجرى الروح والدم، واقتلع جراثيمَ الجاهلية وجذورها، وغمَر العقل والقلب بفيضانه، وجعل منه رجلًا غيرَ الرجل، وظهر منه مِنْ روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ومن خوارق

الأفعال والأخلاق ما حَيَّر العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق، ولا يزال موضع حَيْرة ودهشة منه إلى الأبد، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق»[١].

٦ ـ ما جاء عن معاوية بن الحكم السُّلَمي، قال: قلتُ: يا رسول الله، أمورٌ كنا نصنعُها في الجاهلية، كنا نأتي الكُهَّان؟ قال ﷺ: (**فَلَا تَأْتُوا الكُهَّانَ**)، قال: قلت: كنا نتطيَّر؟ قال: (**ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ، فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ**)، قلتُ: ومنَّا رجال يخطُّون؟ قال: (**كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ**)[٢][٣].

ففي هذا الحديث يتبين أن الكَهانة والتطيُّر من عمل أهل الجاهلية، ولذلك نهى النبي ﷺ عنها، وأخبر معاويةَ أنها لا تضرُّ ولا تنفع، وأن تَأذِّيه وتشاؤمَه منها إنما هو في نفسه وعقيدته لا فيهما، وإنما وهمُه وخوفُه وإشراكه هو الذي يَصُدُّه لِمَا يراه ويسمعه. فَبَيَّن ﷺ لأصحابه الأمرَ، وأوضح لهم فسادهما، ليعلموا أن الله سبحانه وتعالى بيده كلُّ شيء، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأْ لم يكن. وأنه سبحانه «لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحْذَرُونه»[٤]، وفي هذا تربية لهم على الاعتقاد الصحيح لتطمئنَّ قلوبُهم، وتسكُنَ نفوسُهم، وتتعلق بالله وحده لا شريك له.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص١٠١).

(٢) «قوله: (**مَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ**)؛ أي: مَنْ وافق خطُّه خطَّ ذلك النبيِّ، فهو مباح، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة؛ فلا يباح؛ لأن الإباحة تكون بتيقُّن الموافقة، ولا سبيل إليها؛ ولذا اتفق العلماء على النهي عن هذا الصنيع، وعدُّوه حرامًا. صرَّح بذلك غيرُ واحد من الأئمة».
من كلام محققي زاد المعاد في هامش زاد المعاد (٣/ ٦٥٥).
وقال: **والعيافة**: زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرِّها. **والكهانة**: تعاطي خبر الكائنات في المستقبل. **والخط**: خط الرمل. المرجع السابق (٣/ ٦٥٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٤/ ١٧٤٨)، رقم الحديث (٥٣٧).

(٤) **انظر**: فتح المجيد (ص٢٦٨).

وبهذه التربية قطع النبي ﷺ مادة الشرك وحسم أثره من نفوسهم وفكرهم؛ لكي تكون نفوسُهم صافيةً، وقلوبُهم خالصةً لله وحده ليس فيها لغيره نصيب.

٧ - ما رواه الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم ﷺ، أنه دخل على رسول الله ﷺ - وفي عنقه صليب من فضة - وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم؟! فقال: (بَلَى، إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ؛ فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ).

وقال رسول الله ﷺ: (يَا عَدِيُّ، مَا يَضُرُّكَ؟ أَيَضُرُّكَ أَنْ تَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟! فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ سِوَى اللهِ؟) قال: قلتُ: لا.

قال: ثم تكلَّم ساعةً، ثم قال: (أَيَضُرُّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ؟! وَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنَ اللهِ؟) قال: قلت: لا.

قال: (فَإِنَّ اليَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ النَّصَارَى ضَالُّون).

قال: فقلت: إني حنيفٌ مسلم. قال: فرأيتُ وجهَه ينبسط فرحًا. قال: ثم أمرني، فَأُنْزِلْتُ عند رجل من الأنصار، وجعلت أغشاه؛ آتيه طرفَيِ النهار(١).

لقد وَضَّحَ رسول الله ﷺ في هذا الحديث لعدي بن حاتم مفهومَ العبادة، وأنَّ أخذ التحليل والتحريم من غير الله تعالى - أي: التحاكم إلى غير الله تعالى والتشريع من دونه ما لم يأذن به سبحانه - شِرْكٌ مُخْرِج مِنَ المِلَّة، وليست العبادة مقصورةً على الصلاة والصيام فقط، وإنما هي أعمُّ

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، في باب: ومن سورة فاتحة الكتاب (١٨٦/٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب».
ورواه أحمد في المسند (٣٧٨/٤)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣٤٨/٢، ٣٤٩)، وسيرة ابن هشام (٥٧٨/٢ - ٥٨١).

من ذلك كله، فهي تشمل الخضوعَ والتذلُّلَ والاستسلام لله تعالى، والانقيادَ لأحكامه على ما يرضيه سبحانه وتعالى(١).

ثم بَيَّنَ ﷺ لعديٍّ رضي الله عنه الاعتقادَ الصحيح، ممثلًا في توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة، وتوحيد الأسماء والصفات؛ فقال له: (أَيضُرُّكَ أَنْ تَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟! فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إلهٍ سِوَى اللهِ؟) فقال عدي: لا، ثم قال له: (أَيضُرُّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ؟ وَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنَ اللهِ؟) فقال عدي: لا.

فواضحٌ أن رسول الله ﷺ ربط بين أجزاء التوحيد الثلاثة، وأن بينها تلازمًا في الحقيقة، فانغرس الإيمانُ في قلب عديٍّ رضي الله عنه، وفي فكره، وتأسست معالمُ الاعتقاد الصحيح عنده، وأخذ يختلف على رسول الله ﷺ يتعلَّم منه ويتربَّى على يديه، وهذا واضحٌ في قول عديٍّ: «وجعلت أغشاه؛ آتيه طرفَيِ النهار».

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

«قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرُهما في تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] -: إنهم اتَّبعوهم فيما حَلَّلُوا وحَرَّمُوا، وقال السُّدِّي: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؛ أي: الذي إذا حَرَّم الشيء فهو الحرام، وما حَلَّلَه فهو الحلال، وما شرَّعه اتبع، وما حكم به نفذ؛ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تعالى وتقدَّس وتنزَّه عن الشركاء، والنظراء والأعوان، والأضداد، والأولاد، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه»(٢).

وهذا الحديث يُثبت أن اليهود والنصارى لم يتخذوا أحبارهم ورهبانهم

---

(١) انظر: العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٢٢، ٢٣).

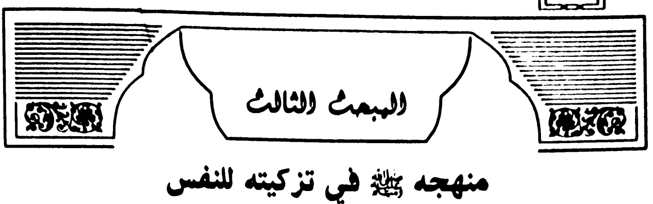
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٩).

أربابًا بمعنى الاعتقاد في ألوهيتهم، ولا أنهم تقدّموا لهم بالشعائر التعبُّدية، وإنما اتخذوهم أربابًا بمعنى أنهم قبلوا منهم التشريعَ من دون الله، فأخذوا منهم الحلالَ والحرام اللذَيْن هما حقُّ الله تعالى... فهذا الحديث دليلٌ قاطع على أن قَبول التشريع مِنَ الأحبار والرهبان ـ ومثلهم كلُّ أحد غير الله ورسوله، متى كان يشرِّعُ مِنْ عند نفسه، لا مِنْ شريعة الله تعالى ـ هو عبادةٌ لهم، وهو اتخاذهم أربابًا من دون الله، الشأن فيه كالشأن في اتخاذ المسيح ربًا بمعنى الاعتقاد في ألوهيته وتقديم الشعائر التعبدية له سواء بسواء».

وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم:

* ففيه ملاحظة المربي لحال المدعوِّ، ونشأتِه، وفكره وتُراثه وثقافته وقومه؛ فعلى المربي ملاحظة ذلك في تربيته ودعوته، فإنها عناصرُ تُعينُ على التربية والتعليم، وتُعطي صورةً للمربي عن هذا المدعو مِنْ طريقها يستطيع أن يغرس فيه ما يرغب في إيصالِهِ إليه؛ فالرسول ﷺ قد لاحظ هذه الأمورَ في تربيته لعديِّ بن حاتم، وعلِمَ ﷺ أنه على الدين النصراني، وبنى تربيتَه وتعليمه على ذلك، ثم عالج انحرافه، وبدأ بِأَهَمِّ شيءٍ؛ وهو تصحيحُ الاعتقاد، وتعريفه بأخصِّ صفات الله تعالى، ومنها ألوهيتُه سبحانه، وأحقِّيَّتُه بالتحليل التحريم، وأنه هو الكبيرُ المتعال سبحانه وتعالى، وأخبره بأن اليهود قد غضب الله عليهم؛ لأنهم علموا الحقَّ الذي جاء به رسول الله ﷺ ولم يعملوا به، وأعرضوا عنه، وصَدُّوا مَنْ أراد اتِّباعه، وأن النصارى قد ضلُّوا عن الحق المبين والصراط المستقيم بسبب جهلهم بالله تعالى، وبما يريده منهم، فأعرضوا عن تعلُّم ما جاء به النبي ﷺ.

❀ ❀ ❀



المبحث الثالث

منهجه ﷺ في تزكيته للنفس

* وفيه مطلبان:

○ **المطلب الأول: معنى تزكية النفس وأهميتها في التربية.**

○ **المطلب الثاني: الطريقة التي استخدمها ﷺ في تزكيته لنفوس أصحابه.**



المطلب الأول

معنى تزكية النفس وأهميتها في التربية

معنى التزكية:

«التزكية» مصدر «زَكَّى»، وهو المزيد المتعدِّي من زكا يزكو. والزاي والكاف والحرف المعتلُّ: أصل يدل على معنيين هما النماء[1] والطهارة؛ يقال: زكا الزرع يزكو: إذا حصل منه نموٌّ وبركة، ومنه: الزكاة؛ لِمَا يُخرِج الإنسانُ مِنْ حقِّ الله تعالى إلى الفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيها مِنْ رجاء البركة، أو لتزكية النفس؛ أي: تنميتها بالخيرات والبركات، أو لهما جميعًا، فإن الخيرين موجودان فيها[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: نفس المتصدق تزكو، وماله يزكو،

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس (ز ك و)، وتاج العروس (ز ك و).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني (ص٣٨٠، ٣٨١).

يطهر ويزيد في المعنى[١]. وتزكية النفس تكون بتطهيرها من جميع المعاصي والفواحش والظلم والشرك والكذب، ونحو ذلك؛ «فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدَّغل في الزرع، وبمنزلة الخَبَث في الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلَّصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملَها بلا معوِّق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلَّص من الذنوب بالتوبة، فقد استفرغ من تخليطه؛ فتخلَّصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة؛ وزكا ونما، وقوي واشتد وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته»[٢].

فتزكية النفس متوقفة على طهارتها؛ كما قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

أي: فاز من طَهَّر نفسَه وأنماها وأعلاها بالتقوى بكلِّ مطلوب، وأبعدها عن الأخلاق الدنيئة والرذائل، وخسر من أضلَّها وأغواها، وبإخفائه وإخماله لها، ولم يُشهِرْها بالطاعة والعمل الصالح[٣].

«والتزكِّي - وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة - فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا؛ فأصل ما تزكو به القلوبُ والأرواحُ: هو التوحيد، والتزكية جعل الشيء زكيًّا؛ إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه[٤]، كما يقال: عدَّلتُه وفسَّقتُه: إذا جعلته كذلك

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/٨).
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/٤٦، ٤٧).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٥١٦)، فتح القدير (٥/٤٤٩).
(٤) أي: تعتقد أنه زكيٌّ، أو تخبر عنه بذلك.

في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية، عند قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]: «لكن هنا التزكّي في الآية أعمُّ مِنَ الإنفاق؛ فإنه ترك السيئات الذي أصله بترك الشرك؛ فأول التزكّي: التزكّي مِنَ الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

قال أكثر المفسرين مِنَ السّلف ومَنْ بعدهم: هي التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمَّن نفي إلٰهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارتُه وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصلُ كلِّ زكاة ونماء.

والتزكّي مِنَ الكبائر، الذي هو تمام التقوى؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]؛ فعلم أن التزكية هو الإخبار بالتقوى.

ومنه التزكّي بالطهارة، وبالصدقة والإحسان، كما قال سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]»[٢]. انتهى.

وبتزكية الإنسان لنفسه وطهارتها يكون مستحقًّا للأوصاف المحمودة في الحياة الدنيا، وللأجر والمَثُوبة في الحياة الأخرى؛ ولهذا فإن الاهتمام بتزكية النفس يعدُّ مِنْ أسمى أنواع التربية، ويمثل القاعدة والركيزة الأساسية في الكيان البشري، وعن طريقها يتم توجيهه في «ترقية الخُلُق وتطهير البدن، وتسخير قواه وقدراتِه في الخير والصلاح، وإشباع حاجاته ونوازعه بطرق

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٤٩)؛ وانظر: دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية (٥/ ١٠٠)، تحقيق د. محمد السيد الجليند.

(٢) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (٥/ ١٠١).

الحلال المشروع»[١].

فتزكية النفس مِنْ أهم الجوانب في التربية النبوية؛ وذلك لتأثيرها في شخصية الإنسان تأثيرًا قويًا يجعله مقبلًا على الخير، مقتصرًا عن الشر، ومتحليًا بالأخلاق الحميدة، معتدلًا في سلوكه وتصرفه، بنفس مطمئنة وقورة، مقبلًا على الحياة بروح إيجابية، وعزيمة قوية، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، لا تُوقفه العقباتُ عن هدفه المنشود، مستعليًا بدينه، مستعينًا بربه، وملتجئًا إليه، واثقًا في عونه ونصره وهدايته.

فبهذه المعالم تزكو النفس، وتستقيمُ الحياة، وبدونها يقع الخلل، وتضطرب قُوى الإنسان العقلية والجسمية والنفسية؛ فيقع في الشقاء، والتخبُّط والضياع، وربما أدى به البؤس والشقاء والصراع النفسي المرير إلى التخلُّص من الحياة.

فتزكية النفس ترسُم معيارًا صحيحًا لتنمية مختلف جوانب شخصية الإنسان وتقويتها بشمول واتزان؛ وذلك بالإيمان بالله ﷻ، وتوحيده، وصفاء النفس بسكينتها وطمأنينتها، وتزكية الأخلاق بالتحلِّي بالفضائل والقيم والمُثُل العليا، وطهارة الأبدان باستعمال أعضائها وجوارحها في حقِّها وصَوْنها مِنَ المعاصي والفواحش، وتسخيرها للعبادة وأعمال الخير النافعة للفرد والجماعة، وحُسن العلاقة الاجتماعية مع الآخرين بالتكافل والتآزر والتعاون على البر والتقوى[٢].

ولقد أعطى المربي العظيمُ رسولُنا محمد ﷺ جانبَ تزكية النفس أهميةً بالغةً في تربيته، واعتنى به عناية خاصة؛ وذلك لأن نفس الإنسان من أكبر الطاقات فيه «وأعظمها، وأشدّها اتصالًا بحقائق الوجود، فطاقةُ الجسم محدودة بكيانه المادي وبما تدركه الحواس.

---

(١) أسس التربية الإسلامية في السُّنَّة النبوية (ص٣١٣).
(٢) انظر: أسس التربية الإسلامية في السُّنَّة النبوية (ص٣٢٧).

وطاقة العقل أكثر طلاقةً، ولكنها محدودة بما يَعقِل، محدودة بالزمان والمكان، بالبدء والنهاية، ومحكومة بالفناء.

فطاقة الروح ـ وحدها ـ في كيان الإنسان هي التي لا تعرف الحدود والقيود، لا تعرف الزمان والمكان، لا تعرف البدء والنهاية، لا تعرف الفناء، هي وحدها التي تملك الاتصال بما لا يدركه الحِسُّ، ولا يدركه العقل، هي وحدها التي تملك الاتصال بالخلود الأبدي والوجود الأزلي، تملك الاتصال بالله، كما أنها هي التي تملك الاتصال بالوجود كلِّه مِنْ وراء حواجز الزمان والمكان»[1].

وقد بذل الرسول ﷺ جهده مع الصحابة رضوان الله عليهم، فربط صلتَهم بالله تعالى، وطهَّر نفوسهم مِنَ الأخلاق الذميمة، وانتزع منها كل عادة سيئة، وعوَّدها على فعل الأعمال الحسنة التي انطبعت في نفوسهم حتى أصبحت سجيةً لهم، ونفَّرها مِنْ كل قبيح يُكدِّرُ صفوها؛ ولهذا امتن الله سبحانه على الأصحاب ـ رضوان الله عليهم ـ بهذه المِنَّة العظيمة، وهي تزكية النبي ﷺ لهم؛ فقال الله ﷻ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ أي: يطهرهم من الشرك بالله، وعبادة الأوثان، ورذائل الأخلاق، ودَنَسِ النفوس، وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من

---

(١) منهج التربية الإسلامية (١/٤١، ٤٢).

الظلمات إلى النور، وينمِّيهم ويكثِّرهم بطاعة الله تعالى(١).

وقُدِّمت جملة ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ على جملة ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ في الآيات السابقة الذكر، عكس آية سورة البقرة والتي هي حكاية قول إبراهيم ﷺ: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ «لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين، فقدّم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة مِنْ تلاوة الآيات عليهم، وهي منفعةُ تزكية نفوسهم اهتمامًا بها، وبعثًا لها بالحرص على تحصيل وسائلها، وتعجيلًا للبشارة بها. فأما في دعوة إبراهيم، فقد رُتِّبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمَّنته في الخارج، مع ما في ذلك التخالف من التفنُّن»(٢).

المطلب الثاني

الطريقة التي استخدمها ﷺ في تزكيته لنفوس أصحابه

إن طريقة الرسول ﷺ في تزكية نفوس أصحابه رضوان الله عليهم، هي عقدُ صلة دائمة بين هذه النفوس وبين الله تعالى، في كلِّ قول وكل عمل وكل فكر، وكل شعور، في كل اللحظات والأوقات؛ لأن النفس البشرية كلَّما ترفَّعَتْ عن الشهوات الأرضية ـ إلا ما كان في حدود ما شرعه الله تعالى، وباتِّزانٍ لا إسرافَ فيه ـ اقتربت من الكمال البشري الذي رغَّبها فيه ربُّ العالمين، وكان الرسولُ ﷺ يعتمد في تزكية النفوس على أهم عضو في الإنسان، والذي يتوقف صلاح بقية أعضاء الإنسان وفسادها عليه؛ هذا العضو الرئيس هو «القلب»؛ كما قال رسول الله ﷺ: (أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ

---

(١) انظر: تفسيري الطبري (١/ ٥٥٨)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٩٦)، وانظر: صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم للشيخ عبد الرحمٰن الدوسري (٢/ ٤١٥، ٤١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٤٩، ٥٠).

الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وَهِيَ القَلْبُ)[١].

فالقلب «أشرف أعضاء البدن، وبه قِوامُ الحياة، وهو منبع الروح الحيواني والحرارة الغريزية، وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والإرادة والرضا والغضب، وسائر صفات الكمال، فجميعُ الأعضاء الظاهرة والباطنة وقُواها إنما هي جنودٌ مِنْ أجناد القلب»[٢].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خلفَ النبيِّ ﷺ يومًا، فقال: **(يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصحف)**[٣].

ففي هذا الحديث ابتدأ المربي العظيم ـ عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم ـ توجيهَه وتعليمه لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بأمر عظيم يقوَى به الإيمانُ، وتزكو به النفس، وترتفعُ به الأخلاق؛ ذلك الأمر هو «تقوى الله تعالى» الذي نبَّه عليه رسول الله ﷺ بقوله: (احفظِ اللهَ)، وحِفْظُ الله تعالى يكون بحفظ شرعه، وتنفيذِ أحكامه، والبُعدِ عن محارمه، والحذرِ مِنْ مجاوزة حدوده. فإنَّ في تنفيذ ما شرعه الله تعالى بالقيام بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، تزكيةً للنفوس وطمأنينةً لها، وهذه هي التقوى، كما وضّح ذلك طَلْقُ بن حبيبٍ رضي الله عنه

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب الحلال بيِّن والحرام بين وبينهما مشتبهات (٣/ ٥)، رقم الحديث (٢٠٥١).
ورواه مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (٣/ ١٢١٩)، رقم الحديث (١٥٩٩).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٣).

(٣) رواه الإمام الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق (٤/ ٥٧٦، رقم الحديث (٢٥١٦)، وقال: «حديث حسن صحيح».
ورواه الإمام أحمد عن ابن عباس بإسناد حسن (١/ ٢٩٣)، بنحوه.

حيث قال: «التقوى: أن تعملَ بطاعة الله، على نُورٍ مِنَ الله، ترجو ثوابَ الله، وأن تتْرُكَ معصيةَ الله، على نورٍ مِنَ الله، تخاف عقابَ الله»[(١)].

وجميع الشعائر التعبُّدية - مِنْ صلاة وزكاة وصيام وحجٍّ - هي من الوسائل التربوية ذاتِ الأثر الكبير في تزكية النفس وترسيخ القِيَم الأخلاقية وتأصيلِها في نفس المسلم، والالتزامُ بأدائها «يغذِّي الإيمانَ، ويقويه بصورة مستمرة، ويشيعُ الإحساسَ في نفس المسلم برقابة الله تعالى، والصلةِ الدائمة به، فيتحقَّق لديه معنى العبودية الكاملة لله وحده دون سواه، ويكون سلوكُه وخلُقُه ترجُمانًا حيًّا لإيمانه وطاعته وعبادته»[(٢)].

ومِنْ أعظم ما يجب الحفاظُ عليه مِنَ الفرائض: الصلوات الخمس؛ لقول الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

أ - فالصلاة هي عمود العبادة، وركنُها الركين، لِمَا لها مِنْ أثر كبير في تقوية إيمان المكلف، وترسيخ يقينه بالله تعالى، وفي تزكية نفسه وتطهيرها من الرذائل والفواحش وسائر المنكرات؛ يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقد رغَّب المعلمُ الأوَّل ﷺ في الحفاظ عليها، وأدائها في وقتها، وجعلها كفارةً للذنوب التي وقعت قبل أدائها إذا تجنَّب المكلَّف كبائرَ الذنوب؛ فقال ﷺ: **(مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ)**[(٣)]، وقال ﷺ: **(الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الكَبَائِرُ)**[(٤)]، وقال ﷺ: **(مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا**

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٠).
(٢) أسس التربية الإسلامية (ص٣٨١).
(٣) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (١/ ٢٠٦)، رقم الحديث (٢٢٨).
(٤) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان =

كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ)[١].

وأكد النبي ﷺ أن الصلاة تمحو الخطايا والذنوب كما يمحو الاغتسالُ في النهر باستمرارٍ أوساخَ البدن، وذلك ترغيبًا في أدائها والمحافظة عليها؛ فقال ﷺ: **(أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِه شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: (فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ؛ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا)**[٢].

فالصلاة تُحقِّقُ صلةً دائمة بين العبد وربه ﷻ، فيقوَى بذلك إيمانُه، وتزكو نفسه، ويزداد يقينه، ويحقق بهذا الاتصال عبوديتَه الخالصةَ لربه تعالى، فيشعرُ بقربه منه، فيناجيه ويدعوه وتسلِّم له كلُّ جوارحه.

وفي الصلاة تطهيرٌ للنفس وتزكيةٌ لها مِنَ الرذائل والكبائر، وفيها تهذيب للأخلاق، فترفع صاحبَها عن الغرور والكبرياء والخُيَلاء، الذي يؤثر في إيمانه وعقيدته، ومِنْ ثَمَّ يؤثر في سلوكه وتصرفاته، فتطبعه بطابَع التواضع وقَبول الحق؛ كما قال ﷺ: **(لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)**، قال رجل: إنَّ الرجل يحبُّ أن يكون ثوبُه حسنًا، ونعلُه حسنةً؟ قال: **(إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ؛ الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ)**[٣].

فالصلاة الصحيحة عاصمٌ مِنْ هذه الآفات؛ لأنها تغرِسُ في النفس كلَّ صفات الخير مِنْ صبر وثبات وجَلَدٍ في تحقيق ما ينفع، وذلك لِمَا تَبُثُّه من

= إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (١/ ٢٠٩)، رقم الحديث (٢٣٣).

(١) رواه الإمام أحمد في المسند مطولًا من حديث عبد الله بن عمرو برقم (٦٥٧٦)، وهو في مجمع الزوائد (١/ ٢٩٧)، وقال: «إسناده صحيح».

(٢) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة (١/ ١٥٢) رقم الحديث (٥٢٨).

ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا (١/ ٤٦٢)، رقم الحديث (٦٦٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (١/ ٩٣)، رقم الحديث (٩١).

يقين بالله تعالى، وتوكُّل عليه، فتبعد صاحبها عن القلق والجزع والهلع، وتحفظ عليه توازنه؛ فتهدأ نفسه وتسكن لقضاء الله وقدره؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٤].

ب ـ والزكاة الركنُ الثالث من أركان الإسلام، لها أثرٌ تربويٌّ مهم في تزكية النفس؛ فهي تطهِّر نفس المكلف مِنَ الرذائل؛ وخاصةً: البخل والشحّ والطمع والجشع، وتساعده على التخلُّص من الأنانية والأَثَرَة وحب الذات، فتنطلق روحُه مِنَ الأَثَرَة المذمومة إلى الإيثار، فيُحِسُّ بالأُخُوَّة النبيلة التي تجمع قلوب المؤمنين، فتجعلهم وحدةً واحدةً، فتتعود نفسُه على البذل والعطاء والتضحية في سبيل سدِّ حاجة الآخرين؛ قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

فالزكاة ركن من أركان الإسلام تؤدي إلى تزكية النفس والمال والحب والإخلاص والبذل والإيثار بين المؤمنين.

جـ ـ والصيام له تأثيرٌ تربويٌّ بالغ الأهمية في تزكية النفس المؤمنة؛ فهو يقوِّي إيمانَ المكلَّف، ويزيد يقينَه بالله تعالى، ويربِّي فيه مَلَكَةَ التقوى والمراقبة، فتطهر نفسه وتزكو، فيكون ذلك عاصمًا لها مِنَ الوقوع في المنكرات والفواحش؛ فالصيام «حبسُ النفس عن الشهوات، وفطامُها عن المألوفات، وتعديلُ قوَّتها الشهوانية، لتستعدَّ لطلب ما فيه غايةُ سعادتها ونعيمها، وقَبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوعُ والظمأُ من حِدَّتها وسَوْرَتِها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة مِنَ المساكين، وتضيق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قُوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرُّها في معاشها ومعادِها، ويسكِّنُ كلَّ عضو منها، وكلَّ قوة عن جِماحه، وتُلجَمُ بلجامه، فهو لجام المتَّقين، وجنة المحاربين ورياضة الأبرار والمقربين... وللصوم تأثير عجيب

في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة، التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ الموادّ الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصومُ يحفظ على القلب والجوارح صحتَها، ويعيد إليها ما استلبته منها؛ أي: الشهوات، فهو مِنْ أكبر العون على التقوى»[(١)].

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال ﷺ: (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ: الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ؛ قَالَ اللهُ ﷻ: إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، فَإِنَّهُ تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي...)[(٢)].

ويقول ﷺ: (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)[(٣)].

«فالصيام حين يُؤَدَّى على أصوله، ولا يكون مجردَ امتناعٍ عن الطعام والشراب، حين يكون صيامُ النفس من الداخل، لا صيام الأحشاء، حين يتوجَّه به الإنسان إلى الله، حين يُحِسُّ أنَّ كل خاطرة في نفسه، وكل إحساس في شعوره، وكلَّ لفتةٍ، وكلَّ نظرة، وكل خالجة، وكلَّ سرٍّ، ينبغي أن تكون ـ في هذا الشهر خاصةً ـ نظيفةً متطهرةً، تصلح للصيام والتبتُّل، والتوجُّه الكامل إلى الله؛ حينئذٍ تملأ التقوى القلبَ، وتنطلق الروحُ إلى آفاقٍ عالية مِنَ النور المشرق الوضيء»[(٤)].

د ـ والحج له تأثير تربوي في تزكية النفس كذلك؛ فهو يقوِّي إيمان

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٨، ٢٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شتم (٢/ ٢٧٩)، رقم الحديث (١٩٠٤).
ورواه مسلم في كتاب الصيام، باب فضل الصيام (٢/ ٨٠٧)، رقم الحديث (١٦٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم (٢/ ٢٧٩)، رقم الحديث (١٩٠٣).

(٤) منهج التربية الإسلامية (١/ ٦٥).

المكلف، وبه تزكو نفسه وترتفع؛ باستشعاره عَظَمَةَ الله تعالى وقدرته على جمع هذه القلوب الغفيرة في صعيد واحد، بلبس واحد، وذكر واحد، مما يجعل النفوسَ المؤمنةَ تستشعر الأمن والسلام والسكينة إلى الله تعالى، الذي أظهرت له العبوديةَ والخشوعَ والتسبيحَ والتلبية، وأفردته بالدعاء والتضرُّع، وبالرغبة والرهبة إليه دون سواه، فهو المتفضل صاحبُ النِّعَم كلِّها، والقادر على جلب المنافع، ودفعِ المضارِّ؛ فعندئذٍ تركَنُ النفس إليه سبحانه راجيةً عفْوَه ومغفرتَه، وكرمَه ورحمتَه، ولُطفَه وهدايته، منخلعةً عن كلِّ ما عداه، مبتعدةً عن كلِّ ما يَشينُها ويُنقِصُها مِنَ الصفات الذميمة؛ كالغرور، والكِبْر، والخُيَلاء، والمباهاة؛ فعندئذٍ تزكو النفوسُ وتطهرُ، وتتفجرُ فيها معاني الخير السامية، والقيمُ الرفيعة؛ كالعفة، والحياء، والتواضع، وكل معاني الاستقامة والخضوع لله رب العالمين؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقد أمر سبحانه بالأذان بالحج فقال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

«فالذين يذهبون إلى الحج صافيةً قلوبُهم لهذه الفريضة يحكون عجبًا ويُحِسُّون عجبًا؛ إن حالات الوجد التي تستجيشُها في وجدانهم زيارةُ الأماكن المقدسة، وأداءُ الفريضة فيها، لهي حالاتٌ عجيبةٌ نادرةُ المثال في واقع الحياة، حالات ترتفع فيها النفوس البشرية مِنْ ملابساتِ الأرض، ومطامعِ الأرض، وشهواتِ الأرض، وتتجرَّد لله خالصةً، تتوجَّه إليه أن يتقبَّلها في عباده، ويمنحها مغفرته ورضوانه... تلك هي العبادة المفروضة»، ولكنها ليست كلَّ عبادة الإسلام.

إن الإسلام يوسِّع معنى العبادة حتى تشمَل كلَّ الحياة؛ كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله فهو عبادة، وكل عمل يتركُه الإنسان تقرُّبًا إلى الله

واحتسابًا هو عبادة، وكل شعور نظيف في باطن النفس فهو عبادة، وكلُّ امتناع عن شعور هابط مِنْ أجل مرضاة الله فهو عبادة، وكل ذكر لله في الليل والنهار فهو عبادة؛ ومن ثم تشمل العبادةُ الحياةَ، ويصبح الإنسانُ عابدًا لله تعالى حيثما توجه إلى الله تعالى؛ وبهذا تُصبحُ العبادةُ هي الصلةَ الدائمةَ بين العبد والرب، وتصبح هي التربيةَ الدائمةَ للروح»(١).

فكل هذه المعاني داخلةٌ في أمر الرسول ﷺ لعبد الله بن عباس بقوله: (احْفَظِ اللهَ).

ومَنْ حَفِظَ الله تعالى فيما سبق، وراعى حقوقه، فإن الله ﷻ سيحفظه في أمور دينه ودنياه؛ فإن الجزاء مِنْ جنس العمل؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

«وقد أخبر الله تعالى في كتابه أنه وليُّ المؤمنين، وأنه يتولَّى الصالحين؛ وذلك يتضمن أنه يتولى مصالحَهم في الدنيا والآخرة، ولا يكِلُهم إلى غيره؛ قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

فمن قام بحقوق الله عليه، فإن الله يتكفَّل له بجميع مصالحه في الدنيا والآخرة، فمَنْ أراد أن يتولَّى اللهُ حفظَه ورعايته في أموره كلِّها، فليراعِ حقوقَ الله عليه، ومَنْ أراد ألا يصيبَه شيءٌ مما يكره، فلا يأتِ شيئًا مما يكرهُه الله.

فمن كان غايةُ همِّه رضا الله عنه، وطلب قُربه ومعرفته ومحبته، فإن الله يكون له على حَسَب ذلك، بل هو سبحانه أكرمُ الأكرمين، فهو يجازي بالحسنة عشرًا ويزيد: ومَنْ تقرَّب إليه شبرًا، تقرَّب إليه ذراعًا، ومَنْ تقرَّب

(١) منهج التربية الإسلامية (١/٦٧).

إليه ذراعًا، تقرَّب إليه باعًا، ومَنْ أتاه يمشي أتاه هرولة»[1].

فما يُؤتَى الإنسان إلا مِنْ قِبَلِ نفسِه، ولا يصيبُه المكروه إلا مِنْ تفريطه في حقِّ ربه ﷻ؛ قال علي رضي الله عنه: «لا يَرْجُوَنَّ عبدٌ إلا ربَّه، ولا يخافَنَّ إلا ذنبَه»[2].

وعن محمد بن واسع عن مطرف بن الشِّخِّير؛ قال: «من صَفَّى صُفِّي له، ومن خَلَّطَ خُلِّطَ له»[3].

وقال مسروق بن الأجدع الهَمْداني: «مَنْ راقب الله في خَطَرات قلبه، عصمه الله في حركات جوارحه»[4].

ومن حفظ الله تعالى، وراعى حقوقَه وجد الله تعالى معه في جميع أحواله يحوطُه وينصُره ويرعاه، ويشمَلُه بتوفيقه وتأييده، فإنه سبحانه قائمٌ على كل نفس بما كسبت؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

فليأنَس المؤمن بقُرب ربِّه ومعيَّته، وليستَغْنِ بالله عن كل أحد، فإن الشعور بذلك فيه تزكيةٌ للنفس، وتربيةٌ لها على العبودية الخالصة لله، والتوكُّل عليه، وطلب العون منه سبحانه.

هكذا كان توجيهُ المصطفى ﷺ لأصحابه في تزكية نفوسهم بأوجز العبارات المليئة بالمعاني الكثيرة والمهمة؛ فإنه ﷺ أوتيَ جوامعَ الكلم.

ثم يتابع النبي ﷺ تعليمَه وتوجيهه لابن عباس رضي الله عنهما بأن يتوجَّه إلى الله تعالى وحده بالسؤال، فيسأله وحدَه مِنْ فضله؛ كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

وقد بايع النبيُّ ﷺ جماعةً مِنْ أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئًا،

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه (٨/ ٢٦٦)، رقم الحديث (٧٥٣٦).

(٢) نور الاقتباس لابن رجب الحنبلي (ص٤٣، ٤٥).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (١٠/ ٣٩٥)، صفة الصفوة لابن الجوزي (٤/ ٢٠٣).

(٤) تهذيب التهذيب ١٠/ ١١٠، ١١١)، وانظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٦٥).

منهم أبو بكر الصديق، وأبو ذر، وثوبان؛ فكان أحدُهم يسقط سوطُه، فلا يسألُ أحدًا أن يناوِلَه إياه، رضي الله عنهم أجمعين.

عن عوف بن مالك، قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعةً أو ثمانيةً أو سبعةً، فقال: (أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟)، وكُنَّا حديثي عهدٍ ببيعةٍ، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: (أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟)، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: (أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟) قال: فبسطنا أيدِيَنا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايِعُك؟ قال: (عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، وَتُطِيعُوا (وأسرَّ كلمةً خفيَّةً)، وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا)[1].

فالرسول ﷺ يريد رَبْطَ قلوبِ أصحابه بالله تعالى وحده دون غيره، فرباهم على التعلق به سبحانه؛ لأنه صاحبُ الخَلْق والأمر، ورباهم كذلك على الاعتماد على أنفسهم، وعدم الاتّكال على غيرهم في قضاء شؤونهم، ولأن سؤالَ الله تعالى دون غيره هو المطلوبُ مِنَ المؤمن؛ ولِمَا في السؤال من إظهار ذُلِّ السائل ومسكنته وحاجته وضعفه وافتقاره إلى المسؤول؛ «ولا يصلح الذلُّ والافتقار إلا لله وحده؛ لأنه حقيقةُ العبادة، ولا يقدر على كشف الضرِّ وجلبِ النفع سواه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]»[2].

ففي تربية النبي ﷺ لأصحابه على هذا المعنى العظيم ـ وهو إفراد الله تعالى بالسؤال والافتقار إليه، والتوجه إليه في طلب الحاجات، وجلب المنافع، ودفع المضارِّ ـ تزكيةٌ لنفوسهم مِنَ التعلُّق بغير الله تعالى؛ لأن فيه الذلَّ والهوانَ والضعفَ، ثم الخسرانَ المبينَ يومَ القيامة؛ وذلك لأن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس (٢/ ٧٢١)، رقم الحديث (١٠٤٣).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨١).

غير الله تعالى لا يملك شيئًا مِنْ أمر نفسه، فضلًا على أن يملك شيئًا من أمر غيره؛ فاللجوء إلى الله تعالى وحده في السؤال والتوجُّه إليه به دون غيره يولِّد في النفس الطمأنينة والتسليم والرضا بما يقدِّره الله تعالى، والقوة والعزة به سبحانه؛ كما قال تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

ثم ينتقل ﷺ في تعليمه لابن عباس إلى أمر عظيم، وهو الاستعانة بالله ﷻ دون غيره؛ لأن المكلف عاجز عن جلب المصالح لنفسه أو دفعها، وكل الخلق كذلك في حاجة إلى من يعينهم على جلب الخير ودفع الضرِّ عنهم، فالكلُّ متصفٌ بالضعف والعجز؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

والإيمان بهذه المعاني يُشيعُ في نفس المكلف السكينةَ والطمأنينة والراحة الفكرية، فتقوَى ثقتُه بربه، ويُوقِنُ بأن أمرَه نافذٌ في مخلوقاته، لا يرُدُّه شيءٌ، وأنه سبحانه قريبٌ مِنْ عباده، يسمع دعاءَهم، ويجيب نداءَهم، ويُعين متوكِّلَهم؛ فيكون في ذلك سببُ «الصحة النفسية والعقلية والبدنية، علاوةً على كونه علامةَ الإيمان الصحيح والعقيدة الراسخة»(١).

ومن حقَّقَ الاستعانة بالله تعالى أعانه وسدَّد خطاه، وجعل التوفيق حليفَه، وكان في ذلك تزكيةٌ لنفسه من التعلُّق بغير الله تعالى؛ قال رسول الله ﷺ: (احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ

---

(١) أسس التربية الإسلامية (ص٣٩٨).

وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ «لَوْ» تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: **(لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا)**[٢].

والتوكل على الله تعالى لا يعني أنْ يعطِّلَ المؤمن الأسبابَ التي أمر الله تعالى باتخاذها ويتواكلَ ويتقاعسَ عن السعي والبذل الجادِّ، لتغيير الواقع السيِّئ، وأخذ الحَيْطة والحذر؛ فهذا «رسولُ الله ﷺ ـ وهو سيد المتوكلين ـ يأخذ بالأسباب، ويستعدُّ الاستعدادَ الكامل لمواجهة مختلف الأمور؛ ومن الأمثلة الحية على ذلك حُسن استعداده للهجرة حين أمره الله تعالى بها؛ فقد اتخذ الترتيباتِ اللازمةَ التي تتطلَّبها الحيطةُ والحذر والأمن من الكفار، فأمر عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه بالنوم بدلًا منه في فراشه، واصطحب أبا بكر الصديق رضي الله عنه رفيقًا له في سفره، ومكث مدة بالغار لتضليل الكفار، وكان يتتبع أخبارَهم ليحتاطَ لِمَا يدبِّرونه، وأعدَّ الزاد من طعام وشراب، أعدَّ الراحلة، واختارَ الدليل، وانتهج طريقًا غيرَ مألوف، وغير ذلك مما يعتبر مثالًا رائعًا يجسد حُسْنَ التوكُّل على الله تعالى، مع الأخذ بالأسباب وإعداد العُدَّة لكل أمر حسب مقتضياته، وبذل الجهد والسعي الموصل إلى الغايات المرجوة.

وكان رسول الله ﷺ يستعد استعدادًا تامًّا لملاقاة الكفار في غزواته ومعاركه المختلفة، ويتخذ أسبابَ النصر، وكان يعمل ويكدح ويسعى للكسب، ويأمر بالعمل والكدح والسعي، وبذل الجهود اللازمة لتحقيق الأهداف التي يروم الإنسانُ تحقيقَها بإذن الله تعالى وعونه وسداده»[٣].

ثم يختمُ ﷺ تعليمَه وتوجيهه لابن عباس رضي الله عنهما بأصلٍ عظيمٍ، عليه مدارُ

---

(١) رواه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله (٤/ ٢٠٥٢)، رقم الحديث (٢٦٦٤).

(٢) رواه الترمذي، في كتاب الزهد، من حديث عمر بن الخطاب (٤/ ٤٩٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». ورواه ابن ماجه، في كتاب الزهد (٢/ ١٣٩٤).

(٣) أسس التربية الإسلامية (ص٤٠٣).

هذه الوصيةِ جميعِها؛ ذلك هو اليقينُ بقدَرِ الله تعالى، الذي كَتَبَه على المكلَّف، فيجب عليه الإيمانُ به، وتوطينُ نفسه على قَبوله، والرضا به؛ قال رسول الله ﷺ: (عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ: إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إلا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا له، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)[1].

يقول ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى:

«واعلم أن مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل، وما ذُكِرَ قبله وبعده فهو متفرِّعٌ عليه، وراجعٌ إليه، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبَه إلا ما كتب الله له مِنْ خير وشر ونفعٍ وضرٍّ، وأنَّ اجتهاد الخَلْقِ كلِّهم على خلاف المقدور غيرُ مفيد البتةَ، علِم حينئذ أن الله هو الضارُّ النافع، المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيدَ ربِّه ﷻ، وإفرادَه بالطاعة، وحفظَ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضارِّ؛ ولهذا ذمَّ اللهُ مَنْ يعبدُ مَنْ لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يغني عن عابده شيئًا. فمن عَلم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع غيرُ الله، أوجب له ذلك إفرادَه بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعة الخلقِ جميعًا، وأن يتّقي سَخَطَه، ولو كان فيه سَخَطُ الخلق جميعًا، وإفراده بالاستعانة به، والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه مِنْ إخلاص الدعاء له عند الشدائد، ونسيانه في الرخاء، ودعاء مَنْ يرجون نَفْعَه من دونه؛ قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]»[2].

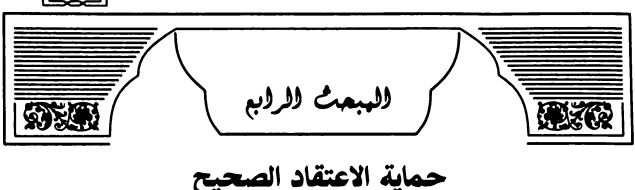
---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (٤/ ٢٢٩٥)، رقم الحديث (٢٩٩٩).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨٤، ٤٨٥).

وفي هذا تزكية للنفس من الشرك والتعلُّق بغير الله تعالى، وطلب العون منه دون سواه، وإخلاص العبادة له وحده بلا شريك من دعاء ونَذْرٍ، وخوف ورجاء، وتوكُّل واستعانة، واستغاثة وذبح، وتحليل حلال، وتحريم حرامٍ؛ وبهذا تصفو العقول، وتزكو النفوس، وتصحُّ العقيدةُ، ويتحقَّق من المكلَّف ما يريده الله تعالى منه.





حماية الاعتقاد الصحيح

بعد أن عرفتَ أن رسول الله ﷺ ربَّى أصحابه على الاعتقاد الصحيح، وحقَّقه في نفوسهم، وأوضحه لهم أشدَّ وضوح، حتى لم يبْقَ في معرفته أيُّ التباس أو اشتباه، فَعَرَّفهم بربهم تعالى بأسمائه وصفاته، وما يجب له، وما يستحقه، وما يُحمد ويُمجَّد به ويُثنى عليه؛ حتى فهموه، واعتقدوه على ما أراد منهم ﷺ، وعملوا به.

فإنه ـ مع ذلك كلِّه ـ كان حريصًا أشدَّ الحرص على حراسة هذا الاعتقاد وحمايته، من أيِّ شيء يشوبُه أو يكدِّره؛ فكان يلحظ تصرُّفات أصحابه في أقوالهم وأفعالهم، وكان يتابع ما يَجِدُّ من أمورهم؛ فكان إذا سمع أو رأى منهم أو مِنْ أحدهم قولًا أو فعلًا يتنافى مع التوحيد أو يُضْعِفه، فإنه يُسرع في نهيهم وزجرهم عن ذلك، ويُبَيِّنُ لهم الصوابَ فيما يقولونه أو يفعلونه؛ وما ذلك إلا لاهتمامه ﷺ وحرصه على حماية جناب التوحيد في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم مما يشوبُه أو يشوِّه حقيقتَه مِنَ الأقوال أو الأفعال التي قد تُزيله أو تُنقصه.

فمن ذلك: تحذيرُه ﷺ مِنْ خلط المنهج الأصيل المتمثِّل في الكتاب والسُّنَّة بالمناهج الأخرى.

ومنه: تحذيرُه مِنَ الغلُوِّ في المدح المفضي إلى الشرك.

فقد كان ﷺ حريصًا على حماية منهج التلقِّي، المتمثل في الكتاب والسُّنَّة، من أن يختلط بغيره مِنَ المناهج الأخرى؛ إذ إن اللهَ تعالى

تعبُّدهمُ بما فيهما، وألزمهم بالتحاكم إليهما، والحكم بهما، وحذَّر من الخروج عنهما إلى المناهج الأرضية المحرَّفة والقاصرة؛ فعن عبد الله بن ثابت رضي الله عنهما، قال: جاء عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ يهودي من بني قريظة، فكتب لي جوامِعَ مِنَ التوراة، ألا أعرِضُها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن ثابت: قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا. قال: فَسُرِّيَ عن النبي ﷺ، وقال: **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى عليه السلام، ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ)**(١).

وفي رواية جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقةً مِنَ التوراة، فقال: **(أَمُتَهَوِّكُونَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟! لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي)**(٢).

ففي هذا الحديث يظهر حرصُ النبي ﷺ على حماية منهج التلقي المتمثل في القرآن الكريم وسُنَّته ﷺ الصحيحة ـ اللذَيْن يستقي منهما ذلك الجيلُ المبارك ـ مِنْ أن يختلطَ بغيره فيضِلُّوا؛ وما ذلك إلا لحماية جناب التوحيد مِنْ أنْ تشوبَه شائبةُ الشرك، وفي هذا تربيةٌ منه ﷺ لأصحابه رضوانُ الله عليهم على المحافظة على هذا النبع الصافي من أن يختلط بغيره مِنْ مناهج البشر الأرضية المحضة، أو التي أدخلوها على ما أنزل الله تعالى زورًا وبهتانًا؛ فيفسُد بذلك وتفسُد حياتُهم تبَعًا لذلك؛ ولذلك نهى النبي ﷺ أصحابه عن أن يسألوا أهلَ الكتاب عن شيء من أمور دينهم؛ لأن عندهم ما يُغنيهم عن ذلك ما إن تمسَّكوا به لن يضِلُّوا أبدًا: كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ؛ فعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: **(لَا تَسْأَلُوا**

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٧٠). (٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣٨٧).

أَهْلَ الكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، وَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، وَإِمَّا أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ وَاللهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»[١].

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهلَ الكتاب وكتابُكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدثُ الأخبار بالله تقرؤونه لم يُشَبْ؟! وقد حدَّثكم اللهُ أن أهل الكتاب بدَّلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟! ولا والله ما رأينا منهم رجلًا قطُّ يسألُكم عن الذي أُنزل عليكم»[٢].

«هؤلاء هم أهل الكتاب، وهذا هو هَدْيُ رسولِ الله ﷺ في التلقِّي عنهم في أيِّ أمر يختص بالعقيدة والتصوُّر، أو بالشريعة والمنهج، ولا ضير - وَفْقَ روح الإسلام وتوجيهه - مِنَ الانتفاع بجهود البشر كلِّهم في غير هذا من العلوم البحتة، علمًا وتطبيقًا، مع ربطها بالمنهج الإيماني من ناحية الشعور بها وكونها مِنْ تسخير الله للإنسان، ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها في خير البشرية، وتوفير الأمن لها والرخاء، وشُكْرِ الله على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القُوى والطاقات الكونية: شُكرِه بالعبادة، وشُكرِه بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية.

فأمَّا التلقِّي عنهم في التصور الإيماني، وفي تفسير الوجود، وغاية الوجود الإنساني، وفي منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها، وفي منهج الأخلاق والسلوك أيضًا - فهو الذي تغيَّر وجه رسول الله ﷺ لأيسرِ

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣/٣٣٨)، ورجال سنده ثقات، إلا مجالدًا، فقد ضُعِّف. انظر: التقريب لابن حجر (٢/٢٢٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها (٣/٢١٧، ٢١٨)، رقم الحديث (٢٦٨٥).

شيء منه، وهو الذي حذَّر اللهُ الأمةَ المسلمة عاقبتَه، وهي الكفر الصُّراح»[١].

ومِنْ ذلك أيضًا: تحذيرُه ﷺ تحذيرًا شديدًا من اتخاذ القبور مساجدَ واتخاذ الصور والتماثيل؛ لأن ذلك وسيلةٌ مِنْ وسائل الوقوع في الشرك؛ لأن الشيطان يزين للناس أن اتخاذَ القبور مساجدَ والعكوفَ عندها قربةٌ إلى الله تعالى، ودليلٌ على محبة الأنبياء والصالحين، وأن الدعاءَ عندها مستجابٌ، فيستدرجُهم بهذا إلى عبادةِ هؤلاء المقبورين والمصوَّرين، والتوجهِ إليهم بالدعاء والاستغاثة، وطلبِ الحوائج منهم؛ فيحدث الشرك بالله تعالى الذي جاء رسولُ الله ﷺ محذِّرًا منه، ومنذرًا مِنَ الوقوع فيه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لَمَّا نزل برسول الله ﷺ طَفِقَ يطرح خميصةً له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها كشفها، فقال ـ وهو كذلك ـ: **(لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)**، يُحذِّرُ ما صنعوا؛ ولولا ذلك أُبرز قبرُه، غيرَ أنه خَشِيَ أن يُتَّخذَ مسجدًا»[٢].

وقال ﷺ محذِّرًا مِنِ اتِّخاذ المساجد على القبور: **(اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)**[٣].

وقال ﷺ: **(لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا)**[٤].

وقال ﷺ: **(لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا**

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن (٢/ ٥٥، ٥٦)، أحمد فايز.

(٢) سبق تخريجه (ص٥٩).

(٣) رواه مالك في الموطأ، كتاب قصر الصلاة في السفر، باب جامع الصلاة (١/ ١٧٢) مرسلًا، ورواه أحمد (٢/ ٢٤٦) ولفظه: **(اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا، وَلَعَنَ اللهُ قومًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)**، ورواه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣١٧).

(٤) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه (٢/ ٦٦٨)، رقم الحديث (٩٧٢).

عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ)[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لعن رسولُ الله ﷺ زائراتِ القبور، والمتَّخذين عليها المساجد والسُّرُج»[٢].

وعندما ذكرت أمُّ حبيبة وأمُّ سلمة رضي الله عنهما لرسول الله ﷺ كنيسة في الحبشة فيها تصاويرُ، قال ﷺ: **(إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ)**[٣].

كل ذلك مِنْ باب سدِّ الذرائع التي تؤدي إلى الشرك؛ حفاظًا على جناب التوحيد مِنْ أن يخالطَه شركٌ، فيفسِدَه.

ولذلك كان ﷺ يأمر أصحابه باقتلاع وسائل الشرك مِنَ الأرض؛ فأمر بهدم الأبنية المشرِفة والقِباب المرتفعة على القبور وتسويتها، وطَمْسِ الصُّور والتماثيل؛ فعن أبي الهياج الأسدي، قال: قال لي عليُّ بن أبي طالب: «ألا أبعثُك على ما بعثني عليه رسولُ الله ﷺ؟! ألا تدَعَ تمثالًا إلا طمَسْتَه، ولا قبرًا مشرِفًا إلا سوَّيتَه»[٤].

---

(١) رواه أبو داود، كتاب المناسك، باب زيارة القبور (٢/ ٢١٨)، بإسناد حسن، وأحمد (٢/ ٣٥٧).

(٢) رواه النسائي في كتاب الجنائز، باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور (٤/ ٩٤)، وأبو داود في كتاب الجنائز، باب زيارة النساء القبور (٣/ ٢١٨)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب كراهية أن يتخذ على القبر مسجدًا (٢/ ١٣٦)، وابن ماجه في الجنائز، باب النهي عن زيارة النساء للقبور (١/ ٥٠٢)، وأحمد في المسند (١/ ٢٢٩، ٢٨٧، ٣٢٤، ٣/ ٤٤٢، ٤٤٣)، والحاكم (١/ ٣٧٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد؟ (١/ ١٢٧)، رقم الحديث (٤٢٧).
ورواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (١/ ٣٧٥)، رقم الحديث (٥٢٨).

(٤) رواه مسلم، في كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر (٢/ ٦٦٦)، رقم الحديث (٩٦٩).

وكان ﷺ حريصًا على نظافة بيته مِنْ وسائل الشرك، فكان لا يترك في بيته شيئًا فيه تماثيلُ أو تصاويرُ أو تصاليبُ؛ فعن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ لم يكن يترك في بيته شيئًا فيه تصاليبُ إلا نقضه»[(١)].

وعنها رضي الله عنها أيضًا أنها قالت: «قدِمَ رسول الله ﷺ مِنْ سفر، وقد سترتُ سَهْوَةً لي بقِرام فيه تماثيلُ، فلمَّا رآه هتكه، وتلوَّن وجهُه، وقال: (يَا عَائِشَةُ، أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ)، قالت: فقطعناه، فجعلنا منه وِسادةً أو وسادتين»[(٢)].

وقال ﷺ قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى بخمسِ ليالٍ: (أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)[(٣)].

وعن أبي واقدٍ الليثيِّ قال: «خرجنا مع النبي ﷺ إلى حُنين، ونحن حُدَثَاءُ عهدٍ بكفر، وللمشركين سِدْرَةٌ يعكُفون عندها، وينُوطون بها أسلحتَهم، يقال لها: ذاتُ أنواط[(٤)]، فمررنا بسِدْرَةٍ، فقلنا: يا رسول الله، اجعلْ لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواط، فقال رسول الله ﷺ: (اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السَّنَنُ، قُلْتُمْ ـ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ـ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)[(٥)].

---

(١) رواه البخاري، في كتاب اللباس، باب نقض الصور (٧/ ٨٥)، رقم الحديث (٥٩٥٢).
(٢) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير (٧/ ٨٦)، رقم الحديث (٥٩٥٤).
(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/ ٣٧٧)، رقم الحديث (٥٣٢).
(٤) قال ابن الأثير: «أنواط: جمع نوط، وهو مصدر سُمِّي به المنوط». النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٢٨).
(٥) رواه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (٤/ ٤١٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
ورواه أحمد في مسنده (٥/ ٢١٨).

وفي هذا الحديث دلالةٌ على أن التبرُّك بالأشخاص والأشجار والقبور، واعتقاد قدرتهم على جلب نفع، أو دفع ضر، أو العكوف عندهم، أو الذبح لهم، أو التحاكم إليهم ـ شِرْكٌ مُخرِجٌ مِنَ المِلَّة، وناقضٌ مِنْ نواقض هذا الدين؛ فلا بد مِنَ الحذر والتوقِّي مِنَ الوقوع فيه، وأنه لا يستبعد وقوعُ الشرك في هذه الأمة، بسبب استحسان سببٍ مِنْ أسبابه؛ فقد ظنَّ بعضُ الصحابة القريبي العهد بالكفر ذلك الطلبَ حسنًا، فطلبوه مِنَ النبي ﷺ حتى بيَّن لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل، فمن باب أوْلى أن يخفَى على كثيرٍ ممن هم دونَهم في العلم والفضل بأضعافٍ مضاعفةٍ، مع غَلَبَةِ الجهل وبُعد العهد مِنْ آثار النبوة[١].

فَلْيُتَفَطَّن لذلك، وليُحرَصْ على العلم الذي يكون مانعًا من الوقوع في الشرك وأسبابه بإذن الله تعالى وتوفيقه.

وعن ثابت بن الضحاك ﷺ قال: «نذَرَ رجلٌ أن ينحرَ إبلًا بِبُوانةُ[٢]، فسأل النبي ﷺ، فقال: (**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعبَدُ؟**) قالوا: لا، قال: (**فَهَلْ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**) قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: (**أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لا وَفَاءَ لِنَذْرٍ في مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ**)[٣].

وفي هذا الحديث دليل على حرص النبي ﷺ على حماية جناب التوحيد في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم، حيث حذَّرهم مِنْ أيِّ أمر يؤدي إلى الشرك، ولو كان ذلك الأمر صغيرًا في نفوسهم، وحقيرًا في حسابهم بتقديرهم؛ ولذلك استفصل ﷺ السائلَ عن الأمور التي فيها مشابهةٌ

---

(١) انظر: فتح المجيد (ص١١٨، ١١٩).

(٢) «بوانة» ـ بضم الباء وفتحها ـ: هضبة من وراء ينبع. النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٦٤).

(٣) رواه أبو داود، في كتاب الأيمان والنذور، باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر (٣/ ٢٣٨)، وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب: «وإسناده على شرطهما»، فتح المجيد (ص١٣٤).

للمشركين، منعًا مما هو وسيلة إلى ذلك، فلما تبيَّن ﷺ خُلُوَّ ذلك المكان الذي نذر الرجل أن يذبح لله فيه مِنَ المحاذير المانعة مِنْ ذلك، أمره ﷺ بأن يوفِيَ بنذره، وفي هذا تربية للصحابة ﷺ على الحرص على الاعتقاد الصحيح، والحفاظ عليه، وحمايته مما يؤثِّر فيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فحرَّم ﷺ أن تُتَّخذ قبورُهم مساجدَ بقصد الصلوات فيها كما تُقصدُ المساجدُ، وإن كان القاصدُ لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده؛ لأن ذلك ذريعةٌ إلى أن يقصِدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه، والدعاء به، والدعاء عنده؛ فنهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده، لئلا يُتَّخذَ ذريعةً إلى الشرك بالله، والفعل إذا كان يُفضي إلى مفسدة، وليس فيه مصلحةٌ راجحةٌ؛ يُنهى عنه؛ كما نهى عن الصلاة في الأوقات الثلاثة؛ لِمَا في ذلك من المفسدة الراجحة، وهو التشبُّه بالمشركين الذي يُفضي إلى الشرك، وليس في قصد الصلاة في تلك الأوقات مصلحةٌ راجحةٌ لإمكان التطوُّع في غير ذلك من الأوقات... فإذا كان نهيُه عن الصلاة في هذه الأوقات لسدِّ ذريعة الشرك لئلا يُفضي ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها ـ كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدْعُونها ويسألونها ـ كان معلومًا أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرَّمٌ في نفسه، أعظمُ تحريمًا مِنَ الصلاة التي نهى عنها لئلا يُفضي إلى دعاء الكواكب»[1].

هكذا كان النبي ﷺ يقف وقفات شديدة أمام كل مظهر من المظاهر التي تكون ذريعةً إلى الشرك، ولو من طريق بعيد، أو من باب خَفِيٍّ؛ وما ذلك إلا لكي يقطع الطريق على الشيطان، فلا يجدُ بابًا ينفُذُ منه إلى نفوس أصحابه رضوان الله عليهم.

ومن ذلك أيضًا: تحذيره ﷺ من الغلوّ في المدح المفضي إلى

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١/ ١٦٣، ١٦٤).

الشرك؛ فكان ينهاهم عن مدحه وتعظيمه، ويحذِّرهم من ذلك تحذيرًا شديدًا، ولم يسمح لأحدٍ منهم أن يتجاوز في ذلك؛ لا بقول، ولا بفعل؛ حسمًا منه ﷺ لمادَّة الشرك، وسدًّا للذرائع المؤدية إليه، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ)**(١).

قال ابن الجوزي: «لا يلزم من النهي عن الشيء وقوعُه؛ لأنا لا نعلم أحدًا ادَّعى في نبينا ما ادعته النصارى في عيسى، وإنما سبب النهي ـ فيما يظهر ـ ما وقع من حديث معاذ بن جبل لَمَّا استأذن في السجود له، فامتنع ونهاه، فكأنه خشي أن يبالغ غيرُه بما هو فوقَ ذلك، فبادر إلى النهي تأكيدًا للأمر»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرَنا وابنَ خيرِنا، وسيدَنا وابنَ سيدِنا، فقال ﷺ: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ ﷻ)**(٣).

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: «انطلقتُ في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدُنا، فقال ﷺ: **(السَّيِّدُ اللهُ(٤) تَبَارَكَ وَتَعَالَى)**،

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ (٤/ ١٧١)، رقم الحديث (٣٤٤٥).
(٢) فتح الباري (١٢/ ١٤٩).
(٣) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (ص٢٥٠)، ورواه أحمد في المسند (٣/ ١٥٣).
(٤) قال الخطابي: «قوله: (السَّيِّدُ اللهُ) يريد السُّؤددُ حقيقتُه لله ﷻ، وأنَّ الخَلق كلَّهم عبيدٌ له، وإنما منعهم ـ فيما نرى ـ أن يدعُوه سيدًا مع قوله: (أنا سيد ولد آدم)، وقوله لبني الخزرج: (قوموا إلى سيدكم) يريد سعد بن معاذ، من أجل أنهم قوم حديثو عهد بالإسلام، وكانوا يحسِبون أن السيادة بالنبوة كهي بأسباب الدنيا، وكان لهم رؤساءُ يعظِّمونهم وينقادون لأمرهم، ويسمُّونهم الساداتِ، فعلَّمهم النبي ﷺ الثناء عليه، وأرشدهم إلى الأدب في ذلك، فقال: (قُولُوا بِقَوْلِكُمْ)، يريد: قولوا بقول أهل دينكم ومِلَّتكم، وادْعُوني نبيًّا ورسولًا كما سمَّاني الله ﷻ في كتابه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، =

قلنا: وأفضلُنا فضلًا، وأعظمُنا طَوْلًا، فقال: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»[(١)].

ففي هذه الأحاديث ترى أن النبي ﷺ كره أن يواجهوه بالمدح الذي يُفضي بهم إلى الغُلُوِّ، فيقعوا فيما حذَّرهم منه؛ وهو الشرك بسبب أن يرفعوه ﷺ فوقَ منزلته التي أعطاها له الله تبارك وتعالى، فيصفونه بصفات لا تليق إلا بالله تعالى؛ حماية لجناب التوحيد عمَّا يشوبه من الأقوال والأفعال التي يضمَحِلُّ معها التوحيد أو ينقُص.

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ مَا شَاءَ فُلَانٌ»[(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئتَ، فقال له النبيُّ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ عَدْلًا؟! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[(٣)].

وعن قُتيلةَ: أن يهوديًا أتى النبيَّ ﷺ فقال: إنكم تُشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئتَ، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلِفوا أن يقولوا: وربِّ الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت[(٤)].

وعن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إنه كان في زمن النبي ﷺ منافق

= و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ ولا تسمُّوني سيدًا كما تسمُّون رؤساءكم وعُظماءكم، ولا تجعلوني مثلهم؛ فإني لست كأحدهم؛ إذ كانوا يسودونكم بأسباب الدنيا، وأنا أسودكم بالنبوة والرسالة، فسموني نبيًا ورسولًا». زاد المعاد (٣/ ٦٠٣).

وقوله: «وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» معناه: لا يتخذنكم جَرِيًا؛ أي: رسولًا ووكيلًا.

قال ابن الأثير: «يريد: تكلموا بما يحضركم من القول ولا تتكلفوه كأنكم وكلاء الشيطان ورسله تنطقون عن لسانه». زاد المعاد (٣/ ٦٠٣)، من كلام محقق الزاد.

(١) أخرجه أبو داود ـ واللفظ له ـ برقم (٤٨٠٦) من حديث مطرِّف بن عبد الله عن أبيه. وسنده صحيح، ورواه أحمد في مسنده (٤/ ٢٥).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب (٤/ ٢٩٥)، وأحمد (٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨)، ورجال إسناديهما ثقات كما في التقريب لابن حجر (١/ ٤٩).

(٣) رواه ابن ماجه (١/ ٦٨٤)، وأحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧).

(٤) رواه النسائي في كتاب الإيمان (٦/٧).

يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيثُ برسول الله ﷺ مِنْ هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: (إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ)(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي**)(٢).

«وهذه الألفاظ المنهيُّ عنها، وإن كانت تطلق لغةً، فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقًا للتوحيد، وسدًّا لذرائع الشرك؛ لِمَا فيها مِنَ التشريك في اللفظ؛ لأن الله تعالى هو ربُّ العباد جميعهم، فإذا أطلق على غيره شاركه في الاسم، فينهى عنه لذلك، وإن لم يقصدْ بذلك التشريك في الربوبية التي هي وَصْفُ الله تعالى، وإنما المعنى أن هذا مالكٌ له، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار، فالنهي عنه حسمٌ لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقٌ للتوحيد، وبُعدٌ عن الشرك حتى في اللفظ، وهذا مِنْ أحسن مقاصد الشريعة؛ لِمَا فيه من تعظيم الرب تعالى وبُعده عن مشابهة المخلوقين»(٣).

ومن مجموع هذه الأدلة يتبين أن الله تعالى بيَّن على لسان نبيه محمد ﷺ لأمته كلَّ ما تحتاج إليه في دينها ومعرفة خالقها جل جلاله، وما يجب له تعالى من الاعتقاد الصحيح في قلوبهم، ومن الأقوال بألسنتهم، حتى تركهم على المَحَجَّة البيضاء، ليلُها ونهارُها سواءٌ، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وأكمل للأمة الإيمان؛ فكلُّ ما قاله رسول الله ﷺ في باب الإيمان، وأمر به أصحابه ورباهم عليه، فهو الحقُّ الذي لا ينبغي العدولُ عنه، وهو الدين الكامل الذي جاء به ﷺ، وأن كل ما لم يقُلْه ﷺ في هذا الباب ولم يأمر به أصحابَه، بل نهاهم عنه، وحذَّرهم منه، فهو باطل ينبغي العدولُ عنه

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٥٩)، وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث»، وأخرجه أحمد في المسند (٥/٣١٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/٣١٦).

(٣) فتح المجيد (ص٤٠٦).

والحذر منه؛ لأنه ليس من الدين الكامل الذي جاء به، ولا يجوز لأحد أن يظن برسول الله ﷺ أنه لم يبيِّن ما يعتقده المكلف في ربه ومعرفته سبحانه بأسمائه وصفاته ومعرفة ما يجب له على عباده، وما لا يجب.

«فمن المحال في العقل والدين أن يكون الرسول ﷺ الذي أخرج الله به الناسَ مِنَ الظُّلمات إلى النور، وأنزل عليه الكتابَ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبهًا، ولم يميِّز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه، وما يمتنع عليه، فإن معرفة هذا أصلُ الدين، وأفضلُ الأعمال، فكيف يكون القرآن والرسول والصحابة - وهم أفضلُ الخلق بعد النبيين - لم يُحْكِمُوا هذا البابَ اعتقادًا وقولًا؟!

ومحالٌ أن يُعَلِّم النبيُّ ﷺ أمتَه أدبَ الأكل والشراب، وقضاء الحاجة، ونحو ذلك، ويترك تعليمَهم ما يقولونه بألسنتهم وما يعتقدونه في قلوبهم في ربِّهم ومعبودهم، مع كون ذلك غايةَ المعارف، وأشرفَ المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، مع قوله ﷺ[(١)]: (**مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ حقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ شَرِّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ**)»[(٢)].

وقد قام صلوات الله وسلامه عليه بهذا الواجب خيرَ قيام، فأوضح لأصحابه ما يعتقدونه في حقِّ الله تعالى نفيًا وإثباتًا، وربَّاهم على ذلك، وحَمَى حِمَى التوحيد في نفوسهم؛ ولم يترك الأمر مشتبهًا عليهم، بل بيَّنه وأوضحه غايةَ الإيضاح؛ «فأخبرهم أن لله تعالى حقًّا لا يَشْرَكُه فيه مخلوق؛ كالعبادة والتوكل والخوف والخشية، والتقوى؛ كما قال الله تعالى:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول (٣/ ١٤٧٣)، رقم الحديث (١٨٤٤).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٥/ ٧٠٦) بتصرف.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فالله هو المعبود سبحانه، وله حقُّ التشريع وحدَه لا شريكَ له.

وقال تعالى في التوكل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]؛ فقال في الإتيان: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، وقال في التوكل: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: ورسولُه؛ لأن الإتيانَ هو الإعطاءُ الشرعيُّ، وذلك يتضمن الإباحةَ والإحلال الذي بلَّغه الرسول ﷺ، فإن الحلال ما أحلَّه، والحرام ما حرَّمه، والدين ما شرَعه؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وأما الحَسْبُ فهو الكافي، والله وحده كافٍ عبدَه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فهو وحده حسبُهم كلِّهم، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]؛ أي: حَسْبُك وحَسْبُ مَنِ اتَّبعك من المؤمنين، هو الله؛ فهو كافيكم كلكم.

وقال في الخوف والخشية والتقوى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]؛ فأثبت الطاعةَ لله والرسول، وأثبتَ الخشيةَ والتقوى لله وحده؛ وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ

وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

ومِنْ هذا الباب إقرارُ النبي ﷺ للرجل الذي خطب في حضرته بقوله: **(مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوَى)**[1]، وقال: **(لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ، ثُمَّ مَا شَاءَ مُحَمَّدٌ)**[2].

ففي الطاعة قَرَن اسمَ الرسول باسمه بحرف الواو، وفي المشيئة أمر أن يجعل ذلك بحرف «ثم»؛ وذلك لأن طاعة الرسول طاعةٌ لله، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وطاعةُ الله طاعةُ الرسول، بخلاف المشيئة، فليست مشيئةُ أحدٍ من العباد مشيئةً لله، ولا مشيئة الله مستلزمة لمشيئة العباد، بل ما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لم يكن إن لم يشأ الله»[3]. انتهى.

هكذا كان النبي ﷺ يحقق هذا التوحيدَ لأصحابه ويربِّيهم عليه، ويحسم عنهم مادة الشرك، حتى صفا اعتقادُهم مِنْ كل شائبة تشوبُه، وتعلَّقت قلوبهم بالله تعالى وحده؛ فكانوا خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس، وكانوا خيرَ بشر بعد الأنبياء يمشون على الأرض، وقلوبهم مرتبطةٌ بمن في السماء ﷻ، فرضي عنهم ورَضُوا عنه، رضي عنهم لأنهم حققوا ما أراد منهم من عبادته وحده لا شريك له، فعبدوه ولم يشركوا به؛ لا في اعتقادهم، ولا في أقوالهم، ولا في أفعالهم، فصَفَتْ نفوسُهم بهذا التوحيد، وتحرَّروا من كل عبودية إلا عبوديَتهم لله وحده، فكانوا بها أعزةً كُرماءَ، لا يتطلعون إلى ما في أيدي الناس، وإنما يتطلعون إلى الله الواحد

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/ ٥٩٤)، رقم الحديث (٨٧٠).

(٢) سبق تخريجه (ص١١٠).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩) بتصرف.

سبحانه؛ لعلمهم أنه هو الغني سبحانه، وغيره فقير، وهو القويُّ سبحانه وغيره ضعيف، وهو العزيز سبحانه وغيره حقير؛ فخلَصت نفوسهم مِنْ حظِّ نفوسهم، كما خلَصت مِنْ حظِّ القيم الأرضية من حولهم، وأصبحت خالصةً مخلصة لله وحده، وطاهرةً مطهَّرة من كل دَنَس الجاهلية من حولها.

وما ذلك إلا بفضل الله تعالى، ثم بما بذله رسولُ الله ﷺ بأمر ربه سبحانه في تربية هؤلاء الأصحاب الأخيار ومتابعتهم، والحرص عليهم من شوائب الشرك حتى حَفِظَ الله به جنابَ الاعتقاد الصحيح، فكان واضحًا صافيًا رائقًا، محفوظًا بحفظ الله تعالى إلى أن تقومَ الساعة.

فمن أراد النجاة والسعادة، فما عليه إلا أن يأخذه من مصدره، ويتمسَّك به كما تمسك به أولئك الأصحاب، وإنه لا عُذْرَ لمن انحرف عنه، أو من تلقَّاه مِنْ غير مصدره.



الفصل الثاني

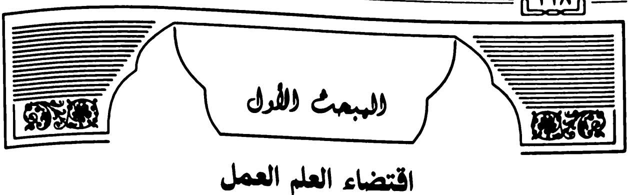
منهجه ﷺ في تربية أصحابه على العلم والعمل معًا

* ويشمل ثلاثة مباحث:

○ المبحث الأول: اقتضاء العلمِ العملَ.

○ المبحث الثاني: تحقيق التوازن فيهما.

○ المبحث الثالث: المداومة على العمل الصالح.


المبحث الأول

اقتضاء العلم العمل

إن اقتضاء العلم العملَ، وارتباط العقيدة بالحياة، والدنيا بالآخرة - سِمَةٌ بارزةٌ مِنْ سِمات تعاليم رسول الله ﷺ لأصحابه قولًا وعملًا، فكان يربيهم على أنه لا يُوجَدُ في هذه الشريعة الغراءِ فَصْلٌ بين العلم والعمل، ولا بين الدنيا والآخرة.

«فالشريعة دالَّة مِنْ أولها إلى آخرها على أن الله أوجب العلم والعمل في التكاليف التي جاءت بها... وأنه لا يوجد في الإسلام فصل بين العلم والعمل؛ لا في نصوص الشريعة، ولا في واقع الجيل الأول في خير القرون؛ فإنه تعلم العلم والعمل جميعًا»[1].

فالطريق إذن واحد يشمل الدنيا والآخرة، ويربط ما بين العلم والعمل في آن واحد، وعلى هذا جاءت نصوص الكتاب والسُّنَّة وتعاليم النبي ﷺ لأصحابه؛ لأنه لا غِنى للمكلَّف عن القوتين العلمية والعملية.

«فالسائر إلى الله والدار الآخرة لا يتم سيرُهُ، ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين؛ **قوة علمية وقوة عملية:**

فبالقوة العلمية يُبصر منازلَ الطريق ومواضعَ السلوك، فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العَطَب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل؛ فقوَّتُه العلمية كنور عظيم بيده، يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يُبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوِهاد والمَتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره. ويُبْصر

(١) الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية د. عابد السفياني (ص١٦٠) بتصرف يسير.

بذلك النور أيضًا أعلامَ الطريق وأدلّتها المنصوبةَ عليها؛ فلا يضِلُّ عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها.

وبالقوة العملية يسير حقيقةً، بل السيرُ هو حقيقةُ القوة العملية، فإن السيرَ هو عمل المسافر، وكذلك السائر إلى ربّه إذا أبصر الطريقَ وأعلامها، وأبصرَ المعاثر والوِهادَ والطُّرقَ الناكبة عنها، فقد حصل له شطرُ السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطرُ الآخر، وهو أن يضع عصاه على عاتقه، ويشمّر مسافرًا في الطريق، قاطعًا منازِلها منزلةً بعد منزلةٍ، فكلَّما قطع مرحلةً استعد لقطع الأخرى، واستشعر القُرْبَ من المنزل، فهانت عليه مشقةُ السفر، وكلَّما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل، وَعَدَهَا قُرْبَ التلاقي وبَرْدَ العيش عند الوصول، فَيُحْدِثُ لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهِمَّةً»[1]. انتهى.

ولقد حَرصَ رسول الله ﷺ على تربية أصحابه على هاتين القوتين العلمية والعملية معًا، وربط قلوبَ أصحابه على الهدف الأساسي مِنَ العلم والمعرفة؛ وهو العملُ بذلك في أداء ما أمر الله به، وتَرْكِ ما نهى الله عنه؛ لأن «العلم الذي هو العلم المعتَبَرُ شرعًا ـ أعني الذي مدح اللهُ ورسولُه أهلَه على الإطلاق ـ هو العلم الباعث على العمل الذي لا يخلِّي صاحبَه جاريًا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيِّد لصاحبه بمقتضاه»[2].

وعلى هذا ربَّى النبيُّ ﷺ أصحابه، كما تحدَّثوا هم بذلك؛ فعن أبي عبد الرحمٰن السُّلَمي[3] قال: «حدَّثنا الذين كانوا يُقرئونَنا القرآنَ ـ عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما ـ أنهم كانوا إذا تعلموا مِنَ

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص١٨٣).

(٢) الموافقات للشاطبي (١/ ٦٩).

(٣) هو: أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن حبيب بن ربيعة ـ بالتصغير ـ السلمي الكوفي القارئ، روى عن حذيفة بن اليمان وخالد بن الوليد، وروى عنه إبراهيم النخعي، وأبو إسحاق السبيعي، وروى له الجماعة.
تهذيب الكمال للمزي (١٤/ ٤٠٨).

النبي ﷺ عشرَ آيات لم يجاوزوها حتى يتعلَّموا ما فيها من العلم والعمل؛ قالوا ـ أي: الصحابة ـ: فتعلمنا العلمَ والعملَ»[١].

وقد ورد مثلُ هذا النص في ترجمة أبي عبد الرحمٰن السُّلَمي في كتاب طبقات القراء لابن الجزري، وزاد فيه: «وأنه سيرث القرآنَ بعدَنا قومٌ لا يتجاوز تراقيهم، بل لا يجاوز ههنا» ووضع يده على حلقومه[٢].

«ويعتبر هذا النص أقدمَ نصٍّ تاريخيٍّ نتعرف به على الطريقة التي كان يعلِّم النبيُّ ﷺ بها أصحابَه ويربِّيهم عليها، فكان لا يهتم بالإكثار عليهم من العلم، ولكنه يحرص على أن يُتقنوا ما تعلَّموه منه، ثم يوجِّههم إلى العمل به، فنحن نفهم من هذا النص القَيِّم أن الصّحابة رضوان الله عليهم الذين ظهرت منهم العجائبُ عندما قذَف بهم الإسلامُ إلى أقطار المشرق والمغرب، كانوا يتلقّون من القرآن عشرَ آيات بعدَ عشر آيات، فكانوا لا ينتقلون من العشر إلى العشر إلا بعد حفظ هذه الآيات القليلة بإتقان وتدبُّر لِمَا فيهن من آداب وأحكام وتوجيهات وأهداف، ثم يُمَرِّنون أنفسَهم وجوارحَهم على العمل بذلك بتوجيهٍ منه ﷺ حتى تصبحَ لهم خُلُقًا وعادةً وسجِيَّةً»[٣].

وفي هذا الأثر بيانٌ واضحٌ مِنَ الصحابة رضوان الله عليهم عن كيفية تربية النبي ﷺ وتعليمِه لهم؛ فلم يكن النبيُّ ﷺ يُقرئهم القرآنَ ويعلِّمهم إياه بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوُّق والاستمتاع، وإنما كان يعلِّمهم القرآنَ ليتلقَّوا منه أمرَ الله تعالى، فيعملوا به فَوْرَ سماعِهم له، كما يتلقَّى الجنديُّ الأمرَ اليوميَّ من رئيسه ليعملَ به فوْرَ سماعه؛ ومِنْ ثَمَّ لم يكن

---

(١) الإكليل لابن تيمية (ص٣١)، عن كتاب الرعيل الأول (ص٥٥)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣)، مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٠).

(٢) طبقات القراء (١/ ٤١٣).

(٣) مع الرعيل الأول (ص٥٦) بتصرف.

الصحابة رضوان الله عليهم يستكثرون من القرآن ومن توجيهات رسولهم ﷺ في الجلسة الواحدة لإحساسهم بالواجبات والتكاليف المُلقاةِ على عواتقهم مِمَّا يتعلَّمونه من الرسول ﷺ، فكانوا يكتفون بعشر آيات حتى يحفظوها ويعملوا بها.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فشخَص ببصره إلى السماء، ثم قال: (**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**)، فقال زيادُ بن لَبيد الأنصاري: يا رسول الله، وكيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنَّه ولنُقرِئنَّه نساءَنا وأبناءَنا، فقال: (**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟!**) قال جبير: فلقيت عُبادةَ بن الصامت، قال: قلت: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرتُه بالذي قال، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئتَ لأحدِّثَنَّك بأولِ علم يُرفع مِنَ الناس: الخشوعُ، يوشِكُ أن تدخل مسجدَ الجماعة، فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا[1].

في هذا الحديث يربط الرسول ﷺ بين العلم والعمل ربطًا قويًا، ويربي أصحابَه على ذلك، ويخبرهم بأن ضَياع العلم يكون بسبب ضَياع العمل، وليس ضَياعُ العلم بضياعِ الكُتب، أو عدم حفظه في الصدور، كلَّا؛ وإنما يضيع العلم إذا لم يُطَبَّقْ في حياة المسلمين تطبيقًا كما يريد ربُّ العالمين سبحانه؛ ولذلك لمَّا استشكلَ الصحابيُّ زيادُ بن لبيد قولَ رسول الله ﷺ في اختلاس العلم من الناس، وقولُه للرسول ﷺ: وكيف

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٧٥).
ورواه أيضًا الترمذي، في كتاب العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم، حديث رقم (٢٦٥٣)، وقال: «حديث حسن غريب، ومعاوية بن صالح ثقة عند أهل الحديث، ولا نعلم أحدًا تكلَّم فيه غير يحيى القطان، وقد رُوي عن معاوية نحو هذا، وروى بعضُهم هذا الحديث عن عبد الرحمٰن بن جبير بن نفير عن أبيه، عن عوف بن مالك، عن النبي ﷺ».

يُختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنَقرَأنَّه ولنُقرِئنَّه نساءنا وأبناءنا، قال له رسول الله ﷺ مربيًا وموجهًا له وللسامعين: إن التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فما أغنت عنهم لَمَّا أعرضوا عما جاء فيها مِنْ أمر الله تعالى وتعاليمه؟! «لأن شأن العلم أن يستلزم الإيمان، والإيمان يستلزم العمل، فإنْ لم يكن هناك عملٌ كان العلم ناقصًا، وكان الإيمانُ مختلًا.

ولقد ذم الله ﷻ الذين لا يعملون بعلمهم؛ فقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، فالآية تعطي صورةً حيةً ناطقةً لمن لا يعمل بعلمه، وتشيرُ إلى أن مِنَ العلم ما يخالط القلب، ويمازج أجزاءَ النفس، ومنه نوعٌ يدخل إلى النفس، لكنه لا يؤثِّر فيها، ولا يتأثر بها، بل يبقى كسَقَط المتاع في زاوية من زوايا النفس، وهذا أكبرُ مِنَ الجهل؛ لأن صاحبه يخدع الناظر إليه ويخدع نفسه، فهو في ثوب العلماء ونفسُه تنطوي على جَهَالة عمياء»[١].

وعن همام، عن حذيفة ﵁ قال: «يا معشرَ القراء، استقيموا؛ فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا، لقد ضلَلْتُم ضلالًا بعيدًا»[٢].

وعن ابن عون، قال: «ثلاث أُحبُّهن لنفسي ولإخواني: هذه السُّنَّة: أن يتعلَّموها ويسألوا عنها، والقرآن: أن يتفهَّموه ويسألوا الناس عنه، ويَدَعُوا الناس إلا من خير»[٣].

فَـ «القُرَّاءُ» لفظة يُراد بها عند السلف الصالح: العلماء بالقرآن والسُّنَّة العُبَّاد[٤]، وهم المقصودون بقول عبد الله بن عباس ﵄: «وكان القُرَّاءُ

---

(١) المجتمع الإسلامي د. محمد أمين المصري (ص٧٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٨/١٧٨)، رقم الحديث (٧٢٨٢).

(٣) رواه الإمام البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٨/١٧٦).

(٤) انظر: فتح الباري (١٣/٢٥٧).

أصحابَ مجلس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا»[١].

وليس المراد بـ «القُرَّاء» مَنْ تخصَّصوا في قراءة القرآن دون أن يكون لهم علم بأحكام الكتاب والسُّنَّة كطبقةٍ كثيرٍ مِنْ قُرّاء زماننا.

ولهذا فالنصُّ دعوةٌ للعلماء العُبَّاد إلى الاستقامة؛ أي: إلى العمل بما عَلِموه من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، والاستمرار على ذلك؛ لأن حقيقةَ الاستقامة: «عدم الاعوجاج والمَيْل، والسين والتاء فيها للمبالغة في التقوُّم؛ فحقيقة «استقام»: استقلَّ غيرَ مائلٍ ولا مُنْحَنٍ، وتُطلَقُ الاستقامةُ بوجه الاستعارة على ما يجمع معنى حُسْنِ العمل والسيرة على الحق والصدق؛ قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، وقال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، ويقال: استقامت البلاد للملك؛ أي: أطاعت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧]، فـ «استقام» هنا يشمل معنى الوفاء بما كُلِّفوا به، وأول ما يشمل من ذلك: أن يثبُتوا على أصل التوحيد؛ أي: لا يغيِّروا ولا يرجِعوا عنه.

ومن هذا المعنى ما روي في «صحيح مسلم» عن سفيانَ الثقفيِّ، قال: قلتُ: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسألُ عنه أحدًا غيرَك. قال: (قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ)[٢].

وعن أبي بكر ﵁: «﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]: لم يشركوا بالله شيئًا».

وعن عمر: «استقاموا على الطريقة لطاعته، ثم لم يُروغوا رَوَغَانَ الثَّعالب».

وقال عثمان: «ثم أخلصوا العمل لله».

وعن عليٍّ: «ثم أدوا الفرائض».

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٨/ ١٧٩)، رقم الحديث (٧٢٨٦)، وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٥٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام (١/ ٦٥)، رقم الحديث (٣٨).

وكل هذه الأقوال ترجع إلى معنى الاستقامة في الإيمان وآثاره، وعناية هؤلاء الأربعة كبار الصحابة ببيان الاستقامة يشير إلى أهميتها في الدين»[١].

فإن استقام القراء على التمسُّك بأمر الله تعالى ورسوله ﷺ فعلًا وتركًا، فقد سبقوا غيرهم سبقًا بعيدًا ظاهرًا.

وأما إذا خالفوا الأمر المذكور، وأعرضوا عن أوامر الله ورسوله، فقد وقعوا في الضَّلال البعيد؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فلا بد مِنَ الاهتمامِ بالعلم بما في الكتاب والسُّنَّة مِنْ أوامر ونواهٍ، والعمل بمقتضى ذلك، ودعوة الناس إلى ذلك، وكفُّ الأذى والشرّ عنهم.

«وفي هذا تأكيدٌ على ربط العلم بالعمل، فلا عملَ بلا علم، ولا علمَ بلا عمل، فهذا هو المفهوم التربوي الذي جاء به الإسلام، وخصَّص القرآنُ والرسول ﷺ من أجله حشدًا من الآيات والأحاديث، وتلك هي ميزة الإسلام عن سائر المبادئ الوضعية التي تعاني ثنائيةً وازدواجًا في طبيعة العلاقة بين العلم والعمل، هذه الثنائيةُ التي تتبدَّى في دراساتهم ومشاريعهم النظرية، وفي واقعهم العملي، فهناك دائمًا جدارٌ فاصل بين المذاهب وبين الأعمال، والذي يقرأ مُعطياتِ الوضعيين الفكرية والفلسفية، منذ عهد أفلاطون حتى العصر الحديث، يلاحظ هذه الثنائيةَ، وما مِنْ شكٍّ في أن هذا الفصل أمر محتَّمٌ في كل مبدأ لا يخاطب كينونةَ الإنسان، ولا يتعامل مع واقع الحياة، ولا يرسُم الخطواتِ الحصيفةَ لربط الأساس بالمسبّبات، والأفكار بالأعمال»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٨٢، ٢٨٣) بتصرف يسير.

(٢) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، د. عماد الدين خليل (ص١٨٧، ١٨٨).

وكان ﷺ يحثُّ أصحابَه على حفظ أوقاتهم فيما فيه فائدةٌ لهم في دينهم ودنياهم، فكان يربيهم على العلم المقتضي للعمل؛ لِمَا فيه مِنْ فائدةٍ وتحصيلٍ للأجر والثواب من الله تعالى، ويحذِّرهم مِنَ الخلاف الذي يؤدي إلى العداوة والبغضاء دون أن تدعُوَ إليه حاجةٌ عملية.

عن عبد الله بن عمرو، قال: هَجَّرْتُ[1] إلى رسول الله ﷺ يومًا، قال: فسمع أصواتَ رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الغضبُ، فقال: (**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الكِتَابِ**)[2].

وعن أبي عمرانَ[3]، عن جُندُب بن عبد الله البَجَلِيِّ، قال: قال رسول الله ﷺ: (**اقْرَؤُوا القُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ، فَقُومُوا**)[4].

«فالمراد بهلاك مَنْ قبلَنا هنا: هلاكُهم في الدين بكفرهم وابتداعهم، فحذَّر رسولُ الله ﷺ مِنْ مثلِ فعلهم، والأمرُ بالقيام عند الاختلاف في القرآن محمولٌ عند العلماء على اختلافٍ لا يجوز، أو اختلافٍ يُوقِع فيما لا يجوز؛ كاختلافٍ في نفس القرآن، أو في معنًى منه لا يسوغ فيه الاجتهاد، أو اختلافٍ يوقع في شك أو شُبهة أو فتنة وخصومة أو شجار ونحو ذلك، وأما الاختلاف في استنباط فروع الدين منه، ومناظرة أهل العلم في ذلك على سبيل الفائدة وإظهار الحق واختلافهم في ذلك، فليس

(١) هَجَّرْتُ: أي بكَّرت. انظر: صحيح مسلم (٤/٢٠٥٣).
(٢) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن (٤/٢٠٥٣)، رقم الحديث (٢٦٦٦).
(٣) هو: أبو عمران عبد الملك بن حبيب الأزدي الجَوْني، روى عن أنس بن مالك وجُندُب بن عبد الله البَجَلي، وروى عنه أبانُ بن يزيدَ العطار، وجعفر بن سليمان الضبَعي، وروى له الجماعة.
تهذيب الكمال ((١٨/٢٩٧).
(٤) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن (٤/٢٠٥٣)، رقم الحديث (٢٦٦٧).

منهيًا عنه، بل هو مأمور به، وفضيلةٌ ظاهرة، وقد أجمع المسلمون على هذا من عهد الصحابة إلى الآن. والله أعلم»[(١)].

وفي هذا تربيةٌ منه ﷺ لأصحابه على حفظ أوقاتهم، وعدم صرفها فيما لا فائدةَ فيه، وفيما يؤدي إلى التباغُض والفُرقة والاختلاف؛ لأن المسلم مأمور بالعلم والعمل، وحفظ وقته فيما يؤدي إلى ذلك، وفيه الخير والمصلحة للفرد والمجتمع.

يتضح مما سبق أن العلم مرتبط بالعمل؛ لأن المقصودَ الأول من كل علم شرعي هو عبادة الله وحده لا شريك له، وأن روحَ العلمِ العملُ، وأن العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر.

وهكذا تدرَّج ﷺ مع أصحابه في تربيتهم على العلم والعمل حتى أصبح لهذا النوع من العلم الذي يعملون به قيمةٌ كبيرةٌ في نفوسهم، وكانوا يرَوْن أنه هو العلمُ النافع المطلوب الذي يحبه الله ورسوله، والذي جاءت أوامرُ الله ورسوله بمقتضاه، ويستعيذون بالله تعالى من علم لا نَفْعَ فيه؛ ذلك لأن رسول الله ﷺ كان يربِّيهم على كل معرفة لها أثر نافع في تهذيب نفوسهم، وفي تقوى الله تعالى والبعد بهم عن الشر وأهله، والدعوة إلى تعميم الخير ونشر الحق والعدل في الأرض، حتى تكونَ كلمةُ الله هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السفلى، وعلى مناصرة أوليائه وحبِّهم، والتودد لهم، والبراءة مِمَّن خالف أمر الله ورسوله ونهيهما، وعادى اللهَ ورسوله والمؤمنين، فكانوا - رضوان الله عليهم - يُقبلون على ذلك أشدَّ الإقبال، حتى إنهم مَرَّنُوا أنفسهم وجوارحَهم على العمل بما تعلموا منه ﷺ حتى أصبح ذلك عادةً وسجِيَّةً لهم، فلم يشغلوا مداركهم وعقولهم بِلَغْوِ القول، ولا بالفلسفة التي لا طائلَ تحتها مِنَ الغيب الذي استأثر الله بعلمه، مكتفين مِنْ ذلك بما وردهم عن الله ورسوله، لا يزيدون عليه ولا ينقُصون منه[(٢)]؛ ولهذا كانوا خيرَ أمة أُخرجت للناس.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/٢١٨، ٢١٩).

(٢) انظر: مع الرعيل الأول (ص٥٦).

وقد قرَّر الإمام الشاطبيُّ رحمه الله تعالى أن كلَّ علم شرعي وسيلةٌ إلى التَّعبد به لله تعالى؛ ودلَّل على ذلك بثلاثة أمور:

«الأمر الأول: أن كل علم لا يفيد عملًا[1] فليس في الشرع ما يدلُّ على استحسانه، ولو كان له غايةٌ أخرى شرعية، لكان مستحسنًا شرعًا.

الأمر الثاني: أن الشرع إنما جاء بالتعبُّد، وهو المقصودُ من بعثة الأنبياء ﷺ؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ١، ٢] الآيات، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]؛ أي: يُسَوُّون به غيرَه في العبادة، فذمَّهم على ذلك، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣]، وما أشبه ذلك من الآيات التي لا تكاد تُحصى؛ كلُّها دالٌّ على أن المقصودَ التعبُّدُ لله، وإنما أُوتوا بأدلة التوحيد ليتوجَّهوا إلى المعبود بحق الله وحده سبحانه لا شريك له؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤]، وقال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]، ومثله سائر المواضع التي نصَّ فيها على كلمة التوحيد، لا بدّ أن أعقب بطلب التعبُّد لله وحده، أو جعل مقدمةً لها، بل أدلةُ التوحيد

---

(١) كالفلسفة النظرية الصرفة. أما الفلسفة العملية كالهندسة والكيمياء والطب والكهرباء؛ فهي علوم يتوقف عليها حفظ مقاصد الشرع في الضَّروريات والحاجيات. وكذلك المصالح المرسلة تشملها، وهي وسيلة إلى التعبد أيضًا؛ لأن التعبُّد هو تصرُّف العبد في شؤون دنياه وأخراه بما يُقِيمُ مصالحَهما بحيث يجري في ذلك على مقتضى ما رسم له مولاه، لا على مقتضى هواه. هامش الموافقات (١/ ٦١).

هكذا جرى مساقُ القرآن فيها: إلا تذكرة، إلا كذا، وهو واضحٌ في أن التعبُّدَ لله هو المقصودُ من العلم. والآياتُ في هذا المعنى لا تُحصى.

الأمر الثالث: ما جاء من الأدلة على أن رُوح العلم هو العملُ، وإلا فالعلم عاريةٌ وغيرُ منتفَع به؛ فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨]؛ قال قتادة: «يعني لذو عَمَلٍ بما علمناه»، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وروي عن أبي جعفر محمد بن علي في قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٩٤]. قال: «قوم وَصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلى غيره»[(١)].

ولهذا كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يختلفون إلى رسول الله ﷺ، فيصيبون منه عِلمًا وهدًى وفضائلَ وسجايا وآدابًا وأحكامًا ما اتسعت لذلك أوقاتُهم، وساعدت على ذلك ظروفُهم؛ كما عبَّر عن ذلك عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: «كنت أنا وجارٌ لي مِنَ الأنصار في بني أمية بن زيد ـ وهو من عوالي المدينة ـ فكنا نتناوبُ النزولَ على رسول الله ﷺ، ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلتُ جئته بعلم ذلك اليوم، وإذا نزل فعل مثلَ ذلك»[(٢)].

فكانوا ـ رضوان الله عليهم ـ يحرِصون على ملازمة معلِّمهم ورسولِهم ﷺ، فكان بعضُهم أكثرَ ملازمةً له ﷺ وأكثرَ إحاطة بما يقول ويفعل، كما كان بعضهم أعمقَ فهمًا لمراد رسول الله ﷺ، وأوسعَ إدراكًا لما يرمي إليه من أهداف[(٣)].

---

(١) الموافقات (١/ ٦٠، ٦١، ٦٢) بتصرف يسير.
(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب التناوب في العلم (١/ ٣٦)، رقم الحديث (٨٩).
(٣) انظر: مع الرعيل الأول (ص٥٧).

فالتلازم بين العلم والعمل وثيقٌ في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ؛ فالعلم شرط في صحة العمل؛ قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [محمد: ١٩]؛ ولذلك بوَّب الإمامُ البخاريُّ رحمه الله تعالى لهذه الآية في صحيحه بقوله: «باب العلم قبل القول والعمل»(١)؛ لأن الله تعالى أمرَ نبيَّه ﷺ بأمرين في الآية السابقة:

أمره أولًا.. بالعلم؛ بقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وأمره ثانيًا.. بالعمل؛ بقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

فالعلم والعمل قرينان متلازمان؛ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إلا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ**)(٢).

هكذا انغرس في نفوس الصحابة والتابعين أن روحَ العلمِ العملُ؛ فظهرت آثار ذلك في أقوالهم كما ظهرت في سلوكهم؛ يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «هتف العلمُ بالعمل، فإن أجابه وإلا ارْتحل»(٣)، وقال أيضًا: «يا حَمَلَةَ العلم، اعملوا به؛ فإن العالم مَنْ علِم ثم عمِل، ووافق علمُه عملَه، وسيكون أقوامٌ يحملون العلمَ لا يُجاوز تراقِيَهم، تخالف سريرتُهم علانيتَهم، ويخالفُ علمُهم عملَهم، يقعُدون حِلَقًا يباهي بعضُهم بعضًا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدَعَه؛ أولئك لا تصعد أعمالُهم إلى الله عز وجل»(٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «ليس العلمُ عن كثرة الحديث، إنما العلم خشيةُ الله»(٥).

---

(١) الجامع الصحيح للإمام البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل (١/ ٢٩).
(٢) سبق تخريجه (ص١٨).
(٣) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص٣٦).
(٤) المرجع السابق. (٥) المرجع السابق.

وقال الحسن البصري: «ليس الإيمانُ بالتحلّي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدَّقته الأعمالُ، مَنْ قال حسنًا وعمل غير صالح ردَّه الله على قوله، ومَنْ قال حسنًا وعمل صالحًا رفعه العملُ؛ وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]»(١).

وقال سفيان الثوري: «إنما يُتعلم العلمُ ليُتَّقى به اللهُ، وإنما فضل العلم على غيره؛ لأنه يُتَّقى اللهُ به»(٢).

وقال يوسف بن الحسن: «بالأدب تفهم العلمَ، وبالعلم يصحُّ لك العمل، وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة تفهم الزهد وتُوفَّقُ له، وبالزهد تترك الدنيا، وبترك الدنيا ترغب في الآخرة، وبالرغبة في الآخرة تنال رضا الله ﷻ»(٣).

وقال الفُضيل بن عياض: «لا يزال العالم جاهلًا بما علم حتى يعمل به، فإذا عمل به كان عالمًا»(٤).

وقال أيضًا: «على الناس أن يتعلموا، فإذا علموا، فعليهم العملَ»(٥).

وقال حفص بن حُميد(٦): «دخلت على داودَ الطائيِّ أسْأله عن مسألة، وكان كريمًا، فقال: أرأيت المُحارِبَ إذا أراد أن يلقى الحربَ، أليس يجمع آلتَه، فإذا أفنى عمره في الآلة، فمتى يحارب؟! إن العلمَ آلةُ العمل، فإذا أفنى عمره في جمعه، فمتى يعمل؟!»(٧).

وقال الفضيل بن عياض: «إنما نزل القرآن ليُعملَ به، فاتخذ الناس

---

(١) اقتضاء العلم العمل (ص٤٢، ٤٣).
(٢) الموافقات للشاطبي (١/ ٦٣).
(٣) اقتضاء العلم العمل (ص٣١).
(٤) اقتضاء العلم العمل (ص٣٧).
(٥) اقتضاء العلم العمل (ص٣٧).
(٦) هو: حفص بن حميد المروزي الأكافي العابد، يروي عن إبراهيم بن أدهم وعبد الله بن المبارك، ويروي عنه إبراهيم بن شماس السمرقندي وأحمد بن جميل المروزي، ذكره ابن حبان في الثقات.
تهذيب الكمال (٧/ ١٠).
(٧) اقتضاء العلم العمل (ص٤٤، ٤٥).

قراءته عملًا. قال: قيل: كيف العملُ به؟ قال: أي: ليُحِلُّوا حلالَه، ويُحرِّموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه»(١).

وقال معروفٌ الكرخي: «إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرًّا فتح له باب الجدل، وأغلق عنه باب العمل»(٢).

وقال الشَّعبي: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به»، ومثله عن وكيع بن الجراح رحمهم الله تعالى(٣).

وعن الحسن قال: «العالمُ الذي وافق علمُه عملَه، ومَنْ خالف علمُه عمَلَه، فذلك راويةُ حديث؛ سمع شيئًا فقاله»(٤).

وقال أيضًا: «الذي يفوق الناسَ في العلم جديرٌ أن يفوقَهم في العمل»(٥).

وعنه أيضًا في قول الله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] قال: «عُلِّمتم فَعَلِمْتم، ولم تعملوا، فوالله ما ذلكم بعلم»(٦).

وهذا معنى كون العلم هو الذي يُلجئ إلى العمل؛ «لأن المرادَ بالعلم العلمُ الشرعيُّ الذي يفيد معرفةَ ما يجب على المكلَّف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته ما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص»(٧).

«وهذا كلُّه من طبيعة هذا الدين، التي ترفض اختزانَ المعارف الباردة في ثلاجات الأذهان الجامدة.

إن «المعرفة» في هذا الدين تتحول لِتَوِّها إلى «حركة»، وإلا فهي ليست من جنس هذا الدين، وحين كان القرآن يتنزَّل، لم يتنزَّل بتوجيه أو

(١) اقتضاء العلم العمل (ص٧٦).
(٢) اقتضاء العلم العمل (ص٨٠).
(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٤).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩).
(٥) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٣).
(٦) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٣).
(٧) فتح الباري (١/ ١٤١).

حكم إلا لتنفيذه لساعته... أي ليكون عنصرًا حركيًا في المجتمع الحي... إن كلَّ نصٍّ قرآنيٍّ يمثل استجابةً حيةً لحالةٍ واقعةٍ، أو دفعة حية لإنشاء حالة مطلوبة... ومن ذلك تنزَّلت الأحكام التشريعيةُ كلُّها في المدينة كحركة في المجتمع المسلم الذي قام هناك، ولم يتنزَّل حكمٌ واحد منها في مكة، ليُختزن - كمعرفة مجردة - حتى يجيء وقت التنفيذِ في المدينة... إن المعرفة للمعرفة ليست منهجًا إسلاميًا... في الإسلام المعرفةُ للحركة، والعلمُ للعملِ، والعقيدةُ للحياة.

واليوم لا قيمةَ للمعرفة التي لا تتحول - لتوِّها - إلى حركة، لا قيمة للدراسات الإسلامية في شتى مناهجها وشتى معاهدها، لا قيمةَ لاكتظاظ رُفُوف المكتبات بالكتب الدينية، ولا باكتظاظ الأدمغة بمضمونات هذه الكتب... إن هذا ليس هو الإسلامَ، وليس هو العلمَ الدينيَّ؛ العلمُ الدينيُّ شيء يزاوَلُ في الحياة، ويُطَبَّقُ في المجتمعات، ويعيش في الواقع، ويتمثل في نظام... والإسلام هو سيادةُ هذا النظام... وليس للإسلام من صورة أخرى يعرفها الإسلام ويرضاها الله»[1].

ومن هنا نعلم أن أهل الإيمان جمعوا بين العلم والعمل، فسَعِدوا بذلك، وحازوا أجر الدنيا والآخرة معًا.

وأما اليهود، ففرَّقوا بينهما، فعلموا الحقَّ وحادوا عن العمل به، وأما النصارى، ففقدوا العلم وتلبَّسوا بالجهل؛ ولهذا كان الغضبُ لليهود، والضلالُ للنصارى؛ كما قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧][2].

---

(١) مقومات التصور الإسلامي (ص٢٥).

(٢) «قال جماهير من علماء التفسير ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: اليهود، و﴿الضَّالِّينَ﴾: النصارى. وقد جاء الخبرُ بذلك عن رسول الله ﷺ من حديث عديِّ بن حاتم رضي الله عنه. رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن الكريم في باب من سورة فاتحة الكتاب (١٨٦/٥) وقال: «حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث سِماك بن حرب»، ورواه أحمد في مسنده (٣٧٨/٤). واليهود والنصارى وإن كانوا ضالين جميعًا مغضوبًا عليهم جميعًا، =

«فطريقة أهل الإيمان مشتملةٌ على العلم بالحقّ والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى؛ لأن مَنْ علم وترك استحقَّ الغضبَ، بخلاف مَنْ لم يعلم، والنصارى لَمَّا كانوا قاصدين شيئًا، لكنهم لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنهم لم يأتوا الأمرَ من بابه ـ وهو اتِّباعُ الحقّ ـ ضلُّوا، وكلٌّ مِنَ اليهود والنصارى ضالٌّ مغضوبٌ عليه، لكن أخصَّ أوصاف اليهود الغضب؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وأخصّ أوصاف النصارى الضلال؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]»[1].

«والأدلة على هذا المعنى أكثرُ من أن تُحصى، وكل ذلك يُحقِّق أن العلمَ وسيلةٌ مِنَ الوسائل، ليس مقصودًا لنفسه مِنْ حيثُ النظرُ الشرعيُّ، وإنما هو وسيلةٌ إلى العمل، وكل ما ورد في فضل العلم، فإنما هو ثابتٌ من جهة ما هو مكلَّف بالعمل به.

فلا يقال: إن العلم قد ثبت في الشريعة فضلُه، وأن منازل العلماء فوق منازل الشهداء، وأن العلماء وَرَثَةُ الأنبياء، وأن مرتبةَ العلماء تلي مرتبةَ الأنبياء، وإذا كان كذلك، وكان الدليلُ الدالُّ على فضله مطلقًا لا مقيَّدًا، فكيف ينكر أنه فضيلةٌ مقصودةٌ، لا وسيلة؟

هذا، وإن كان وسيلةً مِنْ وجه، فهو مقصودٌ لنفسه أيضًا، كالإيمان؛ فإنه شرطٌ في صحة العبادات، ووسيلةٌ إلى قَبولها، ومع ذلك، فهو مقصودٌ لنفسه.

لأنا نقول: لم يثبت فضلُه مطلقًا، بل مِنْ حيثُ التوسلُ به إلى العمل؛

= فإن الغضب إنما خصَّ به اليهود ـ وإن شاركهم النصارى فيه ـ لأنهم يعرفون الحق وينكرونه، ويأتون الباطل عمدًا، فكان الغضبُ أخصَّ صفاتهم. والنصارى جَهَلَةٌ لا يعرفون الحق، فكان الضلالُ أخصَّ صفاتهم». أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (١/١٠٦).

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٩).

بدليل ما تقدم ذكره آنفًا، وإلا تعارضت الأدلةُ، وتناقضت الآيات والأخبار، وأقوالُ السلف الأخيار؛ فلا بدّ مِنَ الجمع بينها، وما ذُكر آنفًا شارحٌ لِمَا ذُكر في فضل العلم والعلماء.

وأما الإيمان، فإنه عمل مِنْ أعمال القلوب، وهو التصديق، وهو ناشئ عن العلم، والأعمال قد يكون بعضُها وسيلةً إلى البعض، وإن صحّ أن تكون مقصودةً في أنفسها، أما العلم فإنه وسيلةٌ، وأعلى ذلك العلم بالله، ولا تصح به فضيلةٌ لصاحبه حتى يصدِّق بمقتضاه، وهو الإيمانُ بالله»[1].

«فالقرآن أخبر بالعلم به والعمل له، فجمع بين قوتي الإنسان العلمية والعملية: الحِسِّيَّة والحركية الإرادية والإدراكية، والاعتمادية: القولية والعملية؛ حيث قال تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فالعبادة لا بدّ فيها من معرفته، والإنابة إليه، والتذلل له، والافتقار إليه، وهذا هو المقصودُ، والطريقة الكلامية إنما تفيد مجردَ الإقرار، والاعترافِ بوجوده.

وهذا إذا حصل من غير عبادة وإنابة: كان وبالًا على صاحبه وشقاءً له، كإبليس اللعين؛ فإنه معترفٌ بربِّه، مقرٌّ بوجوده، لكن لَمَّا لم يعبُدْه، كان رأسَ الأشقياء، وكلُّ مَنْ شقِيَ فباتِّباعه له؛ كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]؛ فلا بدّ أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه، مع أنه معترف بالرب، مُقِرٌّ بوجوده، وإنما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة، والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية؛ ولهذا قيل: العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر... كما ذكر من قبل.

والمراد بالعمل هنا عملُ القلب الذي هو إنابتُه إلى الله، وخشيتُه له حتى يكون عابدًا له.

فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبَتْه، بل هو رأس الدعوة ومقصودُها وأصلُها، والطريقة السماعية العملية الصوتية المنحرفة توافق على

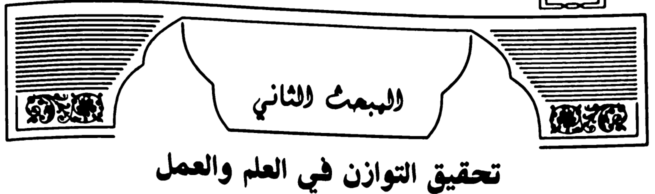
(١) الموافقات للشاطبي (١/ ٦٥، ٦٦).

المقصود العمليّ، لكن لا بعلم، بل بصوت مجرّد أو بشِعر مهيج، أو بوصف حبٍّ مجمل، فكما أن الطريقةَ الكلامية فيها علم ناقصٌ بلا عمل؛ فهذه الطريقة فيها عمل ناقص بلا علم، والطريقة النبوية القرآنية السُّنِّية الجماعية فيها العلم والعمل كاملَيْن»[1].

* * *

---

(١) الفتاوى (٢/ ١٢، ١٣).



المبحث الثاني

تحقيق التوازن في العلم والعمل

إن التوازنَ في العلم والعمل سِمَةُ هذا الدين الذي أنزله الله تعالى على نبينا محمد ﷺ، والذي رضِيَه لعباده دينًا، فتعاليمُ هذا الدين جاريةٌ على الطريق الوسط الأعدل، الذي لا مَيْلَ فيه ولا انحراف.

ومن ثَمَّ كانت تربيةُ النبي ﷺ لأصحابه مبنيةً على هذه السِّمة البارزة الأصيلة، فكان يربي أصحابَه على الاعتدال والتوازن، وينهاهم على الإفراط والتفريط.

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى:

«الشريعة جاريةٌ في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقِسْطٍ لا مَيْل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليفٌ جارٍ على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غايةَ الاعتدال؛ كتكاليف الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والزكاة، وغير ذلك مما شرع ابتداءً على غير سبب ظاهر اقتضى ذلك، أو لسبب يرجع إلى عدم العلم بطريق العمل؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] وأشباه ذلك.

فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلَّف، أو وجود مَظِنَّةِ انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريعُ ردًّا إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه؛ فِعْلَ الطبيب الرفيق يحمل المريض على ما فيه صلاحُه بحسب حاله وعادته وقوة مرضه وضعفه، حتى إذا استقلَّت صحتُه، هيأ له طريقًا في التدبير وسَطًا لائقًا به في جميع أحواله»[1].

---

(١) الموافقات للشاطبي (٢/ ١٦٣).

المطلب الأول

التوازن في العلم

إن التوازن في العلم ومعرفة أحكام الله تعالى ورسوله ﷺ من مميزات هذا الدين الكامل؛ فالعلم مطلب شرعي لِمَا بعده، وهو التنفيذ العملي الواقعي الذي تظهر آثاره في سلوك العالم والمتعلم، وهذا هو المقصد الأول والمهم من طلب العلم والازدياد منه؛ ولهذا كان رسولُ الله ﷺ يربِّي أصحابه على هذا المبدأ الكريم والمقصد العظيم، فغرَسَه في نفوسهم، وأقنعهم بأنَّ العلم لا قيمةَ له إلا إذا تحول إلى عمل وسلوك في النفس وفي واقع الحياة، ولذلك كان يكره ﷺ منهم التنقيبَ والاستفسار عن الأمور التي لا فائدةَ فيها، والتي لا ينبني عليها عمل، أو التي لم تقع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (**دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُؤَالُهُمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**)[١].

وهذا الحديث له مناسبةٌ؛ وهي ما ذكره الإمام مسلم في صحيحه[٢] من رواية محمد بن زياد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطَبَنَا رسولُ الله ﷺ فقال: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الحَجَّ فَحُجُّوا**)، فقال رجل: أَكُلَّ عامٍ يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله: (**لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ**)، ثم قال: (**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُم...**) الحديث.

فالنبي ﷺ يأمر أصحابه ألا يسألوه عن شيء لم يأمرْهم بفعله، ولا عن شيء لم يأمرهم بالانتهاء عنه؛ خوفًا عليهم من أن ينزلَ إيجابُه أو تحريمُه

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٨/ ١٨٠)، رقم الحديث (٧٢٨٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر (٢/ ٩٧٥)، رقم الحديث (١٣٣٧).

بسبب سؤالهم عنه، فيكون في ذلك إثمٌ وحَرَج عليهم، بكثرة سؤالهم؛ لِمَا فيه - غالبًا - مِنَ التعنُّت وخشية أن يقع بسبب ذلك الإجابة بأمر يُستثقل، فقد يؤدِّي لترك الامتثال، فيقع الأصحاب في المخالفة.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **(إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا، مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَحُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ)**[1].

قال ابن فرج: معنى قوله: **(ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ)**: لا تُكثروا من الاستفصال عن المواضع التي تكون مفيدةً لوجه ما ظهر، ولو كانت صالحةً لغيره، كما أن قوله: **(حُجُّوا)** وإن كان صالحًا للتكرار، فينبغي أن يُكتفى بما يصدُق عليه اللفظ، وهو المرة؛ فإن الأصل عدمُ الزيادة، ولا تُكثروا التنقيبَ عن ذلك؛ لأنه قد يفضي إلى مثل ما وقع لبني إسرائيل، إذْ أُمروا أن يذبحوا البقرة، فلو ذبحوا أيَّ بقرة كانت لامتثلوا، ولكنهم شدَّدوا فشُدِّد عليهم؛ وبهذا تظهر مناسبة قوله ﷺ: **(فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم...)** إلى لقوله: **(ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ)**[2].

والتوازن في الأسئلة هو جوازها إذا كانت على سبيل التعلم لِمَا يحتاج إليه المكلَّف من أمر دينه، أو إرادة التبيُّن والتثبُّت ممَّا وصله من أحكام دينه الحنيف.

وأما ما عدا ذلك من التكلُّف فيها والتنقيب عن المسائل التي لا ينبني عليها عمل ولا فائدة من العلم بها، فالشارع قد كره ذلك للمكلَّف، وحذَّره من مغبَّتها وضَياع الوقت فيها.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك (٤/ ١٨٣١)، رقم الحديث (٢٣٥٨).
ورواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٨/ ١٨٠)، رقم الحديث (٧٢٨٩).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٦٠، ٢٦١).

فالأسئلة إذن على نوعين[١]:

النوع الأول: ما كان على وجه التبيُّن والاستيضاح، وتعلُّم أحكام الله تعالى ورسوله ﷺ فيما يحتاجه المكلف في أمور دينه، وهذا النوع جائز، بل مأمورٌ به شرعًا، وفاعله ممدوحٌ؛ قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

وقد سأل الصحابةُ رضوان الله عليهم رسولَ الله ﷺ عن مسائلَ كثيرةٍ، فأنزل الله تعالى بيانها في كتابه؛ منها: قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]؛ إلى غير ذلك.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت أمُّ سُلَيم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول ﷺ، إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غُسل إذا احتلمت؟ قال النبي ﷺ: (إِذَا رَأَتِ المَاءَ)، فغطَّت أمُّ سلمةَ - تعني: وجهها - وقالت: يا رسول الله، أَوَ تَحتَلِمُ المرأةُ؟ قال: (نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ، فبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا)[٢].

فالله تعالى لا يأمر بالحياء في الحقِّ؛ ولذلك قَدَّمت أمُّ سُليم رضي الله عنها قولها: «إن الله لا يستحي من الحق» بسطًا لعُذرها في ذكر ما تستحي النساءُ من ذكره غالبًا، وخاصة بحضرة الرجال[٣].

---

(١) انظر: شرح السُّنَّة للإمام البغوي (١/ ٣١٠، ٣١١).

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب الحياء في العلم (١/ ٤٧)، رقم الحديث (١٣٠).

(٣) انظر: فتح الباري (١/ ٢٢٩).

ففي صنيع أمّ سُليم دلالةٌ على اقتران العلم بالعمل في حِسّ الصحابة والصحابيات - رضوان الله عليهم أجمعين - فهم يسألون عن العلم، ويتعلّمونه من رسول الله ﷺ لكي يُطَبِّقُوه في حياتهم؛ ويَتَعَبَّدُوا اللهَ به؛ ولذا فإن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها امتدحت نساءَ الأنصار بقولها: «نِعْمَ النساءُ نساءُ الأنصار؛ لم يمنعْهنَّ الحياءُ أن يتفقَّهْنَ في الدين»[١].

وقال مجاهد: «لا يتعلم العلم مستحٍ ولا مستكبرٌ»[٢].

والحياء من الإيمان، وهو الحياءُ الشرعي الذي يقع على وجه الإجلال والاحترام للأكابر، فهذا محمود ومُثابٌ فاعلُه، وهو مِنْ خصال الخير التي حثَّ الإسلام على فعلها.

وأما الحياء الذي يكون سببًا في ترك أمر شرعي، فهو مذموم، ولا يعدُّ حياءً شرعيًّا. وهذا هو المرادُ بقول مجاهد رحمه الله تعالى، وكأنه أراد تحريضَ المتعلّمين على ترك العجز والتكبُّر؛ لِمَا يؤثر كلٌّ منهما من النقص في التعليم[٣].

النوع الثاني من الأسئلة: ما كان على وجه التكلُّف، فهو مكروه في الشرع، وسكوتُ صاحب الشرع عن الجواب في مثل هذا زجرٌ وردع للسائل، وإذا وقع الجوابُ كان عقوبةً وتغليظًا.

فهذا النوع كرهه النبي ﷺ لأصحابه رضوانُ الله عليهم ونهاهم عنه؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: «كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: نُهينا عن التكلُّف»[٤]؛ أي: أن رسول الله ﷺ نهاهم عن التكلُّف[٥] الذي هو إلزامُ المكلَّفِ نفسَه بشيء لا يلزمه، ولم يطلبه الشارعُ منه.

---

(١)(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم (١/ ٤٧).
(٣) انظر: فتح الباري (١/ ٢٢٩).
(٤) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٨/ ١٨١)، رقم الأثر (٧٢٩٣).
(٥) لأن قول الصحابي: «أمرنا ونهينا» له حكم المرفوع، ولو لم يُضِفْه إلى النبي ﷺ. انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٧٢).

والمراد به في هذا الحديث: كثرةُ الأسئلة والبحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة التي لا يجب على المكلَّف البحثُ عنها، وإنما المطلوب منه شرعًا هو الأخذ بما ظهر له مِنَ الأوامر والنواهي، وقبول ما أتت به، والإذعانُ لذلك[١].

ولقد طبَّق الصحابي الجليل عمر بن الخطاب ﷺ هذا المبدأ المهمَّ على نفسه؛ فإنه عندما قرأ قول الله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ قال: «هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبُّ؟ ثم قال: مَهْ! نُهينا عن التكلف»[٢].

وهذا الأثر محمول على أنه أراد أن يعرف شكلَه وجنسه وعينه، وإلا فهو ﷺ وكلُّ مَنْ قرأ هذه الآية يعلم أنه مِنْ نبات الأرض؛ لقول الله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣١][٣]؛ فعمر ﷺ وقف عند تعليم النبي ﷺ له ولأصحابه من عدم التكلُّف فيما لا فائدةَ فيه.

وهذا يدل على أثر التربية النبوية التي حظي بها الصحابةُ رضوان الله عليهم من إمامهم ومربِّيهم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، حيث كان يحذِّرهم مِنَ الغُلُوِّ والتعمُّق في المسائل التي لا أصلَ لها في الكتاب ولا في السُّنَّة؛ فقال ﷺ: (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ)، قالها ثلاثًا[٤]، والمتنطِّعون هم المتعمِّقون الغالون، المجاوزون الحدودَ في أقوالهم وأفعالهم[٥].

ففي هذا الحديث يربي النبيُّ ﷺ أصحابَه على التوازن والتوسط في العلم، والوقوف عند حدود شرع الله تعالى.

---

(١) انظر: جامع الأصول (٥/ ٥٨).
(٢) رواه أبو نعيم في المستخرج من طريق أبي مسلم الكجي عن سليمان بن حرب عن أنس بن مالك ﷺ.
انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٧١).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٣).
(٤) رواه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون (٤/ ٢٠٥٥)، رقم الحديث (٢٦٧٠).
(٥) شرح النووي لصحيح مسلم (١٦/ ٢٢٠).

«ومِنَ التنطُّع: الإكثارُ من التفريع على مسألة لا أصلَ لها في الكتاب ولا السنَّة ولا الإجماع، وهي نادرة الوقوع جدًّا، فيصرف فيها زمانًا كان صرفُه في غيرها أَوْلَى، ولا سيما إن لزم من ذلك إغفالُ التوسع في بيان ما يَكْثُر وقوعه، وأشدُّ من ذلك في كثرة السؤال، البحث عن أمور مغيَّبة وَرَدَ الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها، ومنها ما لا يكون له شاهدٌ في عالَم الحِسِّ؛ كالسؤال عن وقت الساعة، وعن الروح، وعن مدة هذه الأمة، إلى أمثال ذلك مما لا يُعرف إلا بالنقل الصِّرف.

والكثير منه لم يثبت فيه شيء، فيجب الإيمانُ به مِنْ غير بحث، وأشد من ذلك: ما تُوقعُ كثرة البحث عنه في الشكِّ والحيرة، ومثالُه: حديث أبي هريرة رضي الله عنه[1] قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ، حَتَّى يُقَالَ: هَذَا اللهُ خَلَقَ الخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟»»[2].

وقد التزم السلف الصالح بمنهج رسول الله ﷺ وساروا عليه فقد قال الأوزاعي: «إن الله إذا أراد أن يحرِمَ عبدَه بركةَ العلم ألقى على لسانه المغاليط ـ وهي شِداد المسائل ـ فلقد رأيتُهم أقلَّ الناس علمًا».

وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: «المِراءُ في العلم يَذهب بنور العلم مِنْ قلب الرجل».

وقال ابن العربي: «كان النهيُ عن السؤال في العهد النبوي خشيةَ أن ينزل ما يشقُّ عليهم، فأما بعدُ، فقد أُمِنَ ذلك، لكن أكثر النقل عن السلف بكراهة الكلام في المسائل التي لم تقع»، قال: «وإنه لمكروه إن لم يكن حرامًا إلا للعلماء، فإنهم فرَّعوا ومهَّدوا، فنفع الله مَنْ بعدَهم بذلك، ولا سيما مع ذهاب العلماء ودروس العلم».

وفي هذه الأحاديث إشارةٌ إلى الاشتغال بالأهم المحتاج إليه عاجلًا

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه (٨/ ١٨٢)، رقم الحديث (٧٢٩٦).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٦٧) بتصرف يسير.

عما لا يُحتاج إليه في الحال، فكأنه قال: عليكم بفعل الأوامر واجتناب النواهي، فاجعلوا اشتغالكم بها عِوَضًا عن الاشتغال بالسؤال عما لم يقع. فينبغي للمسلم أن يبحثَ عمَّا جاء عن الله ورسوله، ثم يجتهد في تفهُّم ذلك والوقوف على المراد به، ثم يتشاغل بالعمل به، فإن كان مِنَ العِلْميات يتشاغل بتصديقه واعتقاد حقيقته، وإن كان من العَمَليات بذَل وُسْعَه في القيام به فعلًا وتركًا، فإن وجد وقتًا زائدًا على ذلك، فلا بأس بأن يصرِفَه في الاشتغال بتعرُّف حكم ما سيقع على قصد العمل به إن وقع، فأما إن كانت الهِمَّة مصروفةً عند سماع الأمر والنهي إلى فرض أمور قد تقع وقد لا تقع مع الإعراض عن القيام بمقتضى ما سمع، فإنَّ هذا مما يدخل في النهي، فالتفقُّه في الدين إنما يُحْمَدُ إذا كان للعمل لا للمراء والجدل»(١).

وكان ﷺ ينهى أصحابَه عن كثرة الأسئلة، وكان لا يجيبهُم في مسألة إلا إذا كانت قد وقعت بالفعل، وإذا سُئل عن شيء لا فائدةَ في معرفته أجابهم بما ينفعهم؛ عن النواس بن سمعان، قال: أقمتُ مع رسول الله سَنَةً بالمدينة ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة؛ كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل النبيَّ ﷺ، قال: فسألتُه عن البِرِّ والإثم؟ فقال رسول الله ﷺ: (البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ ما حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)(٢).

«وفيه إشارة إلى أن المخاطَب بالنهي عن السؤال غير الأعراب، وُفودًا كانوا أو غيرَهم... وأما ما ثبت في الأحاديث من أسئلة الصحابة، فيحتمل أن يكون قبل نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ...﴾ الآية [المائدة: ١٠١]، ويحتمل أن النهي في الآية لا يتناول ما يحتاج إليه ممَّا تقرَّر حكمُه، أو ما لهم بمعرفته حاجةٌ راهنةٌ؛ كالسؤال عن الذبح بالقصب، والسؤال عن وجوب طاعة الأمراء

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٦٣، ٢٦٤) بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم (٤/ ١٩٨٠)، رقم الحديث (٢٥٥٣).

إذا أمروا بغير الطاعة، والسؤال عن أحوال يوم القيامة وما قبلها من الملاحم والفتن، والأسئلة التي في القرآن؛ كسؤالهم عن الكَلالة، والخمر، والميسر، والقتال في الشهر الحرام، واليتامى، والمحيض، والنساء، والصيد، وغير ذلك...»[(١)].

وورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ البَنَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ**)[(٢)].

فمن هذه الأحاديث يتبين «أن المعرفة في الإسلام إنما تُطلَبُ لمواجهة حاجة واقعية وفي حدود هذه الحاجة الواقعية... فالأحكام الشرعية تُطْلَبُ ويسأل عنها عند وقوع الأقضية التي تتطلَّبُ هذه الأحكام.. وهذا هو منهج الإسلام؛ ففي طوال العهد المكي لم يتنزَّل حكم شرعي تنفيذي، وإن تنزَّلت الأوامر والنواهي عن أشياءَ وأعمالٍ، ولكن الأحكام التنفيذية ـ كالحدود والتعازير والكفارات ـ لم تتنزَّل إلا بعد قيام الدولة المسلمة التي تتولَّى تنفيذَ هذه الأحكام.

ووعى الصدر الأول هذا المنهجَ واتجاهه، فلم يكونوا يُفتون في مسألة إلا إذا كانت قد وقعت بالفعل، وفي حدود القضية المعروضة دون تفصيص للنصوص؛ ليكون للسؤال والفتوى جدِّيَّتُهما وتمشِّيهما كذلك مع ذلك المنهج التربوي الرباني.

وقد عقد الإمام الدارميُّ في «سننه»[(٣)] بابًا أورد فيه عن جماعة من الصحابة والتابعين آثارًا كثيرة؛ منها:

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٦/ ٢١٧٣، ٢١٧٤).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٨/ ١٨١)، رقم الحديث (٧٢٩٢).
(٣) أخرج هذه الآثار الدارمي في المقدمة في (ص١٨)، باب كراهية الفتيا (١/ ٤٧، ٤٨).

١ ـ عن ابن عمر، قال: لا تسألْ عما لم يكن؛ فإني سمعتُ عمرَ بن الخطاب يلعن من سأل عمَّا لم يكن.

٢ ـ وعن زيد بن ثابت: أنه كان إذا سُئل عن الأمر، يقول: أكان هذا؟ فإن قالوا: نعم قد كان، حدَّث فيه بالذي يعلم والذي يرى، وإن قالوا: لم يكن، قال: فذروه حتى يكون.

٣ ـ وسُئل عمارُ بن ياسر عن مسألة، فقال: هل كان هذا بَعْدُ؟ قالوا: لا، قال: دعونا حتى تكونَ، فإذا كانت تجشَّمناها لكم.

٤ ـ وعن عمر بن الخطاب أنه قال وهو على المنبر: أُحَرِّجُ بالله على رجل سأل عمَّا لم يكن؛ فإن الله قد بيَّن ما هو كائن.

٥ ـ وعن ابن عباس، قال: ما رأيتُ قومًا كانوا خيرًا من أصحاب رسول الله ﷺ؛ ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم.

٦ ـ وعن عُمير بن إسحاق، قال: لَمَنْ أدركتُ مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ أكثرُ مِمَّا سبقني منهم، فما رأيتُ قومًا أيسرَ سيرةً، ولا أقلَّ تشديدًا منهم.

٧ ـ وعن عُبادةَ بن نُسَيٍّ الكندي[1] أنه قال: أدركتُ أقوامًا ما كانوا يشدِّدون تشديدَكم، ولا يسألون مسائلكم.

«قال بعض الأئمة: والتحقيق في ذلك: أن البحث عمَّا لا يوجد فيه نصٌّ على قسمين:

أحدهما: أن يبحث عن دخوله في دلالة النصِّ على اختلاف وجوهها، فهذا مطلوبٌ لا مكروه، بل ربما كان فرضًا على من تعيَّن عليه من المجتهدين.

---

(١) هو عبادة بن نسي الكندي أبو عمر الشامي الأردني قاضي طبرية.
روى عن أبي بن عمارة، وله صحبة، وشداد بن أوس وأبي الدرداء، روى عنه مكحول الشامي وهشام بن الغاز، روى له الأربعة. وقال الحافظ في التقريب: «ثقة فاضل».
تهذيب الكمال (١٤/ ١٩٤).

ثانيهما: أن يدقِّقَ النظرَ في وجوه الفروق، فيفرق بين متماثِلَيْن بفرقٍ ليس له أثر في الشرع، مع وجود وصف الجمع، أو بالعكس؛ بأن يجمع بين متفرِّقَيْن بوصفٍ طرديٍّ مثلًا؛ فهذا الذي ذمَّه السلف، فرأوا أن فيه تضييعَ الزمان بما لا طائلَ تحته، ومثله الإكثارُ مِنَ التفريع على مسألة لا أصلَ لها في الكتاب ولا السنَّة ولا الإجماع، وهي نادرةُ الوقوع جدًّا، فيصرف فيها زمانًا كان صرفُه في غيرها أوْلى، ولا سيما إن لزم مِنْ ذلك إغفالُ التوسُّع في بيان ما يكثُر وقوعه. وأشدُّ من ذلك - في كثرة السؤال - البحثُ عن أمورٍ مغيَّبة، وردّ الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيَّتها. ومنها ما لا يكون له شاهدٌ في عالم الحِسِّ؛ كالسؤال عن وقت الساعة، وعن الروح، وعن مدة هذه الأمة.. إلى أمثال ذلك مما لا يُعرف إلا بالنقل الصرف. والكثير منه لم يثبت فيه شيء، فيجب الإيمانُ به مِنْ غير بحثٍ. وأشدُّ من ذلك ما يوقع كثرةُ البحث عنه في الشكِّ والحَيْرة.

وإذا تقرَّر ذلك، فمن يسدُّ باب المسائل حتى فاته معرفةُ كثيرٍ من الأحكام التي يكثُر وقوعها، فإنه يَقِلُّ فهمهُ وعلمُه؛ ومَنْ توسع في تفريع المسائل وتوليدها، ولا سيما فيما يقِلُّ وقوعه أو يندر، ولا سيما إن كان الحامل على ذلك المباهاة والمغالبة، فإنه يُذَمُّ فعلُه، وهو عينُ الذي كره السلف.

ومَنْ أمعن في البحث عن معاني كتاب الله، محافظًا على ما جاء في تفسيره عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه الذين شاهدوا التنزيل، وحصَّل مِنَ الأحكام ما يستفادُ مِنْ منطوقه ومفهومه، وعن معاني السنَّة وما دلَّت عليه كذلك مقتصرًا على ما يصلح للحجة منها، فإنه الذي يُحْمَدُ ويُنتفع به»[1].

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٦٧، ٢٦٨) بتصرف يسير.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى:

«والحاصل أن كثرةَ السؤال ومتابعة المسائل بالأبحاث العقلية والاحتمالات النظرية مذمومٌ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ قد وُعِظوا في كثرة السؤال حتى امتنعوا منه، وكانوا يحبون أن يجيءَ الأعراب فيسألوه حتى يسمعوا كلامه ويحفظوا منه العلم...»، ثم قال: «ويتبين من هذا أن لكراهية السؤال مواضعَ، نذكر منها عشرة مواضع:

أحدها: السؤال عما لا ينفع في الدين؛ كسؤال[1] عبد الله بن حُذافةَ: من أبي؟

وروي في (التفسير) أنه ﷺ سُئل: ما بالُ الهلالُ يبدو رقيقًا كالخيط، ثم لا يزال ينمو حتى يصيرَ بدرًا، ثم ينقص كما كان؟ فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ...﴾ الآية [البقرة: ١٨٩][2]، فإنما أُجيب بما فيه مِنْ منافع الدين.

وثانيها: أن يسأل بعد ما بلغ من العلم حاجتَه؛ كما سأل الرجل عن الحج[3]: أكلَّ عام؟ مع أن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧][4] قاضٍ بظاهره أنه للأبد؛ لإطلاقه، ومثله سؤال بني إسرائيل بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧][5].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من برك على ركبتيه عند الإمام أو المحدث (١/ ٣٧)، رقم حديث (٩٣) عن أنس بن مالك.

(٢) ونصها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

(٣) سبق تخريجه (ص١٣٧).

(٤) ونصها: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٥) ونصها: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وثالثهـا: السؤال من غير احتياج إليه في الوقت، وكان هذا ـ والله أعلم ـ خاصًا بما لم ينزل فيه حكم؛ وعليه يدلُّ قوله: (ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ)[١]، وقوله: (وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ لا عَنْ نِسْيَانٍ، فَلا تَبْحَثُوا عَنْهَا).

ورابعهـا: أن يسأل عن صِعابِ المسائل وشرارها؛ كما جاء في النهي عن الأغلوطات[٢].

وخامسها: أن يسأل عن علَّة الحكم ـ وهو من قبيل التعبُّدات، أو السائل ممن لا يليق به ذلك السؤال ـ كما في حديث[٣] قضاء الصوم دون الصلاة.

وسادسها: أن يبلغ بالسؤال إلى حد التكلُّف والتعمُّق؛ وعلى ذلك يدل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، ولما سُئل الرجل: يا صاحب الحوض، هل ترد حوضَك السباع؟ قال عمر بن الخطاب: يا صاحبَ الحوض لا تُخبِرْنا، فإنا نرِدُ على السباع وترِدُ علينا[٤].

---

(١) سبق تخريجه (ص١٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب العلم، (٨) باب التوقي في الفتيا، حديث (٣٦٥٦)، ونصه: «عن معاوية أن النبي ﷺ نهى عن الغلوطات».
«الغَلوطات» ـ بفتح الغين المعجمة وضم اللام ـ: هي المسائل التي يغالط بها العلماء، ليزِلُّوا فيها، فيهيج بذلك شر وفتنة. وهي جمع غَلوطة ـ بالفتح ـ ثم قيل: هي مثل حَلُوبة ورَكوبة، إذا جعلا اسمين. وقيل: أصلها أغلوطة، خففت بطرح الهمزة كما تقول: لَحْمَر، وأنت تريد «الأحمر». اهـ، محمد محيي الدين عبد الحميد. هامش سنن أبي داود.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الحيض، حديث (٦٩) ونصه: «عن معاذة، قالت: سألتُ عائشةَ فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: أحروريةٌ أنت؟ قلت: لست بحرورية، ولكني أسأل، قالت: كان يصيبنا ذلك، فنُؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة» (١/ ٢٦٥).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الطهارة، حديث (١٤).
ونصُّه: أن عمر بن الخطاب، خرج في ركب، فيهم عمرو بن العاص، حتى وردوا =

وسابعها: أن يظهر من السؤال معارضةُ الكتاب والسنَّة بالرأي؛ ولذلك قال سعيد: أعراقِيٌّ أنت؟ وقيل لمالك بن أنس: الرجل يكون عالمًا بالسنَّة، أيجادل عنها؟ قال: لا، ولكن يخبر بالسنَّة، فإن قُبلت منه، وإلا سكت.

وثامنها: السؤال عن المتشابهات؛ وعلى ذلك يدل قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ الآية [آل عمران: ٧]، وعن عمر بن عبد العزيز: مَنْ جعل دينه غَرَضًا للخصومات أسرع التنقُّل، ومِنْ ذلك: سؤال من سأل مالكًا عن الاستواء؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة[1].

وتاسعها: السؤال عما شَجَرَ بين السلف الصالح؛ وقد سُئل عمرُ بن عبدُ العزيز عن قتال أهل صِفِّين؟ فقال: تلك دماءٌ كَفَّ الله عنها يدي، فلا أحبُّ أن أُلطخ بها لساني.

وعاشرها: سؤال التعنُّت والإفحام وطلب الغَلَبَة في الخصام؛ وفي القرآن في ذم نحو هذا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، وقال تعالى: ﴿بَلْ

= حوضًا، فقال عمرو بن العاص: يا صاحب الحوض، هل ترد حوضك السباع؟... إلخ.

(١) جاء في كتاب (العلو) للذهبي ما يأتي: وروى يحيى بن يحيى التميمي وجعفر بن عبد الله وطائفة، قالوا: جاء رجل إلى مالك، فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ قال: فما رأيت مالكًا وجد (أي: غضب) في شيء كموجدته من مقالته، وعلاه الرُّحضاء (يعني: العرق) وأطرق القومُ، فسُرِّيَ عن مالك، وقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني أخاف أن تكون ضالًا. وأمر به فأُخرج.

وساق البيهقي بإسناد صحيح عن أبي الربيع الرِّشديني عن ابن وهب، قال: كنت عند مالك، فدخل رجل، فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك، وأخذته الرّحضاء، ثم رفع رأسه، فقال: الرحمٰن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت صاحبُ بدعة، أخرجوه. انتهى من كلام الذهبي.

﴿هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، وفي الحديث: (أبغضُ الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ)(١).

هذه جملة من المواضع التي يُكره السؤال فيها، يُقاس عليها ما سواها، وليس النهيُ فيها واحدًا، بل فيها ما تشتد كراهيتُه، ومنها ما يخِفُّ، ومنها ما يحرُم، ومنها ما يكون محلَّ اجتهاد، وعلى جملة منها يقع النهي عن الجدال في الدين؛ كما جاء: «إن المراء في القرآن كفر»، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]. وأشباه ذلك من الآي والأحاديث، فالسؤال في مثل ذلك منهيٌّ عنه، والجواب بحسبه»(٢). انتهى.

هكذا ربَّى النبيُّ ﷺ أصحابَه على هذا المنهج الرباني القويم؛ «ذلك المنهج الواقعي الجاد، الذي يواجه وقائع الحياة بالأحكام المشتقَّة لها من أصول شريعة الله تعالى، مواجهة عملية واقعية متَّزنة... مواجهة تقدِّر المشكلة بحجمها وشكلها وظروفها كاملةً، وملابساتها، ثم يقضي فيها بالحكم الذي يقابلها ويغطِّيها ويشملها، وينطبق عليها انطباقًا كاملًا دقيقًا.

فأما الاستفتاء عن مسألة لم تقع، فهو استفتاء عن فرض غير محدد، وما دام غيرَ واقع، فإن تحديده غيرُ مستطاع، والفتوى عليه حينئذٍ لا تطابقه؛ لأنه فرض غير محدد، والسؤال والجواب عندئذٍ يحملان معنى الاستهتار بجدِّية الشريعة، كما يحملان مخالفةً للمنهج الإسلامي القويم»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة البقرة ٣٧، باب وهو ألد الخصام (٥/ ١٨٧)، حديث رقم (١٢١١) عن عائشة.

(٢) الموافقات للشاطبي (٤/ ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١).

(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٩٨٧).

* فمن هذه التربية المتوازنة في العلم التي حظي بها الصحابةُ رضوان الله عليهم من رسول الله ﷺ أصبحوا علماءَ ربانيين، فكانوا قدوةً لمن بعدَهم ممن أراد السير على الطريق الذي ساروا عليه، والاستقاء من ذلك النبع الصافي الزُّلال الذي استقَوا منه، ولم يخلِطوه بشيء من المناهج الفلسفية والمناهج الكفرية الحديثة؛ فكانوا أمةً وسطًا في علمهم، بل في جميع شؤون حياتهم أيضًا.

* «فهم في باب أسماء الله تعالى وآياته وصفاته وَسَطٌ بين أهل التعطيل الذين يُلحدون في أسماء الله وآياته، ويعطلون حقائق ما نعت اللهُ به نفسَه حتى يشبهوه بالعدم والمَوات، وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبِّهونه بالمخلوقات؛ فيؤمن أهلُ السُّنَّة والجماعة بما وصف اللهُ به نفسَه، وما وصفه به رسولُه ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

* وهم في باب خلْقه وأمره وسطٌ بين المكذِّبين بقدرة الله الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة، ومشيئته الشاملة، وخلْقِه لكل شيء، وبين المفسدين لدين الله الذين يجعلون العبد ليس له مشيئةٌ، ولا قدرة، ولا عمل فيعطِّلون الأمر والنهي والثواب والعقاب، فيصيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فيؤمن أهل السنَّة والجماعة بأن الله على كل شيء قدير؛ فيقدر أن يهديَ العباد ويقلِّبَ قلوبهم، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في ملكه ما لا يريد، ولا يعجِز عن إنفاذ مراده، وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات، ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل، وأنه مختار، ولا يسمونه مجبورًا؛ إذ المجبور مَنْ أُكره على خلاف اختياره، والله سبحانه جعل العبد مختارًا لِمَا يفعلُه، فهو مختارٌ مريدٌ، والله خالقه وخالق

اختياره، وهذا ليس له نظير؛ فإن الله ليس كمثله شيء؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

* وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلَّدين في النار، ويخرجونهم من الإيمان بالكلية، ويكذِّبون بشفاعة النبي ﷺ، وبين المرجئة الذين يقولون: إيمان الفُسَّاق مثلُ إيمان الأنبياء، والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان، ويكذِّبون بالوعيد والعقاب بالكلية.

فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فُسَّاق المسلمين معهم بعضُ الإيمان وأصله، وليس معهم جميعُ الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنةَ، وأنهم لا يخلَّدون في النار، بل يخرج مَنْ كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، أو مثقال خردلة من إيمان، وأن النبي ﷺ ادَّخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته.

* وهم أيضًا في أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم وسط بين الغالية الذين يُغالون في عليٍّ رضي الله عنه، فيفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويعتقدون أنه الإمامُ المعصوم دونهما، وأن الصحابة ظَلموا وفَسقوا، وكفَّروا الأمة بعدهم كذلك، وربما جعلوه نبيًّا أو إلهًا، وبين الجافية الذين يعتقدون كُفرَه وكُفرَ عثمان رضي الله عنهما، ويستحلُّون دماءَ من تولاهما، ويستحبُّون سبَّ عليٍّ وعثمانَ ونحوهما، ويقدحون في خلافة علي رضي الله عنه وإمامته.

* وكذلك في سائر أبواب السنَّة هم وسط؛ لأنهم متمسكون بكتاب الله تعالى وسنَّة رسول ﷺ وما اتفق عليه السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار، والذين اتَّبعوهم بإحسان»[1] رضي الله عن الجميع ورزقنا الاقتفاءَ بآثارهم والسير على نهجهم، إنه على كل شيء قدير.

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٣٧٣ - ٣٧٥).

المطلب الثاني

التوازن في العمل

إن التوازن في العمل سِمَةٌ بارزة أيضًا من سمات هذا الدين القويم؛ ولذا كان النبي ﷺ يراعي هذا الجانبَ في تربيته لأصحابه رضوان الله عليهم، فكان يحثُّهم على التوسُّط في العمل، ويحذِّرهم من الإفراط فيه، أو التفريط المؤدي إلى التقصير المخل، أو إلى الغلوِّ المذموم.

فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (**إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَإِنْ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوهُ، وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فَلَا تَعُدُّوهُ**)[١].

ففي هذا الحديث يضع النبي ﷺ لأصحابه قاعدةً مهمةً في التوازن في العمل المجانب لجانبَيِ الإفراط والتفريط؛ فقد صوَّر لهم في هذا الحديث هِمَّةَ المكلَّف وحرصَه الشديد على الخير أو الشر، ثم يكون بعد ذلك فتورٌ وضعف وسكون، فإن سلك المكلَّفُ صاحبُ تلك الهمة والحرص الشديد في عمله ذاك التوسُّطَ والسداد، وسلك الطريق المستقيم، واقتصد في أموره، وتجنَّب طرفَيْ إفراط الهمة والحرص، وتفريط الفتور والوهن، فقد أفلح؛ وعندئذٍ فَارْجُوا له التوفيقَ والسَّداد الذي به يتمكَّن من المداومة على الوسط؛ لأن أحبَّ الأعمال إلى الله أدوَمُها[٢].

قال الطِّيبي: «فإن قوله: (**إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِرَّةً...**) إلخ معناه: أن لكل شيء من الأعمال الظاهرة والأخلاق الباطنة طرفين: إفراطًا وتفريطًا، فالمحمود هو القصدُ بينهما، فإن رأيتم أحدًا يسلُك سبيل القصد، فارجوه أن يكون مِنَ الفائزين، ولا تقطعوا له؛ فإن الله هو

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٦٣٥)، رقم الحديث (٢٥٧٠)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وقال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط: «إسناده حسن، وصححه ابن حبان رقم (١٥١٨)، وأخرجه أيضًا من حديث عبد الله بن عمر».

(٢) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٧/ ١٤٩).

الذي يتولَّى السرائر، وإن رأيتموه يسلك سبيل الإفراط والغلوّ حتى يُشارَ إليه بالأصابع، فلا تُثبتوا القول فيه بأنه مِنَ الخائبين؛ فإن الله هو الذي يطَّلِع على الضمائر»[١].

فالنبي ﷺ كان يربِّي أصحابه على القصد في العبادة وملازمتها والمداومة عليها، والوقوف عند حدود شرع الله تعالى ورسوله ﷺ من عزيمة أو رخصة، دون النظر إلى مشقَّتها أو عدمه، وأن ذلك أوْلى وأقسطُ عند الله تعالى مِنَ المبالغة المفضية إلى الإخلال فيها، أو تركها.

عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم، أمرهم مِنَ الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنَّا لسنا كهيئتك يا رسول الله؛ إن الله قد غفر لك ما تقدم مِنْ ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يُعرَفَ في وجهه ﷺ، ثم يقول: (إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا)[٢].

ففي هذا الحديث يغضب النبي ﷺ من قياس الصحابة الخاطئ، وبَيَّن لهم أن العبرة في الأعمال ليست بكثرتها ومشقَّتها على النفس، وإنما العبرة تكمُن في موافقة الأعمال لشرع الله تعالى، والمداومة عليها، وتأديتها بنشاط، وإقبال خاشع على الله تعالى؛ «فإن الأخذَ بالأرفق الموافق للشرع أولى مِنَ الأشقِّ»[٣]؛ ولذلك كان ﷺ إذا أمر أصحابه بعمل أمرهم بعمل يسهُل عليهم فعلُه، ويستطيعون المداومةَ عليه.

وكان ﷺ يعمل بنظير ما يأمرهم به ويربيهم عليه؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نفرًا مِنْ أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السِّرِّ؟ فقال بعضُهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش؛ فحَمِدَ الله وأثنى عليه، فقال: (مَا بَالُ

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير (١/ ٣١٤) (هامش).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: (أنا أعلمكم بالله)، وأن المعرفة فعل القلب (١/ ١٢) رقم الحديث (٢٠).

(٣) فتح الباري (١/ ٧١).

أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟! لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)[١].

فهذا فعله ﷺ وهذه سُنَّته، وهو الذي قد حاز رُتبةَ الكمال الإنساني؛ وذلك لانحصار الحِكْمتين العلمية والعملية فيه، وقد أشار إلى الأولى بقوله: (أعلمُكم)، وإلى الثانية بقوله: (أتقاكم)[٢].

وكان ﷺ يتابع أصحابه في الحثِّ على الاتزان والتوسط والمداومة على الأعمال الصالحة دون طلب المشقَّة والعَنَت في ذلك.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ المسجد، فإذا حبلٌ ممدودٌ بين الساريتين، فقال: (مَا هَذَا الحَبْلُ؟) قالوا: هذا حبلٌ لزينبَ، فإذا فَتَرَتْ تعلَّقت به، فقال النبي ﷺ: (حُلُّوهُ؛ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ)[٣].

وفي هذا تربية منه ﷺ لأصحابه على الاقتصاد في العبادة، والإقبالِ عليها بنشاط، وحثٌّ لهم على المداومة على ما يطيقون من الأعمال بلا مشقة ولا عنت؛ لأن هذا الدين يُسْرٌ، فعليهم بأن يسدِّدُوا ويقاربوا.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ)[٤].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أيضًا، قال: قال لي النبي ﷺ:

---

(١) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، (٢/ ١٠٢٠)، رقم الحديث (١٤٠١).

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ٧١).

(٣) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة (٢/ ٦٠)، رقم الحديث (١١٥٠). رواه كذلك مسلم.

(٤) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه (٢/ ٦١)، رقم الحديث (١١٥٢).
ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقًا أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم (٢/ ٨١٤)، رقم الحديث (١١٥٩).

(أَلَمْ أُخبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ؟) قلتُ: إني أفعل ذلك. قال: (فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ عَيْنُكَ، وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلأَهْلِكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ)(١).

ففي هذين الحديثين تظهر تربية النبي ﷺ لأصحابه على التوازن في جميع شؤون حياتهم.

فبينما رسول الله ﷺ يُعَرِّضُ بعبد الله بن عمرو بن العاص - عندما سمع أنه ترك قيام الليل - بقوله الذي يحثُّه فيه على قيام الليل: (يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ)، فينهاه عن التفريط والكسل والفتور، فيتأثر عبد الله بن عمرو من هذا التوجيه التربوي اللطيف، فيعزم على نفسه، فيداوم على قيام الليل وصيام النهار، ويشدُّ على نفسه، فلا يعطيها حقَّها من الراحة والنوم والأكل والشرب الذي به قِوامُها ونشاطها، فيصل الخبر إلى المربي الحاذق ﷺ، فيتثبت من صحة الخبر بسؤاله عبد الله بن عمرو، فيخبره بذلك، فعندها لامه ﷺ على فعله، ثم وجَّهه إلى الاتزان والاقتصاد في العبادة وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وألا يطغى حقٌّ على الآخر، أو يتضخَّم أحدُهما على الآخر؛ «لأن الأوْلَى في العبادة تقديمُ الواجبات على المندوبات، وأن مَنْ تكلَّف الزيادةَ على ما طُبع عليه يقع في الخلل في الغالب»(٢)؛ فأخبر ﷺ أن لنفسه عليه حقًّا، وذلك بإعطائها ما تحتاج إليه مما أباحه الله تعالى مِنْ أكلٍ وشرب وراحة تكون عونًا له على عبادة الله تعالى وأداء فرائضه، وللأهل من زوجة ومِمَّن تلزمُه نفقتُه عليه حقٌّ كذلك بالنظر في شؤونهم وقضاء ما يحتاجون إليه مِنْ أمور الدنيا والآخرة، ثم أمره بالاعتدال والاقتصاد في النوافل؛ فأمره بأن يصوم

---

(١) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب (٢/ ٦١)، رقم الحديث (١١٥٣).
ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به (٢/ ٨١٥)، رقم الحديث (١١٥٩).

(٢) فتح الباري (٣/ ٣٩) بتصرف يسير.

بعضَ الأيام ويفطر بعضَها، فيتقوّى بالثانية على الأولى، وأن يقوم مِنَ الليل وينام بعضَه كذلك.

فأمره ﷺ بالجمع بين الحقوق التي بيَّنها له، «فكأنه قال له: ولا يمنعك اشتغالُك بحقوق مَنْ ذُكر أن تضيِّعَ حقَّ العبادة، وتترك المندوب جملةً، ولكن اجمع بينهما»[١].

وبهذا وضع النبي ﷺ الميزانَ المعتدل في العمل لمن أراد أن يسلُكَه، فعلى الداعية إلى الله تعالى الاستفادةُ من هذا المنهج النبوي الكريم في التربية والتعليم.

عن حنظلة ﷺ قال: لقِيَني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلةُ؟ قال: قلت: نافق حنظلةُ. قال: سبحان الله، ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يذكِّرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواجَ والأولاد والضَّيعات، فنسِينَا كثيرًا. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ. قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **(وَمَا ذَاكَ؟)** قلت: يا رسول الله، نكون عندك، تُذَكِّرُنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا عن عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات، فنسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً)**[٢].

ففي هذا الحديث يُصَوِّرُ حنظلة ﷺ إحساسه ومشاعره وزيادةَ إيمانه وتعلُّقَه بالآخرة عندما يكون في مجلس رسول الله ﷺ وعند مصاحبته له، وضَعْفَ ذلك عندما ينشغل بأمر المعاش ومداعبة الزوجة وملاعبة الأولاد؛

---

(١) فتح الباري (٣/ ٣٩) بتصرف يسير.
(٢) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا (٤/ ٢١٠٦)، رقم الحديث (٢٧٥٠).

فظنَّ ﷺ هذا التغيُّرَ بين الحالتين دليلًا على النفاق، فخشي على نفسه منه، فأخبر صديقَه الحميمَ أبا بكر الصديق بإحساسه، فتوافق الصاحبان في الإحساس والشعور، وخافا على نفسيهما من أثره، فهُرعا إلى مربِّيهم ومعلمهم رسولِ الله ﷺ، وأخبراه بالخبر، فَوضَّح لهما رسول الله ﷺ أن هذا الشعور والإحساس طبيعيٌّ في البشر، وأن الله فطَرَهم عليه، وأنه ليس دليلًا على النفاق، وأعلمهم أنه لا حَرَجَ عليهم فيما يفعلونه من مداعبة الزوجات، وملاعبة الأولاد، والقيام على شؤونهم، والسعي في النفقة عليهم، وأنهم مأجورون عليه من الله تعالى، ما دام أنه لا يُفَوِّتُ عليهم شيئًا مما أوجبه الله تعالى، وأنه لا تعارُضَ عندئذٍ بين الحالتين.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ)**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **(وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا)**[(١)].

وعن علي ﷺ قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبيُّ ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرَةٌ، فنكس، فجعل ينكُت بمِخصَرته، ثم قال: **(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا في الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً)**، فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتَّكِلُ على كتابنا وندعُ العمل؛ فمن كان منا من أهل الشقاوة، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ قال: **(أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٧/ ٢٣٢)، رقم الحديث (٦٤٦٣).

وأخرجه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله (٤/ ٢١٦٩)، رقم الحديث (٢٨١٦).

«اغدوا»: من الغدو؛ وهو السير أول النهار. «روحوا»: من الرواح؛ وهو السير في النصف الثاني من النهار. «الدُّلجة»: السير آخر الليل. «القصد»: الزموا الوَسَط المعتدل في الأمور. «تبلُغوا»: مقصِدُكم وبُغيتكُم. انظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧، ٢٩٨).

الشَّقَاوَةِ، فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ)، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ الآية»[١].

ففي هذين الحديثين يربِّي النبي ﷺ أصحابَه على التوازن في العلم بِالقَدَر والعمل بالتكاليف الشرعية، وأنه لا بدّ من الجمع بين الإيمان بالقدر والعمل بالتكاليف على الصورة الشرعية الصحيحة التي أمر الله بها عباده.

فليس للمسلم أن يَتَّكِلَ على القدر ويَدَعَ العمل الذي أمره الله به؛ لأن القدر أمرٌ غيبيٌ عن الإنسان، ولا يمكن الإحاطةُ به، وفي المقابل لا يجوز للمسلم أن يتَّكلَ على عمله، ويغفُلَ عن رحمة الله تعالى؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يؤدِّيَ حقَّ الله تعالى على الوجه المطلوب؛ لأن من طبيعته التقصير؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٣].

«ففي الحديث أن النفسَ المخلوقةَ إما سعيدةٌ وإما شقيَّةٌ، ولا يقال: إذا وجبت الشقاوة والسعادة بالقضاء الأزليِّ والقدر الإلهي، فلا فائدةَ في التكليف، فإن هذا أعظمُ شُبَه النافين للقدر، وقد أجابهم الشارعُ بما لا يبقى معه إشكال، ووَجْهُ الانفصال: أن الرب تعالى أمرَنا بالعمل، فلا بدّ من امتثاله، وَغيَّبَ عنا المقاديرَ لقيام حُجَّته وزجره، ونَصَب الأعمال علامةً على ما سبق في مشيئته، فسبيله التوقُّف، فمن عدل عنه ضلَّ؛ لأن القَدَرَ سِرٌّ مِنْ أسراره، لا يَطَّلِعُ عليه إلا هو»[٢]. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر: «حاصل السؤال: ألا نترك مشقَّةَ العمل، فإنا سنصير إلى ما قُدِّرَ علينا؟ وحاصل الجواب: لا مشقَّةَ؛ لأن كلَّ أحد ميَسَّر لِمَا خُلق له، وهو يسيرٌ على من يسَّره الله. قال الطِّيبي: الجواب من أسلوب الحكيم؛ منعهم عن ترك العمل، وأمرهم بالتزام ما يجب على العبد من العبودية، وزجرهم عن التصرُّف في الأمور المغيَّبة، فلا يجعل العبادةَ

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله (٢/ ١٢١)، رقم الحديث (١٣٦٢).
ورواه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه (٤/ ٢٠٣٩)، رقم الحديث (٢٦٤٧).

(٢) لامع الدراري على جامع البخاري للشيخ أبي مسعود رشيد أحمد الكنكوهي (٤/ ٤٦٥).

وتركَها سببًا مستقلًا لدخول الجنة والنار، بل هي علاماتٌ فقط. ووقع في حديث ابن عباس عند الطبراني: (اعْمَلْ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ) وفي آخره عند البزار: فقال القوم بعضهم لبعض: فالجدُّ إذن. وأخرجه الطبراني في آخر حديث سُراقةَ، قال: (كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِهِ) قال: الآن الجِدّ، الآن الجِدّ، وفي آخر حديث ابن عمر عند الفريابي: قال عمر: إذن نجتهد»[(١)]. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر في الجمع بين هذا الحديث وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]: «ويظهر لي في الجمع بين الآية والحديث: أن يُحملَ الحديثُ على أن العمل من حيث هو عملٌ لا يستفيد به العاملُ دخولَ الجنة ما لم يكن مقبولًا؛ وإذا كان كذلك، فأمر القَبول إلى الله تعالى، وإنما يحصل برحمة الله لمن يُقبل منه؛ وعلى هذا فمعنى قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: تعملونه من العمل المقبول، ولا يضرُّ بعد هذا أن تكون «الباء» للمصاحبة، أو للإلصاق، أو المقابلة، ولا يلزم من ذلك أن تكون سببيةً؛ ثم رأيت النووي جزم بأن ظاهر الآيات أنَّ دخولَ الجنة بسبب الأعمال، والجمع بينها وبين الحديث أن التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها، وقَبولها إنما هو برحمة الله وفضله، فيصحُّ أنه لم يدخل بمجرد العمل؛ وهو مرادُ الحديث، ويصحُّ أنه دخل بسبب العمل؛ وهو مِنْ رحمة الله تعالى»[(٢)]. انتهى.

* إن مجموع هذه الأحاديث يرسُم لنا منهجَ النبي ﷺ في تربيته لأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ على التوازن في العلم والعمل؛ فإنه ﷺ بَيَّنَ لأصحابه ما فرضه الله عليهم من تكاليفَ، وما نهاهم عنه كذلك، في وضوح محدَّد، لا شُبهةَ فيه ولا غَبش، وأخبرهم أن الله سبحانه سيحاسبهم على ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ...﴾ الآية [النساء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٤٦٤).
(٢) فتح الباري (١١/ ٢٩٦، ٢٩٧).

يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١].

* وأما أمور الغيب والقدر، فقد ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها[١]، فلم يكلِّفِ اللهُ تعالى أحدًا مِنْ خلْقه بالبحث عنها، ولم يأمرهم بشيء يتعلق بها إلا بالاعتقادِ الجازم والإيمانِ الصادق بها، كما أخبر الله ورسوله؛ «لأن سبيلَ معرفة هذا الباب التوقيفُ من الكتاب والسنَّة دون محض القياس والعقل، فمن عَدَلَ عن التوقيف فيه ضلَّ وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب؛ لأن القدَرَ سِرٌّ من أسرار الله تعالى اختَصَّ العليمُ الخبيرُ به، وضرب دونه الأستار، وحجَبَه عن عقول الخلق ومعارفهم؛ لِمَا عَلِمه من الحكمة، فلم يَعلَمْه نبيٌّ مرسل ولا ملَك مقرَّب»[٢].

وهكذا تعلَّم الصحابةُ رضوان الله عليهم من الرسول ﷺ، كما ذكر الإمام مسلم في صحيحه من طريق طاوس أنه قال: «أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: «كلُّ شيءٍ بقَدَر»، وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: (**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى العَجْزُ وَالكَيْسُ**[٣])»[٤].

«ومعناه: أنَّ كلَّ شيءٍ لا يقع في الوجود إلا وقد سبق به علم الله ومشيئتُه، وإنما جعلهما في الحديث غاية لذلك للإشارة إلى أنَّ أفعالنا وإن كانت معلومةً لنا ومرادة منا، فلا تقع مع ذلك منا إلا بمشيئة الله»[٥].

قال القاري: «فأمر النبي ﷺ أصحابَه بالتزام ما يجب على المكلَّف

---

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٦٧). (٢) فتح الباري (١١/ ٤٧٧).

(٣) «الكيس» ـ بفتح الكاف ضد ـ العجز، ومعناه: الحِذْق في الأمور، ويتناول أمور الدنيا والآخرة. انظر: لسان العرب (٦/ ٢٠٠)، مادة: (كيس).

(٤) رواه مسلم، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر (٤/ ٢٠٤٥)، رقم الحديث (٢٦٥٥).

(٥) فتح الباري (١١/ ٤٧٨).

من امتثال أمر مولاه سبحانه من العبودية عاجلًا، وتفويض الأمر إليه بحكم الربوبية آجلًا، وأعلمهم بأن ههنا أمرين لا يُبطِلُ أحدُهما الآخرَ: باطن وهو حكم الربوبية، وظاهر وهو سِمَة العبودية، فأمر بكليهما ليتعلّق الخوف بالباطن المغيب، والرجاء بالظاهر البادي؛ ليستكملَ المكلّف بذلك صفات المؤمنين ونعوت الإيقان، ومراتب الإحسان، يعني: عليكم بالتزامِ ما أُمرتم، واجتنابِ ما نُهيتم من التكاليف الشرعية بمقتضى العبودية، وإياكم والتصرُّف في الأمور الربوبية»[١].

فأوضح ﷺ لأصحابه الطريقَ المستقيمَ، وحدَّد لهم معالمه؛ فطريق المكلَّف أن ينهض بالتكاليف الواضحة على قدر استطاعته، وأن يجتنب النواهي التي حدَّدها الله ورسوله. قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال ﷺ: (إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَاجْتَنِبُوهُ)[٢].

وينبغي على المكلَّف أن يَشغَل نفسَه بمعرفة ما أمر الله به، وما نهاه عنه، وألَّا يبحثَ في شيء وراء ذلك مِنْ أمر الغيب الذي حجبه الله عن إدراكه؛ لأن ذلك فوقَ طاقته، ولم يكلِّفه اللهُ سبحانه شيئًا فوقَ طاقته؛ قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٨، ٢٩].

---

(١) لامع الدراري على جامع البخاري (٤/ ٤٦٥) بتصرف يسير.
(٢) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر (٣/ ٩٧٥)، رقم الحديث (١٣٣٧).

وبهذا يتم التوازن في اعتقاد المكلَّف وشعوره، كما يتم التوازن في نشاطه وحركته.

قال ابن حجر: «وأما العمل بما ورد في الكتاب والسُّنَّة والتشاغل به، فقد وقع الكلام في أيِّهما أوْلى، والإنصافُ أن يقال: كلُّ ما زاد على ما هو في حقِّ المكلف فرضُ عين، فالناس فيه على قسمين:

١ ـ من وجد في نفسه قوةً على الفهم والتحرير، فتشاغُله بذلك أوْلى من إعراضه عنه وتشاغُلِهِ بالعبادة؛ لِمَا فيه مِنَ النفع المتعدِّي.

٢ ـ ومن وجد في نفسه قصورًا، فإقبالُه على العبادة أوْلَى؛ لعُسْرِ اجتماع الأمرين.

فإن الأول لو ترك العلم لأوشك أن يضيِّعَ بعضَ الأحكام بإعراضه.

والثاني لو أقبل على العلم وترك العبادة، فاتَه الأمران؛ لعدم حصول الأول له، وإعراضه به عن الثاني. والله الموفق»[1] .اهـ.

ونخلُص مما سبق إلى أن الناس ينقسمون من حيث القوة العلمية والعملية إلى ثلاثة أقسام: طرفان، ووسط:

الطرف الأول: من تكون القوة العلمية عنده أقوى من القوة العملية وأغلبَ منها.

الطرف الثاني: من تكون له القوة العملية أغلبَ من القوة العلمية وأقوى منها.

القسم الثالث (وهو الوسط): من كانت له القوَّتان العلمية والعملية متساويتين في القُوَّة، فلا تغلب إحداهما الأخرى، وإنما كُلَّما عَلِمَ عَمِلَ؛ وهذا هو طريق الفلاح والسعادة.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية:

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٦٨).

١ ـ فمن الناس مَنْ يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوةُ أغلبَ القوتين عليه، ويكون ضعيفًا في القوة العملية، يُبصر الحقائق، ولا يعمل بموجبها، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب، ولا يتوقَّاها، فهو فقيه ما لم يحضر العمل، فإذا حضر العمل شارك الجُهَّال في التخلُّف، وفارقهم في العلم، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصومُ مَنْ عصَمَه الله، ولا قوة إلا بالله.

٢ ـ ومن الناس مَنْ تكون له القوة العملية الإرادية، وتكون أغلب القوتين عليه، وتقتضي هذه القوةُ السيرَ والسلوك والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والجدَّ والتشميرَ في العمل، ويكون أعمى البصر عند ورود الشُّبُهات في العقائد، والانحرافات في الأعمال والأقوال والمقامات؛ كما كان الأولُ ضعيفَ العقل عند ورود الشَّهوات؛ فَدَاءُ هذا مِنْ جهله، وداء الأول من فساد إرادته وضَعْف عقله. وهذا حالُ أكثرِ أرباب الفقر والتصوُّف السالكين على غير طريق العلم، بل على طريق الذَّوْق والوَجد والعادة، يُرى أحدُهم أعمى عن مطلوبه لا يدري مَنْ يعبدُ، ولا بماذا يعبده؛ فتارة يعبده بذوقه ووجده، وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه مِنْ لُبسٍ معيَّن، أو كشف رأس، أو حلق لحية ونحوها، وتارة يعبده بالأوضاع التي وضعها بعض المتحذلقين، وليس له أصلٌ في الدين، وتارة يعبده بما تحبُّه نفسُه وتهواه كائنًا ما كان، وهنا طرق ومتاهات لا يُحصيها إلا ربُّ العباد.

فهؤلاء كلُّهم عُمْيٌ عن ربِّهم وعن شريعته ودينه، لا يعرفون شريعتَه ودينه الذي بعث به رُسُلَه، وأنزل به كتبه، ولا يقبل من أحد دينًا سواه، كما أنهم لا يعرفون صفاتِ ربِّهم التي تَعرَّفَ بها إلى عبادِهِ على أَلْسِنَة رُسُله، ودعاهم إلى معرفته ومحبته مِنْ طريقها، فلا معرفة له بالربِّ ولا عبادة له.

٣ ـ ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيرُه إلى الله، ورُجِي له النفوذ، وقَوِيَ على ردِّ القواطع والموانع بحول الله وقوته، فإن القواطع

كثيرةٌ، شأنها شديد، لا يَخْلُصُ مِنْ حبائلها إلا الواحدُ بعد الواحدِ، ولولا القواطعُ والآفات، لكانت الطريق معمورةً بالسالكين، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها، ولكن الله يفعل ما يريد.

والوقت ـ كما قيل ـ: سيف؛ فإنْ قطعتَه وإلا قطعك، فإذا كان السيرُ ضعيفًا والهِمَّةُ ضعيفةً، والعلم بالطريق ضعيفًا، والقواطع الخارجة والداخلة كثيرةً شديدةً، فإنه جَهْدُ البلاء، ودَرَكُ الشَّقاء، وشماتة الأعداء، إلا أن يتدارَكه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب، فيأخذ بيده ويخلِّصه مِنْ أيدي القواطع، والله وليُّ التوفيق»(١).

ولذا، فإن الله امتدح هذه الطائفةَ الجامعة بين قوَّتي الإنسان العلمية والعملية، وأخبر ﷻ في كتابه أن الذي يفهم الأمثال المضروبةَ في القرآن هم العالمون العاملون؛ فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ فحصر تعقُّلها في العالمين، وهو قصد الشارع مِنْ ضرب الأمثال، وقال: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، ثم وصف أهل العلم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٠ ـ ٢٢]؛ وحاصل هذه الأوصاف يرجع إلى أن العلماء هم العاملون، وقال في أهل الإيمان ـ والإيمان مِنْ فوائد العلم ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

ومن هنا قَرَن العلماءَ في العمل بمقتضى العلم بالملائكة الذين لا يعصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون؛ فقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ

(١) طريق دار الهجرتين وباب السعادتين (ص١٨٤، ١٨٥).

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]؛ فشهادة الله تعالى وَفق علمه ظاهرةُ التَّوافق؛ إذ التخالُف محالٌ، وشهادة الملائكة على وَفْقِ ما علموا صحيحةٌ؛ لأنهم محفوظون من المعاصي، وأُولو العلم أيضًا كذلك من حيثُ حُفظوا بالعلم»[(١)].

ولقد آتت تربيةُ النبي ﷺ المتواصلةُ لصحابته الكرام رضوان الله عليهم ثمارَها في اعتقادهم وأقوالهم وأفعالهم، وفيمن بعدَهم مِمَّن سار على نهجهم، واقتفى أثرَهم، واستن بسنَّتهم، حتى أصبح التوازُنُ في المعتقدات والأعمال والأقوال صفةً بارزةً مِنْ صفاتهم؛ «فهم وسطٌ في أنبياء الله، ورسله، وعِبادِه الصالحين، لم يغلُوا فيهم كما غَلَتِ النَّصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، ولا جَفَوْا عنهم، كما جفتِ اليهودُ، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حقٍّ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذَّبوا فريقًا، وقتلوا فريقًا؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

بل المؤمنون آمنوا برسل الله، وعزَّروهم، ونصروهم، ووقَّروهم، وأحبُّوهم، وأطاعوهم، ولم يعبدوهم، ولم يتَّخذوهم أربابًا؛ كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

(١) الموافقات (١/ ٧١، ٧٢) بتصرف يسير.

* ومن ذلك: أن المؤمنين توسَّطوا في المسيح، فلم يقولوا: هو الله، ولا ابنُ الله، ولا ثالثُ ثلاثة؛ كما يقوله النصارى.

ولا كفروا به، وقالوا على مريم بهتانًا عظيمًا، حتى جعلوه ولد بَغِيَّةٍ؛ كما زعمت اليهود.

بل قالوا: هذا عبدُ الله ورسوله، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ العذراء البتول، وروحٌ منه.

* وكذلك المؤمنون وسط في شرائع دين الله تعالى، فلم يحرِّموا على الله أن ينسخ ما شاء، ويمحُوَ ما شاء ويُثبِتَ؛ كما قالته اليهود؛ كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، وبقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١].

ولا جَوَّزُوا لأكابر علمائهم وعُبَّادهم أن يغيِّروا دينَ الله، فيأمروا بما شاؤوا، وينهَوْا عمَّا شاؤوا؛ كما يفعله النصارى؛ كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

قال عديُّ بن حاتم ﷺ: قلت: يا رسول الله، ما عبدوهم؟ قال: **(مَا عَبَدُوهُمْ، وَلَكِنْ أَحَلُّوا لَهُمُ الحَرَامَ فَأَطَاعُوهُمْ، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الحَلالَ فَأَطَاعُوهُمْ)**[1].

والمؤمنون قالوا: لله الخَلْقُ والأمرُ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فكما لا يخلق غيره، لا يأمر غيره، وقالوا: سمعنا وأطعنا، فأطاعوا كلَّ ما أمر الله به، وقالوا: إن الله يحكم ما يريد.

---

(١) جامع الترمذي، كتاب التفسير، (٩) سورة التوبة، حديثنا الحسين بن مرثد عن عدي.

وأما المخلوق، فليس له أن يبدِّلَ أمرَ الخالق تعالى ولو كان عظيمًا.

وكذلك في صفات الله تعالى، فإن اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة، فقالوا: هو فقير ونحن أغنياء؛ كما قال الله تعالى ذلك عنهم: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا: يد الله مغلولة؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقالوا: إنه تَعِبَ من الخلق، فاستراح يومَ السبت(١)، إلى غير ذلك.

والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصَّة به؛ فقالوا: إنه يخلق، ويرزق، ويغفر، ويرحم، ويتوب على الخلق، ويثيب ويعاقب.

والمؤمنون آمنوا بالله ﷻ، ليس له سَمِيٌّ ولا نِدٌّ؛ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ فإنه ربُّ العالمين وخالقُ كلِّ شيء، وكلُّ ما سواه عِبادٌ له، فقراءُ إليه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

* ومن ذلك: أمر الحلال والحرام؛ فإن اليهود كما قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] فلا يأكلون ذواتِ الظُّفُر؛ مثل: الإبل والبط، ولا شحمَ الثَّرْب(٢) والكُليتين، ولا الجدي في لبن أمه، إلى غير ذلك، مما حرّم عليهم مِنَ الطعام واللباس وغيرهما. حتى قيل: إن المحرَّمات عليهم ثلاث مئة وستون نوعًا، والواجب عليهم مائتان وثمانية وأربعون أمرًا، وكذلك شدد عليهم في النجاسات حتى لا يؤاكِلوا الحائضَ، ولا يجامعوها في البيوت.

---

(١) سفر التكوين الإصحاح الثاني (٣٠٢) كما قاله الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في محاسن التأويل للقاسمي (٢/ ٢٩١) هامش رقم (٤).

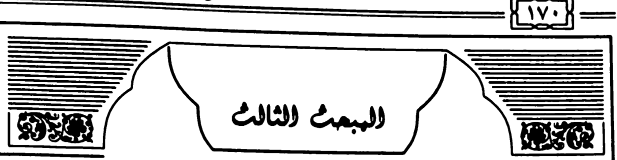
(٢) الثَّرْب: شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء، وجمعه ثروب. لسان العرب، مادة: (ثرب) (١/ ٢٣٤).

* وأما النصارى، فاستحلُّوا الخبائث وجميعَ المحرمات، وباشروا جميع النجاسات، وإنما قال لهم المسيح: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

* وأما المؤمنون، فكما نعتهم الله في قوله: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]»[1]. انتهى كلامه.



(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٣٧٠ - ٣٧٣).



المبحث الثالث

المداومة على العمل الصالح

إن المداومة على الأعمال الصالحة سِمَةٌ أيضًا مِنْ سمات هذا الدين القويم؛ لأن الأعمال في حقيقتها تنقسم على نوعين:

النوع الأول: ما كان طلبُ الشارعِ له على وجه الفرض والإلزام، فهذا النوع لا يسع المسلمَ تركُه أو التهاونُ فيه.

النوع الثاني: ما كان طلبُ الشارع له على وجه الاستحسان، لا على وجه الفرض والإلزام؛ فعلى المكلَّف المداومةُ على ما ألزم به نفسَه، والحذرُ من تركه، حتى لا ينقطعَ الأجرُ عنه: «وذلك في كل عمل بحسب ما يعتبر دوامًا فيه»[1]؛ لأن «مِنْ مقصود الشارع في الأعمال دوام المكلَّف عليها، والدليل على ذلك واضح؛ كقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢، ٢٣]. وقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣]، وإقام الصلاة بمعنى الدوام عليها، بهذا فُسِّرَتِ الإقامةُ حيث ذكرت مضافةً إلى الصلاة، وجاء هذا كلُّه في معرض المدح، وهو دليل على قصد الشارع إليه، وجاء الأمر به صريحًا في مواضعَ كثيرةٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**)[2].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (١/ ٥٤١)، رقم الحديث (٧٨٣).

وعنها رضي الله عنها أيضًا قالت: سُئِلَ النبيُّ ﷺ: أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: (أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ)(١).

وعنها أيضًا رضي الله عنها قالت: «كان أحبُّ العمل إلى رسول الله ﷺ: الذي يدوم عليه صاحبه»(٢).

وأيضًا، فإنَّ في توقيتِ الشارعِ وظائفَ العباداتِ، من مفروضات ومسنونات ومستحبَّات، في أوقات معلومة لأسباب ظاهرة ولغير أسباب، ما يكفي في حصول القطع بقصد الشارع إلى إدامة الأعمال»(٣). انتهى.

وقال بعض المفسرين عند قول الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧]، ما نصه: «أي ما حفظوها حقَّ حفظِها، واستُعير الحفظ لاستيفاء ما تقتضيه ماهِيَّةُ الفعل، فالرهبانية تحوم حول الإعراض عن اللذائذ الزائلة وإلى التعوُّد بالصبر على ترك المحبوبات لئلا يشغَلَه اللهوُ بها عن العبادة والنظر في آياتِ الله، فإذا وقع التقصير في التزامها في بعض الأزمان، أو التفريط في بعض الأنواع، فقد انتفى حقُّ حفظها... وهذا الانتفاءُ له مراتبُ كثيرة، والكلام مَسُوقٌ مساقَ اللوم على تقصيرهم فيما التزموه أو نذروه، وذلك تقهقُرٌ عن مراتب الكمال، وإنما ينبغي للمتَّقي أن يكونَ مزدادًا مِنَ الكمال»(٤).

وعلى هذا المقصد الشرعي ربَّى النبيُّ ﷺ أصحابَه رضوان الله عليهم، فغرس في نفوسهم حبَّ المداومة على الأعمال الصالحة بعد أن ربَّاهم على التوسط والاعتدال في الأعمال، وتنفيرِهم مِنَ الإفراط أو التفريط.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٧/ ٢٣٣)، رقم الحديث (٦٤٦٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٧/ ٢٣٢)، رقم الحديث (٦٤٦٢).

(٣) الموافقات للشاطبي (٢/ ٢٤٢) بتصرف.

(٤) تفسير التحرير والتنوير (٢٧/ ٤٢٥، ٤٢٦).

فكان يأمرهم من الأعمال ما يُطيقون القيامَ به، ويحثُّهم على المداومة عليه بترغيبهم في حصول الأجر والثواب من الله تعالى.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**)(١).

وعن عائشة أيضًا قالت: «كان أحب العمل إلى رسول الله ﷺ الذي يدوم عليه صاحبه»(٢).

* ففي هذين الحديثين يربي النبي ﷺ أصحابه على أهمية المداومة على الأعمال الصالحة؛ حيث أخبرهم أن ذلك مما يحبُّه الله تعالى ورسوله ﷺ، والمسلم شديد الرغبة فيما يحبُّه الله تعالى ورسولُه، وفي هذا دافع قويٌّ لنفوس الصحابة رضوان الله عليهم على المحافظة على ما ألزموا به أنفسهم من نوافل الأعمال الصالحة بشتى أنواعها؛ سواء كانت صلاةً، أو صيامًا، أو صدقةً، أو نُسُكًا، إلى غير ذلك من الأعمال المشروعة والمحبوبة عند الله تعالى ورسوله، كما أنه ﷺ يربِّيهم على ذلك بفعله، حيث كان ﷺ إذا ألزم نفسَه بعمل داوم عليه، ولم يقطَعْه، مع اقتصاده في عباداته بلا إفراط ولا تفريط؛ عن علقمةَ رضي الله عنه قال: «سألتُ أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ قلت: يا أم المؤمنين، كيف كان عملُ رسول الله ﷺ؟ هل كان يخصُّ شيئاً مِنَ الأيام؟ قالت: لا، كان عملُه دِيمَةً، وأيُّكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع»(٣)؟

فقول عائشة رضي الله عنها: «وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع؟»: «أي في العبادة ـ كميةً كانت أو كيفيةً ـ مِنْ خشوع وخضوع وإخبات وإخلاص»(٤).

وعن مسروق، قال: سألتُ عائشةَ رضي الله عنها: «أي العمل كان أحبَّ إلى

---

(١) سبق تخريجه (ص١٧٠). (٢) سبق تخريجه (ص١٧١).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم (١/ ٥٤١)، رقم الحديث (٧٨٣). ورواه أيضًا البخاري.

(٤) فتح الباري (١١/ ٢٩٩).

النبي ﷺ؟ قالت: الدائم...»[١].

* فمن هذا يتبين أن رسول الله ﷺ كان يربِّيهم بفعله قبل قوله وتوجيهه، ولهذه القدوةِ أثرٌ في نفوس الأصحاب رضوان الله عليهم، فكانت عائشة رضي الله عنها: «إذا عمِلَتِ العملَ لزِمَتْه»[٢] تأثُّرًا بفعله ﷺ.

* وكان ﷺ يربيهم على الاقتصاد في عبادتهم وفق ما جاء في شرع الله تعالى، ويأمرهم بالمداومة عليها، وينهاهم عن التعمق فيها؛ لما في ذلك من انشراح قلوبهم ونشاط لأجسادهم؛ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان لرسول الله ﷺ حصيرٌ، وكان يحجُره من الليل، فيصلي فيه، فجعل الناسُ يصلُّون بصلاته، ويبسُطه بالنهار، فثابوا ذاتَ ليلةٍ، فقال ﷺ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إلى اللهِ ما دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ)، وكان آلُ محمد ﷺ إذا عملوا عملًا أثبتوه»[٣].

«ففي هذا الحديث كمالُ شفقته ﷺ ورأفتِه بأمتِه؛ لأنه أرشدهم إلى ما يُصلِحُهم، وهو ما يمكنهم الدوامُ عليه بلا مشقة ولا ضرر، فتكون النفسُ أنشطَ والقلبُ منشرحًا، فتتمُّ العبادةُ، بخلاف مَنْ تعاطى مِنَ الأعمال ما يشقُّ، فإنه بصدد أن يتركَه، أو يتركَ بعضَه، أو يفعله بكُلفة، وبغيرِ انشراح القلب، فيفوتُه خيرٌ عظيم، وقد ذم الله ﷻ مَنِ اعتاد عبادةً ثم أفرط، فقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧]، وقد ندم عبد الله بن عمرو بن العاص على تَرْكِه قَبُولَ رخصة رسول الله ﷺ في تخفيف العبادة ومجانبة التشديد»[٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب من نام عند السحر (٢/ ٥٦)، رقم الحديث (١١٣٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (١/ ٥٤١)، رقم الحديث (٧٨٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (١/ ٥٤٠، ٥٤١)، رقم الحديث (٧٨٢).

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم، (٦/ ٧١) بتصرف.

ولهذا كان ﷺ يُحذِّر أصحابَه مِنَ التشديد على النفس، والمبالغة المفضية إلى ترك العمل، أو أدائه بفتور وعدم حضور القلب والخشوع فيه؛ عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما: أن عائشة زوجَ النبي ﷺ أخبرته أن الحولاء بنتَ تُويت بن حبيب بن أسد بن عبد العُزَّى مَرَّت بها وعندها رسول الله ﷺ فقلت: هذه الحولاء بنتُ تُويت، وزعموا أنها لا تنام الليل، فقال رسول الله ﷺ: **(لَا تَنَامُ اللَّيْلَ! خُذُوا مِنَ العَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَوَاللهِ لَا يَسْأَمُ اللهُ حَتَّى تَسْأَمُوا)**[(١)].

هكذا كان ﷺ يربِّي أصحابه على ما يُطيقون من الأعمال، والمداومة على ذلك، وإن كان قليلًا، فمَنْ نام عن حِزبه مِنَ القرآن، أو عن صلاته بالليل قبل إكمالها، ثم أكملَها ما بين صلاة الفجر إلى صلاة الظهر، فإن الله تعالى سيعطيه أجرَ ذلك العمل كاملًا مِنْ غير أن ينقُص منه شيء، وما ذلك إلا رحمةٌ مِنَ الله تعالى، وترغيبٌ منه سبحانه لعباده في المداومة على الأعمال الصالحة؛ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ مِنَ اللَّيْلِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ)**[(٢)].

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «وهذه الفضيلة إنما تحصُل لمن غَلَبه نومٌ منعه مِنَ القيام به، مع أن نيتَه القيامُ به، وظاهره أن له أجرَه مكمَّلًا مضاعفًا؛ وذلك لحسن نيته وصدق تلهُّفه وتأسُّفه... وقال بعضهم: ويحتمل أن يكون غيرَ مضاعف؛ إذ التي يصلِّيها ليلًا أكملُ وأفضلُ، والظاهر الأول»[(٣)]؛ لأن المداومة على العمَل وإن قلَّ خيرٌ مِنَ الكثير المنقطع، وإنما كان قليلهُ الدائمُ خيرًا من كثيره المنقطع؛ لأنه بدوام القليل تدوم الطاعةُ

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم (١/ ٥٤٢)، رقم الحديث (٧٨٥). رواه البخاري أيضًا.

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (١/ ٥١٥)، رقم الحديث (٧٤٧).

(٣) المفهم في شرح تلخيص مسلم للقرطبي لوحة رقم (١/ ٢/ ٣٩٨) بتصرف يسير.

والذكر ومراقبة الله تعالى في السرّ والعلن والنية الصادقة والإخلاص والإقبال على الله تعالى، فيصبح العملُ القليلُ الدائمُ مثمرًا ناميًا، فيزيد خيرُه وثوابُه على العمل الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة[1].

* وحاصل هذه الأحاديث المذكورة آنفًا بيانُ رفقِ النبي ﷺ بأصحابه، وشفقتِه عليهم، حيث أرشدهم على ما فيه صلاحهم، فربَّاهم على ما يطيقون الدوامَ عليه مِنَ الأعمال، وحثَّهم على ذلك، ونهاهم عن التعمُّق والإكثار من العبادات التي يخاف عليهم الملَلَ بسببها، أو أن يتركوها كلَّها أو بعضَها.

* وبيَّن لهم أن الله قد ذم قومًا أكثروا العبادة، ثم فرَّطوا فيها؛ فقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧][2].

وكل ذلك في الأعمال الزائدة على ما فرضه الله تعالى على عباده؛ لأن الفرائض لا يُعفى منها أحدٌ، وهي أربعةُ أنواع كما فَصَّل ذلك الإمامُ ابن قيم الجوزية عليه رحمة الله تعالى:

«النوع الأول: العلم والعمل بأصول الإيمان الخمسة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنَّ مَنْ لم يؤمنْ؛ بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان، ولا يستحقُّ اسمَ المؤمن؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [البقرة: ١٣٦].

ولمَّا سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن الإيمان، فقال: (أن تُؤمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ) قال: صدقتَ[3].

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم (٦/ ٧١).

(٢) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم (٨/ ٣٩، ٤٠).

(٣) سبق تخريجه (ص٧٦).

فالإيمان بهذه الأصول فرعُ معرفتها والعلمِ بها.

النوع الثاني: العلم والعمل بشرائع الإسلام، واللازم منها علم ما يخصُّ العبدَ مِنْ فعلها؛ كعلم الوضوء، والصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وتوابعها وشروطها ومبطلاتها.

النوع الثالث: علمُ المحرَّمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية، والابتعادُ عنها؛ وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فهذه محرَّمات على كلِّ واحدٍ في كل حال على لسان كل رسول، لا تباح قطُّ؛ ولهذا أتى فيها بـ«إنما» المفيدة للحصر مطلقًا، وغيرها محرَّمٌ في وقت، مباحٌ في غيره؛ كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه؛ فهذه ليست محرمةً على الإطلاق والدوام؛ فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق.

النوع الرابع: العلم والعمل بأحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصُل بينه وبين الناس خصوصًا وعمومًا، والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم، فليس الواجبُ على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجِيرتِه، وليس الواجبُ على مَنْ نصب نفسه لأنواع التجارات مِنْ تعلُّم أحكام البياعات كالواجب على مَنْ لا يبيعُ ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجةُ إليه.

وأما فرض الكفاية، فلا أعلمُ فيه ضابطًا صحيحًا، فإنَّ كلَّ أحد يدخل في ذلك ما يظنُّه فرضًا، وبالجملة فالمطلوب الواجبُ مِنَ المكلَّف مِنَ العلوم والأعمال إذا توقف على شيءٍ منها كان ذلك الشيء واجبًا وجوبَ الوسائل، ومعلومٌ أن ذلك التوقُّفُ يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والألسنة والأذهان، فليس لذلك حدٌّ مقدَّرٌ»[1]. انتهى.

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٦ ـ ١٠) باختصار وتصرف يسير.

«فالمكلَّف إذن مطالَبٌ بأعمال ووظائفَ شرعيةٍ ملزمةٍ لا بدّ له منها، يقوم فيها بحقِّ الله تعالى عليه.

فإذا أوغل في عمل شاق، فربما قطعه هذا العملُ عن غيره، ولا سيما حقوقُ الغير التي تتعلق به، فتكون عبادتُه أو عملُه الداخل فيه قاطعًا عما كلَّفه الله به، فيُقصِّر فيه، فيكون بذلك ملومًا غيرَ معذور؛ إذ المرادُ منه القيامُ بجميعها على وجه لا يُخِلُّ بواحدة منها، ولا بحال من أحواله فيها.

فالمكلَّف إذا أراد الدخولَ في عمل غيرِ واجبٍ، فمِنْ حقِّه ألا ينظر إلى سهولة الدخول فيه ابتداءً حتى ينظرَ في مآله فيه، وهل يقدِرُ على الوفاء به طولَ عمره أم لا؟ فإن المشقَّةَ التي تدخُل على المكلَّف من وجهين:

أحدهما: من جهة شدة التكليف في نفسه، بكثرته أو ثِقَلِه في نفسه.

والثاني: من جهة المداومة عليه، وإن كان في نفسه خفيفًا.

وحسْبُك مِنْ ذلك الصلاة؛ فإنها من جهة حقيقتها خفيفةٌ، فإذا انضم إليها معنى المداومة ثقُلت؛ والشاهدُ لذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فجعلها كبيرةً، حتى قرن بها الأمرَ بالصبر، واستثنى الخاشعين، فلم تكن عليهم كبيرةً، لأجل ما وصفهم به مِنَ الخوف الذي هو سائقٌ، والرجاء الذي هو حادٍ، وذلك ما تضمَّنه قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]. فإن الخوف والرجاء يسهِّلان الصعبَ، فإن الخائف مِنَ الأسد يسهل عليه تعبُ الفرار، والراجي لنيل مرغوبه يقصُر عليه الطويلُ من المسافة. ولأجل الدخول في الفعل على قصد الاستمرار وُضِعت التكاليف على التوسُّط، وأُسقط الحرج، ونُهِيَ عن التشديد؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام: (**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**)[١]، وقال: (**لَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**)[٢].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٩٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر (١/ ١٨١)، رقم الحديث (٣٩).

وهذا يشمل التشديد بالدوام، كما يشمل التشديد بأنفس الأعمال»[١].

ومن هذا يتَّضح أن الحَرَجَ مرفوعٌ عن المكلَّف من وجهين:

الأول: الخوف على المكلَّف مِنَ الانقطاع عن العمل، وبُغض العبادة؛ سواء كانت عِلمًا أو عملًا، وكراهة التكليف، ويدخل تحت هذا المعنى الخوفُ مِنْ إدخال الفساد على المكلَّف في جسمه أو عقله أو ماله أو حاله.

الثاني: الخوف على المكلف من التقصير في العمل الذي ألزم نفسَه به عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالمكلَّف المختلفة الأنواع، مثل قيامه على أهله وولده، إلى تكاليفَ أُخَرَ تأتي في الطريق، فلربما كان التوغُّلُ في بعض الأعمال شاغلًا عنها، وقاطعًا بالمكلَّف دونها، ولربما أراد الحمل للطرفين على المبالغة في الاستقصاء، فانقطع عنهما[٢].



(١) الموافقات للشاطبي (٢/ ١٣٦).

(٢) انظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ١٣٦).

الفصل الثالث

منهجه ﷺ في تربية أصحابه على تعليم العلم ونشر الدعوة

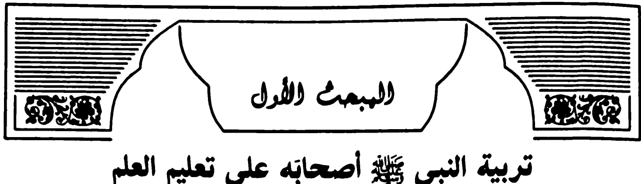
* ويشتمل على ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: تربية النبي ﷺ أصحابه على تعليم العلم.
- المبحث الثاني: تربية النبي ﷺ أصحابه على نشر الدعوة.
- المبحث الثالث: نماذج من رجال العقيدة.

سبق أن بينتُ كيف اهتم رسول الله ﷺ بتصحيح الاعتقاد في نفوس أصحابه، وتربيته لهم عليه؛ لِمَا في ذلك من أهمية في حياتهم.

وكذلك أحْيَا في نفوسهم ارتباطَ العلم بالعمل، فربَّاهم على العمل فورًا بما يعلمون، وعلَّمهم التوازُنَ فيه، حتى ارتبط في حِسِّهم وفي حياتهم العلمُ والعملُ والمداومةُ عليه.

وفي هذا الفصل سأبيِّن هَدْيَ رسولِ الله ﷺ في تربية أصحابه على تعليم العلم ونشر الدعوة؛ وذلك لعلمه ﷺ بأنه سيلتحق بالرفيق الأعلى، ولا بدَّ لهذا الدين مِنْ حَمَلَةٍ يحملونه وينشرونه بين الناس، ويحافظون عليه؛ ولذلك تفطَّن ﷺ لأهمية وجود القادة مِنْ بعدِه، فرباهم على ذلك عن طريق التدريب العملي وتحت نظره ﷺ.



تربية النبي ﷺ أصحابه على تعليم العلم

اهتم النبي ﷺ بتربية أصحابِه على تعليم العلم وإشاعته في الناس، ورغَّبهم في ذلك.

إنَّ بثَّ علوم الدين القويم وآدابه بين الأمة مقصِد عظيم من مقاصد الإسلام التي بها يحفظ الله هذا الدين وتعاليمه؛ ولذا فلا بد من جماعة من المؤمنين تتفقَّه في الدين، وتتعلم أحكامه وآدابه، ثم تقوم ببثِّه في الأمة؛ لأن في ذلك صلاحَها؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية:

«والإتيان بصيغة لام الجحود تأكيدٌ للنفي، وهو خبر مستعمَل في النهي، فتأكيدُه يفيد تأكيدَ النهي؛ أي: كونه نهيًا جازمًا يقتضي التحريم؛ وذلك أنه كما كان النفرُ للغزو واجبًا؛ لأن في تركه إضاعةَ مصلحة الأمة، كذلك كان تركُه من طائفةٍ مِنَ المسلمين واجبًا؛ لأن في تمحُّض جميع المسلمين للغزو إضاعة مصلحة للأمة أيضًا، فأفاد مجموعُ الكلامين أن النفرَ للغزو واجبٌ على الكفاية؛ أي: على طائفة كافية لتحصيل المقصِد الشرعي منه، وأن تركَه متعينٌ على طائفة كافية منه لتحصيل المقصد الشرعي مما أُمروا بالاشتغال به من العلم في وقت اشتغال الطائفة الأخرى بالغزو، وهذا تقييدٌ للإطلاق الذي في فعل «انفروا»، أو تخصيص للعموم الذي في ضمير «انفروا»، ولذلك كانت هذه الآية أصلًا في وجوب طلب العلم على طائفة عظيمةٍ مِنَ المسلمين وجوبًا على الكفاية؛ أي: على المقدار الكافي لتحصيل

المقصد مِنْ ذلك الإيجاب، وأشعر نفيُ وجوب النَّفْر على جميع المسلمين، وإثبات إيجابه على طائفة من كلِّ فرقة منهم، بأن الذين يجب عليهم النفر ليسوا بأوفرَ عددًا من الذين يبقون للتفقُّه والإنذار، وأن ليست إحدى الحالتين بأولى من الأخرى على الإطلاق، فيعلم أن ذلك مَنُوطٌ بمقدار الحاجة الداعية للنَّفْر، وأن البقية باقيةٌ على الأصل، فعُلِمَ منه أن النفير إلى الجهاد يكون بمقدار ما يقتضيه حالُ العدو المغزوِّ، وأن الذين يبقَوْن للتفقُّه يبقون بأكثرَ ما يُستطاع، وأن ذلك سواءٌ. ولا ينبغي الاعتمادُ على ما يخالف هذا التفسيرَ من الأقوال في معنى الآية وموقعها من الآي السالفة»[١].

ولأهمية هذا الأمر، فقد كان النبي ﷺ يأمرُ أصحابَه بتعليم العلم وإشاعته بين الناس، لإدراكه ﷺ أن نماءَ العلم وزيادة المعرفة، واتِّقادَ الذهن، وتأثُّر القلب، وزيادةَ الإيمان؛ كل ذلك يكمُن في نشر العلم وتعليمه وتداوُلِه بين الأمة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا، فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ)[٢].

وقال ﷺ: (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ ثُمَّ كَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ)[٣].

ولَمَّا ودَّع رسولُ الله ﷺ وفدَ عبد القيس بعدما علَّمهم شرائع الإيمان، قال لهم: (... احْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُم)[٤].

ولقد امتثل الصحابةُ رضوان الله عليهم أمرَ رسول الله ﷺ في تعليم العلم وإشاعته في الأمة، فكان الشاهدُ يبلِّغُ الغائبَ.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١١/ ٦٠، ٦١).

(٢) لقد روى هذا الحديث عدد من الصحابة رضي الله عنهم؛ فرواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٤٣٧) واللفظ له، (٥/ ١٨٣)؛ والدارمي (١/ ٧٥)؛ والترمذي (٥/ ٣٣، ٣٤).

(٣) رواه الترمذي (١٠/ ١١٨) وقال: «حديث حسن».

(٤) سبق تخريجه (ص٤٧).

يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: «ليس كلُّنا سمعَ حديثَ رسول الله ﷺ؛ كانت لنا ضيعةٌ وأشغالٌ، ولكن الناس كانوا لا يكذِبون يومئذٍ، فيحدِّثُ الشاهدُ الغائبَ»(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كنت أنا وجارٌ لي مِنَ الأنصار في بني أميةَ بنِ زيدٍ ـ وهي من عوالي المدينة ـ وكنا نتناوب النزولَ على رسول الله ﷺ؛ ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلتُ جئتُه بخبرِ ذلك اليوم مِنَ الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك»(٢).

وهذا رافعُ بن مالك الأنصاري رضي الله عنه كان يذهب إلى النبي ﷺ وهو في مكةَ قبل الهجرة، فيتعلَّمُ منه القرآنَ، ثم يرجِعُ إلى المدينة ليقومَ بتعليم قومِه ما تعلَّمه من رسول الله ﷺ(٣).

وذكر أبو عُبيدٍ رحمه الله تعالى قصةَ سُلَيْطٍ رضي الله عنه، إذ أَقْطع له رسولُ الله ﷺ أرضًا، فكان يخرج إليها ثم يرجع، فيقال له: لقد نزل بعدك مِنَ القرآن كذا وكذا، وقضى رسولُ الله ﷺ في كذا وكذا، قال: فانطلق إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن هذه الأرض التي أقطعتنيها قد شغلتْني عنك، فاقبَلْها منِّي، فلا حاجةَ لي في شيءٍ يشغَلُني عنك(٤).

ولَمَّا هاجر النبي ﷺ إلى المدينة كان أولَ عملٍ عملَه هو بناءُ المسجد، الذي كان يجتمع فيه بالصحابة رضوان الله عليهم في الصلوات الخمس، ويعلِّمهم فيه ما ينزل عليه من قرآن، وجعل في المسجد مكانًا خاصًا لأهل الصُّفَّة، وهم الفقراء ومَنْ لا مأوى له، وكان يقوم ﷺ بتعليمهم العلمَ، ويأمر بعضَ أصحابه بهذه المهمة كذلك.

فقد أمر ﷺ عبدَ الله بن سعيد بن العاص أن يعلِّمَ الكتابةَ بالمدينة،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١٢٧)، وفي (١/ ٩٥).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) انظر: التراتيب الإدارية للكتاني (١/ ٤٤).
(٤) كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق محمد خليل هراس (ص٢٧٢، ٢٧٣).

وكان كاتبًا ماهرًا[١].

وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: «علّمت ناسًا مِنْ أهل الصُّفَّة الكتابةَ والقرآن»[٢].

وكان كعب بن مالك ﷺ يعلّم القرآن في المدينة[٣].

وروى الإمام أحمد رحمه الله تعالى أن رسولَ الله ﷺ سأل وفد عبد القيس بقوله: «كَيْفَ رَأَيْتُمْ كَرَامَةَ إِخْوَانِكُمْ لَكُمْ وَضِيَافَتَهُمْ إِيَّاكُمْ؟» قالوا: خير إخوان، ألانوا فراشنا، وأطابوا مطعمنا، وباتوا وأصبحوا يعلِّموننا كتابَ ربِّنا وسنةَ نبيِّنا ﷺ، فأُعجب النبي ﷺ وفرِح بها، ثم أقبل علينا رجلًا رجلًا يعرِضُنا على ما تعلَّمنا وعلمنا، فمِنَّا مَنْ تعلَّم التحيات وأم الكتاب، والسورة والسورتين، والسُّنَّة والسُّنتين...»[٤].

فالنبي ﷺ عندما جاءه وفدُ عبد القيس سلَّمهم للأنصار، وأمرهم أن يعلِّموهم أمورَ دينهم، وأن يُكرموا ضيافتَهم، ويُحسنوا معاملتَهم، وفعل الأنصار ما أُمروا به، وتعلَّم الوفدُ منهم كثيرًا مِنْ تعاليم الإسلام، ومن بينها حفظُ أم القرآن، وهي فاتحة كتاب الله تعالى، التي لا يقبلُ اللهُ صلاةَ عبدٍ إلا بها، وكذلك تعلموا بعضَ سور القرآن الأخرى، وحَفَّظُوهم التحيات وبعض سنن الإسلام وتعاليمه، ثم اختبرهم رسولُ الله ﷺ بعد أن اطمأن إلى معاملة الأنصار لهم، وأنهم أكرموهم، وقاموا بخدمتهم، واجتهدوا في تعليمهم؛ فوجدهم خيرَ قومٍ حفظوا العلم وأتقنوه، مما جعله يفرح ويُسَرُّ بهم؛ وفي هذا تربية للصحابة رضوان الله عليهم على أهمية تعليم العلم ونشره.

ولم يكتفِ النبيُّ ﷺ بأن يأمرَ أصحابه بتعليم العلم داخل المدينة فقط، بل كان يبعثُ بعضَهم إلى خارج المدينة لكي يعلِّموا الناس أمورَ

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٦/ ٢٢٦)، رقم ترجمته (١٥٥٦).
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣١٥). (٣) انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ١٢٦).
(٤) مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٠٦).

دينهم، ويفقهوهم أحكامَه؛ ففي السنة الثالثة مِنَ الهجرة قدم إلى النبي ﷺ بعد معركة أحد رَهْطٌ مِنْ عُضَلَ والقارَةِ، فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلامًا، فابعث معنا نفرًا مِنْ أصحابك يفقِّهونا في الدين، ويُقرئونا القرآن، ويعلِّمونا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ معهم نفرًا ستة...»[(١)].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: «جاء ناسٌ إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجالًا يعلِّمون القرآن والسُّنَّة، فبعث إليهم سبعين رجلًا من الأنصار يقال لهم القُرَّاءُ، فيهم خالي حَرامٌ، كانوا يَقرؤون ويتدارسون بالليل، ويتعلَّمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء، فيضعونه بالمسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصُّفَّة والفقراء، فبعثهم النبيُّ ﷺ»[(٢)].

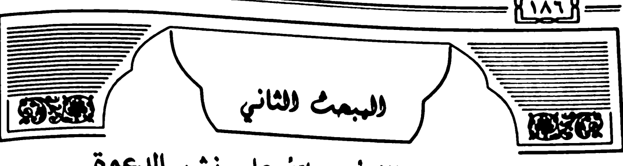
وجاءه ﷺ وفدٌ مِنْ نجرانَ، وسألوه أن يبعثَ معهم رجلًا يعلِّمهمُ السُّنَّةَ والإسلام، فأخذ بيد أبي عبيدة بن الجراح، فقال: «**هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ**»، فبعثه معهم[(٣)].

وبعث معاذَ بن جبل وأبا موسى الأشعري ﷺ إلى اليمن، وأمرهما أن يعلِّما الناس القرآن[(٤)].

«ولا نبالغ إذا ما قلنا: إن السُّنَّة النبوية المطهرة بتركيزها على طلب العلم وفضله، ودعوتها إلى تعليم العلم ونشره، قد أكَّدت للعالمين أنها دعوةٌ إلى إيمانٍ أساسُه العلمُ، وإلى عقيدةٍ قِوامُها العِرفان، وإلى دينٍ عِمادُهُ البرهان، وجمعت في ذلك بدون تعارض أو تناقُضٍ بين العقيدة والتشريع، والدين والدنيا، والتقدم الروحي والمادي»[(٥)].

---

(١) سيأتي تخريجه.
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٧١)، وانظر: تاريخ خليفة، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري (١/ ٤٢، ٤٣).
(٣) مسند الإمام أحمد (٣/ ٢١٢).
(٤) مسند الإمام أحمد (٤/ ٣٩٧).
(٥) أسس التربية الإسلامية في السُّنَّة النبوية (ص٤٩٦).



المبحث الثاني

تربية النبي ﷺ أصحابَهُ على نشر الدعوة

* وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول: تربيته ﷺ أصحابَه على بذل النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- المطلب الثاني: اختيار النبي ﷺ بعضَ أصحابه لنشر الدعوة وتعليم الخير للناس بطريق واضح ميسَّر مع مراعاة التدرُّج في ذلك.
- المطلب الثالث: تربيته ﷺ أصحابه على الصبر والتضحية، والثقة بالتمكين دون تعجُّلٍ للنتائج.
- المطلب الرابع: تكليفه ﷺ أصحابَه حسب قدراتهم ومواهبهم.



المطلب الأول

تربيته ﷺ أصحابه على بذل النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد اهتم النبي ﷺ بتربية أصحابه على بذل النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن في ذلك قِوامَ الدين والحياة، وأن الحياة لا تصلُحُ إلا بالنصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامَّتهم؛ ففي ذلك حراسةٌ لدين الله تعالى وللعدالة الربانية في الأرض؛ إذ إن الفساد والشر لا يستفحل أمرُهما وينتشران في الأرض إلا إذا أُهمل النصحُ وتُرك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعند ذلك يقع عقاب الله تعالى فيعم الصالح

والطالح، كما قال ﷺ: (مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا؟ فَإِنْ تَرَكَهُمُ الَّذِينَ فِي الأَعْلَى وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا)[١].

وقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ النَّاسَ إِذَا تَرَكُوا الظَّالِمَ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى ذَلِكَ أَوْشَكَ اللهُ أَنْ يَعُمَّهُم بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ)[٢].

ولقد كان رسول الله ﷺ يبايع الصحابة رضوان الله عليهم على النصيحة لكل مسلم؛ فعن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال: «بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»[٣].

«قال المازري: النصيحة مشتقة من نصحتُ العسلَ: إذا صفَّيتُه؛ يقال: نصح الشيءُ: إذا خلَصَ، ونصح له القولَ: إذا أخلصه له؛ أو مشتقةٌ مِنَ النُّصح، وهي الخياطة بالمِنْصَحة، وهي الإبرة، والمعنى: أنه يلمُّ شَعَثَ أخيه بالنُّصح، كما تلُمُّ المِنْصَحة؛ ومنه التوبةُ النَّصُوح، كأن الذنبَ يمزق الدين، والتوبة تخيطه.

قال الخطابي: النصيحة كلمة جامعة معناها: حيازة الحظِّ للمنصوح له، ويقال: هو مِنْ وجيز الأسماء ومختصر الكلام، وليس في كلام العرب كلمةٌ مفردةٌ تُستوفَى بها العبارةُ عن معنى هذه الكلمة، كما قالوا في

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم (١/ ٣٢، ٣٣)، رقم الحديث (٧٩).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤/ ١٢٢)، حديث رقم (٤٣٣٨)، وورواه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٤/ ٤٠٦)، حديث رقم (٢١٦٨)، وأحمد في المسند (١/ ٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: (الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم) (١/ ٢٤)، رقم الحديث (٥٧).
وورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (١/ ٧٥)، رقم الحديث (٥٦).

كلمة «الفلاح» ليس في كلامهم كلمةٌ أجمع لخير الدنيا والآخرة منه»[١].

والنصح لكلِّ مسلم في هذه الجملة تعميم في النصح وفي المنصوح له، فيشمل كلَّ ما يفيد المنصوح له، ويعود عليه بالنفع الدنيوي والأخروي. قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: «اقتصر على الصلاة والزكاة لشهرتهما»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«والمراد بالبيعةِ: البيعةُ على الإسلام، وكان النبي ﷺ أولُ ما يشترط بعد التوحيد إقامةُ الصلاة؛ لأنها رأسُ العبادات البدنية، ثم أداء الزكاة؛ لأنها رأس العبادات المالية، ثم يعلِّمُ كل قوم ما يحتاجون إليه، فبايع جريرًا على النصيحة؛ لأنه كان سيدَ قومِه، فأرشده إلى تعليمهم بأمره بالنصيحة لهم، وبايع وفدَ عبد القيس على أداء الخُمس؛ لكونهم كانوا أهلَ محاربةٍ مَعَ مَنْ يليهم من كُفَّار مُضَرَ»[٣].

وتقييد النصح بالمسلم إنما هو للأغلب والأعمِّ، وإلا فإن نصح الكافر معتَبَرٌ شرعًا بأن يُدعى إلى الإسلام، ويُشار عليه بالصواب إذا استشار[٤].

ولأهمية شأن النصيحة، فإن رسول الله ﷺ ذكر لأصحابه أنواعها، ولفت أنظارَهم إلى أهميتها بتكراره ﷺ لها ثلاثًا.

فعن تميم الداريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ)**، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: **(للهِ وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ)**[٥].

فالنصيحة هي عِمادُ الدين وقِوامُه؛ ولهذا بيَّن النبي ﷺ لأصحابه في هذا الحديث أهميةَ النصيحة، بحيث وجَّه الخطاب إليهم بقوله: **(الدِّينُ**

---

(١) فتح الباري (١/١٣٨).
(٢) فتح الباري (١/١٣٨).
(٣) فتح الباري (٢/٧) بتصرف يسير.
(٤) فتح الباري (١/ ١٤٠).
(٥) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (١/ ٧٤)، رقم الحديث (٥٥).

النَّصِيحَةُ)، وكرَّر ذلك ثلاثَ مرات؛ لشدِّ انتباههم، ولَفْت أنظارهم ـ رضوان الله عليهم ـ لأهمية الموضوع الذي هو بصدده ﷺ، حتى سأل الصحابةُ رسولَهم ﷺ بقولهم: لمن يا رسول الله؟ أي: لمن النصيحةُ؟ فأجابهم ﷺ بقوله: (للهِ وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ).

وهذا الحديث عظيمُ الشأن، وعليه مدارُ الإسلام[١]؛ لاشتماله على أمور عظيمة وقواعدَ متينةٍ.

قال ابن بَطَّال رحمه الله تعالى: «في هذا الحديث أن النصيحة تُسَمَّى دينًا وإسلامًا، وأن الدين يقع على العمل كما يقع على القول»[٢].

ويحتمل أن يكون قولُه ﷺ: (الدين النصيحة) للمبالغة في ذلك؛ أي: إن معظمَ الدين النصيحةُ، كما قال في الحج: (الحَجُّ عرفةَ)؛ أي: عِمادُه ومعظمُه عرفة، ويحتمل أن يُحمل على ظاهره؛ لأن كلَّ علم لم يُرِدْ به عاملُه الإخلاصَ، فليس مِنَ الدين[٣].

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «وأما تفسير النصيحة وأنواعها، فقد ذكر الخطَّابي وغيرُه من العلماء فيها كلامًا نفيسًا، أنا أضمُّ بعضَه إلى بعض مختصرًا؛ قالوا:

١ ـ أما النصيحة لله تعالى:

فمعناها منصرف إلى الإيمان به، ونفيِ الشريك عنه، وترك الإلحاد في صفاته، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلِّها، وتنزيهه ﷻ من جميع النقائص، والقيام بطاعته، واجتناب معصيته، والحبِّ فيه، والبُغضِ فيه، وموالاةِ مَنْ أطاعه، ومعاداةِ مَنْ عصاه، وجهادِ مَنْ كفر به، والاعترافِ بنعمته وشكره عليها، والإخلاص في جميع الأمور، والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة، والحثِّ عليها، والتلطُّفِ في جميع الناس، أو مَنْ أمكن منهم عليها.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٣٧).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٣٩).
(٣) فتح الباري (١/ ١٣٨).

قال الخطابي رحمه الله: وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نصحه نفسه؛ فالله تعالى غني عن نصح الناصح.

٢ - وأما النصيحةُ لكتابه تعالى:

فالإيمان بأنه كلام الله تعالى، وتنزيلُهُ، لا يشبهُه شيءٌ مِنْ كلام الخلق، ولا يقدِر على مثله أحدٌ مِنَ الخلق، ثم تعظيمُه وتلاوتُه، وتحسينها، والخشوع عندها، وإقامةُ حروفه في التلاوة، والذبُّ عنه لتأويل المُحَرِّفين وتَعَرُّض الطاعنين، والتصديق بما فيه، والوقوفُ مَعَ أحكامه، وتفهُّم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتفكُّر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه وإلى ما ذكرنا من نصيحته.

٣ - وأما النصيحةُ لرسول الله ﷺ:

فتصديقه على الرسالة، والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه، ونصرته حيًّا وميتًا، ومعاداةُ مَنْ عاداه، وموالاةُ مَنْ والاه، وإعظام حقِّه وتوقيره، وإحياء طريقته وسُنَّته، وبثُّ دعوته، ونشر شريعته، ونفيُ التهمة عنها، واستثارة علومها، والتفقُّه في معانيها، والدعاءُ إليها، والتلطُّف في تعلُّمها وتعليمها، وإعظامُها وإجلالها، والتأدُّب عند قراءتها، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم، وإجلالُ أهلِها لانتسابهم إليها، والتخلُّق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، ومحبَّةُ أهل بيته وأصحابه، ومجانبةُ مَنِ ابتدع في سُنَّته، أو تعرَّض لأحدٍ مِنْ أصحابه، ونحو ذلك.

٤ - وأما النصيحة لأئمة المسلمين:

فمعاونتُهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيهُهم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفَلوا عنه ولم يبلُغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتألُّفُ قلوب الناس لطاعتهم.

قال الخطَّابي رحمه الله تعالى: ومِنَ النصيحة لهم: الصلاةُ خلفَهم، والجهاد معهم، وأداءُ الصَّدقات إليهم، وتركُ الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حَيْفٌ أو سوءُ عِشرةٍ، وألا يُغرُّوا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يُدعى لهم بالصلاح؛ وهذا كلُّه على أنَّ المرادَ بأئمة المسلمين: الخلفاءُ وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين مِنْ أصحاب الولايات، وهذا هو المشهور...

(وأما إذا كانوا مِمَّن نَحَّى شرعَ الله تعالى عن الحكم، واستبدلوا به القوانينَ الوضعيةَ، فمناصحتُهم تكون ببيان خطورة ما هم فيه، وأنه كفرٌ مُخرِجٌ مِنْ ملَّة الإسلام، وعليهم أن يتوبوا إلى الله تعالى، وأن يُقلعوا عمَّا هم عليه، وأن يُحَكِّموا شرعَ الله تعالى، ففيه الخيرُ والبركة)(١).

٥ ـ وأما نصيحةُ عامَّة المسلمين، وهم مَنْ عدا وُلاةَ الأمر:

فإرشادُهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكفُّ الأذى عنهم، فيعلِّمهم ما يجهلونه مِنْ دينهم، ويعينُهم عليه بالقول والفعل، وسَتر عوراتهم، وسَدُّ خَلَّاتهم، ودفع المضارِّ عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وتخوُّلهم بالموعظة الحسنة، وترك غِشِّهم وحسدهم، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذبُّ عن أموالهم وأعراضهم، وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل، وحثُّهم على التخلُّق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة، وتنشيطُ هِمَمِهم إلى الطاعات»(٢). انتهى.

وأما كيفية النصح؛ فالذي فهمتُه مِنْ كلام أهل العلم: أن النصيحةَ قد تكون سرًّا، وقد تكون علانيةً؛ بحسب المصلحة الشرعية في ذلك، ولا فرق في ذلك بين فقير وغنيٍّ، ولا أميرٍ ومأمورٍ.

فمتى كانت المصلحةُ الشرعيةُ تقتضي أن تكونَ النصيحةُ سرًّا عمل

---

(١) ما بين القوسين من كلامي.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٣٨، ٣٩).

الناصح بذلك، ومتى كانت المصلحةُ الشرعيةُ تقتضي أن تكون النصيحةُ علانيةً عمل الناصح بذلك.

والناصح قد يكون فردًا أو جماعة، بحسب المصلحة الشرعية في ذلك. والله أعلم.

وفي هذا تربية منه ﷺ لأصحابه على النصيحة وأنواعها وطرقها، وأن الناسَ لا تصلُح أحوالُهم إلا بالتناصُح أفرادًا وجماعاتٍ فيما بينهم، وأن يحبَّ كلُّ واحدٍ منهم لأخيه ما يحبُّ لنفسه، وأن الأرض لا تصلُح، ولا يقوم فيها العدل الرباني إلا بالنصيحة إلى الخير وإزالة الشر، وأن هذا الأمر - أيْ: صلاحُ الأرض والنفس - منوط بجهد الإنسان الذي يبذُلُه في سبيل تحقيق ذلك؛ قال الله ﷻ عن نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقال سبحانه عن هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقال عن صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

ولذلك كان النبي ﷺ يربِّي أصحابَه رضوان الله عليهم على الدعوة إلى الله تعالى ورفع الظلم والوقوف ضده، بطريقة لطيفة شيِّقة لافتة للانتباه؛ فيقول ﷺ لواحد من أصحابه في إحدى جلساته المباركة معهم، وبقية الأصحاب يسمعون، كما في الحديث الوارد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**)، فقال رجل: يا رسول الله، أنصُرُه إذا كان مظلومًا، أفرأيتَ إن كان ظالمًا، كيف أنصرُه؟!. قال: (**تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ عَنِ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**)[1].

فتعجّب الصحابة رضي الله عنهم من ذلك حتى قال رجل منهم: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إن كان ظالمًا، كيف أنصره؟ وذلك لأن

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب أعِنْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا، (٣/ ١٣٥)، رقم الحديث (٢٤٤٤).

النصر عند العرب بمعنى الإعانة، فكانوا في الجاهلية يعينُ بعضُهم بعضًا في حقٍّ أو باطل.

وفي هذا تربية بلفت أنظار الصحابة ﷺ، للتيقظ للمقصود، حتى قال رجل منهم: كيف أنصُرُه إذا كان ظالمًا؟

ثم تابع رسول الله ﷺ المقصودَ، واستكمل توجيهَه وموعظتَه لأصحابه؛ فبيَّن لهم كيفيةَ نصر الأخ الظالم، فقال مجيبًا على التساؤل الذي وُجِّه إليه: (تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ عَنِ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ).

فأبطل بذلك مفهوم الجاهلية مِنَ النصر، وهو حَمِيَّةُ الجاهلية التي كانوا عليها من إعانة القريب، ظالمًا كان أو مظلومًا، على حق كان أو على باطل؛ وهذا الخُلُق الجاهلي يتخلَّق به مَنِ ارتكست فطرتُه عن الهدى والرشاد، وهو مَعْلَمٌ مِنْ معالم الجاهلية، وفي ذلك يقول شاعرهم [من الطويل]:

إِذَا أَنَا لَمْ أَنْصُرْ أَخِي وَهْوَ ظَالِمٌ   عَلَى القَوْمِ لَمْ أَنْصُرْ أَخِي حِينَ يُظْلَمُ[1]

فصحح رسول الله ﷺ هذا المفهوم في أذهان الصحابة، وجعل نصر الظالم هو الوقوفَ في وجهه ورده عن الظلم ومنعَه منه، وبيانَ الصواب له، وإعانتَه على ترك الظلم وفعل الصواب، أيًا كان هذا الظالم قريبًا أم بعيدًا من قبيلته، أو من قوم آخرين.

قال ابن بطَّال رحمه الله تعالى: «النصر عند العرب: الإعانة، وتفسيره ﷺ لنصر الظالم بمنعه مِنَ الظلم مِنْ تسمية الشيء بما يؤُولُ إليه، وهو مِنْ وجيز البلاغة»[2].

وقال البيهقي رحمه الله تعالى: «معناه: أن الظالم مظلومٌ في نفسه؛ فيدخل فيه رَدْعُ المرء عن ظلمه لنفسه حِسًّا ومعنى، فلو رأى إنسانًا يريد أن يَجُبَّ نفسَه لظنِّه أن ذلك يزيل مفسدةَ طلبه الزنى مثلًا، منعه من ذلك، وكان

---

(١) فتح الباري (٥/ ٩٨).
(٢) المرجع السابق (٥/ ٩٨).

ذلك نصرًا له، واتَّحدَ في هذه الصورة الظالمُ والمظلوم»[١]. انتهى.

فينبغي للدعاة إلى الله تعالى والمربِّين الاستفادة من هذا التوجيه النبوي الحكيم، وهذه الطريقة التربوية الفائقة في إبطال كثير من أخلاق الجاهلية التي ما زالت عالقةً في نفوس كثيرٍ مِنْ طلبة العلم، فضلًا عن عامة المسلمين، وغرس الأخلاق الإسلامية العالية، وحثّهم على التخلُّق بها بالطرق الحكيمة السديدة والمُشَوِّقة كذلك، وتربيتهم كذلك على حب التغيير في أنفسهم وفي الناس مِنْ حولهم من حالة المرض إلى حالة الصحة والعافية، وإحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم في حياتهم ومجتمعاتهم؛ حتى يسودَ الخيرُ ويعُمَّ النفعُ، وتحصُلَ البركة، ويثْبُتَ الأجرُ إن شاء الله تعالى.

ومما يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: استخدام أسلوب التحذير؛ كما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (**إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ**)، قالوا: يا رسول الله، ما لنا بدٌّ مِنْ مجالسنا؛ نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: (**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إلا المَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**)، قالوا: يا رسول الله، وما حقُّ الطريق؟ قال: (**غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ**)[٢].

ففي هذا الحديث يربي النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على آداب الجلوس في الطُّرقات والشوارع العامة التي يمرُّ منها المسلمون والمسلمات لقضاء حوائجهم، ويحيي في نفوسهم الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، وفِعْلَ كلِّ خير للمسلمين، والامتناعَ والكف عن كلِّ شر، وعن كل ما فيه مضرَّةٌ ومفسدة على النفس أو على الآخرين.

---

(١) فتح الباري (٥/ ٩٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات (٣/ ١٤١)، رقم الحديث (٢٤٦٥).

ورواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه (٣/ ١٦٧٥)، رقم الحديث (٢١٢١).

فيوجِّه ﷺ الخطاب إلى أصحابه قائلًا لهم: (إياكم والجلوس، في الطرقات).

فهو ﷺ يحذرهم من الجلوس في الطرقات خوفًا عليهم من الوقوع في الإثم بسبب العجز عن أداء الحقِّ الذي يلزمُهم إذا جلسوا في الطرقات، و«إنَّ دفع المفسدة أوْلى من جلب المصلحة؛ لنَدْبِه ﷺ أوّلًا إلى ترك الجلوس، مع ما فيه من الأجر لمن عمل بحق الطريق، وذلك أن الاحتياط لطلب السلامة آكَدُ من الطمع في الزيادة»[١].

لكن الصحابة ﷺ راجعوا المربي والمعلم ﷺ ببيان أنهم لا يستغنون عن الجلوس في الطرقات، فقالوا ﷺ: يا رسول الله، ما لنا بدٌّ من مجالسنا؛ نتحدث فيها.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: «فيه دليل على أن أمره ﷺ لهم لم يكن للوجوب، وإنما كان على طريق الترغيب والأوْلى؛ إذ لو فهموا ﷺ الوجوب لم يراجعوه هذه المراجعة»[٢].

فقال لهم المربي الكبير ﷺ: **(فَإِذَا أَبَيْتُمْ إلا المَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ).**

فدلَّهم ﷺ إذا أبَوْا إلا الجلوسَ في الطرقات؛ إلى أن يُعْطُوا الطريقَ حقَّه. نعم.. إن للطريق حقًّا يلزم من جلس فيه؛ ولذا بادر الصحابة ﷺ بالاستفسار والبحث عن هذا الحق الذي لا يعرفونه، فقالوا لمعلمهم ومربيهم ﷺ: وما حقُّ الطريق؟

فأجابهم الرسول ﷺ بعد أن لفت أنظارهم وشوَّقهم إلى معرفة ذلك، فاتَّجهوا إليه صاغيةً إليه آذانُهم، واعيةً لِمَا سيقول قلوبُهم، مُلقين بأسماعهم تجاه جوابه؛ فأجابهم معلِّمهم ومربِّيهم ﷺ بقوله الجامع المانع: **(غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ).**

---

(١) فتح الباري (٥/١١٣). (٢) فتح الباري (١١/١١).

قال الحافظ ابن حجر: «وقد تبين من سياق الحديث أن النهي عن ذلك للتنزيه؛ لئلا يضعُفَ الجالس عن أداء الحق الذي عليه، وأشار بغضِّ البصر إلى السلامة مِنَ التعرُّض للفتنة بمن يمرُّ من النساء وغيرهن، وبكف الأذى إلى السلامة مِنَ الاحتقار والغِيبة ونحوها، وبردِّ السلام إلى إكرام المارِّ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى استعمال جميع ما يُشرع وتَرك جميع ما لا يشرع، وفيه حُجَّة لمن يقول بأن سدَّ الذرائع بطريق الأوْلى لا على الحتم؛ لأنه نهى أولًا عن الجلوس حسمًا للمادة، فلما قالوا: «ما لنا منها بد» ذكر لهم المقاصدَ الأصلية للمنع، فعرف أن النهي الأول للإرشاد إلى الأصلح»[١].

* فينبغي للدعاة إلى الله تعالى أن يربُّوا من ولَّاهم الله تعالى تعليمَه على هذه الآدابِ العظيمة، والخِصالِ الجليلة، والمزايا الحميدةِ، التي عن طريقها يحفظ المرءُ نفسَه من الزيغ والضلال، وكذلك يُسهم في حفظ الآخرين من الانحراف بأمره لهم بالمعروف، ونهيه لهم عن المنكر، وبتقديم الخدمات من مساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف، وتوجيه التائه، وتعليم الجاهل، ونشر السلام، وحُسن الخُلُق معهم، وكفِّ الأذى عنهم، وغضِّ البصر عن محارمهم؛ فهذه مِنْ أنفع الأسباب لنشر الخير والعلم والصلاح بين الناس.

وذلك لأن الناس قد ملُّوا من كثرة الكلام، ويريدون واقعًا لهذه المُثُل والأخلاق التي أكثر الدعاةُ من الكلام فيها، ولا طريقَ إلى تجسيم هذه الأخلاق وتجسيدها في واقع الناس إلا عن طريق الدعاة إلى الله أنفسهم وطَلَبَةِ العلم الغيورين على دينهم، والحرص الشديد والإرادة القوية في التخلُّق بهذه الأخلاق العظيمة والوصايا النبوية الكريمة، حتى يلمَسَ الناسُ هذه الصفات حقيقةً واقعيةً في أخلاق الدعاة وطلابهم، فتؤثِّر فيهم عندئذٍ، لا قبلَه.

---

(١) فتح الباري (٥/ ١١٣).

قال القاضي عياض: «وأما كفُّ الأذى؛ فالمراد به كفُّ الأذى عن المارَّة؛ بألَّا يجلس حيث يضيِّق عليهم الطريقَ، أو على باب منزل مَنْ يتأذى بجلوسه عليه، أو حيث يكشف عيالَه، أو ما يريد التستُّرَ به مِنْ حاله، ويحتمل أن يكون المرادُ كفَّ أذى الناس بعضِهم عن بعضٍ»[١]. انتهى.

وقد حصر الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى الآداب الواردة في حق الطريق من جميع الروايات التي وردت في هذا الشأن، فوجد أن مجموعها أربعة عشر أدبًا نظمها في أربعةِ أبيات، فقال[٢] [من البسيط]:

جَمَعْتُ آدَابَ مَنْ رَامَ الجُلُوسَ عَلَى الطْـ ... ـطَرِيقِ مِنْ قَولِ خَيْرِ الخَلْقِ إِنْسَانَا
أَفْشِ السَّلامَ وَأَحْسِنْ فِي الكَلَامِ وَشَمْـ ... ـمِتْ عَاطِسًا وَسَلامًا رُدَّ إِحْسَانَا
فِي الحَمْلِ عَاوِنْ وَمَظْلُومًا أَعِنْ وَأَغِثْ ... لَهْفَانَ اهْدِ سَبِيلًا وَاهْدِ حَيْرَانَا
بِالعُرْف مُرْ وَانْهَ عَنْ نُكْرٍ وَكُفَّ أذَى ... وَغُضَّ طَرْفًا وَأَكْثِرْ ذِكْرَ مَوْلَانَا

ثم علَّق بعد أن ذكر هذه الأبيات بقوله:

«وقد اشتملت على معنى علة النهي عن الجلوس في الطُّرق من التعرُّض للفتَنِ بحضور النساء الشوابِّ، وخوف ما يلحق من النظر إليهن من ذلك؛ إذ لم يمنع النساء من المرور في الشوارع لحوائجهن، ومن التعرُّض لحقوق الله والمسلمين مِمَّا لا يلزم الإنسان إذا كان في بيته، وحيث لا ينفرد أو يشتغل بما يلزمه، ومن رؤية المناكير وتعطيل المعارف، فيجب على المسلم الأمرُ والنهيُ عند ذلك، فإنْ تَرَكَ ذلك فقد تعرَّض للمعصية، وكذا يتعرَّض لمن يمرُّ عليه ويسلِّم عليه، فإنه ربما كثُر ذلك، فيعجِزُ عن الردِّ على كل مارٍّ، وردُّه فرض، فيأثم، والمرء مأمور بألا يتعرَّض للفتن، وإلزامِ نفسِه ما لعلَّه لا يقوى عليه، فندبَهم الشارعُ إلى ترك الجلوس حسمًا للمادة، فلما ذكروا له ضرورتَهم إلى ذلك؛ لِمَا فيه مِنَ المصالح من تعاهُد بعضهم بعضًا، ومذاكرتهم في أمور

---
(١) فتح الباري (١١/ ١٢).
(٢) فتح الباري (١١/ ١١).

الدين، ومصالح الدنيا، وترويح النفوس بالمحادثة في المباح، دلَّهم على ما يزيل المفسدة مِنَ الأمور المذكورة»[١]. انتهى.

فكما هو واضحٌ مِنْ كلام الحافظ أن الصحابة والسلفَ ﷺ لم يتخذوا الطُّرقاتِ مكان لهو ولعب وفِسق وفجور وأذيَّةٍ للمسلمين والمسلمات، كما هو واقعٌ في عصورنا هذه مِنْ كثيرٍ مِنْ شباب المسلمين وشِيبهم كذلك، وكذلك نساء الصحابة والسلف كُنَّ يخرجن لقضاء حوائجهن، ولم يكنَّ يخرجن كخروج كثير من النساء اليوم لإثارة الفتنة في قلوب الشباب، وللتبختُر في المشية، وإظهارِ مفاتنهن للكلاب المسعورة التي ألهبَتْ جوعَها وشهواتِها الأفلامُ الخليعة والصورُ العاريةُ التي يشاهدونها في السينما والتلفاز، والفيديو، والكلمة الماجنة الساقطة في المجلات والجرائد الخبيثة.

فليتَّقِ اللهَ تعالى فيهم مَنْ ولَّاه الله تعالى أمرهم، وليحافظ على فِطَرِهم وأخلاقهم، وَلْيَحُلْ بينهم وبين هذه الشرور التي ما انتشرت في قوم إلا أفسدتهم، وإلا فليتأهب أولئك لغضب الله وسَخطه وعذابه، فإن عذابَه أليمٌ شديد.

ووالله إن القارئ لِمَا أعدَّه الله تعالى مِنَ العذاب الأليم الشديد، والنار التي تتلظى في كتاب الله تعالى، ليتفطَّرُ قلبُه مِنْ شدة الهول، ويخيِّمُ عليه الحزن، وتأخذه الرحمة، ولكنه إذا نظر فيما يفعله الطُّغاةُ في الأرض من نشر الفساد، وإرادة الفاحشة في الذين آمنوا، والوقوف ضد الخير، ومنع الدعاة إلى الله تعالى، وتعذيبهم وتشريدهم، هذا إذا لم يقتلوهم؛ إذا رأى ذلك، علم أن العذابَ مكافئ لِمَا يفعلونه، وعند ذلك عَلِم عدلَ الله تعالى، وأنه لا يظلم الناسَ شيئًا، ولكن الناسَ أنفسَهم يظلمون.

---

(١) فتح الباري (١١/١١، ١٢).

المطلب الثاني

اختيار النبي ﷺ بعضَ اصحابه لنشر الدعوة وتعليم الخير للناس بطريق واضح ميسَّر مع مراعاة التدرُّج في ذلك

لقد بدأت الدعوة المحمدية سرًّا كما هو معلوم، واستمرت على ذلك ثلاث سنين، ثم أمر اللهُ نبيَّه ﷺ بأن يجهرَ بها بعد أن تكوَّنت نواةٌ صالحةٌ من المؤمنين[١]، فما كان من كفار قريش إلا أن ناصبوه العداء، ووقفوا ضدَّ الدعوة، واستمر الحال على ذلك قُرابةَ عشر سنين، حتى هيَّأ اللهُ تعالى لدينه الأنصار، فأسلموا، وأخذوا الميثاقَ على أنفسهم لنُصرة الإسلام ورسول الإسلام.

عن محمد بن إسحاق بن يسار، قال: «فلما أراد الله ﷻ إظهار دينه، وإعزازَ نبيه ﷺ وإنجازَ موعده له، خرج رسولُ الله ﷺ في الموسم الذي لقِيَه فيه النَّفر مِنَ الأنصار، فعرض نفسَه على قبائل العرب كما كان يصنع كلَّ موسم، فبينما هو عند العقبة لقِيَ رهْطًا مِنَ الخزرج أراد الله بهم خيرًا»[٢].

«عن ابن شهاب الزهري أن الأنصار بعثوا إلى رسول الله ﷺ مُعاذَ بن عفراءَ، ورافعَ بنَ مالكٍ: أنِ ابعثْ إلينا رجلًا مِنْ قِبَلِكَ يفقِّهُنا ويدعو الناسَ بكتاب الله، فإنه قَمِنٌ أن يُتَّبَعَ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عُمير، فنزل في بني تيْم على أسعد بن زُرارةَ، فجعل يدعو الناس سرًّا، ويفشو الإسلام، ويكثر أَهله»[٣].

فبعث النبي ﷺ مع الأنصار الذين أسلموا داعيةً ومعلمًا يقرئهم القرآن، ويدعو مَنْ لم يؤمن إلى الإسلام، ويفقِّهُهم في الدين، ذلك الداعية

---

(١) انظر: مبحث تأسيس الاعتقاد من هذه الرسالة.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٣٣).

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة في باب ذكر العقبة الأولى، وما جاء في بيعة من حضر الموسم من الأنصار رسول الله ﷺ على الإسلام (٢/ ٤٣١).

هو مصعبُ بن عمير، أحدُ الذين تخرَّجوا في مدرسة دار الأرقم بن أبي الأرقم بمكةَ، حيث كان النبي ﷺ يربِّي فيها أصحابَه، فكان مصعبٌ رضي الله عنه يُسمَّى بالمدينة «المقرئ»، وكان يؤمُّهم في الصلاة[(١)].

«ولقد اختاره ﷺ عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان مصعب رضي الله عنه بجانب حفظه لِمَا نزل من القرآن، يملك مِنَ اللباقة والهدوء وحُسن الخُلُق والحكمة قدرًا كبيرًا، فضلًا عن قوة إيمانه، وشِدَّة حماسه للدين»[(٢)].

فكان يأتيه رضي الله عنه رئيسُ القبيلة، وحربتُه في يده، يريدُ قتلَه، فيخاطبه بأسلوبه الهادئ الحكيم: «... أوَتقعد فتسمع، فإن رضيتَ أمرًا ورغِبْتَ فيه قبلتَه، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره»[(٣)]، فيقعد الرجلُ، فيسمع مِنْ مصعبٍ رضي الله عنه، ثم يرجع إلى أصحابه وقد انشرح قلبُه للإيمان، فيدعو قومَه إلى الإسلام، فإن أبَوْا فكلامُهم عليه حرامٌ حتى يُسلموا، وهذا ما فعله سيدُ الخزرج سعد بن عُبادةَ؛ ولذا نجح مصعبٌ أيَّما نجاح في أن ينشرَ الإسلام في المدينة خلال أشهر، حتى لم يبْقَ دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا القليلَ، واستطاع أن يكسِبَ للإسلام أنصارًا وأعوانًا مِنْ كبار زعمائها وكبرائها؛ كسعد بن معاذ، وسعد بن عُبادة، وأُسَيْدِ بن الحُضير، وقد أسلم بإسلامهم خَلْقٌ كثيرٌ مِنْ قومهم[(٤)].

ثم رجع الداعية المظفَّر مصعبُ بن عمير مِنَ المهمَّة التي وكَّله عليها رسول الله إلى مكة، وخرج مَنْ خرج مِنَ الأنصار مِمَّن أسلم على يديه رضي الله عنه

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٧٦)؛ السيرة لابن كثير (٢/ ١٨٠)، وأضاف بعضهم أن عبد الله بن أم مكتوم كان مبعوثًا مع مصعب بن عمير. انظر: عيون الأثر لابن سيد الناس (١/ ١٢٨)، ويشهد لمقدمهما جميعًا قولُ البراء: أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم؛ فجعلا يقرئاننا القرآن.
رواه البخاري، مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة (٤/ ٢٦٣).

(٢) الغرباء الأولون (ص١٨٦، ١٨٧).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٣٧).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٣٨).

إلى الموسم مع حُجَّاج قومهم مِنْ أهل الشرك حتى قدموا مكةَ، فواعدوا رسولَ الله ﷺ الشِّعْبَ الذي عند جمرة العقبة، والتقى به ما يزيد على السبعين منهم لقاءً سِرِّيًا، وكانت الصورةُ واضحةً وضوحًا عميقًا في أذهان المبايعين؛ حيث كانوا يدركون بعمقٍ معنى بيعتهم لرسول الله ﷺ، وأنها مفاصلةٌ للناس كافَّةً، وتَعَرُّضٌ للقتال والقتل[1]، وما ذلك إلا نتيجةٌ للتربية التي تلقَّوْها من الداعية الذي تربى مِنْ قبلُ على يدَيْ رسول الله ﷺ؛ وهو مصعبٌ بن عُمير رضي الله عنه.

وكان هؤلاء الأنصار قد ائتمروا فيما بينهم في المدينة قائلين: حتى متى رسولُ الله يُطْرَدُ في جبال مكة ويخاف؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه الموسمَ، فواعَدَنا بيعةَ العقبة، فقال له عمُّه العباس: يا ابن أخي، لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاؤوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب، فاجتمعنا عنده مِنْ رجل ورجلين، فلمَّا نظر العباس في وجوهنا قال: هؤلاء قوم لا نعرفهم، هؤلاء أحداثٌ!! فقلنا: يا رسول الله، علامَ نبايعُك؟ قال: (**تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي العُسْرِ وَاليُسْرِ، وَعَلَى الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ، لَا تَأْخُذُكُمْ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ، وَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَأَزْوَاجَكُمْ، وأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الجَنَّةُ**)، فقمنا نبايِعُه، وأخذ بيده أسعدُ بن زُرارةَ ـ وهو أصغرُ السبعين ـ إلا أنه قال: رُويدًا يا أهل يثرب، إنا لم نضرِبْ إليه أكبادَ المَطِيِّ إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجَه اليوم مفارقةُ العربِ كافَّةً، وقتلُ خياركم، وأن يَعَضَّكُمُ السيفُ[2]، فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مَسَّتكم، وعلى قتل خياركم، ومفارقة العرب كافَّةً، فخُذوه

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص١٨٧).
(٢) العَضُّ: إمساك الشيء بالأسنان، ويُقصد به هنا: الحرب والشدة. انظر: القاموس المحيط (٢/ ٣٤٩)؛ الفائق في غريب الحديث للزمخشري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (٢/ ٤٤٣، ٤٤٤).

وأجرُكم على الله، وإما أنتم تخافون مِنْ أنفسكم خيفةً، فذرُوه، فهو عذرٌ عند الله ﷻ، فقالوا: يا سعد، أمِطْ عنّا يدك، فوالله لا نذرُ هذه البيعةَ، ولا نستقِيلُها، قال: فقمنا إليه رجلًا رجلًا، فأخذ علينا، ليعطِيَنا بذلك الجنةَ[١].

وبهذه البيعة المباركة انتهى عهدُ التشريد والتطريد لرسول الله ﷺ ولأصحابه ﭬ وابتدأ عهدٌ جديد للدعوة إلى الإسلام، اتَّسم بالاستقرار، والاستعدادِ لقتال المشركين كافةً، ولنشرِ الدعوة في جميع بقاع الأرض[٢].

قال إمام المغازي محمد بن إسحاق:

«وكانت بيعة الحرب، حين أذِنَ اللهُ لرسوله ﷺ في القتال، شروطًا سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى، كانت الأولى على بيعة النساء؛ وذلك أن الله تعالى لم يكن أذِنَ لرسوله ﷺ في الحرب، فلمَّا أذِنَ الله له فيها، وبايَعَهم رسولُ الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربِّه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنَّةَ»[٣].

فكان في البيعة الأولى الإيمانُ بالله ورسوله ﷺ، وكانت البيعة الثانية العهد على الهجرة، والجهاد، وتتحقق بهذه العناصر الثلاثة ـ الإيمان، والهجرة، والجهاد ـ وجودُ الإسلام في واقعٍ جماعيٍّ مُمكَّنٍ[٤].

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٢٢) وفيه: تخافون من أنفسكم جبينة، وكذلك (٣/ ٣٣٩، ٣٤٠)، وقال الهيثمي: «رجال أحمد رجال الصحيح». مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦/ ٤٦)؛ والبزار، كما في كشف الأستار، كتاب الهجرة والمغازي، وباب البيعة على الحرب (٢/ ٣٠٧)، رقم (١٧٥٦).
وابن حبان كما في الموارد (٢٧)، كتاب المغازي، (٢) باب البيعة على الحرب، رقم (١٦٨٦) (ص٤٠٨)، والحاكم في المستدرك: كتاب التاريخ (٢/ ٦٢٤).
وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.
والبيهقي في الدلائل، باب ذكر العقبة الثانية (٢/ ٤٤٢).
(٢) انظر: الغرباء الأولون (ص١٩٣). (٣) السيرة لابن هشام (٢/ ٩٧).
(٤) انظر: الغرباء الأولون (ص١٩٤).

«والهجرة لم تكن لتتم لولا وجودُ الفئة المؤمنة المستعدَّة للإيواء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ولم تكن البيعةُ والهجرةُ والجهادُ لتتمَّ لولا انسلاخُ المؤمنين الجُدُدِ من ولائهم القبَلِيِّ والوطني للولاء الشرعي، وتركهم لقياداتهم العشائرية إلى القيادة الإسلامية الواحدة»[١].

وذلك نتيجة التربية المتواصلة التي بذلها النبيُّ المربي ﷺ لأصحابه، حتى تعلقت قلوبُهم بربِّهم الكريم، وحتى خلَصت نفوسهُم مِنْ حظِّ نفوسهم، وتعلقوا بالآخرة وهم ما زالوا على وجه هذه الأرض يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويدعون إلى الله ورسوله، فأصبحت العقيدةُ الصحيحة همَّهَم الأولَ الذي يبذلون في سبيله كلَّ غالٍ ورخيص، حتى ولو كان ذلك بترك بلدهم الذي تربَّوْا في ربوعه، وإن كان هذا البلدُ هو البلدَ الأمين الذي أحبُّوه من كل قلوبهم، ولو كان كذلك الموت، فإنهم لا يبالون بذلك في سبيل الله تعالى؛ كما جاء في بعض نصوص البيعة؛ على «الدَّم الدم، والهَدْم الهَدْم» على إثر قول الأنصار: إن بيننا وبين القوم ـ يعني: اليهود ـ حِبالًا، وإنَّا قاطعوها[٢].

«وقد كانت هذه البيعةُ هي التمهيدَ الأخير لهجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وبعدها بدأ المهاجرون يغادرون أرض مكة التي درجوا عليها

---

(١) الغرباء الأولون (ص١٩٤).

(٢) رواه ابن إسحاق، كما في السيرة لابن هشام: أمر العقبة الثانية (٢/ ٨١ ـ ٨٥)، وقال: «ويقال: الهدم الهدم يعني الحرمة؛ أي: ذِمَّتي ذِمَّتكم وحُرمتي حُرمتُكم». السيرة (٢/ ٨٥).

صغارًا، وشهدت ربوعها ومغانيها مراتعَ صِباهم ولهوهم، وبدؤوا يغادرون الأرض التي اختارها الله لتَنَزُّلِ وحْيِه، وجعل فيها بيتَه مثابةً للناس وأمنًا»(١).

وخرج معظم المسلمين حتى لم يَبْقَ بمكة إلا محبوسٌ، أو مأسورٌ، أو رجلٌ تأخَّر لغرض؛ كعليِّ بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما(٢).

وأما رسول الله ﷺ فقد تأخر ينتظر الإِذْنَ مِنَ الله تعالى، وطَلَبَ مِنْ أبي بكر رضي الله عنه أن يكون رفيقَه وصاحبَه في الهجرة، ولَمَّا جاءه الإذن من الله بالخروج إلى المدينة خرج مستخفيًا، عالِمًا بما سيصيبُ كُفَّارَ قريش مِنَ الهَلَع والفزع إذا علمت بخروجه، حتى وصل إلى المدينة بعد رحلة شاقَّةٍ مليئةٍ بالمخاطر والشدائد والأهوال(٣).

«وبالبيعة المؤكدة الصريحة، ثم بالهجرة بعدها، وجد الإسلام موطنَه الذي تنطلق منه دُعاةُ الحقِّ بالحكمة والموعظة الحسنة، وتنطلق منه جحافل الحقِّ المجاهدة أولَ مرةٍ، وقامت الدولةُ الإسلامية المحكِّمة لشرع الله في عباده، وهو الموطن الذي يرجِع إليه الإسلام مِنْ بعد»(٤).

فاجتمع المؤمنون مِنْ مختلف القبائل حول المربِّي والقائد ﷺ وقد خلعوا مِنْ أعناقهم عبادةَ الطَّاغوت بكل صوره وأشكاله، وتآلفت قلوبُهم، واشتد رِباط الأخوَّة فيما بينهم أشدَّ رباط عرفَتْه البشريةُ في تاريخها الطويل، وأصبح انتماؤها للدين الإسلامي الحنيف؛ مِمَّا جعلها فئةً متراصَّةً متكاتفةً، مما حقَّق لها أهدافًا عالية عديدة. كما يلي:

أ ـ «فهو ذو أثر كبير في دفع الشعور بالغربة الفردية، وتحويله إلى شعور جماعيٍّ منتج مثمر، وفرق كبير بين فرد يُحِسُّ بغربته عمَّن حوله، فيتجافى عن واقعه، ويضرب على نفسه سورًا من العزلة، وبين فئة مترابطة متكاتفة تشعر بغربتها وتميُّزها، وتعلم أن الله فضَّلها واختارها لتؤدِّيَ دورًا

---

(١) الغرباء الأولون (ص١٩٤).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٢٣، ١٢٩)؛ السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٢٧، ٢٩٠).
(٣) انظر: الغرباء الأولون (ص١٩٥).
(٤) المرجع السابق (ص١٩٨).

عظيمًا في التاريخ، فيدفعها ذلك إلى مزيدٍ مِنَ التلاحُم والبذل والعطاء، ويغرِسُ فيها شعورَ العزة والاستعلاء؛ وهذا هو الشعورُ الذي كان النبيُّ ﷺ يبعثه في أصحابه في مواقفَ عديدة.

فعن عائشة ﵂ قالت: أعْتَمَ رسولُ الله ﷺ ليلةً بالعشاء، وذلك قبل أن يفشُوَ الإسلام، فلم يخرج حتى قال عمر: نام النساء والصبيان، فخرج، فقال لأهل المسجد: (مَا يَنْتَظِرُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ غَيْرُكُمْ)، وفي رواية: «ولا يُصَلَّى يومئذٍ إلا بالمدينة، وكانوا يصلُّون العَتَمَةَ فيما بين أن يغيبَ الشَّفَقُ إلى ثُلُثِ الليل الأول[1].

فهو ﷺ يُحيي في نفوس أصحابه تفرُّدَهم بهذه الفضيلة، وتميُّزَهم بها عن غيرهم، ليزيدَ من رغبتِهم في التنافس على الخير، وإحساسِهم بفضل الله عليهم.

ب ـ هذا الترابُطُ والانتماء من أسباب تثبيتِ المؤمن على دينه، وتحريضِه على الصبر عليه، وعلى ما يلقاه في سبيله، فالإنسان مهما كان مؤمنًا تصيبه الوحشة مِنْ قِلَّة الموافقين، ويشعر بالاعتزاز بكثرتهم وقوتهم، وهذه فطرة جِبِلِّيَّة مركوزة، لا يكاد ينفكُّ عنها الإنسان، وتزايدُ عدد المؤمنين ـ مع ما يولده من العِزّة ـ هو خطوةٌ نحو تحقيق كيانٍ مستقلٍّ لهم، وبناءِ دولة تحميهم؛ ولذلك قال عمر: والله لو بلغنا ثلاث مئة لأخرجناكم منها؛ يعني مكة.

ج ـ وهو مِنْ أسباب التضحية والبذل والجهاد عند الصحابة، فإن شعور الإنسان بانتمائه إلى كيان واقعي يُمثِّلُ العقيدة التي يؤمن بها، والمنهج الذي يسير عليه، يجعله يصبُّ جميعَ طاقاته وقُدُراتِه في سبيل دعم هذا الكيان وتقويته وحمايته.

وإذا كان ارتباط الإنسان بهذا الكيان ـ أصلًا ـ إنما هو بدافع الإيمان،

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب النوم قبل العشاء لمن غلب (١/ ١٦٠)، رقم الحديث (٥٦٩)؛ ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب وقت العشاء وتأخيرها (١/ ٤٤١)، رقم الحديث (٦٣٨).

فليس يُخِلُّ بنيَّة المرء وإخلاصه أن تزيدَ رغبتُه في الطاعة وحِرصُه عليها، بمجاورة أهل الخير وقُربهم، وإنما شُرِعَ الاجتماعُ على الخير لهذا المعنى وما شابهه؛ ولذلك كان بعضُ المقبلين على الإسلام يسأل الرسولَ ﷺ: مَنْ معك على هذا الأمر؟

د ـ مِنْ خلال هذا التجمُّع تمكَّن الرسول ﷺ من تنسيق جهود الدَّاعين، بحيث تتآلف وتتكامل، ولا تتناقض، وتمكَّن كذلك مِنْ توجيهها الوِجهة السَّليمة التي تخدُم ولا تهدِم؛ ولذلك أبى رسولُ الله ﷺ على عباس بن عُبادة بن نَضْلَة التسرُّع في قتال المشركين.

هـ ـ هو الصورة العملية التي يمكن أن تهيِّئ للداخلين في الدين جوًّا يعينهم على الترقِّي في درجات الإيمان والتخلُّص مِنَ انحرافات البيئة المحيطة بهم»[١]. انتهى.

ومن هنا أصبحت المدينة مهبِطَ الوحي، وقاعدةَ الدِّين، منها غزا النبيُّ الكريم ﷺ أعداءَ الإسلام، وحدَّث بها أكثرَ حديثه، إلا أن القتال بين المؤمنين والمشركين كان حائلًا دون دخول كثير مِنْ قبائل العرب في الإسلام، كما أنه كان مانعًا من وصول الدعوة إلى أنحاء الجزيرة، إلى أن وقع الفتحُ الأكبر، وهو صلحُ الحديبية، في السنة السادسة للهجرة[٢]، بين النبي ﷺ وأهل مكة، فعندها أمِنَ الناسُ بعضهم بعضًا، وجالس بعضهم بعضًا، وتحدَّثوا في شأن هذا الدين الجديد، وكانت هذه الهدنة خيرًا لكثير من الناس، فقد دخل الكثير من العرب في الإسلام[٣].

فكانت هذه فرصةً ذهبيةً انتهزها النبي المربي ﷺ لرسم بدايةٍ لنشر الدعوة إلى الله تعالى، خارجَ الجزيرة العربية بالحكمة والموعظة الحسنة، فأرسل بعضَ أصحابه إلى القبائل لدعوتهم إلى الإسلام، وتعليمهم السُّنن والأحكام، وبعث بعضَهم بكتبه إلى الملوك والجبابرة يدعوهم فيها إلى الله

(١) الغرباء الأولون (ص٢٤٦ ـ ٢٤٨).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٨٦).
(٣) انظر: المصدر السابق (٣/ ٣٠٩، ٣١٠).

تعالى، ويبلِّغهم بدينِ الإسلام الحنيف[(١)].

عن أنس بن مالك ﷺ: (أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصرَ وإلى النجاشي، وإلى كلِّ جبَّار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبيُّ ﷺ)[(٢)].

فقد اختار النبي ﷺ لهذه المهمة الضخمة مَنْ كان على جانبٍ عظيمٍ من الحِلم واللباقة، والهدوء والحكمة، وسَعَةِ الصَّدر، وكان ذا علم بالقرآن والسنَّة، وعلى درايةٍ بأسلوب الدعوة، وكيفية إيصال الخير إلى الناس.

فبعث ﷺ دِحْيةَ بن خليفةَ الكلبيَّ إلى قيصرَ، وعبدَ الله بن حُذافةَ السَّهمي إلى كسرى، وحاطبَ بنَ أبي بلتعةَ إلى المقوقس عظيمِ القِبْط، والعلاءَ بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوَى، وعمرَو بن العاص إلى ملك عُمانَ، وسُلَيْط بن عمرو العامري[(٣)] إلى صاحب اليمامة هَوْذَةَ بن عليٍّ، وشجاعَ بن وهبٍ[(٤)] إلى الحارث بن أبي شَمِرٍ الغسَّاني[(٥)]، وغيرَهم مِنَ الرُّسُل رضوان الله عليهم إلى غيرهم من الملوك، كما كاتبَ ﷺ زعماءَ اليمن وحضرموتَ وبعضِ القبائل العربية.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٦٨٨ ـ ٦٩٧)، وانظر: مراسلات النبي ﷺ، طبقات ابن سعد (١/ ٢٥٨ ـ ٢٩١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله ﷻ (٣/ ١٣٩٧)، رقم الحديث (١٧٧٤).

(٣) سُلَيْط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود العامري. كان من المهاجرين الأوَّلين مِمَّن هاجر الهجرتين، وهو الذي أرسله النبيُّ إلى هَوْذَة بن علي الحنفي، وإلى ثُمامة بن أثال الحنفي، وهما رئيسا اليمامة، قال الطبري: قُتل باليمامة سنة اثنتي عشرة.
أسد الغابة (٢/ ٤٤٠).

(٤) شجاع بن أبي وهب ـ ويقال: ابن وهب ـ بن ربيعة بن أسد الأسدي، حليفٌ لبني عبد شمس، يكنى أبا وهب. أسلم قديمًا، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وعاد إلى مكة لَمَّا بلغهم أن أهل مكة أسلموا، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا، وشهد المشاهدَ كلَّها مع رسول الله ﷺ واستشهد يوم اليمامة، وهو ابنُ بضعٍ وأربعين سنة.
أسد الغابة (٢/ ٥٠٥).

(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٦٨٨ ـ ٦٩٧).

وقد كان لهذه الكتب أثرٌ عظيم في نشر الإسلام، حيث كان مِنْ هؤلاء الملوك والزعماء وأمراء القبائل مَنْ أسلم وحَسُنَ إسلامُه، وكان منهم من أعلن خضوعَه وإذعانَه لحُكم الله ورسوله، ودخل في طاعة الدولة الإسلامية، هذا إلى ما لها مِنْ أهمية في إعلان الإسلام في أطراف الجزيرة وخارجها، وإقامة الحُجَّة على هؤلاء الجبابرة، وتبليغهم بيعةَ النبي ﷺ ليكون ذلك تمهيدًا لقتال مَنْ أبى الإسلام منهم.

وقد عَمَّقَتْ هذه الكتبُ الشعورَ عند المؤمنين بضرورة تحقيق عالميَّة الدعوة تحقيقًا عمليًا[(١)].

وكان ﷺ يأمر هؤلاء الرسل بالتيسير في بيان الحقِّ للناس، والبُعد عن التعقيد والتعسير؛ لأن دينَ الله تعالى واضحٌ لا يحتاج إلى تعقيد أو تصعيب؛ فعن أبي بُرْدَةَ، قال: «بعثَ رسولُ الله ﷺ أبا موسى ومعاذَ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كلَّ واحدٍ منهما على مِخلافٍ، قال: واليمن مخلافان، ثم قال: (يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرا)، فانطلق كلُّ واحد منهما إلى عمله، وكان كلُّ واحدٍ منهما إذا سار في أرضه وكان قريبًا مِنْ صاحبه أحدث به عهدًا فسلَّم عليه»[(٢)].

فها هو رسول الله ﷺ يرسل معاذًا وأبا موسى إلى اليمن داعِيَيْن إلى الله تعالى، كلٌّ واحد منهما في جهة مِنْ جهات اليمن، «وكانت جهةُ معاذٍ العليا إلى صَوْبِ عدنَ. . . وكانت جهةُ أبي موسى السُّفلى»[(٣)]، وأوصاهما المربي العظيم ـ عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم ـ بالتيسير والبُعد عن التعسير، والتبشير والبعد عن كلِّ ما مِنْ شأنه تنفيرُ الناس عن الهدى والرشاد.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: «قوله: (يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرا، وَبَشِّرَا

---

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص٢١٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (١٢٦/٥)، رقم الحديث (٤٣٤١).

(٣) فتح الباري (٨/ ٦١).

وَلَا تُنَفِّرا)؛ قال الطِّيبي: هو معنى الثاني مِنْ باب المقابلة المعنوية؛ لأن الحقيقة أن يقال: بَشِّرا ولا تُنْذِرا، وآنسا ولا تُنَفِّرا، فجمع بينهما ليعُمَّ البِشارة والنِّذارة، والتأنيسَ والتنفيرَ. قلت: [أي: الحافظ ابن حجر]: ويظهر لي أن النُّكتةَ في الإتيان بلفظ البشارة وهو الأصل، وبلفظ التنفير وهو اللازم، وأتى بالذي بعدَه على العكس للإشارة إلى أن الإنذارَ لا يُنفى مطلقًا بخلاف التنفير، فاكتفى بما يلزم عنه الإنذارُ وهو التنفير، فكأنه قيل: إن أنذرتُم، فليكن بغير تنفير؛ كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]»[1].

وعن ابن عباس ﭬ قال: لَمَّا بعث معاذًا إلى اليمن قال: (إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ[2] أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللهِ ﷻ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ).

وفي رواية قال: (وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهَا لَيسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ)[3].

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦١).

(٢) قوله: (إنك تقدَمُ على قوم أهل كتاب). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «توطئة للوصية لتستجمع همَّته عليها؛ لكون أهل الكتاب أهلَ علم في الجملة، فلا تكون الغاية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهَّال مِنْ عَبَدَةِ الأوثان، وليس فيه أنَّ جميعَ مَنْ يقدَمُ عليهم مِنْ أهل الكتاب، بل يجوز أن يكون فيهم مِنْ غيرهم، وإنما خصَّهم بالذكر تفضيلًا لهم على غيرهم». الفتح (٣/ ٣٥٨).

(٣) اختلف رُواةُ هذا الحديث؛ فمنهم مَنْ رواه بهذا اللفظ، ومنهم مَنْ رواه بلفظ: (فادْعُهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك...) وهم الأكثر. ومنهم من رواه بلفظ: (فادْعُهم إلى أن يُوَحِّدُوا الله، فإذا عرفوا ذلك...).

ووجه الجمع بينها: أن المراد بالعبادة: التوحيدُ، والمراد بالتوحيد: الإقرارُ بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التوحيد، وقوله: (فإذا عرفوا الله)؛ أي: عرفوا توحيد الله، والمراد بالمعرفة الإقرارُ والطواعيةُ، فبذلك يُجمع بين هذه الألفاظ المختلفة في القصة الواحدة. الفتح (١٣/ ٣٥٤)، والحديث سبق تخريجه.

فكان ﷺ يأمر الدُّعاة بالتدرُّج والوضوح في دعوة الناس إلى الإسلام، وأن يبدؤوا دعوتَهم بالتوحيد الذي هو عبادةُ الله وحدَه، وأن هذا الأمر هو أولُ واجبٍ يجب على المكلَّف معرفتُه، لا كما يقول أهلُ الكلام مِنْ أنَّ أولَ ما يجب على العبد النظرُ في الأدلة أو القصد إلى النظر أو الشك(١)؛ وفي حديث معاذ بنِ جبل رضي الله عنه إبطالٌ لهذا الزعمِ الخاطئ؛ وذلك لأن أصلَ العلم الإلهي ومبدأه هو الإيمانُ بالله ورسوله، والاهتداءُ بوحيه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠]؛ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ وقال ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا**»(٢).

فالرسول ﷺ قد بيَّن للناس التوحيدَ بأنواعه، وأنه أولُ واجبٍ، وأولُ ما يُدعى إليه، فلا حاجةَ بعد بيانه ﷺ إلى بيانِ أحدٍ مِنَ الناس كائنًا مَنْ كان.

فها هو رسول الله ﷺ يبعث معاذًا إلى اليمن، داعيةً إلى الله تعالى ومبلِّغًا عن رسول الله ﷺ، فيأمرُه الرسولُ بأن يدعُوَهم أولًا وقبلَ كلِّ شيء إلى توحيد الله وعبادته وحدَه بلا شريك؛ وما ذلك إلا لأن التوحيدَ شرطٌ لصحة جميع العبادات؛ كما يدلُّ عليه قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد عُلِمَ بالاضطرار مِنْ دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمةُ: أنَّ أصلَ الإسلام وأولَ ما يُؤمَرُ به الخَلْقُ شهادةُ أنْ لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فبذلك يصير الكافرُ مسلمًا،

---

(١) قد سبق الكلام عن ذلك بالتفصيل في الفصل الأول.

(٢) سبق تخريجه، وانظر: فتح الباري (١/ ٧٥)؛ وشرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢١٢).

والعدوُّ وليًّا، والمباحُ دمُه ومالُه معصومَ الدَّم والمال، ثم إن كان ذلك مِنْ قلبه، فقد دخل في الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه، فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان»[١].

ثم تابع ﷺ وصيتَه لمعاذ رضي الله عنه بقوله: (فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ...)؛ أي: شهدوا وانقادوا وأذعنوا لأمر الله ونهيه.

وقد استدلَّ بعضُ أهل العلم على أن أهل الكتاب لم يكونوا يعرفون الله حقَّ معرفته، وإن كانوا يعبدونه ويُظهرون معرفتَه؛ وذلك لأنهم شبَّهوا اللهَ تعالى بخلقه، فكان معبودُهم الذي عبدوه ليس هو اللهَ تعالى، وإن سمَّوْه به[٢]؛ لأن مَنْ شبَّه اللهَ تعالى بخلْقه أو أضاف إليه الولدَ فهو جاهلٌ به سبحانه، ولم يَقْدُره حق قَدْره؛ لأنه سبحانه لا شبيهَ له، ولم يتَّخذ صاحبةً ولا ولدًا[٣].

ثم أمره ﷺ إذا استجابوا وأذعنوا لعبادة الله تعالى، أن يخبِرَهم أن الله افترض عليهم خمسَ صلوات في يومهم وليلتهم، فإن هم صلَّوْا، وأطاعوك على ذلك، فأخبِرْهم بأن الله افترض عليهم زكاةً في أموالهم.

قال ابن دقيق العيد: «يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المرادُ إقرارَهم بوجوب الصلاة عليهم والتزامهم لها، والثاني: أن يكون المراد الطاعة بالفعل، وقد يرجَّح الأول بأن المذكور هو الإخبارُ بالفريضة، فتعود الإشارةُ بذلك إليها، ويترجَّح الثاني بأنهم لو أُخبروا بالفريضة، فبادروا إلى الامتثال بالفعل لكفى، ولم يشترط التلفُّظ، بخلاف الشهادتين، فالشرط عدم الإنكار والإذعان للوجوب»[٤]. انتهى.

---

(١) نقلًا عن كتاب تيسير العزيز الحميد (ص١٠١).
(٢) انظر: فتح الباري (٣/ ٣٥٩).
(٣) من كلام شيخنا الوالد عبد العزيز بن باز في تعليقه على فتح الباري (٣/ ٣٥٩).
(٤) فتح الباري (٣/ ٣٥٩).

وقال الحافظ تعقيبًا على ذلك: «والذي يظهر: أن المرادَ القدرُ المشترك بين الأمرين، فمَنِ امتثلَ بالإقرار أو بالفعل كفاه، أو بهما فأولى، وقد وقع في رواية الفضل بن العلاء بعد ذكر الصلاة: (فَإِذَا صَلَّوْا)، وبعد ذكر الزكاة: (فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ، فَخُذْ مِنْهُمْ)»[(١)].

ثم أمره ﷺ إذا صلَّوْا وأقرُّوا بها أن يخبِرَهم بأنَّ الله افترض عليهم زكاةَ أموالهم، تُؤخَذُ مِنْ أغنيائهم فتُرَدُّ على فقرائهم.

ثم أمره إذا أقروا بفرْضِيَّة الزكاة أن يقبل منهم زكاةَ أموالهم، وأن يقوم بجمعها منهم، وأن يتجنَّبَ أخْيَر وأنْفَسَ أموالهم؛ لأن الزكاة إنما شُرعت لمواساة الفقراء، فلا يناسب ذلك الإجحافُ بمال الأغنياء إلا إن رَضُوا بذلك مِنْ غيرِ وجوب عليهم[(٢)].

ثم أوصاه أخيرًا بالابتعاد عن الظُّلم بأنواعه، لئلا يدعُوَ عليه المظلومُ؛ لأن دعوةَ المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

والنكتة في تذكير النبي ﷺ له بهذه الوصية عَقِبَ منعِه مِنْ أخذ كرائم أموالهم، لتنبيهه إلى أن أخذ الكرائم ظلم[(٣)]، فعليه أن يتَّقِيَ الله تعالى في كل أحواله، وأن يحذَرَ مما فيه ظلم للآخرين.

فواضح من هذا الحديث أن المربي ﷺ كان يأمر الدعاة بالتدرُّج في تعليم الناس ودعوتهم إلى الإسلام، وأن يبدؤوا معهم بالأهم فالأهم، وأن يتلطَّفوا في خطابهم مع مَنْ يدعونه؛ لأنهم لو طالبوا المدعُوَّ بجميع التكاليف في أول الأمر، لاستثقل ذلك، ولم تؤمَنْ عليه النُّفرة عن الدين[(٤)].

فينبغي للداعية إلى الله تعالى أن يتنبَّه لهذا المنهج النبوي في الدعوة إلى الله تعالى، فالخيرُ كلُّ الخيرِ في اتِّباع منهج النبي ﷺ، والشرُّ كلُّ الشر في مخالفته والإعراض عنه.

---

(١) انظر: فتح الباري (٣/ ٣٥٩، ٣٦٠).
(٢) انظر: فتح الباري (٣/ ٣٦٠).
(٣) انظر: فتح الباري (٣/ ٣٦٠).
(٤) انظر: فتح الباري (٣/ ٣٥٩).

المطلب الثالث

تربية النبي ﷺ أصحابَه على الصبر والتضحية والثقة بالتمكين دون تعجل النتائج

كان النبي ﷺ يربِّي أصحابَه على الصبر والتضحية في سبيل الله تعالى؛ فعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: مرَّ رسول الله ﷺ بياسرٍ وعمَّار وأم عمار، وهم يُؤْذَوْنَ في الله تعالى، فقال لهم ﷺ: (صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّةُ)(١).

ففي هذا الحديث ترى أن النبي ﷺ يمرُّ بياسرٍ وعمارٍ وأمِّ عمار وهم تحت العذاب الشديد من بعض كفار قريش بسبب أنهم آمنوا بالله ورسوله، وتبرَّؤوا من الجاهلية بكلِّ صورها وأشكالها، وطهَّروا قلوبهم مِنَ الشرك والتعلُّق بغير الله تعالى، وزيَّنوها بالتوحيد والتعلُّق بالله الواحد القهار، فاغتاظ المشركون من ذلك، فساوموهم على إيمانهم، فلم يستجيبوا لإغوائهم، وآثروا الإيمانَ على الكفر، فصبَّ المشركون عليهم عندئذٍ العذاب، ووقع الابتلاء على ياسرٍ وعمَّار وأم عمار وغيرِهم، وكان رسول الله ﷺ المربِّي العظيمُ لا يملك

---

(١) رواه أبو أحمد الحاكم من طريق عقيل، عن الزهري، عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه، كما في الإصابة في ترجمة ياسر العنسي ـ بالنون ـ ورقمها (٩٢٠٩)، (١٠/ ٣٣١)، وفي الاستيعاب في ترجمة ياسر، ورقمها (٢٨٢٢)، (١٠/ ١٠٠، ١٠١)، وهذا إسناد صحيح، وهو من مراسيل الصحابة. انظر: التهذيب (٥/ ١٧٠).

والخبر رواه ابن إسحاق في السير والمغازي مرسلًا، حيث قال: فحدثني رجال من آل عمار بن ياسر، في باب: من عُذِّب في الله بمكة من المؤمنين (ص١٩٢)، وهو في السيرة النبوية لابن هشام في ذكر عدوان المشركين على المستضعفين (١/ ٣٤٢).

ورواه الإمام أحمد من طريق عمرو بن مرة عن سالم عن عثمان (١/ ٦٢)؛ ورواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٨٨)، والطبراني في الأوسط من طريق أبي الزُّبير عن جابر، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح، غير إبراهيم بن عبد العزيز المقوم، وهو ثقة». المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، مناقب عمار بن ياسر (١/ ٣٨٨، ٣٨٩)؛ مجمع الزوائد، (٤٠)، كتاب المناقب، باب فضل عمار بن ياسر وأهل بيته (٩/ ٢٩٣).

أن يدفع عنهم شيئًا مما يقع عليهم في سبيل تمسُّكهم بدينهم، إلا أنه كان يذكِّرهم بعظيم الأجر الذي ينتظرهم عند الله تعالى على صبرهم واحتسابهم، فكان يقول لهم: (صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ)، وكانوا ﷺ مُوقِنين بما عند الله تعالى حقَّ اليقين، ولذلك صبروا واحتسبوا؛ لأن المربي العظيم ﷺ قد رباهم على أن الابتلاء سنةٌ جارية؛ كما علمه ربُّه ﷻ بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]، وقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، «وكل هذه الآيات المدنية السابقة، وأمثالها مما نزل بمكة جاءت لتثبيت قلوب المؤمنين، وتصبيرهم على ما كان ينالُهم من أذى المشركين»[١].

فعلى الداعية إلى الله تعالى أن يتفطَّن لهذا المقصِد العظيم، وهو الابتلاء، وأن طريق الجنة ليس مفروشًا بالورود، وإنما هو مفروشٌ بالمشاقِّ والدماء والدموع، فالجنةُ محفوفة بالمكاره، والنارُ محفوفةٌ بالشهوات؛ فلا بدّ من التهيُّؤ لهذا الأمر بالصبر والتضحية والاحتساب، واليقين بما عند الله تعالى للصابرين المتمسكين بدينهم، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

يقول أحد العلماء رَحِمَهُ اللهُ: «إن الصراعَ والصبرَ عليه يَهَبُ النفوسَ قُوةً، ويرفعها على ذواتِها، ويطهِّرها في بَوْتقة الألم، فيصفو عنصُرها ويضيء، ويَهَبُ العقيدة عمقًا وقوةً وحيوية، فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها،

---

(١) محاسن التأويل (١٣/ ٤٧٣٦، ٤٧٣٧) بتصرف.

وعندئذٍ يدخلون في دين الله أفواجًا كما وقع، وكما يقع في كل قضية حق، يلقى أصحابها ما يلقَوْن في أول الطريق، حتى إذا ثبتوا للمحنة، انحاز إليهم مَنْ كانوا يحاربونهم، وناصرهم أشدُّ المناوئين وأكبرُ المعاندين.

وعلى أنه ـ حتى إذا لم يقع هذا ـ يقع ما هو أعظمُ منه في حقيقته، يقع أن ترتفع أرواحُ أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها، وأن تنطلقَ مِنْ إسارِ الحرص على الدَّعة والراحة، والحرص على الحياة نفسها في النهاية. وهذا الانطلاق كَسْبٌ للبشرية كلِّها، وكسبٌ للأرواح التي تصل إليه عن طريق الاستعلاء، كَسْبٌ يُرجِع جميعَ الآلام وجميعَ البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون المؤتمَنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته، وهذا الانطلاق هو المؤهِّلُ لحياة الجنة في نهاية المطاف.. وهذا هو الطريق.. هذا هو الطريق كما يصفه الله للجماعة المسلمة الأولى، وللجماعة المسلمة في كل جيل، هذا هو الطريق: إيمان وجهاد، ومحنة وابتلاء، صبر وثبات، وتوجُّه إلى الله وحده، ثم يجيء النصر، ثم يجيء النعيم»[١].

وعن خبَّابٍ ﷺ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو متوسِّدٌ بُردةً وهو في ظلِّ الكعبة، وقد لقِينا مِنَ المشركين شدةً، فقلت: ألا تستنصرُ لنا؟! ألا تدعو لنا؟! فقعد وهو مُحْمَرٌّ وجهُه، فقال: (لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ المِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، مَا يَخَافُ إلا اللهَ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)، زاد بيان[٢]: (وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ)[٣].

---

(١) ظلال القرآن (١/٢١٩).

(٢) هو: بيان بن بِشْر الأحمسي الكوفي المعلم، أبو بشر؛ أحد رواة الحديث. انظر: ترجمته في تهذيب التهذيب (١/٥٠٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ من المشركين بمكة (٤/٢٨٨)، رقم الحديث (٣٨٥٢).

ففي هذا الحديث يربِّي النبي ﷺ أصحابَه على الصبر والتضحية في سبيل الله، بتذكيرهم بما كان يُعانيه ويقاسيه مَنْ كان قبلَهم مِنَ المؤمنين مِنْ صنوف العذاب الشديد؛ من تقطيع الأعضاء، ونشر اللحم بالمنشار، وغير ذلك من أنواع التعذيب، ويذكِّرهم كذلك بأن المستقبلَ لهذا الدين، وأن الله تعالى سيُتِمُّ هذا الأمرَ، حتى يسيرَ الراكب مِنْ صنعاءَ إلى حضرموتَ، لا يخاف إلا الله تعالى والذئبَ على غنمِه، فإنَّ الصحابيَّ الجليل خبَّابَ بن الأرتِّ ﷺ جاء إلى النبي المربي ﷺ يطلبُ منه الدعاءَ وطلبَ النصر من الله تعالى، وقد لاقَوْا مِنَ المشركين شدةً من العذاب والابتلاء بسبب كفرهم بالطاغوت وإيمانهم بالله ورسوله، وإن أسلوب الطلب: «ألا تدعو لنا؟! ألا تستنصر لنا؟!» يوحي باللَّهفة إلى التغيير، وتعجُّل التمكين، كما يوحي بما لاقاه الصحابة رضوان الله عليهم مِنْ شدَّةِ العذاب، وثِقَلِ الجهد، وحِدَّة البلوى التي أصابتهم بسبب تمسُّكهم بدينهم وترك عبادة الأوثان التي كان عليها الآباءُ والأجداد.

يقول بعض المفسرين عند قول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]: «هكذا خاطب الله الجماعةَ المسلمة الأولى، وهكذا وجَّهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلَها، وإلى سنَّته سبحانه في تربية عباده المختارين، الذين يكِلُ إليهم رايتَه، وينُوطُ بهم أمانتَه في الأرض ومنهجَه وشريعته، وهو خطابٌ مطَّردٌ لكلِّ مَنْ يختار لهذا الدور العظيم.

وإنها لتَجربةٌ عميقةٌ جليلة مرهوبة، إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه، من الرسول الموصول بالله، والمؤمنين الذين آمنوا بالله، إنَّ سؤالَهم: «متى نصر الله؟!» ليُصَوِّرُ مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة، ولن تكون إلا محنةً فوق الوصف، تُلْقي ظلالَها على مثل هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب: «متى نصر الله؟!» وعندما

تثبُت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة، عندئذٍ تتمُّ كلمةُ الله، ويجيء النصر مِنَ الله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾»[1].

فالصحابة رضوان الله عليهم ـ كما هو واضحٌ في حديث خبَّاب ـ كانوا يُفتَنون في دينهم، وكان المشركون يستغْلُون عليهم بالعذاب، وقد يموت منهم مَنْ يموت تحت العذاب؛ كياسرٍ وزوجِه رضوان الله عليهم. ولذا فإن بعضَهم تضايق مِنَ العذاب الذي صُبَّ عليهم من المشركين، فجاؤوا يشتكون إلى النبي ﷺ ويطلبون منه الدعاء لهم، وأن يُنزلَ اللهُ عليهم النصر، وأن يخرجَهم من هذه الشدة التي هم فيها.

لكن النبي ﷺ غضب حتى احمَرَّ وجهُه، وقعد مِنْ ضجعته، وخاطب الصحابةَ بأسلوب قويِّ التأثير، ثم عاتبهم بعد ذلك على الاستعجال؛ وما ذلك إلا لعلمه ﷺ بأن الأمورَ مرهونةٌ بأسبابها ومرتبطةٌ بأوقاتها، وأنه لا بدَّ قبل النصر من دفع الثمن كاملًا. وفي هذا تربية لهم على الصبر والتحمُّل وعدم العَجلَة، وأنه لا بدَ مِنَ الابتلاء، ولا بدَ مِنَ الصبر الطويل مع اليقين الكامل بوعد الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠].

وكما جاء في الحديث الصحيح: **«أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الصالحون، ثم الأمثلُ فالأمثل، يُبتلى الرجلُ على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلابةٌ اشتدَّ بلاؤُه، وإن كان في دينه رِقَّةٌ ابتُليَ على قدْر دينه، فما يبرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يترُكَه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»**[2].

فربى النبيُّ ﷺ أصحابَه على التأسِّي بالسابقين في تحمُّل الأذى في سبيل الله تعالى، والتعلُّق بما أعده الله تعالى لعباده الصابرين في الجنة من النعيم المقيم، والإيمان بما أعده للكافرين الذين يُؤذون المؤمنين في النار

---

(١) ظلال القرآن (١/ ٢١٨ ـ ٢١٩).

(٢) رواه الترمذي في كتاب الزهد. وقال: «هذا حديث حسن صحيح» (٤/ ٥٢٠)؛ ورواه أحمد في مسنده (١/ ١٧٢)؛ وابن ماجه في كتاب الفتن (٢/ ١٣٣٤).

مِنَ العذاب الأليم، والتطلُّع للمستقبل الذي ينصر الله فيه الإسلام وأهلَه في هذه الحياة الدنيا، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، والذِّلَّة والصَّغار لأهل الشِّرك والعصيان[١].

«وثمَّةَ أمرٌ آخرُ كبيرٌ؛ ألا وهو: أنه ﷺ مع هذه الأشياء كلِّها كان يخطط ويستفيد مِنَ الأسباب المادية المتعددة لرفع الأذى والظلم عن أتباعه، وكفِّ المشركين عن فتنتهم، وإقامةِ الدولة التي تجاهد في سبيل الدين، وتُتيحُ الفرصةَ لكلِّ مسلم أن يعبُدَ ربَّه حيث شاء، ويزيلَ الحواجز والعَقَبات التي تعترض طريقَ الدعوة إلى الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، فالمسلم يعبد الله بالصبر والتحمُّل، ويعبده باتِّباع كل الوسائل المؤدِّية - بإذن الله - إلى دفع الغُربة عن المؤمنين، ورفعِ الضُّرِّ عن المستضعَفين»[٢].

فعلى الداعية أن يعبُدَ الله تعالى بالصبر الجميل، وأن يتحمَّلَ الأذى في سبيل الله تعالى والدعوة إليه، وأن يعبُدَه كذلك باتخاذ الأسباب والوسائل المشروعة التي تؤدي إلى دفع الأذى والمشقَّة عن الأتباع، والحيلولة دون ذلك ما أمكن.

ولنعتبر - معاشرَ المؤمنين - مِنْ هذا الحديث العظيم؛ فإنه يحكي حالَ قوم تحمَّلوا المشاقَّ وأصناف العذاب ليبقى لهم إيمانُهم في قلوبهم، ولكي يُوصلوا هذا الإيمان وهذه الدعوة المباركة إلى أمم الأرض كلِّها.

ثم إنه مِنَ المؤسف جدًّا أن نرى بعض مسلمي عصرنا قد باعوا ذلك الإيمانَ العزيز للشيطان بأبخس الأثمان؛ مِنْ شهوةٍ طائشة، أو منصبٍ زائل، أو كلمة جوفاءَ، أو مالٍ حقير، فيا لها مِنْ صفقة[٣].

وعن عديِّ بن حاتم، قال: «بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل، فشكا إليه الفاقةَ، ثم أتاه آخر، فشكا إليه قَطْعَ السبيل، فقال: (**يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ**

---

(١) انظر: الغرباء الأوَّلون (ص١٤٥، ١٤٦). (٢) الغرباء الأولون (ص١٤٦).
(٣) انظر: التفسير السياسي للسيرة د. محمد رواس قلعجي، (ص٦٥).

الحِيرَةَ؟) قلت: لم أرها، وقد أُنبئتُ عنها، قال: (فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ[1] تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ، لَا تَخَافُ أَحَدًا إلا اللهَ)، قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّار طيِّئ الذين قد سَعَّروا البلاد؟ (وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى). قلت: كسرى بن هُرمز؟! قال: (كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ). قال عديٌّ: سمعت النبي ﷺ يقول: (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّ تَمْرَةٍ، فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ). قال عدي: فرأيت الظعينةَ ترتحل مِنَ الحيرة حتى تطوفَ بالكعبة، لا تخاف إلا الله، وكنت فيمنِ افتتحَ كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياةٌ، لتَرَوُنَّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: (يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ)[2].

ففي هذا الحديث يغتنم النبي ﷺ الفرصةَ في تربية أصحابه رضوان الله عليهم على التطلُّع للمستقبل الذي ينصُرُ اللهُ فيه الإسلامَ في هذه الحياة الدنيا ويُذِلُّ فيه أهلَ الشرك والعصيان.

فبينما النبي ﷺ جالس بين أصحابه وفيهم عديُّ بن حاتم ﷺ، إذ أتاه رجلان من المسلمين، فشكا أحدُهما إليه الفقرَ وشَظَفَ العيش، وشكا إليه الآخرُ شدةَ الخوف وقَطْعَ الطريق وعدم الأمن.

---

(١) الظعينة: المرأة في الهودج، وهو في الأصل اسمٌ للهودج. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٥٧).

(٢) رواه الإمام البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٤/ ٢١٢)، رقم الحديث (٣٥٩٥).

فلمَّا رأى النبيُّ ﷺ أن شكوى الرجلين قد تُدْخِلُ الحزن إلى قلوب الحاضرين، اغتنمها فرصةً، فجعل الحديثَ عن المستقبل القريب للإسلام الذي يبدلُ الحزنَ سرورًا، والجَزَعَ فرحًا، والخوف أمنًا، فسبحان مَنْ ألهمه الحكمة والسَّدادَ، فَوَجَّه الخطاب إلى عدي بن حاتم رضي الله عنه، وبقيةُ الصحابة يسمعون ما يدور في المجلس.

فقال ﷺ لعدي: (**فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ، لَا تَخَافُ أَحَدًا إلا اللهَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى بْنُ هُرْمُزٍ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ**)؛ لعدم وجود الفقراء في ذلك الزمان، فقال عدي رضي الله عنه: فرأيت الظعينة ترتحلُ من الحيرة حتى تطوفَ بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ثم قال رضي الله عنه: ولئن طالت بكم حياةٌ لترَوُنَّ ما قاله النبي أبو القاسم ﷺ: (**يُخرج الرجل مِلْءَ كفِّه**).

وقد وقع هذا الأمر الذي لم يرَه عديٌّ رضي الله عنه في عهد الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، كما جزم بذلك الإمامُ البيهقي؛ فقد أخرج في «الدلائل» من طريق يعقوب بن سفيان[1] بسنده إلى عمر بن أُسيد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب، قال: «إنما وَلِيَ عمرُ بنُ عبد العزيز سنتين ونصفًا: ثلاثين شهرًا، لا والله ما مات حتى جعل الرجلَ يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرَحُ حتى يرجِعَ بماله يتذكر مَنْ يضعُه فيهم، فلا يجدُه، فيرجع بماله قد أغنى عمرُ بن عبد العزيز الناسَ»[2].

---

(١) هو يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي، أبو يوسف الفسوي الحافظ، صاحب التصانيف المشهورة، روى عن أحمد بن عبد الله بن يوسف، وآدم بن أبي إياس، روى عنه الترمذي والنسائي وأبو بكر بن أبي داود.
تهذيب الكمال (٣٢/ ٣٢٤).

(٢) دلائل النبوة للإمام البيهقي (٦/ ٤٩٣).

قال البيهقي: «فيه تصديق ما روينا في حديث عدي بن حاتم»[١]. انتهى.

هكذا كان يربِّي النبيُّ ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم على التطلُّع للمستقبل، وأن الله سينصر دينَه وجنده، وأن الأحوال لن تبقى على حالة واحدة، من الفقر والخوف بسبب تفشِّي الشرك وتغلُّب الجاهلية، وإنما سيتغير الحال من هذه الحال البائسة التي شكا منها الرجلان إلى حالٍ ينتشر فيها الإسلام، ويعُمُّ فيها الخيرُ، ويسود فيها الأمن والاستخلاف، فما عليهم إلا أن يصبروا على كل ما يلاقونه في سبيل إيمانهم وتمسُّكهم بدينهم، وأن يثبُتوا عليه حتى يأتيَ نصر الله، وهو آتٍ لا محالةَ.

وعليهم كذلك أن يبذُلوا جهدهم في إقامة حكم الله تعالى في أرضه، وأن ينشروا دعوته في الآفاق، ثم ينتظروا وعد الله تعالى بالنصر والتمكين.

وبالفعل نصر الله دينه، واستخلَف المسلمين الأوائلَ في الأرض، ومكَّن لهم دينَهم الذي رضيه لهم سبحانه، وبدَّل خوفهم أمنًا، حينما وَفَّوْا بالشرط الذي اشترطه الله عليهم، وهو عبادتُه وحده لا شريك له، كما قرر ذلك في كتابه سبحانه بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

«في هذه الآية مِنَ الدلالة على صحة النبوة للإخبار بالغيب على ما هو عليه قبل وقوعه ما لا يخفى، فقد أنجز الله وعده، وأظهرهم على جزيرة العرب، وافتتحوا بعدُ بلادَ المشرق والمغرب، ومزَّقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم، واستولَوْا على الدنيا، وصاروا إلى حالٍ يخافهم كلُّ مَنْ عداهم»[٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

---

(١) دلائل النبوة للإمام البيهقي (٦/ ٤٩٣). (٢) محاسن التأويل للقاسمي (١٢/ ٤٥٤٦).

إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

يقول الأستاذ محمد قطب حفظه الله تعالى: «ومقتضى هذه السُّنن كلِّها أن الله قد تكفَّل للمؤمنين بالاستخلاف والتمكين في الأرض والتأمين مقابل شرطٍ واحدٍ: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، وقد تحقَّق هذا الوعدُ بالفعل للمسلمين - بصورة تاريخية باهرة - طالما كانوا على الشرط الذي اشترطه الله عليهم.

وقد اقتضت سنةُ الله (الواردة في قصة إبراهيم عليه السلام) أن العهد الربَّانيَّ لا يُنال بوراثة الدم، إنما بوراثة العقيدة؛ أي: بالاستمرار في العمل بها في واقع الحياة، فإذا انحرفت الذُّرية، وظلمت، فإن الله لا يُحابيها لمجرَّد كونها ذريةَ قومٍ مؤمنين، لا بدّ أن تكون هي بذاتها مؤمنةً بالفعل ليتحقَّقَ لها العهدُ، ولكن عهد الله لا ينال الظالمين، ولو كانوا مِنْ ذرِّية قومٍ مؤمنين، وقد تحقَّقت سنةُ الله - بلا مجاملة - مع المسلمين حين انحرفوا عن طريق الله، فزال عنهم رويدًا رويدًا الاستخلافُ والتمكين والتأمين، حتى إذا وصلوا إلى حدٍّ أن يوصفوا بأنهم ﴿خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ - وهو واقع «المسلمين» اليوم - فقد زال عنهم تمامًا كلُّ استخلاف وتمكين وتأمين، وصاروا إلى الغُثاء الذي تتداعى عليه الأمم لِتَفْتِكَ به كما تتداعى الأَكَلَةُ إلى قَصعتها؛ كما حَدَّث الرسولُ ﷺ»[1]. انتهى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «احتفر رسولُ الله ﷺ الخندقَ، وأصحابه

(١) دراسات قرآنية (ص٥٠١، ٥٠٢).

قد شَدُّوا على بطونهم مِنَ الجوع، ثم مَشَوْا إلى الخندق، فقال: اذهبوا بنا إلى سلمانَ، وإذا صخرةٌ بين يديه قد ضَعُفَ عنها، فقال النبي ﷺ لأصحابه: (دَعُونِي فَأَكُونَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَهَا)، فقال: (بِاسْمِ اللهِ)، فضربها، فوقعت فِلْقَةٌ ثلثها، فقال: (اللهُ أَكْبَرُ! قُصُورُ الرُّومِ وَرَبِّ الكَعْبَةِ!)، ثم ضربها فوقع ثلثها، فقال: (اللهُ أَكْبَرُ! قُصُورُ فَارِسَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ!)، فقال عندها المنافقون: نحن بخندق وهو يعِدُنا قصورَ فارس والروم[1].

وفي هذا الحديث يبشر النبي ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم بأن الله سيفتح لهم فارسَ والروم؛ بشَّرهم بذلك في وقت قد بلغ الخوفُ في قلوبهم مداه، وتكالبت عليهم أحزاب الكفر والنفاق، وكان الواحدُ منهم لا يأمَنُ على نفسه من شدة الرعب ومن شدة الجوع كذلك، وما ذلك إلا تربية لهم على الصبر والثبات، وأن المستقبلَ لهذا الدين مهما انتفش الباطل، وعلا جَبَرُوت الكفر والطغيان؛ وفي هذا رفعٌ لمعنوياتهم رضوان الله عليهم.

فهذا هو رسول الله ﷺ يأخذ المِعْوَلَ، ويضرب تلك الصخرة التي استعصت على سلمانَ الفارسي رضي الله عنه وهم يحفرون الخندق، فسمَّى الله تعالى، وضرب الصخرة، فوقع ثُلُثها على الأرض، فقال ﷺ: (اللهُ أَكْبَرُ، قُصُورُ الرُّومِ وَرَبِّ الكَعْبَةِ)، ثم ضربها مرة أخرى، فوقع الثلث الآخر، فقال: (اللهُ أَكْبَرُ، قُصُورُ فَارِسَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ).

فالمربي العظيم ﷺ يلفِت أنظار أصحابه إلى أن يتطلَّعوا للمستقبل القريب، وأن الله سينصر دينه ويُعِزُّ حزبه، ويُعلي كلمته؛ وفي هذا تسرية عن نفوسهم وإدخالُ السرور إلى قلوبهم، وتخفيف مما هم فيه من الرعب والجوع، وأنَّ عليهم أن يبذُلوا جهدهم، ويأخذوا بالأسباب التي أُمروا باتخاذها، وأن يصبروا ويحتسبوا، فإن النصر قريب، وكلُّ ما هو آتٍ قريب بإذن الله تعالى؛ ومِنْ ثَمَّ اطمأنت نفوس الصحابة رضوان الله

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (٦/ ١٣١، ١٣٢)، وقال: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبري، وهما ثقتان».

عليهم، وأيقنوا بما وعدهم به رسولهم ﷺ، وصدَّقوا بكل ما أخبرهم به.

أما المنافقون، فكانوا على عكس حال المؤمنين؛ متشككين في وعده ﷺ، غيرَ موقنين بأن المستقبل لهذا الدين؛ ولذا قالوا كلمة الكفر: نحن بخندق وهو يعدنا قصورَ فارسَ والرومِ.

ولقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ وفتح الله للمسلمين فارسَ والروم بعد وفاته ﷺ وفي هذا تربية منه ﷺ للصحابة رضوان الله عليهم، ولِمَنْ تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين على أنَّ النصر مرتبط بالسُّنن الإلهية الأزلية، وأن الأمور مرهونةٌ بأوقاتها وأسبابها، وأنه لا بدّ قبل النصر من دفع الثمن كاملًا، ولو كان الرسول ﷺ موجودًا، فليست المسألةُ ربطَ الفتوحات بشخص رسول الله ﷺ، وإنما لا بد من أن يبرهن المؤمنون على صِدْق إيمانهم، وأن يحقِّقوا ما أبرموه مع ربهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: ١١١][1].

* فلا بدّ من المثابرةِ على الدعوة إلى الله تعالى، والصبرِ الطويلِ الذي لا عَجلَة فيه، واليقينِ التَّامِّ بوعد الله ورسوله، وأن المستقبل للإسلام، وأن نُحسن التأسِّي بالرسول ﷺ في التعلُّقِ بالله تعالى، والاعتمادِ عليه، واتخاذ الأسباب المشروعة لتحقيق المطلب المراد، وهو إعلاءُ كلمة الله تعالى، وإقامة العدل الربَّاني في أنفسنا، وفي أرض الله تعالى جميعًا.

* «فالإيمان ليس كلمةً تقال، إنما هو حقيقةٌ ذاتُ تكاليفَ، وأمانةٌ ذات أعباءٍ، وجهادٌ يحتاج إلى صبر، وجهدٌ يحتاج إلى احتمال؛ فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا، وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرَّضوا للفتنة، فيثبُتوا عليها، ويخرجوا منها صافيةً عناصرُهم، خالصةً قلوبُهم، كما تَفْتِنُ النارُ الذهبَ لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به - وهذا هو أصل

---

(١) انظر: منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية للشيخ علي بن جابر الحربي (ص٣٥٨).

الكلمة اللغوي وله دلالته وظِلّه وإيحاؤه - وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب، هذه الفتنة على الإيمان أصلٌ ثابتٌ، وسنةٌ جاريةٌ في ميزان الله سبحانه؛ لأن الإيمان أمانة الله في الأرض، لا يحملها إلا مَنْ هم لها أهلٌ، وفيهم على حملها قدرةٌ، وفي قلوبهم تجرُّدٌ لها وإخلاص، وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدَّعَةِ، وعلى الأمن والسلامة، وعلى المتاع والإغراء، وإنّها لأمانةُ الخلافة في الأرض، وقيادةُ الناس إلى طريق الله، وتحقيق كلمته في عالم الحياة، فهي أمانة كريمة، وهي أمانة ثقيلة، وهي مِنْ أمر الله يضطلع بها الناسُ، ومِنْ ثمَّ تحتاج إلى طراز خاصٍّ يصبر على البلاء.. وما بالله - حاشا الله - أن يعذِّبَ المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذِيهَم بالفتنة، ولكنه الإعدادُ الحقيقيُّ لتحمُّل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعدادٍ خاصٍّ لا يتمُّ إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه، على الرغم من طول الفتنة، وشدة الابتلاء»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج علينا النبيُّ ﷺ يومًا، فقال: (**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ...**)[2].

* وفي هذا الحديث يبين النبي ﷺ لأصحابه مهمة الداعية إلى الله تعالى، ويربِّيهم على ذلك، وأن مهمةَ الداعية إلى الله تعالى البلاغُ والدعوةُ إلى دين الله تعالى، وتبصيرُ الناس، وتوضيحُ الطريق المستقيم لهم، وأما دخول الناس في الدين، وانشراحُ صدورهم للإسلام، فهذا أمر، قد تكفَّل الله به.

---

(١) انظر كتاب: طريق الدعوة (ص٢٢٣).

(٢) جزء من حديث رواه البخاري، كتاب الطب، في باب من لم يرق (٧/ ٣٤)، رقم الحديث (٥٧٥٢).

ومسلم كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (١/ ١٩٩)، رقم الحديث (٢٢٠).

فالنبي ﷺ يقول لأصحابه: (عُرضت عليَّ الأمم)، فرأى ﷺ الأنبياءَ وأتباعَهم، فكانوا يتفاوتون في عدد أتباعهم، فرأى النبيَّ وما تبِعَه إلا رجلٌ واحد من أمته، ورأى نبيًّا آخر وما تَبِعَه إلا رجلان من أمته، ورأى ثالثًا وقد استجاب له ما دون العشرة مِنْ قومه، ومرَّ على رابع، ولم يستجِبْ له أحدُ.

فيا سبحان الله! ما الذي جرى؟! هل قَصَّرَ ذلك النبيُّ في دعوته؟

حاشا وكلّا؛ فإن الأنبياء جميعًا لم يقصّروا في دعوتهم، وفي بيان الحق لأقوامهم، فقد بذلوا جهدهم في البلاغ والدعوة إلى التوحيد، وما من خير إلا ودلَّ كلُّ نبي أمتَه عليه، وما مِنْ شرٍّ إلا وحذَّر أمتَه منه، فكل أنبياء الله تعالى قد أدَّوا الأمانة، ونصحوا الأمةَ، وكشفوا الغُمةَ، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، ولم يفرِّطوا في البلاغ والدعوة إلى الله تعالى، وكان المستجيبُ لهم أقلَّ القليل، وقد أعظم اللهُ لهم الأجرَ والمثوبة، ورضي عنهم سبحانه؛ لأنه تعالى لم يجعلِ الأجرَ مرتبطًا بكثرة الأتباع وقلّتِهم، ولم يجعل ذلك معيارًا لمعرفة كون الداعية على حق أو باطل، وإنما جعل مناطَ الأجر والمثوبة في بذل الوُسع، والاجتهاد في البلاغ والتربية، واغتنام الفرص في البيان، وترغيب الناس إلى الهداية، ثم إن نتيجة هذا العمل قد تكفَّل الله بها؛ فهي خصوصية من خصوصيته سبحانه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

«فأخرج هذا الأمر ـ أمر الهداية ـ مِنْ حصَّة رسول الله ﷺ وجعله خاصًّا بإرادته سبحانه وتقديره، وما على الرسول إلا البلاغ، وما على الداعين بعده إلا النصيحة، والقلوبُ بعد ذلك بين أصابع الرحمٰن، والهُدى والضلال وَفْقَ ما يعلمُه مِنْ قلوب العباد واستعدادهم للهدى أو للضلال».

وعلى هذا الأمر العظيم ربَّى النبي ﷺ أصحابه، وبيَّن أن مهمتَهم

الدعوةُ والبلاغُ، وأنَّ كلَّ داعية إنما هو بمثابة الأجير عند الله تعالى، يأخذ أجرَه إذا انتهى من عمله وأخلص فيه.

«ولا شك أن الحركة بهذا الدين في واقع الحياة هي من أعظم أسباب احتفاظ الداعية بإيمانه، بل مِنْ أعظم أسباب نماء الإيمان وزيادته، وتعمُّقه في القلب، ومخالطته لذرَّات النفس؛ ذلك أن الداعي الذي جعل همَّه دعوةَ الناس إلى هذا الدين سوف تتكيَّف مشاعرُه مع دعوته، فيحزن من أجل دعوته، ويفرح من أجلها، ويغضب ويرضى، ويحبُّ ويكره من أجلها، فتصطبغ روحُه ومشاعرهُ بهذه الدعوة، وتصبح دعوتُه جزءًا لا يتجزأ من حياته وشخصيته وتكوينه، وهذه ضمانة قوية للصبر والثبات على هذا الدين»[1].

ويقول أحد العلماء: «فلا يكفي أن يجاهد المؤمنون، إنما هو الصبر على تكاليف هذه الدعوة أيضًا، التكاليفُ المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان، فربما كان الجهادُ في الميدان أخفَّ تكاليفِ هذه الدعوة التي يُطلَبُ لها الصبرُ، ويُختبر بها الإيمانُ، إنما هنالك المعاناة اليومية التي لا تنتهي: معاناة الاستقامة على أُفق الإيمان، والاستقرارِ على مقتضياته في الشعور والسلوك، والصبرِ في أثناء ذلك على الضعف الإنسان في النفس وفي الآخرين، ممن يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية، والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطلُ، وينتفش ويبدو كالمنتصر، والصبر على طول الطريق، وبُعْدِ الشُّقَّة، وكثرة العَقَبات، والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال، والصبر على أشياءَ كثيرةٍ ليس الجهادُ في الميدان إلا واحدًا منها، في الطريق المحفوف بالمكاره، طريق الجنة التي لا تُنال بالأمانيِّ وبكلمات اللسان»[2].

---

(١) الغرباء الأولون (ص١٣٤).

(٢) طريق الدعوة (١/ ٢٠٧).

المطلب الرابع

تكليفه ﷺ أصحابَه حسب قدراتهم ومواهبهم

كان رسول الله ﷺ يراعي مواهبَ أصحابه وقدراتِهم رضوان الله عليهم، وينمّيها، ثم يكلِّفُ كلَّ فردٍ منهم بالعمل الذي يراه مناسبًا له حسب قدرته وطاقته ومواهبه؛ فقد راعى ﷺ في تكليفه بالمهمات الإدارية ومواقف البطولة ذوي الخبرة والقدرة؛ أمثال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فإنه عندما اجتمعت قريشٌ في دار الندوة، وأجمعوا على قتل النبي ﷺ والتخلُّص منه، أوحى الله تعالى لنبيه ﷺ بذلك، فأمر عليَّ بن أبي طالب أن ينام في فراشه تلك الليلة[1]، والأعداءُ قد أحاطوا بالبيت يتربَّصون به ليقتلوه، فنام رضي الله عنه في فراش رسول الله في مضجعه، فلربما يقتلونه ظنًّا منهم أنه رسولُ الله ﷺ؛ فلا يُقْدِمُ على ذلك إلا أبطالُ الرجال وشجعانُهم، ولهذا وقع اختيار رسول الله ﷺ لهذه المهمة الشاقة على علي بن أبي طالب، وكلَّفه بهذه المغامرة عن معرفة ودراية لمواهبه وقدراته رضي الله عنه.

* وأمره أيضًا بأن يقوم بالأعمال الإدارية نيابةً عنه ﷺ، فأمره بأن يقيم بمكةَ أيامًا لكي يؤدِّي الأماناتِ والودائعَ والوصايا التي كانت عنده ﷺ إلى أصحابها من أعدائه المشركين كاملةً غيرَ منقوصةٍ[2].

وهذا مِنْ أعظم العدل الذي أمر الله به نبيه ﷺ والمؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

* واختار رسول الله ﷺ عليًّا رضي الله عنه يوم خيبر لحمل الراية، فقال ﷺ: **(لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ)**، فبات الناس يدوكون أيهم يُعطاها، فلما أصبح الناس، غدَوْا

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٨٢).

(٢) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص١١٦).

على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: (أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟)؛ فقالوا: يا رسول الله، هو يشتكي عينه، قال: (فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ)، فأُتِيَ به، فبصق رسول الله ﷺ في عينه، ودعا له، فبَرَأ حتى كأنْ لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية(١).

واختار يومَ الأحزاب حذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه ليدخلَ بين صفوف الأعداء، ويأتيَ بخبر القوم؛ عن الأعمش بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، قال: كنا عند حذيفةَ، فقال له رجل: لو أدْرَكْتُ رسول الله ﷺ قاتلتُ معه وأبليتُ، فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟! لقد رأيتُنا مع رسول الله ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدةٍ وقُرٌّ، فقال رسول الله ﷺ: (أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ يَكُونُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!) فلم يُجِبْه منا أحدٌ، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله، ثم قال: (يَا حُذَيْفَةُ، قُمْ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ) فلم أجِدْ بُدًّا - إذ دعاني باسمي - أن أقومَ، فقال: (ائْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ). فمضيتُ كأنما أمشي في حمَّامٍ حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يُصْلِي ظهرَه بالنار، فوضعتُ سهمًا في كبدِ قوسي، وأردت أن أرميَه، ثم ذكرتُ قولَ النبي ﷺ: (لَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ) - ولو رميته لأصبته - فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ، فأصابني البردُ حين رجعت وقرَرْتُ، فأخبرت رسولَ الله ﷺ، وألبسني مِنْ فضل عباءةٍ كانت عليه يُصَلِّي فيها، فلم أبرح نائمًا حتى الصبح، فلما أن أصبحتُ قال رسول الله ﷺ: (قُمْ يَا نَوْمَانُ)(٢).

«فكان اختيارُ حذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه لهذه المهمة الشاقة والخطيرة، وفي ذلك الجو المتأزِّم، شديدِ البلاء، عظيم المحن، وإذ كادت تميلُ فيه

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٥/ ٩٠)، رقم الحديث (٤٢١٠).
ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٤/ ١٨٧١)، رقم الحديث (٢٤٠٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (٣/ ١٤١٤)، رقم الحديث (١٧٨٨).

نفوسُ الصحابة إلى ما لم يكن مِنْ أخلاقها ـ كان اختيارًا عن علم مِنْ رسول الله ﷺ بقدرات ومواهب حذيفةَ ﷺ، فلقد اجتمعت فيه صفاتُ الفدائيِّ المغامر العليم بمهمته، ودخل بين الأحزاب، في شدة الظلام، وشدة البرد، دخولَ الفدائي الذي تكتنفه المخاطرُ مِنْ جميع الجهات، وهو لا يبالي؛ فكان ثابتَ اليقين، راسخَ الإيمان، زكيَّ الفؤاد، متماسكَ الشخصية، خبيرًا بتصرُّف الأمور إذا تأزمت، سريعَ البادرة، حاذقَ الرأي؛ وهذه هي الصفاتُ التي يجب أن تتوافر في الأفراد والجماعات الذين يكونون موضعَ الثقة الخاصة للقيادة عند اشتداد الأزمات، واستحكامِ الأخطار»[١]؛ ولهذا كان حذيفة ﷺ صاحبَ سِرِّ رسول الله ﷺ.

كما راعى ﷺ في تكليفه بالمهمات البيانية والرد على الهاجين، ذوي الخبرة والمهارة في هذا الباب؛ أمثال عبدِ الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك.

قال الإمام ابن سيرين: «كان شعراءُ رسول الله ﷺ: عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك... فكان حسان وكعب يعارضان المشركين بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، وكان ابنُ رواحة يعيِّرهم بالكفر، وينسُبهم إليه، فلما أسلموا وفقُهوا، كان أشدَّ عليهم»[٢].

وعن أنس ﷺ قال: دخل النبي ﷺ مكةَ في عمرة القضاء، وابنُ رواحة بين يديه يقول [من مجزوء الرجز]:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ
وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

---

(١) محمد رسول الله (٤/ ١٩٧) بتصرف.

(٢) انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (٢/ ٢٣٠).

فقال عمر رضي الله عنه: يا ابن رواحة، في حرم الله وبين يدي رسول الله تقول الشعر؟ فقال النبي ﷺ: (خَلِّ يَا عُمَرُ، فَهُوَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ)، وفي لفظ: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَكَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ)(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: (اهْجُهُمْ - أو هَاجِهِمْ - وَجِبْرِيلُ مَعَكَ)(٢).

وراعى ﷺ في تكليفه بالمهمة الحربية الأصلحَ منهم في هذا الباب، فكان يستعمل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص على الحرب منذ أسلما، ويقدِّمُهما في ذلك على كثير ممن هم أسبقُ منهما في الإسلام؛ فعن حيان بن أبي جَبَلَة، عن عمرو بن العاص، قال: «ما عدل بي رسولُ الله ﷺ، وبخالد أحدًا في حربه منذ أسلمنا»(٣).

هكذا كان ﷺ يستفيد من إمكانات أصحابه ومواهبهم، ويربِّيهم على تنميتها، فكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ويكلِّف كُلًّا بما يُحسنه، ويكون أهلًا لذلك التكليف، وفي المقابل كان ﷺ شديدَ الحذر من وضع الأمور في غير مواضعها، وإنما كان يعطيها مَنْ رآه كفئًا لها قادرًا عليها، غيرَ حريص على الوصول إليها، فكان يقول ﷺ لأبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه: (يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى

---

(١) إسناده قوي، أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر (٢٨٥١)، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».
وأخرجه النسائي في الحج، باب إنشاد الشعر في الحرم والمشي بين يدي الإمام (٥/ ٢٠٢)، وصححه ابن حبان (٢٠٢٠، ٢٠٢١)؛ وقال الحافظ في الإصابة (٦/ ٨٠): «أخرجه أبو يعلى بسند حسن»؛ وانظر: سيرة ابن كثير (٣/ ٤٢٨ - ٤٣٣)؛ وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٣٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه (٤/ ١٩٣٣)، رقم الحديث (٢٤٨٦).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٥٠)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، والكبير ورجاله ثقات. وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦٩)، والفتاوى (٢٨/ ٢٥٥).

اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ)[١]، وفي رواية: (يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ القِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا)[٢].

ففي هذا الحديث ينهى رسول الله ﷺ أبا ذر رضي الله عنه عن تولِّي الإمارة، ولو في أضعف صورة منها؛ كالإمارة على اثنين في سفر، أو على مالِ يتيم؛ وما ذلك إلا لعلمه ﷺ بقدرات أبي ذر رضي الله عنه ومواهبِه، وأنه ضعيفٌ عن حمل هذه الأمانة؛ ولذا نهاه ﷺ بذلك الخطاب المليءِ بالشَّفقة والمحبَّة والرحمة، حرصًا عليه من الوقوع في الإثم بسبب الإخلال والتقصير إذا تحمَّل أمرًا لا يستطيع القيام به، ومراعاةً لحقوق الناس حتى لا تضيعَ بتولية من ليست عنده القُدرةُ على القيام بتلك المهمة[٣].

وكذلك كان ﷺ لا يعطي الولايةَ لمن سألها، أو كان حريصًا عليها، ولذا كان يحذِّرُ ﷺ أصحابَه مِنْ طلب الإمارة، أو الحرص عليها؛ فقد قال ﷺ لعبد الرحمن بن سَمُرَة: (يَا عَبْدَ الرَّحْمٰنِ، لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا)[٤].

ومنع ﷺ الأشعريَّيْنِ اللذَيْن طلبا منه أن يؤمِّرَهما، وقال لهما: (إِنَّا وَاللهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا العَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ، وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ)[٥].

---

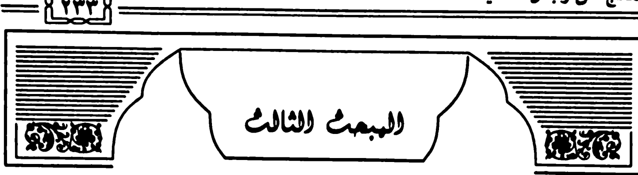
(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة (٣/ ١٤٥٧)، رقم الحديث (١٨٢٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمام بغير ضرورة (٣/ ١٤٥٧)، رقم الحديث (١٨٢٥).

(٣) انظر: معالم الدعوة في قصص القرآن لعبد الوهاب لطف الديلمي (٢/ ١٠٦٥).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب من سأل الإمارة وكل إليها (٨/ ١٣٥)، رقم الحديث (١٧٤٧).
ورواه مسلم، في كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها (٣/ ١٤٥٦)، رقم الحديث (١٦٥٢).

(٥) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة (٨/ ١٣٦)، رقم الحديث (٧١٤٨).
ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها (٣/ ١٤٥٦)، رقم الحديث (١٧٣٣).



نماذج من رجال العقيدة

أخرجت لنا تربية النبي ﷺ لأصحابه جيلًا فريدًا في تاريخ البشرية كلِّه؛ فكان منهم خيرُ أمة أُخرجت للناس، رجالٌ تمثَّل فيهم الاعتقاد الصحيح والفِكر السديد، والأخلاقُ العالية الحميدة، وقد شهد له هؤلاء الأصحاب بالجهد المبارك الذي بذله في تربيتهم وتعليمهم حتى أصبحوا مصابيحَ هدايةٍ، ومشاعلَ نورٍ لمن جاء بعدَهم.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى(١):

«وقد شهدت له أمتُه بإبلاغ الرسالة، وأداءِ الأمانة، واستنطقهم بذلك، في أعظم المحافل في خطبته يوم حَجَّةِ الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحوٌ مِنْ أربعين ألفًا كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذٍ(٢): (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟) قالوا: «نشهد أنك قد بلَّغت وأدَّيت ونصحت. فجعل يرفع أصبعه إلى السماءِ ويُنَكِّسها إليهم، ويقول: (اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ)».

فكان الصحابةُ ﷺ - بحقٍّ - نماذجَ رفيعةً في إيمانهم وسلوكهم، وجميعِ تصرفاتهم، وكذلك في ثباتهم على الحق الذي ربَّاهم عليه المربِّي العظيمِ الهادي إلى صراط الله المستقيم عليه أفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم، حتى قدَّموا أرواحهم رخيصةً هيِّنةً في سبيل الله تعالى؛ شوقًا لِمَا أعدَّه الله تعالى لأحبابه الشهداء في سبيله، وما ذلك إلا نتيجةً لتربية النبي الكريم

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب (٢/ ٨٩٠)، رقم الحديث (١٤٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٧).

- عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - لهم، وإعدادِهم إعدادًا قويًا راسخًا شاملًا للنفس والعقل والجسد، وسأذكر بعض الشواهد والنماذج على الإيمان، يتبين من خلالها للقارئ مدى اعتزازهم بدينهم الذي تربَّوْا عليه على يد نبيِّهم ﷺ، وثباتهم عليه، واستعلائهم به، وتقديمِ النفس رخيصةً هيِّنةً في سبيل ذلك، والإصرارِ على مبادئه، وعدم التراجع عن تعاليمه مهما كانت الظروفُ، ولذلك فإنهم لم يعطُوا عدوَّهم قليلًا ولا كثيرًا مما يطلب مِنَ الباطل والتنازل عن الحق؛ ولذا كان النصرُ حليفَهم؛ إذ كان يتمثل في ثباتهم على ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وربَّاهم عليه، فكان ذلك برهانًا صادقًا على صِدق إيمانهم، وامتثالًا حيًّا لقول رسولهم ﷺ لهم: **(ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)**[١].

ومن هذه النماذج الإيمانية ما يأتي:

١ - ذكر ابن إسحاق صورًا من التنكيل والتعذيب الذي كانت قريشٌ توجِّهه إلى جماعةٍ مِنَ المؤمنين المستضعَفين من أصحاب النبي ﷺ، فقابلوا ذلك بإيمان راسخ، وعزيمة صادقة، واعتصام بالله تعالى قويٍّ، ولم يظهر منهم - رضوانُ الله عليهم - لِينٌ أو استضعافٌ للمشركين.

ومن هؤلاء المؤمنين المستضعفين: بلالُ بن رباح رضي الله عنه، فقد كان أميةُ بن خلف يُخرجه إذا حَمِيَتِ الظَّهيرة، فيطرَحُه على ظهره في بطحاءِ مكةَ، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة العظيمة، فتُوضَعُ على صدره، ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموتَ أو تكفرَ بمحمد، وتعبُدَ اللاتَ والعُزَّى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحدٌ أحدٌ[٢].

٢ - ومنهم كذلك عمار بن ياسر وأبوه وأمه:

يقول ابن إسحاق: «وكانت بنو مخزوم يخرُجون بعمارِ بن ياسرٍ وبأبيه

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) سيرة ابن هشام (١/٣١٧، ٣١٨).

وأمه - وكانوا أهلَ بيتِ إسلامٍ - إذا حَمِيَتِ الظهيرةُ، يعذّبونهم برمضاء مكة، فيمرُّ بهم رسولُ الله ﷺ، فيقول - فيما بلغني -: (صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، مَوْعِدُكُمُ الجَنَّةُ)(١). فأما أمه فقتلوها، وهي تأبى إلا الإسلامَ»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، «وقد روى العوفيُّ عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذّبه المشركون حتى يكفرَ بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مُكرَهًا، وجاء معتذرًا إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية»(٣).

وقال ابن كثير أيضًا: «اتفق العلماء على أن المُكرَهَ على الكفر يجوز له أن يواليَ، إبقاءً لمهجته، ويجوزُ له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيلَ، حتى إنهم ليضعون الصخرةَ العظيمةَ على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله، فيأبى عليهم، وهو يقول: أحدٌ أحد، ويقول: والله لو أعلم كلمةً هي أغْيَظُ لهم منها لقلتُها»(٤).

٣ - ومنهم حبيبُ بن زيد بن عاصم الأنصاري رضي الله عنه؛ فقد ذكر ابن إسحاق أنه مِمَّن شهد بيعةَ العقبةِ مع الأنصار، «وأنه الذي أخذه مسيلمةُ

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٣)، وقال: «رواه الطبراني، ورجاله ثقات». ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٥٦). وفي رواية لأحمد عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه مر مع رسول الله ﷺ على أبي عمار وأمه وهما يُعذَّبان، فقال أبو عمار: يا رسول الله، الدهرَ هكذا؟ فقال له النبي ﷺ: (اصْبِرْ). ثم قال: (اللَّهُمَّ اغفر لآل ياسر وقد فعلتَ). مسند الإمام أحمد (١/ ٦٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٣): «ورجاله رجال الصحيح». ورواه الحاكم (٣/ ٣٨٨) وقال: «صحيح على شرط مسلم».

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٧)؛ وأسباب النزول للواحدي (ص١٦٢)؛ وأسباب النزول للسيوطي (ص١٣٤)، وروى ذلك ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤/ ١٨٢) عن قتادة وأبي مالك.

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٨).

الكذاب الحنفيُّ صاحبُ اليمامة، فجعل يقول له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟. فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟. فيقول حبيب: لا أسمع. فجعل يقطعه عضوًا عضوًا حتى مات في يده، لا يزيده على ذلك، إذا ذُكر له رسولُ الله ﷺ آمن به وصلّى عليه، وإذا ذُكر له مسيلمةُ قال: لا أسمع»[١].

٤ ـ ومن ذلك ما حصل لجماعة مِنْ أصحاب الرسول ﷺ في الغزوة المعروفة بغزوة الرَّجيع؛ وذلك أن قومًا من عُضَلَ والقارَةِ، قدِمُوا على النبي ﷺ وذكروا أن فيهم إسلامًا، وسألوه أن يبعثَ معهم مَنْ يعلِّمُهم الدينَ، ويُقرئُهم القرآنَ، فبعث معهم ستةَ نَفَرٍ في قول ابن إسحاق[٢]، وقال البخاري: كانوا عشرة[٣]، وأمَّرَ عليهم مرثدَ بن أبي مرثدٍ الغنويَّ[٤]، وفيهم خُبَيْبُ بن عديٍّ، فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرَّجيع ـ وهو ماءٌ لهُذَيْل بناحية الحجاز ـ غدروا بهم، واستصرخوا عليهم هذيلًا، فجاؤوا حتى أحاطوا بهم، فقتلوا عامَّتهم[٥]، واستأسروا خُبَيْبَ بن عديٍّ، وزيدَ بنِ الدَّثِنَة[٦] فذهبوا بهما وباعوهما بمكة، وكانا قَتَلا مِنْ رؤوسهم يومَ بدرٍ.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٤٦٦، ٤٦٧)، وذكر القصة ابنُ عبد البر في الاستيعاب (١/٣٢٨)، بهامش الإصابة، وكذا ابن كثير في تفسيره (٢/٥٨٨)، وأشار إليها الحافظ ابن حجر في الإصابة (١/٣٠٦، ٣٠٧)، في ترجمة حبيب المذكور، وزاد: «وروى ابن أبي شيبة عن عبد الله بن إدريس عن محمد بن عمارة عم أبي بكر بن محمد يعني ابن حزم، أن حبيب بن زيد قتله مسيلمة».

(٢) وموسى بن عقبة، كما نقله عنه ابن كثير في السيرة.

(٣) وهي أيضًا رواية ابن سعد في الطبقات.

(٤) هكذا في رواية ابن إسحاق وابن سعد، وعند البخاري أنه أمَّر عليهم عاصم بن ثابت.

(٥) في رواية البخاري: «وجاء القوم، فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق، إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلًا، فقال عاصم: أمَّا أنا، فلا أنزلُ في ذمة كافر، اللهم أخبِرْ عنا نبيَّك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنَّبْل».

(٦) ومعهما ثالث، ورد ذكر اسمه عند ابن إسحاق، واسمه عبد الله بن طارق، إلا أنهم قتلوه أيضًا لَمَّا أبى السير معهم حين أرادوا ربطه، فلم يبق سوى خُبيبٍ وزيدٍ.

فأما خُبَيْبٌ فمكث عندهم مسجونًا، ثم أجمعوا على قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أجمعوا على صلبه، قال: دعوني حتى أركعَ ركعتين، فتركوه فصلاهما، فلما سلَّم، قال: والله لولا أن تقولوا: إن ما بي جَزَعٌ لزدتُ، ثم قال: اللَّهُمَّ أحصِهِم عددًا، واقتُلْهُم بَدَدًا[1]، ولا تُبْقِ منهم أحدًا»، ثم قال [من الطويل]:

لَقَدْ أَجْمَعَ الأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا ... قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ
وَكُلُّهُمُ مُبْدِي الـعَـدَاوَةِ جَاهِـدٌ ... عَلَيَّ لِأَنِّي فِي وِثَاقٍ بِمَضْيَعِ[2]
وَقَدْ جَمَّعُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ ... وَقُرِّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيلٍ مُمَنَّعِ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو غُرْبَتِي بَعْدَ كُرْبَتِي ... وَمَا أَرْصَدَ الأَحْزَابُ لِي عِنْدَ مَصْرَعِي
فَذَا العَرْشِ صَبِّرْنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي ... فَقَدْ بَضَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي
وَقَدْ خَيَّرُونِي الكُفْرَ، وَالمَوْتُ دونَه ... فَقَدْ ذَرَفَتْ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ
وَمَا بِي حِذَارُ المَوْتِ، إِنِّي لَمَيِّتٌ ... وَإِنِّي إِلَى رَبِّي إِيَابِي وَمَرْجِعِي
وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْجَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَـهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخَشُّعًا ... وَلَا جَزَعًا، إِنِّي إِلَى اللَّهِ مَرْجِعِي

فقال له أبو سفيان: أيسُرُّك أن محمدًا عندنا نضرب عُنقَه، وأنك في أهلك؟ فقال: لا والله، ما يسرُّني أني في أهلي، وأن محمدًا في

---

(١) قال في اللسان (٣/ ٧٨)، نقلًا عن ابن الأثير: «يروى بكسر الباء، جمع بدة؛ وهي الحصة والنصيب؛ أي: اقتلهم حصصًا مقسمة لكل واحد حصته ونصيبه. ويروى بالفتح: أي متفرقين في القتل واحدًا بعد واحد من التبديد».

(٢) هكذا في كتاب زاد المعاد. وقال صاحب لسان العرب (٨/ ٢٣١): «المضيعة، من الضَّياع: الاطِّراح والهوان، وكأنه فيه ضائع... وتركهم بضَيْعَةٍ ومَضِيْعَة ومَضْيَعَة، ومات ضيعةً وضَيْعًا وضَياعًا؛ أي: غير مفتقَدٍ».
وفي السيرة النبوية لابن كثير: مضبع، بالباء الموحدة، والضَّبْع: وسط العَضُد، والمضبعة: اللحمة التي تحت الإبط من قدم. انظر: لسان العرب (٨/ ٢١٦)، ويكون المعنى على هذا أنه موثوق بوثاق في عَضُده.

مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه(١). ثم قام إليه عقبةُ بن الحارث فقتله(٢).

وأما زيد بن الدَّثِنَة، فابتاعه صفوانُ بن أمية، فقتله بأبيه، «وبعثت قريشٌ إلى عاصم ليؤتَوْا بشيءٍ مِنْ جسده يعرفونه ـ وكان عاصمٌ قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر ـ فبعث الله عليه مثلَ الظُّلّةِ مِنَ الدَّبْر(٣) فحمَتْه مِنْ رُسُلهم، فلم يقدِروا منه على شيء»(٤).

وذكر ابن كثير في السيرة النبوية من رواية موسى بن عقبة، أنهم لمَّا صلبوا زيدَ بن الدَّثِنَة رمَوْه بالنَّبل، ليفتنوه عن دينه، فما زاده إلا إيمانًا وتسليمًا(٥).

٥ ـ ومِنْ هؤلاء: عبد الله بن حُذافةَ بن قيس بن عديٍّ السهميُّ.

---

(١) وعند ابن إسحاق: أن قائل هذه الكلمة هو زيد بن الدثنة.

(٢) هذه الجملة من رواية البخاري عن أبي هريرة، وفي رواية له عن جابر: أن الذي قتل خبيبًا هو أبو سَرْوَعَةَ؛ قال ابن كثير في السيرة، بعد نقله لهذه الرواية: قلت: واسمه عقبة بن الحارث. وقد أسلم بعد ذلك، وله حديث في الرَّضاع، وقد قيل: إن أبا سَرْوَعَة وعُقبةَ أخوان. والله أعلم.

وروى ابن إسحاق عن عقبة بن الحارث أنه قال: «ما أنا والله قتلتُ خبيبًا؛ لأني كنت أصغرَ من ذلك، ولكن أبا ميسرةَ، أخا بني عبد الدار، أخذ الحربة، فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة، ثم طعنه بها حتى قتلَه». وجزم الحافظ ابن حجر في الفتح بصحة سند هذه الرواية. وعُقبةُ هذا أسلم بعد الفتح. انظر: التقريب (٢/ ٢٦)، وانظر ترجمته في كتاب الإصابة لابن حجر أيضًا (٢/ ٤٨٨).

(٣) الدبر ـ بالفتح ـ: النحل والزنابير. انظر: لسان العرب (٤/ ٢٧٤).

(٤) هذه الغزوة رواها بأطول من ذلك ابنُ إسحاق، كما في سيرة ابن هشام (٢/ ١٦٩ ـ ١٨٣)؛ ورواها ابنُ سعد في طبقاته الكبرى (٢/ ٥٥، ٥٦)؛ ورواها ابن كثير في السيرة النبوية (٣/ ١٢٣ ـ ١٢٨)؛ ورواها البخاري في كتاب المغازي؛ والإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣١٠، ٣١١)؛ ورواها مختصرةً وافيةً بالمقصود الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه القيم زاد المعاد (٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦)، وقد اعتمدتُ عليه في ذكر هذه الغزوة سوى زيادة قليلة، ذكرت مصادرها في هذا الهامش.

(٥) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٣٠).

فقد روى ابن عساكر - من طريق البيهقي - عن أبي رافع أن عمر بن الخطاب وجَّه جيشًا إلى الروم، فيهم عبد الله بن حذافة، فأسره الروم، فذهبوا به إلى ملكهم، وقالوا له: هذا مِنْ أصحاب محمد.

فقال له: هل لك أن تتنصَّرَ وأشرِكُك في ملكي وسلطاني؟

فقال عبد الله له: لو أعطيتَني جميعَ ما تملك، وجميعَ ما ملكَتْه العربُ، على أن أرجِعَ عن دين محمد ﷺ طرفةَ عينٍ ما فعلتُ.

قال: إذن أقتُلك.

قال: أنت وذاك.

فأمر به فعُلِّق على خشبة، وقال للرُّماة: ارموا به قريبًا مِنْ يديه، قريبًا من رجليه، وهو يعرِضُ عليه النصرانيةَ، وهو يأبى.

ثم أمر به فأُنزل، ثم دعا بقِدْرٍ، فصبَّ فيها ماء حتى احترقت، ثم دعا بأسيرين مِنَ المسلمين، فأمر بأحدهما فأُلقي فيها، وهو يعرِضُ على عبد الله النصرانية، وهو يأبى، ثم أمر به أن يُلقى فيها، فلما ذهب به بكى. فظن الطاغيةُ أنه قد جزِعَ، فقال: ردُّوه. فلما ردُّوه عرض عليه النصرانية فأبى.

قال: فما أبكاك إذن؟

فقال: أبكاني أنِّي إن قُتلت، فلي نفسٌ واحدةٌ، تُلقى ساعةً في هذا القدر فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون لي بعدد كلِّ شعرةٍ من جسدي نفسٌ تلقى هذا في الله.

فقال له الطاغية: هل لك أن تقبِّلَ رأسي وأخلِّي عنك؟

فقال له عبد الله: إن فعلتُ تخلِّي عني وعن جميع أسارى المسلمين؟

قال عبد الله: قلت في نفسي: عدوٌّ من أعداء الله، أُقبِّلُ رأسَه يَحُلُّ عني وعن أسارى المسلمين، لا أبالي، فدنا منه وقبَّل رأسَه، فدفع إليه الأسارى، فقدِمَ بهم على عمرَ، وأخبره الخبر، فقال: حَقٌّ على كلِّ مسلم

أن يقبِّلَ رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام عمرُ، فقبَّل رأسه»[١].

٦ ـ ومن ذلك ما فعل عُمَيْرُ بن الحِمام في بدرٍ حينما قال ﷺ: (قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ)، فقال: يا رسول الله، جنةٌ عرضها السمٰوات والأرض؟ قال: (نَعَمْ)، قال: بَخٍ بَخٍ[٢]، فقال ﷺ: (مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ؟) قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءَ أن أكون مِنْ أهلها، قال: (فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا)، فأخرج تمراتٍ من قَرْنه[٣] فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن حَيِيتُ حتى آكُلَ تمراتي هذه، إنها لحياةٌ طويلة، فرمى بما كان معه مِنَ التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل[٤].

٧ ـ ومن هؤلاء الأبطالِ أصحابِ الاعتقاد الصحيح، والفكر السديد: أنس بن النَّضْر ـ عم أنس بن مالك ـ فقد تأخر ﷺ عن معركة بدر، فشق عليه ذلك، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، وإنْ أراني اللهُ مشهدًا فيما بعدُ مَعَ رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصنع[٥]، فشهد مع رسول الله يومَ أُحدٍ، فاستقبل سعدَ بن معاذ، فقال له أنسٌ: يا أبا عمرو، واهًا لريح الجنة[٦] أجده دون أحد، فقاتلهم حتى قُتل، فوُجد في جسده بضعٌ وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية، فما عرفَتْه أختُه الرُّبَيّع بنتُ النضر إلا ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق لابن بدران (٧/ ٣٥٦)، وقال: «رواه الحافظ (يعني ابن عساكر) عن عكرمة عن ابن عباس، وفيه أن الأسرى كانوا ثمانين. ورواه عن الزهري أيضًا».
وقد نقل الحافظ ابن حجر هذه القصة في ترجمة عبد الله بن حُذافة السهمي في الإصابة (٢/ ٢٩٦، ٢٩٧)، وله شاهد من حديث ابن عباس موصولًا عند ابن الأثير في أسد الغابة (٣/ ٢١٢)، وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ١٤).

(٢) كلمة تقال لتعظيم الأمر وتفخيمه في الخير. انظر: شرح النووي (١٣/ ٤٥).

(٣) أي: جُعبة النُّشاب. انظر: شرح النووي (١٣/ ٤٦).

(٤) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (٣/ ١٥١٠)، رقم الحديث (١٩٠١).

(٥) أي: ليرى الله ما أصنع. انظر: شرح النووي (١٣/ ٤٨).

(٦) كلمة تحنن وتلهف. انظر: شرح النووي (١٣/ ٤٨).

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]؛ فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه[1].

٨ ـ ومن هؤلاء الأبطال الذين آثروا الحياة الآخرة على الحياة الدنيا: الصحابيُّ الجليل عمرو بن الجموح، وكان أعرجَ شديدَ العَرَج، وكان له أربعةُ بنين شبابٌ، يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلمَّا توجه ﷺ إلى أحدٍ، أراد أن يغزُوَ معه، فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رُخصةً، فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد، فأتى عمرُو بن الجَموح رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بَنيَّ هؤلاء يمنعونني أن أخرجَ معك، ووالله إني لأرجو أن أستشهَدَ، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له رسول الله ﷺ: (أَمَّا أَنتَ، فَقَدْ وَضَعَ اللهُ عَنكَ الجِهَادَ). وقال لبنيه: (وَمَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَدْعُوهُ، لَعَلَّ اللهَ ﷻ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ)، فخرج رسول الله ﷺ، وخرج معه فقتُل يوم أحدٍ شهيدًا»[2].

٩ ـ ومنهم ذلك الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه، فقال: أهاجر معك، فأوصى به بعضَ أصحابه، فلمَّا كانت غزوةُ خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئًا فقسمه، وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابَه ما قسم له، وكان يرعى ظهرَهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قَسَمَه لك رسول الله ﷺ، فأخذه، فجاء به إلى النبيِّ ﷺ، فقال: ما هذا يا رسولَ الله؟ قال: (قَسْمٌ قَسَمْتُهُ لَكَ)، قال: ما على هذا اتبعتُك، ولكن اتبعتُك على أن أُرْمَى ههنا ـ وأشار إلى حلْقِه ـ بسهم، فأموت فأدخلَ الجنة، فقال: (إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ)، ثم نهضوا إلى قتال العدوِّ، فأُتِيَ به النبيُّ ﷺ وهو مقتول، فقال: (أَهُوَ هُوَ؟!) قالوا: نعم، قال: (صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ)[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٥/ ٣٤)، رقم الحديث (٤٠٤٨).
ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (٣/ ١٥١٢)، رقم الحديث (١٩٠٣).

(٢) رواه النسائي في كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهداء (٤/ ٦١).

(٣) أخرجه ابن هشام في السيرة (٢/ ٩٠)؛ ورواه أحمد في مسنده بلفظ آخر (٥/ ٢٩٩).

١٠ ـ ومنهم الصحابي الصابرُ كعبُ بن مالكٍ ﷺ؛ فقد ثبت على دينه، ولم يتزعزع عندما هجره رسول الله ﷺ وأمر الصحابة كلَّهم بهجْره وعدم معاملته والكلام معه؛ بسبب تخلُّفه عن غزوة تبوك بلا عذر، وهو في هذه الحالة الشديدة أرسل إليه ملك غسانَ يدعوه أن يلحقَ بهم ويكرِمَه، ويوسِّعَ عليه في العطاء.

قال كعب ﷺ: «ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيُّها الثلاثةَ[1]، من بين مَنْ تخلَّف، فاجتنبَنَا الناسُ، وتغيَّروا لنا، حتى تنكَّرت لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرفُ، فلبِثْنا على ذلك خمسين ليلةً، فأما صاحباي، فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا، فكنتُ أشدَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أشهد الصلاةَ مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلِّمُني أحدٌ، وآتي رسولَ الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأسَلِّمُ وأقول في نفسي: أحَرَّكَ شفتيه بردِّ السلامِ عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، وأسارِقُه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نَظرَ إليَّ، فإذا التفتُّ نحوَه أعرض عني، حتى إذا طال عليَّ ذلك مِنْ هجرِ المسلمين، مشيتُ حتى تسوَّرتُ حائطَ أبي قتادة، وهو ابنُ عمِّي، وأحبُّ الناسِ إليَّ، فسلَّمتُ عليه، فوالله ما ردَّ عَلَيَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أَنشُدك الله، هل تعلم أنِّي أحبُّ اللهَ ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدتُّ له، فنشدته فسكت، فعدت له، فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم.

قال: ففاضت عيناي وتولَّيت، حتى تسوَّرتُ الجدارَ، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا أنا بنبطي[2] مِنْ أنباط الشام، مِمَّن قدِمَ بطعام يبيعُه بالمدينة، يقول: مَنْ يدلُّ على كعب بن مالك؟ فقال: فطَفِقَ الناسُ يشيرون له إليَّ، حتى جاء، فدفع إليَّ كتابًا مِنْ ملك غسانَ، وكنت كاتبًا، فإذا فيه:

(١) الثلاثة هم: كعب بن مالك، ومُرارةُ بن الرَّبيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي.
(٢) النبطي: هو الفلاح.

«أما بعدُ، فقد بلَغَنا أنَّ صاحبَك قد جفاك، وأنَّ الله لم يجعَلْك بدار هوانٍ ولا مَضْيَعَةٍ، فالْحَقْ بنا نُواسِكَ».

فقال: فقلت حين قرأته: وهذا أيضًا مِنَ البلاء، قال: فتيَمَّمتُ به التَّنُورَ، فسجرته به»[1].

هذه نماذج إيمانية من صحابة رسول الله ﷺ تدل على ثباتهم على العقيدة؛ لأنها قد تمكَّنت مِنْ نُفوسهم، وتغلغلت في أرواحهم، وكانت هذه المواقفُ ترجمةً حيَّةً وعمليةً لهدْيِ رسول الله ﷺ، وأثرًا بارزًا من آثار تربيته ﷺ لهم على العقيدة ووضوح المنهج الاعتقادي والتفكيري.

والأمة الإسلامية في أمسِّ الحاجة إلى أن يتربَّى شبابُها على الاعتقاد الصحيح والتفكير السديد، فيبرُز منهم مَنْ يقف في وجه الباطل والضلال بكل صُوَرِه وأشكاله، كما وقف أولئك الأبطال مِنْ تلاميذ المربِّي العظيم محمد ﷺ؛ أمثالِ بلال، وخُبيب، وعبدِ الله بن حُذافةَ، وحَبيبِ بن زيدٍ، وغيرِهم ممن عاصرهم، أو استَنَّ بهم، واحتذى طريقتَهم مِمَّن جاء بعدَهم.



(١) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله ﷻ: ﴿وَعَلَى الثَّلَٰثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، (٥/١٥١)، رقم الحديث (٤٤١٨).

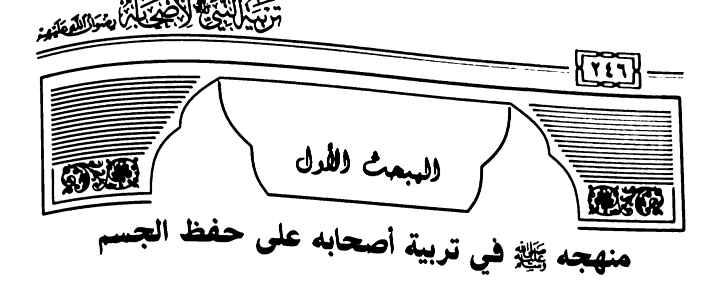
وأخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٤/٢١٢٨)، رقم الحديث (٥٤).

الفصل الرابع

منهجه ﷺ في تربية أصحابه على حفظ الجسم وتربية العقل

* وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: منهجه ﷺ في تربية أصحابِه على حفظ الجسم.
- المبحث الثاني: منهجه ﷺ في تربية العقل.



المبحث الأول

منهجه ﷺ في تربية أصحابه على حفظ الجسم

* وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: أهمية حفظ الجسم في التربية النبوية.
- المطلب الثاني: الطرق التي استخدمها رسول الله ﷺ في تربية أصحابه على حفظ أجسامهم.



المطلب الأول

أهمية حفظ الجسم في التربية النبوية

إن الاهتمام بوقاية الجسم وحفظ الصحة من الجوانب المهمة التي عُني بها رسولُ الله ﷺ في تربيته لأصحابه، وأوْلاها مقدارًا كبيرًا من توجيهه؛ وما ذلك إلا لأن الجسم هو قاعدةُ تزكية النفس ووعائها، وصفاء العقل ومرتكزه؛ لأن هناك اتصالًا قويًا بين نفس الإنسان وعقله وجسمه، وتفاعلًا مشتركًا بين أجزائه الثلاثة، يؤثِّر كلٌّ واحدٍ منها في الآخر، ولا يمكن فصل أحدها عن الآخر كما سبق؛ فالعقل السليم في الجسم السليم، والصحة نعمةٌ مِنْ نِعَم الله تعالى على عباده، بل هي مِنْ أكبر النِّعم على الإنسان بعد نعمة الإسلام؛ كما قال ﷺ: (**مَنْ أَصْبَحَ مِنكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى في جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**)[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد عن سلمة بن عبد الله بن محصن عن أبيه، وقال: «هذا =

فبالصحةِ تشيد معالم الدنيا، وتزدهر بها الحضارات وبها تكون عمارة الأرض، وبها يستطيع المكلَّفُ القيامَ بجميع الواجبات التي أوجبها الله عليه من الحقوق؛ فصحَّةُ الجسم وقوَّته هي أساسُ الحياة وعَصَبُها، فمن حصل منها بنصيب، فقد وُفِّقَ إلى أهمِّ عامل يكون به تحقيقُ السعادة والحياة الطيبة؛ قال رسول الله ﷺ: **(الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ)**[١].

ولأهمية الصحة، وأثرها الخطير في عِمارة الدنيا، وعِمارة الآخرة، جعلها رسولُ الله ﷺ من الأمور التي يُغبَنُ عليها كثيرٌ مِنَ الناس، وذلك لعدم الاستفادة منها، وصَرْفِها في ما لا فائدةَ فيه، والغَفْلَةِ عن أهميتها في حياتهم؛ فقال رسول الله ﷺ: **(نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ)**[٢].

فالصحة هِبَةٌ عظيمة من الله تعالى لعباده، جعلها سببًا في سعادتهم وهنائهم، ومبعثَ طاقتِهم وقوّتهم لحمل التكاليف التي أمرهم بالقيام بها في هذه الحياة الدنيا.

ولذا فقد ركَّز المربي العظيم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ على أهمية صحة الجسم والحفاظ عليه مِنَ العلل، في تربيته العظيمة لأصحابه رضوان الله عليهم، بوسائلَ كثيرةٍ، سأُبرز بعضًا منها في المطلب الثاني.

= حديث حسن غريب» (٤/ ٤٩٦).
ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب القناعة (٢/ ١٣٨٧).

(١) رواه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة، وترك العجز، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٤/ ٢٠٥٢)، رقم الحديث (٢٦٦٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ ولا عيش إلا عيش الآخرة (٧/ ٢١٨)، رقم الحديث (٦٤١٢).

المطلب الثاني

الطرق التي استخدمها رسول الله ﷺ في تربية أصحابه على حفظ الجسم

* وتشمل خمس طرق وهي:

أولًا: طريق التغذية المتكاملة المتوازنة.

ثانيًا: طريق نظافة الجسم.

ثالثًا: طريق الرياضة البدنية.

رابعًا: طريق الوقاية.

خامسًا: طريق العلاج الطبي.

* * *

أولًا: طريق التغذية المتكاملة المتوازنة:

تُعدُّ التغذية من أهم أسباب وقاية الجسم وحفظ صحَّته، وخاصةً إذا كانت جيدةً كمًا وكيفًا؛ فنوع التغذية وكميتها له تأثيرٌ كبيرٌ في بناء جسم الإنسان سلبًا وإيجابًا؛ ولذا، فإن الله تعالى أحلَّ الطيباتِ مِنَ الرزق؛ لِمَا لها مِنْ أهمية عظمى في بناء الجسم وحِفْظ صحته وعلاجه، والحيلولة بينه وبين كثيرٍ مِنَ الأمراض الخطيرة؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال ﷻ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢].

فهذه الآيات تحمل دعوةً صريحة لوقاية الجسم، وحفظ صحته، والاستفادة من مباهج الحياة، والطيِّبات مِنَ الأطعمة؛ لأن الله تعالى خلقها ليتمتعَ بها عبادُه في حدود المباح الذي رسمه ورضِيَه لهم، وأن يزوِّدُوا

أجسامَهم بما يحفظها ويحميها مِنَ العِلَل والأسقام، حتى يتمكّنوا مِنَ القيام بالتكاليف التي أناطها الله بهم في هذه الحياة الدنيا.

فالله تعالى «يحبُّ مِنْ عباده أن يَقبَلُوا نِعَمَه، ويستعملوها فيما أنعم بها لأجله، ويشكروا له ذلك، ويكره لهم أن يجْنُوا على الفطرة التي فطرهم عليها، فيمنعوها حقَّها، وأن يجْنُوا على الشريعة التي شرعها لهم»[1]؛ وقد ربَّى النبيُّ ﷺ أصحابَه على هذه المعالم الربانية.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن ناسًا مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السِّرِّ، فلما أُخبروا بها، كأنَّهم تَقالُّوها، فقال بعضهم: لا آكلُ اللحمَ، وقال بعضهم: لا أتزوجُ النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: (**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أَصُومُ وأُفْطِرُ، وَأَنَامُ وَأَقُومُ، وَآكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي**)[2].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: (**أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟**) قلت: بلى يا رسول الله. قال: (**فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ؛ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجَتِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ[3] عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ**)[4].

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (٧/ ٢٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٦/ ١٤٢)، رقم الحديث (٥٠٦٣).
ورواه مسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجَز عن المؤنة بالصوم (٢/ ١٠٢٠)، رقم الحديث (١٤٠١).

(٣) «الزَّوْر: مصدر زاره، ويُوصَفُ به على لفظه، يقال: هو زَوْرٌ، وهي زَوْرٌ، وهم زَوْرٌ، وهنَّ زَوْرٌ». المعجم الوسيط (١/ ٤٠٨).
والمقصود بزَوْرك في الحديث؛ أي: الناس الذين يزورونك.

(٤) رواه البخاري، كتاب الصيام، باب حق الجسم في الصوم (٢/ ٣٠٠)، رقم الحديث (١٩٧٥).

=

فامتناع المكلَّف من الطيِّبات التي أباحها الله تعالى له، مع ما فُطِرَ عليه من طلبها والاستمتاع بها، يؤدي به إلى تضييع بعض الحقوق التي كلَّفه الله بها؛ «كإضاعة حقوق امرأته أو عياله... ومَنْ ضعُف جسدُه عجَز عن القيام بالصلاة، والصوم، والحج، والجهاد، والكسب الواجب عليه للنفقة على نفسه وعلى من تجب عليه نفقتُهم، وعلى مصالح أمَّتِه العامة، فإن لم يعجِزْ عن القيام بها كلِّها، عجَز عن بعضها، والتمتُّعُ بالطيبات من غير إسراف ولا اعتداءٍ لحدود الله، وسُنن فطرته؛ هو الذي يؤدي به حقَّ الجسد، وحقَّ الروح، ويُستعان به على أداء حقوق الله، وحقوق خلقه»[1].

هكذا ربى النبي ﷺ أصحابه بفعله في حياته، وهو القدوةُ التي أمر الله العبادَ بالاقتداء به؛ فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ فإنه لم يُؤثَرْ عنه ﷺ أنه حرَم نفسه مِنْ تناول الطيبات مِنَ الأطعمة، كما لم يُؤثَرْ عنه أنه كان يتحرَّى الرفاهةَ فيها، ويتكلَّفُ في تنوُّعها، أو طلبِ أجودِها، بل «كان يأكل ما وجد، فتارةً يأكل أطيبَ الطعام؛ كلحوم الأنعام والطير والدجاج، وتارة يأكل أخشنَه؛ كخبز الشعير بالمِلح، أو الزيت، أو الخلِّ، وتارة يجوع، وتارة يشبع؛ ليكون قدوةً للمُعسر والمُوسِر»[2].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما عابَ النبيُّ ﷺ طعامًا قطُّ؛ إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه»[3].

فعدَّ رسولُ الله ﷺ كلَّ أنواع الطعام الحلال صالحةً ما دامت مفيدةً للجسم غيرَ ضارَّةٍ به؛ ولذا لم يعِبْ منها شيئًا؛ فكان ﷺ يأكل لحم الدجاج؛ فعن زَهدَمٍ الجَرميِّ، قال: دخلتُ على أبي موسى، وهو يأكل

= ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به (٢/ ٨١٣)، رقم الحديث (١٨٢).

(١) تفسير المنار (٧/ ٢٨، ٢٩) بتصرف.   (٢) تفسير المنار (٧/ ٣٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما عاب النبي ﷺ طعامًا (٦/ ٢٥٠)، رقم الحديث (٥٤٠٩).

دجاجةً، فقال: «ادْنُ فكل، فإنِّي رأيتُ رسول الله ﷺ يأكلُه»[1].

وأكل ﷺ لحم الضَّأن والماعز؛ فعن جعفر بن عمرو بن أمية الضَّمري، عن أبيه، قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ يحتَزُّ مِنْ كتِف شاةٍ فأكل منها، فدُعي إلى الصلاة، فقام فطرح السكينَ، فصلَّى ولم يتوضَّأ»[2].

وعن أم سلمة ﵂: «أنها قرَّبت إلى رسول الله ﷺ جَنْبًا مشويًّا، فأكل منه، ثم قام إلى الصلاة، وما توضَّأ»[3].

ومن هنا تلحظ أن رسول الله ﷺ كان يحرِص على تناول اللحم الطريِّ، الذي يسهُل نُضْجُه وهضمُه، وذلك بتخيُّره المواضعَ الطريةَ في الشاة؛ كأكله من كتِفها وجنبها، مع ملاحظة تنويع تناول اللحم بين المشوي والمطهوِّ[4]؛ طلبًا للفائدة الغذائية التي تعطي الجسم قوةً وحيويةً.

يقول ابن الجوزي ﵀: «واللهُ ﷻ أعلمُ بمصالح الأبدان، فأباح اللحمَ لتقويتها، فأكلُ اللحمِ يقوِّي القوةَ، وتركُها يُضعِفُها»[5]، «ولذا كان رسول الله ﷺ يأكل اللحم، ويحبُّ الذراع مِنَ الشاة»[6].

وتناول رسول الله ﷺ «اللبن»؛ لفائدته الصحية للجسم؛ لاحتوائه على عناصر البروتين التي يحتاج إليها الجسم؛ فعن ابن عباس ﵄ قال: دخلتُ مَعَ رسول الله ﷺ أنا وخالد بن الوليد على ميمونةَ بنتِ الحارثِ، فجيء بإناءٍ مِنْ لبن، فشرب رسول الله ﷺ، وقال الرسول ﷺ: (**مَنْ أَطْعَمَهُ اللهُ طَعَامًا، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَمَنْ سَقَاهُ اللهُ لَبَنًا، فَلْيَقُل: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُجْزِي مِنَ الطَّعَامِ**

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٨/ ٢٠، ٢١) وقال عنه: «حديث حسن».

(٢) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب قطع اللحم بالسكين (٦/ ٢٥٠)، رقم الحديث (٥٤٠٨).

(٣) رواه الترمذي في كتاب الأطعمة (٤/ ٢٤٠)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٤) أسس التربية الإسلامية (ص٢٥٣).

(٥) صيد الخاطر (ص٣٧٥).

(٦) المرجع السابق (ص٢٢٦).

وَالشَّرَابِ خَيْرُ اللَّبَنِ)[١].

وكان ﷺ يتناول أنواعًا مِنَ الأطعمة التي تحتوي على المواد (الكربوهيدراتية والدهنية) والتي تُوجَدُ بشكل كبير في السكريات والنشويات، فيأخذ منها الجسمُ ما يحتاج إليه مِنْ دِفْءٍ وطاقة[٢]؛ فكان ﷺ يأكل الحلواءَ والعسل، وهما مادتان سكريتان؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يحبُّ الحلواءَ والعسلَ»[٣]، ودخل فرقَدٌ السَّبَخِيُّ[٤] على الحسن وهو يأكل الفالوذج، فقال: يا فرقدُ، ما تقول في هذا؟ فقال: لا آكلُه، ولا أحبُّ مَنْ أكله، فقال الحسن: لُعابُ النَّحل، بلُباب البُرِّ، مع سمنِ البقر، هل يعيبُه مسلمٌ؟![٥].

وكان ﷺ يأكل خبز الشعير، وهو مِنَ المواد النشوية؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن خياطًا دعا النبيَّ ﷺ لطعامٍ صنعه، فذهبتُ مع النبي ﷺ، فقرَّب خبز شعير، ومرقًا فيه دُبَّاءٌ وقَديدٌ، رأيتُ النبي ﷺ يتتبَّعُ الدُّبَّاءَ من حوالَيِ القَصْعةِ، فلم أزل أحبُّ الدُّباءَ بعدَ يومئذٍ»[٦].

وأكل ﷺ كذلك السَّوِيقَ؛ وهو مِنْ دقيق الشعير أو القمح، وهو من

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٣٩٧). وميمونة بنت الحارث خالةٌ لعبد الله بن عباس، ولخالد بن الوليد. انظر: الإصابة (٣/ ٧٠).

(٢) انظر: أسس التربية الإسلامية (ص٢٥٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب الحلواء والعسل (٦/ ٢٥٦)، رقم الحديث (٥٤٣١).

(٤) هو فرقد بن يعقوب السَّبَخي أبو يعقوب البصري، نُسب إلى سبخة البصرة، روى عن أنس بن مالك وإبراهيم النخعي، وروى عنه حماد بن سلمة، روى له الترمذي وابن ماجه، قال الحافظ في التقريب: «صدوق عابد، لكنه ليِّن الحديث، كثير الخطأ».
انظر: تهذيب الكمال (٢٣/ ١٦٤).

(٥) أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار (٣/ ٢٠٣).

(٦) رواه البخاري في كتاب الأطعمة، باب من تتبع حوالي القصعة مع صاحبه إذا لم يعرف منه كراهية (٦/ ٢٤١)، رقم الحديث (٥٣٧٩).
ورواه مسلم، كتاب الأشربة، باب جواز أكل المرق (٣/ ١٦١٥)، رقم الحديث (٢٠٤١).

المواد النشوية؛ عن سُوَيْدِ بن النُّعمان[١]، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبرَ، فلما كنا بالصهباء، دعا بطعام، فما أُتِيَ إلا بسَوِيقٍ فأكلنا، فقام إلى الصلاة، فتمضمض ومضمَضْنَا»[٢].

وأكل ﷺ التمر؛ وهو مِنَ المواد الغنية بالسكريات، مع احتوائه على بعض العناصر الغذائية الأخرى، ونبَّه ﷺ على أنه مِنَ الأغذية الرئيسة، فقال ﷺ: (بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ، جِيَاعٌ أَهْلُهُ)[٣]، وعن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةٍ، لَمْ يَضُرُّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ)[٤].

وتناول ﷺ الأطعمةَ الغنية بالأملاح المعدنية والفيتامينات التي تتوفر بشكل كبير في الأطعمة النباتية؛ كالخضراوات والفواكه، والتي تساهم في تكوين العظام، وتساعد عملية الهضم، وصحة الجسم، والحفاظ عليه من الأمراض ومقاومتها[٥]؛ فعن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: «رأيتُ النبيَّ ﷺ يأكل الرُّطَبَ بالقِثَّاء»[٦]، وعن عائشة: «أن النبي ﷺ كان يأكل البطيخ بالرُّطب»[٧]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يتتبع في الصَّحفة - يعني الدُّبَّاء - فلا أزال أحبُّه»[٨].

---

(١) هو: سُويد بن النعمان بن مالك بن عامر الأنصاري الأوسي المدني، من أصحاب الشجرة، شهد أحدًا وما بعدها من المشاهد كلِّها مع رسول الله ﷺ، يُعَدُّ في أهل المدينة.
أسد الغابة (٢/ ٤٩٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٥/ ٨٥)، رقم الحديث (٤١٩٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب في إدخال التمر ونحوه من الأقوات للعيال (٣/ ١٦١٨)، رقم الحديث (٢٠٤٦).

(٤) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الدواء بالعجوة للسحر (٧/ ٣٩)، رقم الحديث (٥٧٦٨).

(٥) انظر: أسس التربية الإسلامية (ص٢٥٥).

(٦) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب الرطب بالقثاء (٦/ ٢٥٨)، رقم الحديث (٥٤٤٠).

(٧) أخرجه الترمذي (٨/ ٣٥) وقال عنه: حديث حسن غريب.

(٨) سبق تخريجه (ص٢٥٢).

تلك بعض الشواهد المنتشرة في السنَّة النبوية، والتي تدل على العناية التامة بالتغذية الجيدة، التي تحتوي على العناصر الغذائية المهمة في بناء جسم الإنسان، وللحفاظ عليه، ووقايته مِنَ العلل، وإعطائه المناعةَ ضدَّها، والقدرةَ على مقاومتها، وتزويده بالطاقة والدفء اللازمين لنموه وقوته(١).

فإذا كان المربِّي العظيمُ عليه الصلاة والسلام قد اهتم بنوعية الغذاء المهم للجسم، فإنه ﷺ قد اهتم كذلك بكميته، واشترط فيه ميزانَ الاعتدال، بحيث لا يزيد عما يحتاج إليه المرء، ولا ينقُص عن ذلك، فالزيادة تضر بالجسم كالنقصان؛ فالغذاء «ضروريٌّ للجسم، بشرط التحكُّم والضبط والاعتدال، فزيادته عن حاجة البدن وقلتُه تتساويان في الضرر، وكثيرٌ من الأمراض التي تصيب جسمَ الإنسان يرجِع إلى سوء التغذية كمًّا ونوعًا بالزيادة أو النقصان»(٢).

ومن القواعد الكلِّيَّة التي أسَّسها رسول الله ﷺ بوحي مِنْ ربِّه تعالى، لوقاية الجسم وحفظ صحته: قوله ﷺ: **(مَا مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ)**(٣).

وجاء في كتاب الله تعالى ما يزيد هذه القاعدة الصحية العظيمة رسوخًا وقوةً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

فالآية والحديث يحثَّان على تنظيم الأكل، وأخذ الكفاية، وعدم الإكثار منه، والبُعدِ عن الشَّرَهِ، والتُّخْمَة، وما يجرَّان من عِلَلٍ.

---

(١) انظر: أسس التربية الإسلامية (ص٢٥٦).
(٢) المرجع السابق (ص٢٤٨).
(٣) رواه الترمذي في سننه، في كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٤/٥٠٩)، وقال عنه: حديث حسن صحيح.
وأخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع (٢/١١١١).

يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: «ومراتب الغذاء ثلاثةٌ: أحدها: مرتبة الحاجة، والثانية: مرتبة الكفاية، والثالثة: مرتبة الفَضْلة.

فأخبر النبيُّ ﷺ، أنه يكفيه لُقيماتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه، فلا تسقط قوته، ولا تضعُف معها، فإن تجاوزها، فليأكُلْ في ثلث بطنه، ويدع الثلثَ الآخر للماء، والثالثَ للنَّفَس، وهذا من أنفع ما للبدن والقلب، فإن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب، فإذا أُورِدَ عليه الشرابُ، ضاق عن النفس، وعرض له الكَرْبُ والتَّعب، وصار محلُّه بمنزلةِ حامل الحِمْل الثقيل، وهذا إلى ما يلزم ذلك مِنْ فساد القلب، وكَسَل الجوارح عن الطاعات، وتحرُّكها في الشهوات التي يستلزمُها الشِّبَعُ»[1].

وقال الحارث بن كَلَدَةَ الثَّقفي[2] في إجابته على سؤال كسرى عندما سأله عن الداء الدويِّ: قال: «إدخال الطعام على الطعام، هو الذي يُفني البَرِيَّة، ويُهلك السباع في البَرِّيَّة، قال: فما الجمرة التي تصطَلِمُ[3] منها الأدواءُ؟ قال: هي التُّخمة؛ إن بقيت في الجوف قتلت، وإن تحلَّلت أسقمت، وقلِّلْ مِنْ طعامِك يكن أهنأ لنومك»[4].

فكثرة الأكل إلى حدِّ التُّخمة يؤدي إلى السمنة التي تجلب للجسم أمراضًا كثيرة، إضافةً إلى أنها تشوِّه الجسم، وتقضي على رشاقته ولياقته.

---

(١) الطب النبوي (ص١٣).

(٢) الحارث بن كلدة الثقفي من مشاهير الأطباء العرب، كان معاصرًا للنبي ﷺ، وكان مقيمًا في الطائف، ثم رحل إلى فارس حيث تعلم الطب، له كتاب المحاورة في الطب، وأخذ الطب عنه ابنه النضر.
طبقات الأطباء (ص١٦٢)؛ الموسوعة العربية الميسرة (ص٥٨١).

(٣) تصطلم: «صلمه صلمًا: قطعه، واستأصله، يقال: اصطلمهم الموتُ؛ أي: استأصلهم وأبادهم». المعجم الوسيط (١/ ٥٢٤)، ويقصد به هنا الاشتعال وشدة التوقد، شبَّهها بالنار التي تتلظَّى.

(٤) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق د. نزار رضا (ص١٦٣).

«وقد أثبتت التجارب الطبية والعلمية الحديثة ما أرشد إليه رسولُ الله ﷺ، مؤكدةً أن زيادة الطعام عمَّا يحتاجه البدن تُربك جهازَه الهضمي، وتحُول دون امتصاصه الجيدِ مِنَ الطعام ما يحتاجه من عناصر الطاقة والقوة اللازمة، وتسبب للبدن التُّخمةَ والسمنةَ المفرطة، فتصيبه أمراضٌ عديدة غيرُ متوقَّعة، قد تورد المرءَ مواردَ الهلاك، أو تنغِّصُ عليه راحتَه وحياتَه»(١).

ومن هذه الأمراض ما أكَّده كثيرٌ مِنَ الأطباء أن: «الأكل الكثير يُفسد المعدةَ، ويُطفئ نورَها، ويُضعف الجسم، ويؤرِّقه، ويجلب الرياح في البطن، ويُصَفِّرُ اللونَ، ويضيِّقُ الأنفاسَ، ويُبقي الطعام في قاع المعدة. والأكلُ القليل يُفرح القلب، ويُصلح الجسمَ، ويزيد في الحفظ. ومَنْ قلَّل الغذاء زاد نشاطُه، وارفَعْ يدَك وأنت تشتهيه؛ فإن تلك الشهوة تبطُل بعدَ ساعة»(٢).

فالاعتدال مطلب شرعيٌّ في كل الأمور، ومِنْ بينها التغذيةُ الحلال؛ «فالنظر ينبغي أن يكونَ في حِلِّ المطعم وأخذ ما يصلح بمقدار»(٣) بلا إفراط أو تفريط.

ثانيًا: طريق نظافة الجسم:

نظافة الجسم من أسس صحة البدن وحُسْنِ نمُوِّه، وبقدر ما يهتم المكلَّف بنظافته الذاتية، بقدر ما يحفظ جسمه من مختلف العلل والأسقام التي تحدث بسبب القذارة والأوساخ؛ ولذا اهتم الإسلام بالنظافة اهتمامًا كبيرًا؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

---

(١) أسس التربية الإسلامية (ص٢٥٧).
(٢) تسهيل المنافع في الطب والحكمة المشتمل على شفاء الأجسام، لإبراهيم بن عبد الرحمٰن الأزرق (ص٨٦).
(٣) صيد الخاطر (ص١٢٧).

وجعلها مفتاحًا وأساسًا لكثير من العبادات، وفي مقدمتها الصلاة، التي لا يقبلُها الله تعالى من المكلَّف إلا إذا تطهَّر لها، وأزال عن جسمه وثوبه ومكانه النجاسات التي تعدُّ مصدرًا لانتشار الجراثيم، وطريقًا سهلًا للأمراض والأسقام المختلفة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (**لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ، وَلَا صَدَقَةٌ مِنْ غُلُولٍ**)[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ**)[2].

بل جعل رسول الله ﷺ: «الطُّهور» نصفَ الإيمان، إعلاءً لشأن النظافة، ولِمَا لها مِنْ أهمية كبيرة في حياة المكلَّف وصحة جسمه؛ عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: (**الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ**)[3].

وربَّى رسولُ الله ﷺ أصحابَه على سنن الفطرة، وأمرهم بتنفيذها، حفاظًا على صحتهم، وحرصًا على وقاية أجسامهم من الأمراض؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**الفِطْرَةُ خَمْسٌ: الخِتَانُ، وَالاسْتِحْدَادُ**[4]**، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الأَظَافِرِ، وَنَتْفُ الإِبِطِ**)[5].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة (١/ ٢٠٤)، رقم الحديث (٢٢٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب لا تقبل صلاة بغير طهور (١/ ٤٩)، رقم الحديث (١٣٥).
ورواه مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة (١/ ٢٠٤)، رقم الحديث (٢٢٥).

(٣) جزء من حديث رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء (١/ ٢٠٣)، رقم الحديث (٢٢٣).

(٤) الاستحداد: هو حلق العانة. سُمِّي استحدادًا لاستعمال الحديدة، وهي الموسى. هامش صحيح مسلم (١/ ٢٢١).

(٥) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب قص الشارب (٧/ ٧٢)، رقم الحديث (٥٨٨٩).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: **(عَشْرٌ مِنَ الفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَالسِّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ المَاءِ، وَقَصُّ الأَظْفَارِ، وَغَسْلُ البَرَاجِمِ[١]، وَنَتْفُ الإِبِطِ، وَحَلْقُ العَانَةِ، وَانْتِقَاصُ المَاءِ)**؛ قال الراوي: ونَسيتُ العاشرة، إلا أن تكونَ المضمضةَ[٢].

فهذه مجموعة من الأمور تجعل المكلَّف يجمع بين جمال الباطن والظاهر، قد أمر المربي العظيمُ أصحابَه وربَّاهم على فعلها، ولا شك أن ما أمر به ﷺ فيه الخيرُ كلُّه، وما نهى عنه ففيه الشرُّ كلُّه.

ولم يكتف رسول الله ﷺ بأمر أصحابه بهذه السنن العظيمة، بل وضع لهم حدًّا أقصى للقيام بها لا ينبغي أن يتجاوزوه؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «وَقَّتَ لنا في قصِّ الشارب، وتقليم الأظافر، ونَتْف الإبْط، وحلق العانة ـ أَلَّا تُترَكَ أكثرَ مِنْ أربعين ليلةً»[٣].

وقد حرَص المربي العظيم ـ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ على توجيه أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ إلى ضرورة العناية بنظافة الجسم كلِّه، وإلى نظافة أجزائه كلٌّ على حِدَةٍ، وخاصة التي تتعرض للأوساخ، وقد تنقل المرضَ إلى الجسم؛ وما ذلك إلا لحرصه ﷺ على أن يكون المكلَّفُ نظيفًا في حياته اليومية، فيسلم بإذن الله تعالى مِنَ الأمراض والعلل؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **(حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا، يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ)**[٤].

ففي هذا الحديث يوضح رسولُ الله ﷺ ضرورةَ الاغتسال في الأسبوع مرة، على أن يشمل الغَسْلُ تنظيفَ الرأس والجسد، وجعل ذلك من

---

(١) البراجم: جمع بُرْجُمَة، وهي عُقَدُ الأصابع ومفاصلها. هامش صحيح مسلم (١/ ٢٢٣).
(٢) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة (١/ ٢٢٣)، رقم الحديث (٢٦١).
(٣) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة (١/ ٢٢٢)، رقم الحديث (٢٥٨).
(٤) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم (١/ ٢٤٣)، رقم الحديث (٨٩٧).

حقوق الله تعالى على كل مسلم، زيادةً في تأكيد النظافة والمبالغة فيها؛ لِمَا لها مِنْ أهمية في حفظ الصحة وقوة البدن ونشاطه.

يقول ابن الجوزي: «قد أُمِرَ المؤمنُ بالتنظيف والاغتسال للجمعة لأجل اجتماعه بالناس، ونُهِيَ عن دخول المسجد إذا أكل الثوم، وأمر الشارع بتنقية البراجم، وقصِّ الأظفار، والسواك، والاستحداد، وغير ذلك مِنَ الآداب، فإذا أهمل ذلك ترك مسنونَ الشرع، وربَّما تعدَّى ذلك إلى فساد العبادة، مثل أن يُهمِلَ أظفارَه، فيجتمع تحتَه الوسخُ المانعُ للماء في الوضوء أن يصل»[1].

وأما بالنسبة إلى أجزاء الجسم؛ فقد أمر رسولُ الله ﷺ أصحابَه بتطهيرها وتنقيتها من القاذورات والأوساخ؛ لكي يسلمَ المكلَّفُ مِنْ كثيرٍ من الأمراض التي تصيبُه بسببها، فأوجب ـ عليه الصلاة والسلام ـ غسلَ اليدين عَقِبَ القيام من النوم مباشرةً؛ عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ، فَلَا يَغْمِسْ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا؛ فَإِنَّه لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ)[2].

فحث رسول الله ﷺ على غسل اليدين ثلاث مرات لتأكيد العناية بحُسن تنظيفهما؛ لأنهما وسيلتا الإنسان في تناول طعامه وشرابه، ولأنهما من أكثر أعضائه تعرُّضًا للأوساخ والقاذورات، بسبب كثرة استعمالها في إمساك مختلف الأشياء وحملها[3].

وركَّز رسول الله ﷺ في تربية أصحابه على النظافة بنظافة اليد اليمنى خاصة، ونهاهم عن استعمالها في الاستنجاء والاستجمار؛ لأنها وسيلةُ

---

(١) صيد الخاطر (ص٦٧، ٦٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب الاستجمار وترًا (١/ ٥٦)، رقم الحديث (١٦٢).
ورواه مسلم، كتاب الطهارة، باب كراهة غمس المتوضئ وغيره يده المشكوك في نجاستها في الإناء قبل غسلها ثلاثًا (١/ ٢٣٣)، رقم الحديث (٢٧٨).

(٣) انظر: أسس التربية الإسلامية (ص٢٦١).

المرء في تناول غذائه وشرابه؛ عن عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(لَا يُمْسِكَنَّ أَحَدُكُمْ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ، وَهُوَ يَبُولُ، وَلَا يَتَمَسَّحْ مِنَ الخَلَاءِ بِيَمِينِهِ، وَلَا يَتَنَفَّسْ فِي الإِنَاءِ)**[(١)].

وما ذلك إلا حرصٌ منه ﷺ على الحفاظ على أجسام أصحابه وسلامتها من العلل وتمكين الصحة فيها.

وأمر النبي ﷺ أصحابه بتنظيف «الفم» لإخراج فضلة الطعام لكي لا تتعفَّنَ، فتؤدِّي إلى الإضرار بصحة الأسنان واللثة، وتتسبب في إيذاء المعدة وباقي أجزاء الجسم؛ فكان ﷺ يتمضمض عَقِبَ الطعام، وكان يتسوَّك دائمًا؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ شرب لبنًا فمضمض، وقال: **(إِنَّ لَهُ دَسَمًا)**[(٢)]، وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام ليتهجَّدَ يشُوصُ[(٣)] فاه بالسواك»[(٤)]؛ وسُئلت عائشة رضي الله عنها: بأي شيءٍ كان يبدأ النبيُّ ﷺ إذا دخل بيته؟ قالت: «بالسواك»[(٥)].

ولأهمية تنظيف الفم بالتسوُّك، فقد حثَّ رسول الله ﷺ أصحابَه على السواك، بل أوشك على أمرهم به عند حضور كل صلاة؛ أي: خمس مرات في اليوم والليلة، لكنه خشي عليهم مِنَ المشقَّة في ذلك؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **(لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي، لَأَمَرْتُهُمْ**

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب النهي عن الاستنجاء باليمين (١/ ٢٢٥)، رقم الحديث (٢٦٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب هل يمضمض من اللبن؟ (١/ ٦٧)، رقم الحديث (٢١١).

(٣) «الشَّوص: الدَّلْك.. ومضغ السواك، والاستنان به، أو الاستياك من أسفل إلى علو». القاموس المحيط، مادة: (ش وص) (٢/ ٣٠٧).

(٤) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل (٢/ ٥٧)، رقم الحديث (١١٣٦).
ورواه مسلم، كتاب الطهارة، باب السواك (١/ ٢٢٠)، رقم الحديث (٢٥٥).

(٥) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب السواك (١/ ٢٢٠)، رقم الحديث (٢٥٣).

بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ»[(١)].

وهذا من شفقته ورحمته ﷺ بأمته، فقد وصفه الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

«فكان النبي ﷺ أنظفَ الناس، وأطيبَ الناس، وفي الحديث عنه ﷺ يرفع يديه حتى تبين عُفرَةُ إبْطَيه، وكان ساقُه ربما انكشف، فكأنما جُمَّارة، وكان لا يفارقه السواك، وكان يكره أن يُشَمَّ منه ريحٌ ليست طيبةً، وقد فُضِّلَتِ الصلاةُ بالسواك على الصلاةِ بغير سواك، فالمتنظِّفُ ينعم نفسه، قالت الحكماء: مَنْ نظَّف ثوبَه، قلَّ همُّه، ومَنْ طابَ ريحُه زاد عقلُه»[(٢)].

ولم يَفُتْ رسولَ الله ﷺ تعليمُ أصحابه تنظيفَ أعضائهم التناسلية وتطهيرها؛ لحفظها من الأوساخ، ووقايتها من القذارة التي قد تُسبِّب لها العلل والأسقام، وتؤدِّي إلى الإضرار بصحة المكلف؛ عن عبد الرحمٰن بن يزيد[(٣)]، عن سلمان، قال: قيل له: قد علمكم نبيُّكم ﷺ كلَّ شيء حتى الخراءة. قال: فقال: «أجل، لقد نهانا أن نستقبلَ القبلةَ لغائطٍ أو بَوْلٍ، أو نستنجِيَ باليمين، أو أن نستنجِيَ بأقلَّ مِنْ ثلاثة أحجار، أو نستنجِيَ برجيعٍ أو بعظمٍ»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة (١/ ٢٤١)، رقم الحديث (٨٨٧).
ورواه مسلم، كتاب الطهارة، باب السواك (١/ ٢٢٠)، رقم الحديث (٢٥٢).

(٢) صيد الخاطر (ص٦٨) بتصرف.

(٣) هو عبد الرحمٰن بن يزيد بن قيس النخعي أبو بكر الكوفي، أخو الأسود بن يزيد، وابن أخي علقمة بن قيس النخعي، ووالد محمد بن عبد الرحمٰن بن يزيد، روى عن حذيفةَ وسلمانَ الفارسي، وروى عنه إبراهيم بن يزيد النخعي وعامر الشعبي، وروى له الجماعة. تهذيب الكمال للمزي (١٨/ ١٢).

(٤) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة (١/ ٢٢٣)، رقم الحديث (٢٦٢).

«وفي هذا الحديث تأكيدٌ على ضَرورة حُسْنِ تنظيف الأعضاء التناسلية وأماكن الإخراج؛ إذ نصَّ على الاستنجاء بثلاثة أحجار على الأقل في غياب الماء، والغسل بالماء أَوْلى، وعدد الأحجار ليس شرطًا، ولكن الشرط هو إتمامُ النظافة. كما نصَّ على عدم استخدام الرَّجِيع؛ أي: الروث أو البعر والعظم؛ لأنهما أصلًا غَيْرُ طاهرَيْن، ويمكن أن ينقُلا الآفاتِ والجراثيمَ للإنسان»[١].

إذن، فإهمال النظافة فيه إخلال بالدين والدنيا معًا، فلا يليق بالمكلف التهاون فيها.

يقول ابن الجوزي: «تلمَّحتُ على خلق كثير مِنَ الناس إهمالَ أبدانهم؛ فمنهم مَنْ لا ينظِّف فمه بالخِلال بعد الأكل، ومنهم مَنْ لا يُنقي يديه في غسلهما من الترهُّم، ومنهم مَنْ لا يكاد يستاك، وفيهم مَنْ لا يكتحل، وفيهم من لا يراعي الإبْط، وهؤلاء يزعُمون أنهم زُهَّادٌ، وهم أقذرُ الناس؛ وذلك أنهم ما قوَّمهم العلمُ، وأما ما يُحكى عن داودَ الطائيِّ أنه قيل له: لو سرَّحت لحيتَك؟! فقال: إني عنها مشغول، فهذا قولُ معتذر عن العمل بالسنَّة، والإخبار عن غيبته عن نفسه بشدة خوفه مِنَ الآخرة، ولو كان مُفيقًا لذلك لم يترُكْه، فلا يُحتَجُّ بحال المغلوبين. ومَنْ تأمل خصائصَ الرسول ﷺ رأى كمالًا في العلم والعمل، فبه يكون الاقتداءُ، وهو الحُجَّةُ على الخلق»[٢]؛ «فإنه ﷺ كان يسرِّحُ شعره، وينظر في المرآة، ويدَّهِنُ، ويتطيَّب، وهو أشغلُ الخلْق بالآخرة، وكان أبو بكر وعمرُ ﭭ يخضِبان بالحِنَّاء والكَتَم، وهما أخوفُ الصحابة وأزهدُهم، فمنِ ادَّعى رُتبةً تزيد على السنَّة وأفعال الأكابر لم يُلْتفتْ إليه»[٣].

(١) أسس التربية الإسلامية (ص٢٦٤).
(٢) صيد الخاطر (ص٦٧ ـ ٦٩) بتصرف يسير.
(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص١٦٦).

ثالثًا: حفظ الجسم عن طريق الرياضة البدنية:

مِنَ العوامل المهمة في حفظ الجسم والعقل والنفس: الرياضة البدنية عامة، وهي وسيلةٌ إلى حفظ الجسم، ورفع طاقته، وتزيدُ من كفاءته في الإنتاج، وتؤدِّي إلى تنشيط الدورة الدموية فيه، وتساعد على تعويض خلاياه، وتُمكِّنه من التنفُّس النقيِّ السليم، وتقوِّي البدن، وتنمِّي عضلاتِه، وتؤدِّي إلى تحسين وظائف القلب وأجهزة التنفس، فينطلق المكلَّفُ لتأدية التكاليف الربانية بنشاط وحيوية فائقة، ونفس زاكية مسرورة، وعقل مُتَّقِدٍ مستنيرٍ.

ولذا، فقد اهتمَّ النبيُّ ﷺ بتربية أصحابه على هذا الجانب؛ لِمَا له من تأثير فَعَّال في تكوينِ الجسم الصحيح، وإعدادِه إعدادًا قويًّا لكي يتحمَّلَ أعباءَ الحياة ومشاقِّها، والحياةُ كلُّها جهاد ومشقَّة، في حاجة ماسة إلى جسم متين البناء، وثيقِ الصلة بالله تعالى.

«فالرياضة البدنية جزءٌ مِنْ منهجِ التربية الإسلامية، يُقصد بها تقوية الجسم ورياضته على احتمال المشاقِّ وبذل الجهد، كما يُقصدُ بها قوةُ الأخذ بنصيب الإنسان من الحياة، والاستمتاع بطيِّباتها؛ فالجسد الهزيل المريضِ لا يأخذ نصيبَه الحق مِنَ المتاع الحلال، فوق أنه لا يُوصلُ شحنة الحياة إلى النفس توصيلًا صحيحًا تقوم عن طريقه بمهمتها المفروضة عليها، وفوق أن جهادَ الحياة في حاجة إلى جسم وثيق، متينِ البنيان»[1].

أ ـ كان ﷺ يربي أصحابَه على رياضة المشي؛ لِمَا لها من تأثير كبير على تقوية الجسم وأجهزته الأخرى؛ لأن فيه حركةً لكل أعضاء الجسم.

وكان ﷺ يمارس بنفسه هذه الرياضة؛ سواء في تنقُّله لتأدية الصلاة، أو زيارة أحدٍ مِنْ أصحابه، أو في هجرته، أو في غزواته، أو غير ذلك، وكان أحسنَ الناس في مشيته ﷺ.

---

(١) منهج التربية الإسلامية (١/ ١٠٥) بتصرف.

عن أبي هريرة ﷺ قال: «ما رأيت شيئًا أحسنَ من رسول الله ﷺ في مشيته، كأنما الأرض تُطوى له، إنا لنُجهِدُ أنفسَنا، وإنه لغَيْرُ مكترثٍ»[١].

وكان ﷺ أسرعَ الناس مِشيةً، وأحسَنها وأسكنها؛ قال علي بن أبي طالب ﷺ: «كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفَّأ تكفُّؤًا، كأنما ينحَطُّ من صَبَبٍ»، وقال مرة: «إذا مشى تقلَّع»[٢].

وكان عليه الصلاة والسلام يوجِّه أصحابَه إلى المشي، وذلك بترغيبهم في الأجر العظيم لمن كثُرت خطواته إلى المسجد لأداء الصلاة؛ عن جابر بن عبد الله، قال: كانت ديارنا نائيةً عن المسجد، فأردنا أن نبيع بيوتنا، فنقترب مِنَ المسجد، فنهانا رسولُ الله ﷺ، فقال: (**إِنَّ لَكُمْ بِكُلِّ خُطْوَةٍ دَرَجَةً**)[٣]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (**مَنْ تَطَهَّرَ في بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إلى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، كَانَتْ خُطُواتُهُ إِحْدَاهَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، والأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً**)[٤].

فبعضُ التشريعات الإسلامية تعتمد في تأديتها على المشي؛ كالحج، والطواف حول البيت، والسعي بين الصفا والمروة، كما أن الحياة الإسلامية بطبيعتها في أداء الشعائر وفي العلاقات الاجتماعية مليئةٌ بالحركة، وذلك في حدِّ ذاته تربيةٌ على حفظ الجسم وقوته.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب المناقب (٥/ ٥٦٢)، ؛ وقال: «هذا حديث غريب»؛ ورواه أحمد (٢/ ٣٥٠)؛ ورواه ابن حبان من طريق آخر على شرط مسلم (١٤/ ٢١٥).

(٢) رواه الترمذي في كتاب المناقب (٥/ ٥٥٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».
والتقلُّع: الارتفاع عن الأرض بجملته، كحال المنحطِّ مِنَ الصَّبَب، وهي مشية أُولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحُها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهَوَج والمهانة والتماوُت». زاد المعاد (١/ ١٦٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد (١/ ٤٦١)، رقم الحديث (٦٦٤).

(٤) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات (١/ ٤٦٢)، رقم الحديث (٦٦٦).

ب ـ ومن الرياضة التي حثَّ النبيُّ ﷺ عليها وربّى أصحابه عليها: رياضة السباقِ بأنواعها المختلفة؛ فكان مِنْ ذلك سباقُه ﷺ لعائشةَ ﵂، وسبقُها إياه مرةً، وسبقه إياها مرة؛ قالت عائشة ﵂: «سابَقَني رسولُ الله ﷺ فسبقتُه، فلبثت حتى إذا أرهقني اللحمُ سابقني، فسبقني، فقال: (هَذِهِ بِتِلْكَ)»[١].

وسابق رسولُ الله ﷺ بناقته العضباءِ؛ فعن أنس، قال: «كانت ناقةٌ لرسول الله ﷺ، تُسَمَّى العضباءَ، وكانت لا تُسْبَقُ، فجاء أعرابيٌّ على قعود له فسبقها، فاشتدَّ ذلك على المسلمين، وقالوا: سُبقت العضباء، فقال رسولُ الله ﷺ: (إِنَّ حَقًّا عَلَى اللهِ أَلَّا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ)»[٢].

وسابق ﷺ بالخيل؛ فعن ابنِ عمرَ ﵄: «أن رسول الله ﷺ سابق بالخيل التي قد أُضمرت مِنَ الحَفْيَاء، وكان أمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضَمَّر مِنَ الثَّنية إلى مسجد بني زُريق، وكان ابنُ عمر فيمن سابق بها»[٣].

وحثَّ رسول الله ﷺ على رياضة الفروسية؛ لِمَا لها مِنْ فوائدَ عظيمة؛ عن عروة بن الجعد[٤]، عن النبي ﷺ قال: (الخَيْلُ مَعْقُودٌ في نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ)[٥].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/ ١٢٩، ١٨٢، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٨٠).
ورواه أبو داود في كتاب الجهاد (٣/ ٣٠)؛ وابن ماجه في كتاب النكاح (١/ ٦٣٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ناقة النبي ﷺ (٣/ ٢٩٠)، رقم الحديث (٢٨٧١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب غاية السبق للخيل المضمرة (٣/ ٢٨٩)، رقم الحديث (٢٨٧٠).

(٤) هو عروة بن الجعد ـ وقيل: ابن أبي الجعد ـ البارقي، وقيل: الأزدي، سكن الكوفة، روى عنه الشعبي، والسبيعي، وكان ممن سيَّره عثمانُ إلى الشام من أهل الكوفة، وكان مرابطًا ببلاد الروم.
أسد الغابة (٤/ ٢٦).

(٥) رواه البخاري، كتاب المناقب (٤/ ٢٢٦)، رقم الحديث (٣٦٤٥).

فالفروسية لها أثر في تقوية الجسم ولياقته، وهي وسيلةٌ لإعداد المكلَّف للجهاد في سبيل الله تعالى، والدفاع عن عقيدته، ومقدّساته، ونفسه، والسعي لنشر العدل والخير بين الناس في جميع أنحاء المعمورة.

ج - حثَّ النبي ﷺ أصحابَه على الرمي؛ لِمَا له مِنْ فوائدَ متعددة؛ عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ؛ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ)، فأمسك أحدُ الفريقين بأيديهم، فقال ﷺ: (مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ؟) قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال ﷺ: (ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ)[(١)].

وفي هذه الرياضة فوائدُ كثيرةٌ، منها: تدريبُ المكلَّف وإعدادُه إعدادًا قويًا، ليقفَ في وجه أعداء الإسلام والمسلمين لإعلاء كلمة الله تعالى، والدفاع عن نفسه وأهله ومجتمعه مِمَّن أرادَ إيذاءَه والوقيعةَ به، أو بأهله، أو بمجتمعه؛ وذلك لأن الرميَ هو القوةُ التي تُهلك قلاعَ الأعداء، وقد قال ﷺ: (أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ)[(٢)].

ولذلك لم يجعل ﷺ اللَّعبَ بالسهام مِنَ اللَّهو المحرَّم، ولم يعدَّه من تضييع الوقت، بل أمَرَ به بقوله ﷺ: (سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرَضُونَ، وَيَكْفِيكُمُ اللهُ، فَلَا يَعْجِزْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ)[(٣)].

على ألا يكون القصدُ مِنْ وراء الرمي المفاخرة والمباهاة وإضاعة المال، وإنما أن يكون القصدُ التدرُّب على الرمي حتى لا ينساه، ويكون عونًا له في محاربة أعداء الله ومواجهتهم إذا لزم الأمر.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي (٣/ ٢٩٨)، رقم الحديث (٢٨٩٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه (٣/ ١٥٢٢)، رقم الحديث (١٩١٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه (٣/ ١٥٢٢)، رقم الحديث (١٩١٨).

د - ومن الرياضة التي أقرَّها رسول الله ﷺ: اللعب بالحِراب؛ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يومًا على باب حُجرتي، والحبشة يلعبون في المسجد، ورسولُ الله ﷺ يستُرني بردائه أنظُرُ إلى لعبهم»(١).

ففي هذا تأكيدٌ منه ﷺ على استثمار الوقت فيما فيه فائدةٌ على المكلَّف في دينه ودنياه، وإرشادٌ إلى قضاء وقت الفراغ في الأمور النافعة؛ كالرمي، والسِّباق على الأقدام، والمشي وركوب الخيل.

يقول ابن قيم الجوزية: «وأما ركوبُ الخيل، ورميُ النُّشَّابِ، والصِّراع، والمسابقة على الأقدام، فرياضة للبدن كلِّه، وهي قالعةٌ لأمراض مزمنةٍ؛ كالجُذام، والاستسقاء(٢)، والقولَنج(٣)»(٤).

هـ - السباحة وسيلةٌ مِنْ وسائل الرياضة البدنية، حَثَّ الإسلام على تعلُّمها وإتقانها؛ لِمَا فيها مِنْ لِياقةٍ كاملةٍ للجسمِ وتقوية عضلاته، والاستفادة منها وقت الحاجة في إنقاذ نفسه أو غيره مِنَ الغَرق؛ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «علِّموا أولادَكم السباحةَ والرمايةَ وركوبَ الخيل»(٥)، وفي رواية أنه قال: «حقُّ الولد على الوالد أن يعلِّمَه الكتابةَ والسباحةَ والرمايةَ، وألا يرزُقَه إلا طيِّبًا»(٦).

وعن عبد الوهاب المكِّي، عن عطاءٍ، قال: رأيتُ جابرَ بن عبد الله،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب أصحاب الحراب في المسجد (١/ ١٣٣)، رقم الحديث (٤٥٤).

(٢) الاستسقاء: «هو تجمُّع سائل تجمعًا غيرَ سويٍّ في تجويف البطن، ويؤدِّي ذلك أحيانًا إلى تمدد جسيم متعنب في البطن، ويتسبب الاستسقاء من عدة أحوال، مثل تليُّف الكبد، وأمراض القلب، والكلية، والأورام». الموسوعة الطبية الحديثة (١/ ٦٠).

(٣) القولَنج: «هو مرض معويٌّ مؤلم، تعسُر معه خروج الثّفل والريح». قاموس الغذاء والتداوي بالنبات لأحمد بن قدامة (ص٧٧٠).

(٤) الطب النبوي (ص١٩٣).

(٥) المنتقى منتخب كنز العمال (٦/ ٤٣٤).

(٦) المنتقى منتخب كنز العمال (٦/ ٤٣٤).

وجابر بن عُمير[١] قال أحدُهما لصاحبه: أمَا سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرٌ، فَهُوَ سَهْوٌ وَلَغْوٌ، إِلَّا مِنْ أَرْبَعٍ: مَشْيِ الرَّجُلِ بَيْنَ الغَرَضَيْنِ[٢]، وَتَأْدِيبِهِ فَرَسَهُ، وَتَعْلِيمِهِ السِّبَاحَةَ، وَمُلَاعَبَتِهِ لِأَهْلِهِ»[٣][٤].

فاهتمامُ الصحابي الجليل عمرَ بن الخطاب بتعليم السباحة للأولاد، وجَعْلُها مِنْ حقوقهم على آبائهم، يمكن أن يكون دليلًا على فهم الصحابي عمرَ رضي الله عنه للتوجيهات النبوية العامة برياضة الجسم، بالإضافة إلى ما دار بين جابر بن عبد الله وجابر بن عُمير من أنَّ رسول الله ﷺ حثَّ على أنواع من الرياضات المفيدة للجسم المتعدية فائدتُها إلى الآخرين، فذكرَ المشيَ، وتأديبَ الفرس، وتعلُّمَ السباحة، وملاعبة الأهل؛ فدل كلُّ ذلك على أن رياضة السباحة أثر من آثار تربية النبي ﷺ لأصحابه وتوجيهه لهم إلى تعلُّمها وتعليمها.

«تلك بعض الدلائل الحيَّة التي تُبرز اهتمام السُّنَّة النبوية المطهرة بالتربية البدنية، وإدراكها السباق لتأثيرها الإيجابي الفعَّال في تكامل النمو الجسمي، وحُسن قيام أجهزته الداخلية والخارجية بوظائفها تمكينًا للبدن مِنَ الاستعداد لمواجهة مشاق الحياة، والقدرة على حمل أعبائها، وتأكيدًا مِنَ

---

(١) هو: جابر بن عُمير الأنصاري له صحبة، وعداده في أهل المدينة. روى عنه عطاء بن أبي رباح. أسد الغابة (١/ ٣٠٩).

(٢) «الغرض: مرمى السهم، يحتمل أن المرادَ مشيُه بينهما في القتال، ليجمع السهام المرمى بها أو مبارزة للقتال». فيض القدير (٥/ ٢٣).

(٣) «لمَّا كانت النفوسُ الضعيفة ـ كالمرأة، والصبي ـ لا تنقاد إلى أسباب اللذة العظمى إلا بإعطائها شيئًا من اللهو واللعب، بحيث لو فُطمت بالكلية طلبت ما هو شرٌّ لها منه رخَّص لهما في ذلك ما لم يرخِّص لغيرهما، ولهذا عُدَّ ملاعبة الرجل امرأته من الحقِّ، لإعانتها على النكاح المحبوب لله». قاله المناوي في فيض القدير (٥/ ٢٣).

(٤) أخرجه النسائي في عشرة النساء (٥٢، ٥٣، ٥٤)، والطبراني في الكبير (١٧٨٥)، والأوسط، والبزار، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٦٩): «رجال الطبراني رجال الصحيح، خلا عبد الوهاب بن بخت، وهو ثقة»، وصحَّحه الشيخ الألباني بشواهده كما في السلسلة الصحيحة، رقم الحديث (٣١٥).

السُّنَّة النبوية على فوائدِ مختلف أنواع الرياضة البدنية للإنسان، وحثّه على ممارستها في لهوه وفراغه»(١)، شريطة أن تكون وَفْقَ شرع الله تعالى، فلا يكون فيها كشفٌ للعورات، أو رؤيةُ بعضهم عورة بعض، أو اختلاطُ الرجال بالنساء، أو تأخيرٌ للصلاة عن وقتها، فضلًا عن تركها وإهمالها، وألا يكون فيها قذفٌ، أو سِبابٌ، أو أيُّ كلام بذيء يخرج عن إطار الخُلُق الإسلامي، أو تضييعٌ للوقت بلا فائدة؛ فلا بدَّ أن يكون الهدفُ منها تقويةَ الجسم لاستعداده للجهاد في سبيل الله تعالى.

رابعًا: المحافظة على صحة الجسم عن طريق الوقاية:

كما حثَّ النبي ﷺ أصحابَه على بناء أجسامهم والعناية بصحتها وتقويتها، أرشدهم إلى طريق وقايتها مما يُضِرُّ بها، وأمرهم بالمحافظة عليها وتسخيرها فيما أمرهم به الله تعالى مِنْ تكاليفَ ربانيةٍ، وجهادٍ في سبيله، فأمرهم ﷺ بعدم الخروج من منطقة الوباء ما داموا فيها ونهاهم عن القدوم إليها ما داموا بعيدين عنها؛ حرصًا منه ﷺ على صحة أصحابه ووقايتها من الأمراض الوبائية الخطيرة، لكي يتمكَّنوا مِنَ القيام بالأمانة التي أناطها الله بهم، وفي مقدمتها نشرُ الدعوة إلى الله تعالى، والجهاد في سبيله لإعلاءِ كلمته وإعزازِ دينه؛ فقال ﷺ موجهًا الخطابَ إلى الأصحاب رضوان الله عليهم: (**إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ فِي أَرْضٍ، فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا**)(٢).

بل أرشد ﷺ إلى عزل المريض بمرض معدٍ، بفعله ﷺ؛ فقد ثبت

---

(١) أسس التربية الإسلامية (ص٣٠٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون (٧/ ٢٧)، رقم الحديث (٥٧٢٨).

ورواه مسلم، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٤/ ١٧٣٧)، رقم الحديث (٢٢١٨).

عنه ﷺ أنه امتنع أن يبايع المجذوم[١]؛ عن عمرو[٢] بن الشَّريد[٣] عن أبيه، قال: كان في وفد ثقيف رجلٌ مجذومٌ، فأرسل إليه النبيُّ ﷺ: (إِنَّا قَدْ بَايَعْنَاكَ، فَارْجِع)[٤]؛ وقال ﷺ: (لَا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ)[٥].

وأرشد النبيُّ ﷺ أصحابَه إلى أسباب الوقاية الصِّحيَّة كذلك، فنهى عن النفخ في الشراب والتنفُّس في الإناء، محافظةً على الصحة، وصونًا لها من العلل والأسقام؛ عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الشراب، فقال رجل: القذاةُ أراها في الإناء؟ فقال ﷺ: (أَهْرِقْهَا)، قال: فإنِّي لا أروى من نفسٍ واحدٍ، قال: (فَأَبِنِ[٦] القَدَحَ إِذَنْ عَنْ فِيكَ)[٧]،

---

(١) الجُذام: علة رديئة تحدُث من انتشار المرَّة السوداء في البدن كله، فتُفسِدُ مِزاجَ الأعضاء وهيئتها وشكلها.
انظر: الطب النبوي (ص١١٦).

(٢) عمرو بن الشَّريد بن سويد الثقفي، أبو الوليد الطائفي، روى عن أبيه، وأبي رافع، وسعد بن أبي وقاص، وابن عباس، والمسور، وآخرين.
وروى عنه إبراهيم بن ميسرة، وعبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى، ويعلى بن عطاء، ومحمد بن شعيب، وصالح بن دينار وغيرهم، قال العجلي: حجازي، تابعي ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات.
انظر: تهذيب التهذيب (٨/ ٤٧، ٤٨).

(٣) الشَّريد بن سُويد الثقفي، وقيل: إنه مِنْ حضرموت، ولكن عِداده في ثقيف، روى عنه ابنه عمرو بن الشريد، ويعقوب بن عاصم، يُعَدُّ في أهل الحجاز.
انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٧٠٨).

(٤) رواه مسلم، كتاب السلام، باب اجتناب المجذوم ونحوه (٤/ ١٧٥٢)، رقم الحديث (٢٢٣١).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب لا هامة (٧/ ٤٠)، رقم الحديث (٥٧٧١).
ورواه مسلم، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طِيرة ولا هامة ولا صَفر، ولا نوء ولا غُول، ولا يورد ممرض على مصح (٤/ ١٧٤٣)، رقم الحديث (٢٢٢١).

(٦) أي: أبعِدْه. المعجم الوسيط (١/ ٧٩).

(٧) رواه الترمذي في كتاب الأشربة، باب ما جاء في كراهية النفخ في الشراب (٤/ ٢٦٨)، وقال: «حديث حسن صحيح».

وقال ﷺ: (إِذَا شَرِبَ أَحَدُكُمْ، فَلَا يَتَنَفَّسْ فِي الإِنَاءِ)[١].

«والنفخ في الشراب يُكسِبُه رائحةً كريهةً يُعاف لأجلها، وتخالطه أنفاسُ النافخ»[٢]؛ فالتنفُّس في الإناء والنفخ فيه قد يسبب بعض العلل التي تنتقل عن طريق الرَّذاذ المتطاير مِنْ نَفَس المريض ونفخِه في الإناء، بالإضافة إلى تقزُّز الناظر وكراهيته للشرب في ذلك الإناء؛ لأجل ذلك حرَص ﷺ على تربية أصحابه، وأرشدَهم إلى ما فيه صلاحهم ظاهرًا وباطنًا.

وكذلك وَجَّه النبيُّ ﷺ أصحابَه إلى تغطية الأواني بما فيها مِنْ أطعمة وأشربة، حفاظًا عليها مِنْ أن تتلوَّث بالأوساخ والقاذورات فتؤثر على أجسامهم وتسبب لهم الأمراض؛ فقال ﷺ: (خَمِّرُوا الآنِيَةَ، وَأَوْكُوا[٣] الأَسْقِيَةَ، وَأَجِيفُوا[٤] الأَبْوَابَ)[٥]، وفي رواية قال ﷺ: (غَطُّوا الإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ؛ فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ لَا يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غِطَاءٌ، أَوْ سِقَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ وِكَاءٌ، إِلَّا نَزَلَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الوَبَاءِ)[٦].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأشربة، باب النهي عن التنفس في الإناء (٦/ ٣١٣)، رقم الحديث (٥٦٣٠).
ورواه مسلم، كتاب الأشربة، باب كراهة التنفس في نفس الإناء (٣/ ١٦٠٢)، رقم الحديث (٢٦٧).

(٢) الطب النبوي (ص١٨٢).

(٣) أوكى السقاء: «شده بالوكاء، وهو الربط». انظر: المُغرب في ترتيب المعرب للمطرِّزي (ص٩٣).

(٤) أجيفوا الأبواب: أي: أغلقوها. انظر: القاموس المحيط (١/ ١٠).

(٥) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه (٤/ ١١٩)، رقم الحديث (٣٣١٦).

(٦) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٤/ ١١١)، رقم الحديث (٣٢٨٠).
ورواه مسلم، كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء، وإيكاء السقاء (٣/ ١٥٩٦)، رقم الحديث (٢٠١٤).

«فالنبي ﷺ لكمال شفقته على الأمة ونُصحه لهم، نهاهم عن الأسباب التي تُعرِّضُهم لوصول العيب والفساد إلى أجسامهم وقلوبهم.

ولا ريب أنه قد يكون في البدن تهيؤ واستعداد كامِنٌ لقَبول هذا الداء، وقد تكون الطبيعةُ سريعةَ الانفعال، قابلةً للاكتساب من أبدان تجاوره وتخالطه، فإنها نقالةٌ، وقد يكون خوفُها مِنْ ذلك ووهمها أكثر أسباب إصابة تلك العلّة لها، فإن الوهم فعّال مستولٍ على القُوى والطبائع، وقد تصل رائحة العليل إلى الصحيح فتُسقِمُه، وهذا معاينٌ في بعض الأمراض، والرائحة أحدُ أسباب العدوى، ومع هذا كله، فلا بد من وجود استعداد البدن وقَبوله لذلك الداء»[1].

خامسًا: المحافظة على الجسم عن طريق العلاج الطبي:

واهتم النبيُّ ﷺ بالجانب العلاجي ووسائله المتعددة، فدعا أصحابه - رضوان الله عليهم - إلى طلب الدواء المفيد والنافع لأجسامهم؛ لأنَّ الله ﷻ هو الخالق وحده، فالداء والدواء من عنده سبحانه، وهو المُوجِدُ لهما؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وعن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: (**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ ﷻ**)[2].

وعدَّ رسول الله ﷺ الدواءَ من قدر الله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: (**الدَّوَاءُ مِنَ القَدَرِ، وَقَدْ يَنْفَعُ بِإِذْنِ اللهِ**)[3].

وقد أرشد ﷺ مَنِ استأذنَه مِنَ الأعراب في التداوي من الأمراض إلى طلب الدواء، وأخبرهم بأن الله تعالى لم يضعْ داءً إلا وضع له دواءً، علِمَه مَنْ عَلِمَه، وجَهِلَه من جَهِلَه، إلا داءً واحدًا وهو الهرمُ؛ فعن

---

(١) الطب النبوي (ص١١٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي (٤/١٧٢٩)، رقم الحديث (٢٢٠٤).

(٣) رواه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم عن ابن عباس، انظر: منتخب كنز العمال (٣/٤٩٦).

أسامة بن شَرِيكٍ[١] قال: قالت الأعراب: يا رسولَ الله، ألا نتداوى؟ قال: (نَعَمْ يَا عِبَادَ اللهِ، تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً - أو قال: دَوَاءً - إلا دَاءً وَاحِدًا)، قالوا: يا رسول الله، وما هو؟ قال: (الْهَرَمُ)[٢].

وأمر ﷺ أصحابَه بتبريد رأس مَنْ أصابته الحُمَّى بالماء، تخفيفًا لدرجة الحرارة، وحمايةً للدماغ مِنْ أنواع الأذِيَّة التي قد تُلحِقُها الحُمَّى بالمحموم؛ عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَأَبْرِدُوهَا بالمَاءِ)[٣].

وقد طبَّق أصحابُ رسول الله ﷺ تعاليمَ رسولهم، واتخذوا الأسباب في الوقاية مِنَ الأمراض، وطلبوا الدواءَ لمرضاهم بُغيةَ الحِفاظ على الصحة، واستعمالها في طاعة الله، وتنفيذ أمره سبحانه؛ فعن عاصم بن عمر بن قتادة[٤]، قال: جاءنا جابرُ بن عبد الله في أهلنا، ورجلٌ يشتكي خُرَّاجًا به، أو جراحًا، فقال: ما تشتكي؟ قال: خُرَّاجٌ بي قد شَقَّ عليَّ. فقال: يا غلامُ، ائتني بحَجَّام، فقال له: ما تصنع بالحجام يا أبا عبد الله؟ قال: أريد أن أعلِّق فيه مِحجَمًا، قال: والله إن الذبابَ ليصيبُني أو يصيبني الثوبُ فيؤذيني، ويشقُّ عليَّ، فلما رأى تبرُّمَه مِنْ ذلك، قال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ، فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةٍ مِنْ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ)، قال رسول الله ﷺ: (وَمَا أُحِبُّ

---

(١) هو: أسامة بن شريك الثَّعلبي الذُّبياني، روى عن النبي ﷺ، وروى عنه زيادُ بن عِلاقة وعليُّ بن الأقمر، عِدادُه في أهل الكوفة، روى له أصحاب السنن الأربعة.
أسد الغابة (١/ ٨١)؛ تهذيب الكمال (٢/ ٣٥١).

(٢) رواه الترمذي (٨/ ١٩٢) وقال عنه: «حديث حسن صحيح».

(٣) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الحمى من فيح جهنم (٧/ ٢٦)، رقم الحديث (٥٧٢٥).
ورواه مسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي (٤/ ١٧٣١)، رقم الحديث (٢٢٠٩).

(٤) هو عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الأنصاري المدني أبو عمر، روى عن أنس بن مالك وجابر بن عبد الله وأبيه عمر بن قتادة بن النعمان، روى عنه زيد بن أسلم، وبكير بن عبد الله الأشج، وروى له الجماعة. تهذيب الكمال (١٣/ ٥٢٨).

أَنْ أَكْتَوِيَ)، قال: فجاء بحجَّامٍ، فشرطه، فذهب عنه ما يجد»[١].

وعن خالد بن سعد[٢]، قال: خرجنا ومعنا غالبُ بنُ أبجرَ[٣]، فمرض في الطريق، فقدمنا المدينةَ وهو مريض، فعاده ابنُ أبي عتيق، فقال لنا: عليكم بهذه الحُبيبة السوداء، فخذوا منها خمسًا أو سبعًا، فاسحَقُوها، ثم اقطِرُوها في أنفِه بقطرات زيتٍ في هذا الجانب، وفي هذا الجانب؛ فإنَّ عائشةَ رضي الله عنها حدَّثتني أنها سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: (إِنَّ هَذِهِ الحَبَّةَ السَّوْدَاءَ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إلا السَّامَ). قلت: وما السام؟ قال: (المَوْتُ)[٤].

هكذا كانت توجيهات النبي ﷺ الصِّحيَّة لأصحابه تحتوي على مختلف أنواع العلاج وأساليبه؛ كالجراحة، وتبريد الحُمَّى، والكَيِّ، وغيرها من الأساليب الصالحة للعلاج.

«وهذا مِنْ تمام حكمة الرب ﷻ، وتمام ربوبيته، فإنه كما ابتلى عبادَه بالأدواء، أعانهم عليها بما يسَّره لهم، مِنَ الأدوية، وكما ابتلاهم بالذنوب أعانهم عليها بالتوبة والحسنات الماحية، والمصائب المكفِّرة، وكما ابتلاهم بالأرواح الخبيثة مِنَ الشياطين، أعانهم عليها بجند من الأرواح الطيبة، وهم الملائكة، وكما ابتلاهم بالشهوات أعانهم على قضائها بما يسَّره لهم شرعًا وقدَرًا مِنَ المشتهَيات اللذيذة النافعة.

فما ابتلاهم سبحانه بشيء إلا أعطاهم ما يستعينون به على ذلك

---

(١) رواه مسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي (٤/ ١٧٢٩، ١٧٣٠)، رقم الحديث (٢٢٠٥).

(٢) هو خالد بن سعد الكوفي، مولى أبي مسعود الأنصاري البدري، روى عن حذيفةَ بنِ اليمان، ومولاه أبي مسعود الأنصاري، وأبي هريرة، وعائشة، وروى عنه سليمانُ الأعمش، ومنصور بن المعتمر، وروى له البخاري والنسائي وابن ماجه. تهذيب الكمال (٨/ ٧٩).

(٣) هو غالب بن أبجر المُزَني، يعد في الكوفيين، روى عنه عبد الله بن معقل. أسد الغابة (٤/ ٣٣٥).

(٤) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الحبة السوداء (٧/ ١٧)، رقم الحديث (٥٦٨٧).

البلاء، ويدفعونه به، ويبقى التفاوت بينهم في العلم بذلك، والعلم بطريق حصوله، والتوصُّل إليه»[١].

وعلى هذا، فالتداوي مباحٌ عند علماء الأمة، ولا ينافي التوكلَ على الله تعالى؛ يقول ابن الجوزي: «إذا ثبت أن التداوي مباحٌ بالإجماع، مندوبٌ إليه عند العلماء، فلا يُلتفتُ إلى قولِ قومٍ قد رأوْا أن التداوي خارج مِنَ التوكُّل؛ لأن الإجماع على أنه لا يخرج مِنَ التوكُّل، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه تَداوى، وأمر بالتداوي، ولم يخرج بذلك مِنَ التوكل، ولا أخرج من أمره أن يتداوى مِنَ التوكل»[٢].



(١) الطب النبوي (ص١٠٧).
(٢) تلبيس إبليس (ص٣٠٦).

المبحث الثاني

منهجه ﷺ في تربية العقل

* وفيه مطلبان:

○ المطلب الأول: تعريف العقل وأهميته في الإسلام.

○ المطلب الثاني: الطرق التي استخدمها رسول الله ﷺ في تربية العقل مع أصحابه رضوان الله عليهم.



المطلب الأول

تعريف العقل وأهميته في الإسلام

تعريف العقل:

العقل: هو مِنْ عَقَل الشيءَ: إذا فهمه، فهو معقول؛ أي: مفهوم. والعقل نور روحاني تُدرِكُ به النفس الأمورَ الضرورية والفطرية، وابتداء وجوده: عند اجتنان الولد في الرَّحِم، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمُل عند البلوغ(١).

فالإنسان يُولد ناقصَ العقل، فيخرج إلى الدنيا «غافلًا عما فيه أهلُه، فيلقَى الأشياء بذهن ضعيف، ومعرفة ناقصةٍ، ثم لا يزال يتزيَّد في المعرفة قليلًا قليلًا، وشيئًا بعد شيء، وحالًا بعد حال حتى يألَفَ الأشياءَ ويتمرَّن عليها، فيخرج من حدِّ التأمُّل لها والحيرة فيها إلى التصرُّف والاضطراب في

(١) انظر: القاموس المحيط، مادة: (ع ق ل).

المعاش بعقله وحياته، والاعتياد والطاعة، والسهو والغفلة والمعصية»[١].

فالعقل يعدُّ أساسًا في المعرفة عند الإنسان، فهو وسيلةُ إدراكه، يتمُّ عن طريقه ترتيبُ المعارف وتنظيمها وتوظيفها في المجال المناسب لها؛ إذ بدونه لا يستطيع المكلَّفُ الحصولَ على المعرفة، ولا القيامَ بالعلم والتعليم، ولا أداءَ التكاليف الربانية المنوطة به؛ ولذا فقد كرَّم الله تعالى الإنسان عن غيره من المخلوقات بما وهبه من نعمة العقل وميَّزه به، فهو أداة المعرفة، وبموجبه يكون مكلَّفًا بالوقوف عند الأوامر والنواهي، والتعرُّف إلى صاحب الأمر والنهي، والتصرُّف في أمور المعاش وكيفية استغلال الأشياء واستخدامها وَفْقَ منهج الله تعالى.

وبهذا استحق التكريم، وفُضِّلَ على كثيرٍ مِنَ المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

«فسبحان الذي ألبسه خِلَعَ الكرامة كلَّها مِنَ العقل والعلم والبيان والنُّطق»[٢].

وقد نبَّه الإسلامُ على قيمة العقل وأهميته، حيث جعل آياتِ الله تعالى ـ المشاهدةَ منها والمتلوةَ ـ مجالًا للتفكُّر والنظر والتدبُّر، فامتدح اللهُ ﷻ العقولَ وأصحابها في كتابه في مواضعَ كثيرةٍ؛ منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

---

(١) رسالة التوحيد (ص٢٢٨)، عن كتاب من أعلام التربية العربية الإسلامية (١/ ١٠٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٦٣).

وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

والرسول ﷺ بيّن لأصحابه - رضوانُ الله عليهم - أهميةَ العقل وقيمته عندما دعاهم إلى التفكُّر والتدبُّر في آيات الله تعالى المبثوثةِ في الكون؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**تَفَكَّرُوا في خَلْقِ اللهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا في الخَالِقِ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ قَدْرَهُ**)(١).

ففي هذا الحديث تأكيدٌ على أهمية العقل في ترسيخ وتثبيت دعائم الإيمان واليقين بالآخرة، وتمكينُ المكلَّف مِنْ فهم ظواهر الكون وسُننه وقوانينه، لكي يستثمرَها فيما فيه منفعةٌ له ولبني آدمَ في هذه الحياة الدنيا؛ «فالعقل كلُّ العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله ﷺ»(٢).

والدعوة المحمدية خاطبت عقل الإنسان كما خاطبت نفسَه، فاتخذت من العقل حُجَّةً على المكلَّف؛ لأنه أساسُ التكليف فيه، والاختيار والتمييز، حيث إن كثيرًا مِنْ قضايا الإسلام وأحكامِه معقولةٌ، يستطيعُ العقل أن يتعرَّف إلى البراهين والأدلة والحُجَج على معرفة صحَّتها وسلامتها وفائدتها للمكلف في حياته فردًا، ومع الجماعة، وأنها قائمةٌ على دعائم الإيمان بالله والخير والفضيلة والعدالة(٣).

ومن ثَمَّ، فإن الإسلام يُعلي مِنْ شأن العقل ويحترمه، ويحثُّ المكلَّف على استعماله في التفكُّر والتدبُّر والتبصُّر، والنظر في ملكوت السمٰوات والأرض، دون أن يمارِسَ عليه أيَّ جبر أو قهر أو إكراه؛ قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال ﷻ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

فوجَّه اللهُ تعالى رسولَه ﷺ في هذه الآيات إلى عدم إكراه عقول

(١) خرَّجه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٣٩٥)، وقال عنه: «فالحديث بمجموع طرقه حسن عندي» (٤/ ٣٩٧).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١١٧).
(٣) انظر: أسس التربية الإسلامية (ص٥١١).

المكلَّفين على الإيمان، وإنما عليه أن يذكِّرهم ويدعوَهم بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لكي يتفكَّروا ويتأمَّلوا ويتدبَّروا في آيات الله، ودلائلِ الإيمان ووحدانية الله تعالى، ثم بعد ذلك يؤمنوا عن اقتناعٍ كاملٍ بالله تعالى بالأدلة المنطقية، والبراهين العقلية الدالَّة على ألوهيته وربوبيته ﷻ، وأحقِّيَّته في الأمر والنهي والتشريع؛ قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦].

* واهتم الإسلام كذلك بتنمية العقل بإذكاء قدراته واستعداداته؛ فحثَّه على البحث والتعمُّق في دراسة سُنن الله تعالى في الكون لمعرفة شيءٍ مِنْ أسرار هذا الكون العظيم، وإدراكِ بعض الحقائق لتقوية إيمانِه بربِّ العالمين، وترسيخها في نفسه، والسعي إلى تحقيقها في نفوس الآخرين، والاستفادة منها في تنمية الإنتاج الماديِّ والمخترعات النافعة لبني الإنسان في هذه الحياة الدنيا، والتي تعين على تعرُّف المكلَّف إلى ربه، وعلى تأدية حقوق الله تعالى، والحقوق الأخرى التي كلفه به ﷻ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: ١٠١].

فالعقل مهمٌّ في الإسلام؛ كيف لا وهو مناطُ التكليف، وأداة الإدراك، وبه يميِّز المكلَّفُ بين الخير والشر، وهو آلتهُ في اقتناص العلم، والمعرفة، وميزانه الذي يميز به صحيحه من سقيمه، وراجحَه من مرجوحه، والمرآةُ التي يعرف بها الحسن من القبيح؟![1].

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١١٧).

وقد امتدح الله تعالى العلم وأهله؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

«وفي حثِّ القرآن الكريم على تعلُّم القراءة والكتابة وهما مدخلٌ أساسيٌّ مهمٌّ للمعرفة والعلم والحكمة، وبدء نزول الوحي بكلمة «اقرأ» وقرنُها في التعلُّم بـ«القلم» دعوة للعقل البشري إلى الأخذ بأسباب العلوم والمعارف طريقًا إلى الإيمان بخالق الكون والإقرار بوجوده، وسبيلًا إلى النظر في الكون وفهمه وتسخيره لمصلحته»(١).

فالعقل له أهميةٌ كبيرة في التربية النبوية؛ قال وهب بن منبِّه: «إن الشيطان لم يكابِدْ شيئًا أشدَّ عليه مِنْ مؤمنٍ عاقلٍ، وإنه يكابد مئة جاهل، فيستجرُّهم حتى يركبَ رقابَهم، فينقادون له حيث شاء، ويكابدُ المؤمنَ العاقل، فيصعُب عليه حتى لا ينالَ منه شيئًا مِنْ حاجته»(٢).

وقال يوسف بن أسباط: «العقلُ سراج ما بَطَنَ، وملاك ما أعلن، وسائِسُ الجسد، وزينةُ كلِّ أحد، ولا تصلُح الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه».

وسئل ابن المبارك: ما خير ما أعطي الرجل؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدبٌ حسنٌ، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ صالح يستشيره، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمتٌ طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موتٌ عاجل(٣).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ليس العاقلُ مَنْ يعرف الخيرَ مِنَ الشرِّ، ولكنه الذي يعرف خيرَ الشرَّين».

وقالت عائشة رضي الله عنها: «قد أفلح مَنْ جعلَ الله له عقلًا»(٤).

---

(١) أسس التربية الإسلامية (ص٥١٥) بتصرف يسير.
(٢) ذم الهوى لابن الجوزي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد (ص٩).
(٣) المرجع السابق (ص٩).
(٤) ذم الهوى (ص٨).

هكذا كان اهتمامُ الإسلام بالعقلِ الذي هو آلةُ كلِّ علم، وميزانُه الذي تُوزَنُ به جميعُ المعارف، فيعرف المكلَّفُ به صحيحَها وسقيمَها، ولا غرابة في ذلك؛ فإن الإسلامَ دينُ الفطرة، وهو يحترم كلَّ الطاقات البشرية؛ لأنها هبة من الله المنعم، أعطاها الإنسان وكرَّمه بها، وأعطى كلَّ طاقة قَدْرها الصحيح، فلم يبخَسْها، ولم يُعطِها فوقَ قيمتها، واستغلَّ جميع طاقات الإنسان فيما فيه فائدةُ المخلوق البشري وصلاحُ حالِه وحالِ بني جنسه على هذه الأرض.

«ومن ثَمَّ، فهو يحترم الطاقةَ العقلية ويشجِّعُها، ويربِّيها لتتَّجِه في طريق الخير، ولكي يصل إلى ذلك، فإنه يمزجها بمزيج الروح، ويستنبتُها في تربة الروح الأريجة المشعَّة، لتستمدَّ مِنْ أريجها العذبِ وإشعاعها الطليق»[1].

وقد استخدم الرسول ﷺ بعضَ الطرق في تربية العقل، وسأُبرزها في المطلب الثاني بإذن الله تعالى.

المطلب الثاني

الطرق التي استخدمها رسول الله ﷺ في تربية العقل مع أصحابه رضوان الله عليهم

* **ويشتمل على ثلاثة طرقٍ:**

الأولى: طريق تحديد المنهج الصحيح للنظر العقلي.

الثانية: طريق تحديد المجالات التي أمر الله العقل بالتفكُّر والتدبُّر فيها.

الثالثة: طريق تحديد المجالات التي منع الله العقل من التفكُّر فيها، وأمره بالتسليم المطلق بها.

* * *

(١) منهج التربية الإسلامية (١/ ٧٧).

أولًا: طريق تحديد المنهج الصحيح للنظر العقلي:

لقد حدَّدَ رسولُ الله ﷺ لأصحابه - رضوان الله عليهم - **المجالات التي يمكن لعقولهم إدراكُها، فحثَّهم على التفكُّر والتدبُّر فيها، وحدَّد لهم المجالاتِ التي لا يمكن لعقولهم إدراكُها**، ولا معرفةُ كُنهها، فنهاهم عن التفكُّر فيها والخوض في غِمارها، وأمرهم بالتسليم والإذعان لِمَا جاء به الوحي؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي الخَالِقِ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ قَدْرَهُ»**(١).

فالمربي العظيم ﷺ كان حريصًا على أصحابه حينما نهاهم عن أن يتفكَّروا في ذات الله تعالى لكي لا يَهلَكوا، ولم يكن ذلك منه ﷺ حجرًا على تفكيرهم، أو تعنتًا منه لكي يضع أمامَهم القيودَ والعقبات؛ «كلا، إنما كان يوفر جهدهم للنافع من الأعمال؛ كان يصون هذا الجهد أن يتبدَّد سُدًى، ويؤدي إلى الضلال؛ كان يريد للناس أن يُنفقوا طاقتَهم - بعد أن يقضوا حظَّهم من تدبُّر آياتِ الله في الكون والاهتداء إليه - في تعمير الأرض وزيادة «الإنتاج»؛ الإنتاج بمعناه الواسع الشامل العميق؛ الإنتاج الروحي والفكري والمادي في ميدان العقيدة، وميدان الجهاد، وميدان العمل بمعناه الاصطلاحي المفهوم»(٢).

فالعقل وسيلةٌ إلى معرفة الله تعالى، وإلى معرفة الحق الذي أرسل به رسلَه؛ عن طريق تدبُّر الظاهر والمشاهد للحِسِّ الذي يمكن للعقل إدراكه، فدوره التفكُّر في مخلوقات الله تعالى وآياته، وبذل الوُسْع في استخراج كنوز الله تعالى التي أودعها في الأرض، ومعرفة سنن الله تعالى في هذا الكون الواسع، والتي سخَّرها لعباده لكي يقوموا بعمارة الأرض وإصلاحها وابتغاءِ فضل الله تعالى؛ كما قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]،

(١) سبق تخريجه (ص٢٧٨).

(٢) قبسات من الرسول للأستاذ محمد قطب (ص٧٤).

وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وبعد أن حدَّدَ الإسلامُ للمكلَّفِ مجالاتِ النظر العقلي، وضع له ضوابطَ تكفُل للعقل حُسْنَ التفكير والنظر، مع حُسن الإدراك والفهم، ويحَصِّل عن طريق هذه الضوابط العلمَ الصحيح النافع المثمر الموافق لفطرة الله التي فَطَرَ الناس عليها.

ومن هذه الضوابط ما يأتي:

الضابط الأول:

حَرَص الإسلام على تحرير العقول وتجرُّدها من المؤثِّرات السابقة القائمة على الظنون والأهواء والتقليد الأعمى الذي ورثوه عن الآباء والأجداد دون وعي أو تمييز؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]؛ وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

وعن حذيفةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً؛ تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاؤُوا، فَلَا تَظْلِمُوا**)(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ**)(٢).

---

(١) رواه الترمذي (٨/ ١٧٠) وقال عنه: «حديث حسن غريب».

(٢) رواه الترمذي (٨/ ١٥٥، ١٥٦)، وقال عنه: «حديث حسن صحيح».

فهذه النصوص القرآنية والأحاديثُ النبويةُ تتضمَّن التركيزَ على أهمية الإدراك لدى المكلف في تحديد موقفه واتجاهه في الاعتقاد، أو في الأخلاق واتِّخاذ القرار السليم في ذلك حسب المنهاج الصحيح[١]، فلا ينساق وراء الأفكار البرّاقة التي لا تستندُ إلى دليل، أو يعمل دون وعي، أو إدراك صحيح يميز به بين الخير والشرِّ، والصحيحِ والسقيمِ، واتِّباع غيره في ما يأتي وما يذَرُ عن عَمًى وجهالةٍ وتبعيَّةٍ مميتةٍ.

فالإسلام يربي في أتباعه الإدراكَ الواعي المبنيَّ على الدليل الذي يحفظهم من التَّبعِيَّة المقيتة للآخرين بلا فهم أو تمييز، ويرفعهم عن أن يكونوا إمَّعاتٍ لا حول لهم ولا قوة، قد سُلبت إرادتُهم، وضعُفت شخصيتُهم، وذابت عقولُهم في تقليد الآخرين فيما يفعلون ويتركون؛ لأن هذا الإدراكَ الواعيَ المبنيَّ على الدليل الصحيح هو أساسُ الاعتقاد السليم والأخلاق الحميدة، القائم على التدبُّر والتذكر والفهم المستقيم.

والمربي العظيم ـ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ قد حرَص على تحرير عقول أصحابه وتجرُّدها من الهوى، ونقَّاها مِنَ التعصُّب للرأي، وزكَّاها من تقليد الآخرين، بأنْ فتَحَ لهم بابَ الاجتهادِ العقليِّ لمن توفَّرت فيه شروطه؛ فعن أُناسٍ مِنْ أهل حمصَ، مِنْ أصحاب معاذ بن جبل ﷺ: أن رسول الله ﷺ لَمَّا أراد أن يبعث معاذًا إلى اليمن، قال: (**كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟**)، قال: أقضي بكتاب الله، قال: (**فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللهِ؟**)، قال: فبسُنَّة رسول الله ﷺ، قال: (**فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا فِي كِتَابِ اللهِ؟**)، قال: أجتهد برأيي ولا آلُو. فضرب رسول الله ﷺ صدره، فقال: (**الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرضِي رَسُولَ اللهِ**)[٢].

بل جعل ـ عليه أفضلُ الصلاة وأتم التسليم ـ أجرًا لمن اجتهد فأخطأ

(١) انظر: أسس التربية الإسلامية (ص٤٤٣).
(٢) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٣٣٠، ٣٣١).

تشجيعًا له على إعمال عقله واجتهاده بُغيةَ الوصول إلى الصواب، كما جعل للمجتهد المصيب أجرين، أحدُهما لاجتهادِه وإعمالِ عقله، والآخر على تحرِّيه الإصابةَ وإصابتها؛ عن عمرو بن العاص رضي الله عنه؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَان، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ**)(١).

فرسول الله ﷺ يضرب لنا أروع الأمثلة وأزكاها في تجرُّده ﷺ من الأهواء وعدم التعصب للرأي؛ فكان ﷺ يقبل الآراء الوجيهة والأفكار الصائبة من أصحابه رضوان الله عليهم، فينزل عن رأيه الشريف إذا تبيَّنت له الفائدة في غيره، وكانت المصلحةُ في الرأي الآخر راجحةً، كما حدَث في وقعة بدر الكبرى، حيث اجتهد ﷺ في اختيار المكان المناسب لنزول جيشه، فأشار عليه الحُباب بن المنذر بأنَّ المكانَ الذي اختاره للجيش لا يصلُح، وإنما هناك مكانٌ أفضلُ منه، فنزل رسولُ الله ﷺ عن رأيه الشريف، وأخذ برأي الحُباب؛ لِمَا فيه من المصلحة والمنفعة للإسلام والمسلمين؛ «عن الحُباب بن المنذر، قال: يا رسولَ الله، إن هذا المكان الذي أنت به ليس بمنزلٍ، انطَلِقْ بنا إلى أدنى ماءٍ إلى القوم؛ فإنِّي عالمٌ بها وبقُلُبِها، بها قَلِيبٌ قد عرفتُ عُذوبةَ مائه لا ينزَحُ، ثم نبني عليه حوضًا، فنشرب ونقاتل، ونُغَوِّرُ ما سواه مِنَ القُلُبِ. فنزل جبريل على رسول الله ﷺ فقال: الرأي ما أشار به الحُباب»(٢).

ومنها قَبولُه ﷺ لمن اقترح عليه اتِّخاذَ خاتَم يختِمُ به كتبه إلى الملوك والأمراء الذين يريد دعوتَهم إلى الإسلام؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى رَهْطٍ أو أُناسٍ من الأعاجم، فقيل له: إنهم لا يقبلون كتابًا إلا عليه خاتَمٌ، فاتخذ النبيُّ ﷺ خاتمًا من فضة، ونقشه:

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٨/ ١٩٨)، رقم الحديث (٧٣٥٢).

(٢) رواه ابن سعد في طبقاته (٢/ ١٥).

محمدٌ رسول الله»[١].

ومنها قَبولُه ﷺ رأيِ القائل بغسل الأواني التي طُبخ فيها لحم الحُمُر الإنسية، بعد أن حرَّمها، بدل كسرها؛ وذلك لِمَا رآه من مصلحة الانتفاع بها بعد تطهيرها بالغسل؛ عن سلمةَ بن الأكوع ﷺ قال: أتينا خيبرَ، فحاصرناهم حتى أصابتْنا مخمصةٌ شديدةٌ، ثم إن الله فتحها عليهم، فلمَّا أمسى الناسُ اليومَ الذي فُتحت عليهم أوقدوا نيرانًا كثيرة، فقال رسول الله ﷺ: (مَا هَذِهِ النِّيرَانُ؟ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُوقِدُونَ؟)، قالوا: على لحم، قال: (عَلَى أَيِّ لَحْمٍ؟)، قالوا: على لحم حُمُرٍ إنسية، فقال رسول الله ﷺ: (أَهْرِيقُوهَا وَاكْسِرُوهَا)، فقال رجل: يا رسول الله، أو نهريقها ونغسِلُها؟ قال: (أَوْ ذَاكَ)[٢].

ومنها كذلك قَبولُه ﷺ رأي عمِّه العباس بن عبد المطلب ﷺ، عندما استثنى الإذْخِرَ مِنَ التحريم لَمَّا حرَّم رسول الله ﷺ عَضد شجرِ حرم مكة؛ عن مجاهد ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قام يوم فتح مكة، فقال: (إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللهِ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحْلِلْ لي إِلَّا سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ، لا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا وَلَا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إلا لِمُنْشِدٍ)، فقال العباس بن عبد المطلب: إلا الإذخر يا رسول الله، فإنه لا بد منه للقَيْن والبيوت، فسكت، ثم قال: (إِلَّا الإِذْخِرَ؛ فَإِنَّهُ حَلَالٌ)[٣].

وفي هذا تربيةٌ للصحابة رضوان الله عليهم بفعلِ النبي ﷺ وقولِه على

(١) رواه البخاري في كتاب اللباس، باب اتخاذ الخاتم ليختم به الشيء (٧/٦٨، ٦٩)، رقم الحديث (٥٨٧٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٥/٨٦)، رقم الحديث (٤١٩٦).
ورواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر (٣/١٤٢٧ ـ ١٤٢٩)، رقم الحديث (١٨٠٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الإذخر والحشيش في القبر (٢/١١٦)، رقم الحديث (١٣٤٩).

تحرُّر عقولهم من الأهواء، والتقليد للآباء والأجداد، وتجرُّدها من التعصُّب والمَيْل الشخصي المخالف للنصوص الشرعية، فتحرَّرت عقولُهم من أسر الهوى والتقليد، إلى عقول قد استنارت بنور الإيمان، واستضاءت بنور الدليل والبرهان.

الضابط الثاني:

حرص الإسلام على التثبُّت والتبيُّن والتروِّي في معرفة كلِّ أمرٍ قبل الاعتقاد به واقتفائه.

فالإسلام يدعو أتباعَه إلى معرفة الحقائق العلمية، وفَهْم أسبابها، والتثبُّت من ذلك، والتأكُّد من صحتها وموافقتها للدليل الصحيح من الكتاب والسُّنَّة قبل اعتقاد تلك الحقائق وتبنِّيها وتطبيقها؛ فالدين الإسلامي دينُ الوضوح والاستقامة، فلا يقوم شيءٌ فيه على مجرد الظنون والأوهام والشبهات؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

«وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجًا كاملًا للقلب والعقل يشمل المنهجَ العلميَّ الذي عرفَتْه البشريةُ حديثًا جدًّا، ويضيف إليه استقامةَ القلب ومراقبة الله، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة.

فالتثبُّت مِنْ كل خبر ومِنْ كلِّ ظاهرة ومِنْ كلِّ حركة قبل الحكم عليها هو دعوةُ القرآن الكريم، ومنهجُ الإسلام الدقيق. ومتى استقام القلبُ والعقلُ على هذا المنهج، لم يبْقَ مجالٌ للوهم والخُرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجالٌ للظن والشُّبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يَبْقَ مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم»(١).

ففي هذا التوجيه القرآنيِّ العظيمِ إلى حفظ السمع والبصر والفؤاد من

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٢٧).

الظن والوهم والشُّبهة، وإحساس المكلَّف بتَبِعَةِ تلك الحواسّ، وأن الله سائِلُه عنها يوم القيامة ـ تربيةٌ له على التحرِّي والتثبُّت في جميع الأمور صغيرِها وكبيرِها سواء.

وهو «أدب خُلُقيٌّ عظيم، وهو أيضًا إصلاحٌ عقليٌّ جليلٌ، يعلم الأمة التفرقة بين مراتب الخواطر العقلية بحيث لا يختلط عندها المعلوم والمظنون والموهوم، ثم هو أيضًا إصلاحٌ اجتماعيٌّ جليل، يجنِّبُ الأمةَ الوقوعَ والإيقاع في الأضرار والمهالك من جراء الاستناد إلى أدلة موهومة»[1].

ومن طرق التثبت في الأمور: الشهادة؛ قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، «والشهادة ضرورية في إقامة الحدود للتثبُّت في الأمر؛ فلا تُؤخذُ الأمورُ اعتباطًا، وإنما ينبغي الوصولُ فيها إلى اليقين قبل إصدار الحكم، ودرء الحدود بالشبهات ـ وهو مبدأٌ فقهيٌّ إسلامي مأخوذ عن السُّنَّة ـ يشير إلى هذا الاتجاه، وهو ضرورةُ التثبُّت الكامل قبل النطق بحكم في أي موضوع، وأن الأمر يظل معلَّقًا ما لم يصلِ الإنسانُ إلى الدليل القاطع.

وكلُّها توجيهات وتدريب للطاقة العقلية على طريقة العمل الصحيحة ومنهج التفكير السليم»[2].

ثانيًا: طريق تحديد المجالات التي أمر العقل بالتفكر والتدبر فيها:

هناك عدة مجالات رئيسة دعا الإسلامُ أتباعَه إلى إعمال عقولهم فيها، ويمكن حصرُها في أربعة مجالات:

الأول: تدبُّر آيات الله تعالى في الكون الفسيح بُغيةَ معرفة تفرد الله تعالى بالخلق والتدبير وقدرته المعجزة، لكي يتحرَّكَ القلبُ إلى إخلاص العبادة له وحده بلا شريك، وطاعته بتنفيذ أمره واجتناب نهيه.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٥/ ١٠١).

(٢) منهج التربية الإسلامية (١/ ٧٨).

فالإسلام يوجِّه العقلَ إلى تدبُّر آيات الله تعالى في الخلق، والتأمُّل في حكمته سبحانه من هذه المخلوقات؛ سواء خلق الكون وما فيه، أو خلق الإنسان بما فيه، وأنه لا خالِقَ غيرُه، ولا معبودَ بحقٍّ سواه؛ قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

«والإسلام يخاطب العقل ليتجرَّدَ في تفكُّره، وليصِلَ إلى النتيجة الموضوعية العلمية التي يدلُّ عليها كل ما في السمٰوات والأرض من شيء، ويتخلَّى عن الهوى الذي يُعمي، وعن الكبر الذي يُضِلُّ، فيجد الحقيقةَ بارزةً تملأ اليقين»[1]؛ يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقال ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

والإسلام يخاطب العقلَ كذلك ليتيقَّنَ مِنْ أن الله الخالقَ الذي يدبِّر الأمورَ كلَّها قد خلق السمٰوات والأرض بالحق، وكذلك خلق الإنسان بالحق، ويدبِّره ويدبِّر بقية الخلق بالحق أيضًا، فالحقُّ قاعدة الكون والإنسان، وهو ممتزج بهما، ولا مكانَ للباطل والضلال والمصادفة في خلق الله تعالى؛ فالكون والإنسان لم يُوجَدا صدفةً، ولا باطلًا، ولا عبثًا؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة للأستاذ محمد قطب (ص٥٤١).

ﭐلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢].

«وبذلك يكون الإنسان ـ منذ نشأته إلى رجعته، إلى توفيته الجزاءَ يومَ الجزاء ـ قائمًا بالحقِّ في كلِّ مرحلة، محاطًا بالحقِّ في كل خطوة، لا باطل في خِلقته، ولا عبث ولا لهوَ ولا انحراف. هذا المعنى عميق جدًّا في بناء الفكرة الإسلامية، والقرآن لا يزال يُلِحُّ في توكيده، والتوقيع على الحِسِّ البشري ليتنبَّه إليه؛ إنه أساسُ العقيدة الذي تنشأ عليه الحياة.

الحق في السمٰوات، وفي الأرض، وفي الناس والحياة والقرآن ذاته هو الحق، ونزل بالحقِّ: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وفي هذا الجو المشبع بـ«الحق» يربي الإسلامُ النفسَ البشريةَ، فيعمِّقُ في شعورها الإحساسَ بالحقِّ حتى يصبحَ هو العقيدةَ، ويصبحَ هو الحياةَ. إنه لا شيء يحدث باطلًا، ولا شيء يحدث اعتباطًا، كل شيء بالحق. ولقد يعجِزُ الذهنُ البشريُّ أحيانًا عن أن يحيط ببعض الحقائق التي تصادفه في حياته فيضِلّ؛ يضِلُّ، فيظن أن الحياةَ باطلٌ، وكل شيء فيها عبث لا حكمة فيه؛ ومن ثم تتشتَّت روحُه، وتتفجَّر وتتناثر، وتفقد «الحق» الذي يسير كيانها فتضيع»[(١)].

فالله ﷻ المتَّصف بصفات الكمال، المنزَّه عن صفات النقص والعجز، والتي عرفها العقل، واستيقن منها عن طريق النظر، والتأمل في آيات الله ومخلوقاته، فلا يمكن للعقل أن يتصوَّر من هذا الإله العظيم أن يخلق شيئًا عبثًا ولعبًا وباطلًا، وإنما خَلَقَ كلَّ شيء بالحق، وأقام اليوم الآخر بالحق أيضًا ليحاسب الناسَ فيه على ما عملوه في حياتهم الدنيا؛ وذلك لأن هذه الحياة الدنيا ليست نهايةَ المطاف؛ ومِنْ ثَمَّ لا يمكن أن يتمَّ

(١) منهج التربية الإسلامية (١/ ٨١).

فيها الجزاء الحق بين الناس، فلا بد من يوم آخر يبعث الله فيه الناس، فيحاسبهم على سيئاتهم وحسناتهم ويقتصُّ للمظلوم ممَّن ظلَمه.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن مِنْ مقتضى العقل السليم أن يأخذ المكلَّفُ حسابَه لذلك اليوم الذي ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

فيحرص على كلِّ عمل يقرِّبه إلى الجنة، ويُرضي عنه ربَّه ومعبوده، ويبتعد عن كل عمل يقرِّبه من النار، ويُسخِط عليه ربَّه ومعبودَه، وأن يحفظَ نفسَه من الاغترار بهذه الحياة الدنيا وما فيها من لذة عاجلةٍ وبهرَجٍ لا حقيقةَ له؛ قال الله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الثاني: تدبُّر حكمة التشريع، والنظر فيها للقيام بتطبيقه على أحسن الوجوه.

يوجه الإسلام أتباعه إلى إعمال عقولهم للنظر في حكمة التشريع الرباني؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤١، ٢٤٢]، وقال سبحانه: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]، وقال سبحانه: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠]،

«وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: كذلك البيانِ يبيِّن اللهُ لكم الآيات، فالكاف للتشبيه واقعةٌ موقعَ المفعول المطلق المبيِّن لنوع «يُبين...» واللَّام في «لكم» للتعليل والأجْل، وهو امتنانٌ وتشريفٌ بهذه الفضيلة لإشعاره بأن البيانَ على هذا الأسلوب مما اختصَّت به هذه الأمةُ، ليتلقَّوْا التكاليفَ على بصيرةٍ بمنزلة الموعظة التي تُلقى إلى كامل العقل موضحةً بالعواقب... وبين فائدة هذا البيان على هذا الأسلوب بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: ليحصُلَ للأمة تفكُّر وعلم في أمور الدنيا وأمور الآخرة؛ لأن التفكُّر مظروفٌ في الدنيا والآخرة... ولا يخفى أن الذي يصلُح للتفكُّر هو الحكم المنوط بالعِلَّة، وهو حكم الخمر والميسر، ثم ما نشأ عنه قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾»(١).

فالإسلام قد عُني بالعقل وإيقاظه لكي يتدبَّرَ آياتِ الله تعالى الخاصةَ بالتشريع ويفهمَها، ويعيَها حتى يتمكن من تطبيقها على أحسن وجه.

فالتشريع أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ لكي يربِّي أمتَه عليه، ويعلمهم إياه، ويدرِّبهم على تطبيقه بوعي للحكمة التي أنزله الله من أجلها، لكي يتمكَّنوا من تطبيقه على الوجه الصحيح التام اللائق بالتشريع الرباني المنزل من عنده ﷻ؛ وذلك لأن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة، بحيث يمكن أن تنطبق عليها القاعدةُ التشريعيةُ انطباقًا آليًا، «وإنما هناك مئات مِنَ الحالات للقاعدة الواحدة، وما لم يكن الإنسان فاهمًا للحكمة الكامنة وراء التشريع، وفاهمًا لترابُط التشريعات في مجموعها، فلن يتمكَّن مِنْ تطبيقها في تلك الحالات المختلفة التي تعرِض للبشر في حياتهم الواقعية»(٢).

وهكذا كان النبيُّ ﷺ يربِّي أصحابَه على إعمال الفكر في الحالات التي تتطلَّب ذلك، وعلى فهم الحكمة من التشريع الإلهي، ومعرفة الترابُط العامِّ بين جميع التشريعات الربانية.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢/ ٣٥٢، ٣٥٣) بتصرف يسير.

(٢) منهج التربية الإسلامية (١/ ٨٧).

وها هو أحد خرِّيجي مدرسة النبوَّة، الصحابيُّ الجليل عمر بن الخطاب ﷺ، قد أوقف حدَّ السرقة عام الرمادة؛ لأنه عدَّ الجوع الذي قاساه هؤلاء السُّرَّاق شبهةً تَدْرَأ عنهم حدَّ السرقة؛ روى الإمام مالك وغيره: أن رقيقًا لحاطبٍ سرقوا ناقةً لرجل من مُزينة فانتحروها، فرُفع ذلك إلى عمرَ بن الخطاب، فأمر عمر كثير بن الصَّلت أن يقطع أيديَهم، ثم قال عمر لحاطب: أراك تُجيعُهم، (ولابن وهب: وقال: والله لولا أظنُّ أنكم تستعملونهم وتُجيعونهم حتى لو أن أحدَهم وجد ما حرَّم الله عليه، فأكله، حلَّ له، لقطعتُ أيديهم)[1]، ثم قال عمر لحاطب: والله لأغرمنك غُرمًا يشقُّ عليك، ثم قال للمُزَني: كم ثمنُ ناقتك؟ فقال المزنيُّ: قد كنت والله أمنعُها مِنْ أربعمئة درهم، فقال عمر: أعطِه ثمانمئة درهم[2].

فدل هذا الأثر على أن الضرورة تَدرَأُ الحدَّ عن السارق، فجعل عمر بن الخطاب ﷺ الجوعَ عُذرًا دَرَأَ به الحدَّ عن السُّرَّاق عام المجاعة إذا لم يجدوا ما يشترون أو يُشترى به.

ولذا، فإن الفقهاء مِنَ الحنفية والشافعية والحنابلة والمالكية، يرَوْن عدم قطع يد السارق في عام المجاعة، إذا لم يُعلم استغناؤُه عن السرقة، أما إن عُلم أنه لم تكن له ضرورةٌ تدفعُه إلى السرقة، فإنه يُقامُ عليه الحدُّ، فتُقطع يدُه[3].

وهذا التصرف من عمر بن الخطاب ﷺ عين الحكمة؛ لأنه كان على وعي كبير بحكمة تشريعات الله تعالى في مجموعها.

فالشريعة الربَّانية قد حدَّدت مسؤوليةَ وليِّ أمر المسلمين، فجعلته

---

(١) انظر: شرح الزرقاني على موطأ مالك، لمحمد الزرقاني (٤/ ٣٨).

(٢) تنوير الحوالك للسيوطي (٢/ ٢٢٠)، رواية الإمام مالك عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب؛ والمغني لابن قدامة (٩/ ١١٥)؛ وإعلام الموقعين (٣/ ١٤)؛ ومصنف عبد الرزاق (١٠/ ٢٣٨) بأسانيدَ مختلفة؛ والمحلى لابن حزم (١١/ ٣٢٤، ٣٥٠).

(٣) انظر: مغني المحتاج للشيخ محمد الشربيني (٤/ ١٦٢)؛ والمغني لابن قدامة (٩/ ١١٤)؛ وإعلام الموقعين (٣/ ١٤)؛ وفتح القدير (٤/ ٢٢٨).

مسؤولًا عن كفاية الفقراء وسدِّ حاجتهم، وإتاحة الحياة الكريمة الطيِّبة لهم، قبل أن يطالبَهم بالتزام الفضيلة والابتعاد عن الرذيلة.

فالإسلام «لا يبدأ بتقرير العقوبة ولا بتطبيقها، إنما يسعى أولًا لسدِّ منافذ الجريمة حتى لا تقع ابتداءً، فإذا وقعت نظر في كلِّ حالة ليضمن أن فاعلها غيرُ معذور، فيقيم عليه الحدَّ وقتئذٍ، وقد ضمن ألَّا عُذْرَ له في ارتكاب الجريمة، فإذا قامت الشبهةُ فإنها تَدْرَأُ الحدَّ»[١].

ولهذا، فإن المكلَّف ينبغي له أن يتفطَّن لحكمة التشريع الإلهي، ويعيَ ذلك ويتدبَّرَه لكي تسيرَ أمورُه في هذه الأرض على المنهاج الصحيح المتَّسم بالعدالة وتحرِّي الصواب.

الثالث: تدبُّر آيات الله تعالى في الكون لمعرفة أسراره واستخلاص الطاقة المادية وتذليلها لخدمة الإنسان.

إن الإسلام يوجِّه أتباعَه إلى استخلاص الطاقة المادية لتسخيرها في عَمارة الأرض؛ قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الأعراف: ١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

«هذا تعميم بعد تخصيص، اقتضاه الاهتمام أولًا، ثم التعميم ثانيًا. ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عامٌّ مخصوصٌ بما تحصُل للناس فائدةٌ مِنْ وجوده؛ كالشمس للضياء، والمطر للشراب، أو بعض أحواله؛ كالكواكب للاهتداء بها في ظُلُمات البرِّ والبحر، والشجر للاستظلال، والأنعام للركوب والحَرْث، ونحو ذلك. وأما ما في السمٰوات والأرض مما لا يفيدُ الناسَ، فغير مُرادٍ؛ مثل الملائكة في السماء، والأهوية المنحبسة في باطن الأرض التي يأتي منها الزلزال... وفي ذلك المذكور مِنْ تسخير ما في السمٰوات والأرض دلائلُ على تفرُّد الله بالإلهية، فهي وإن كانت مِنًّا يحقُّ أن يشكرَها

(١) حول تطبيق الشريعة (ص٣١).

الناس، فإنها أيضًا دلائلُ إذا تفكر فيها المنعَم عليهم اهتدوا بها، فحصلت لهم منها ملاءمات جسمانية ومعارف نفسانية»[١].

والسعي لتحقيق التسخير في هذه الحياة الدنيا يحتاج إلى جهدٍ عقلي يبذُلُه الإنسان لكي يعرِّف أسرار الكون الكبير وخواصَّه، ثم إلى جهدٍ آخرَ بدَنِيٍّ يبذُلُه الإنسانُ ليطبق به نتائجَ هذه المعرفة وثمارها التي توصَّل إليها، ويحولها إلى عمل منتج في عالم الواقع.

والإسلام يوجِّه العقل البشري لأداء ذلك كلِّه، فهو ميدانُه الذي يمكن أن يُنتجَ فيه، والعقل قد فطَرَه اللهُ تعالى على التفكير فيما حوله.

«فالعقل البشري ما لم يُعَوِّقْهُ معوِّقٌ ـ كما كان مِنْ أمر الكنيسة الأوروبية وحَجْرها على العقل أن يفكرَ ـ مفطورٌ بطبعه على التفكير فيما حوله، واستنباط الطرق التي تحقق للإنسان حاجاتِه، ثم تحسينها ومحاولة الوصول بها إلى أقصى حدٍّ مِنَ الإتقان والفاعلية، من أجل الحصول على القدر من «المتاع» الذي قدَّره الله للإنسان في الأرض.

ولكن العبرة في حياة «الإنسان» ليست بمجرد العمارة المادية للأرض، ولا مجرد الحصول على المتاع مِنْ أي لون، ومِنْ أي طريق، إنما «الإنسان» خُلِقَ لشيءٍ أرفعَ مِنْ ذلك وأسمى، خُلق لحمل «الأمانة» التي أشفقت من حملها السمٰوات والأرض والجبال، وحَمْلُ الأمانة لا يتمُّ بمجرد العمارة المادية، ولا المتاع الحِسِّيِّ، إنما يتم بإقامة ذلك كلِّه على أساس مِنَ «القيم»، والقيمُ الحقيقيةُ هي التي حواها المنهج الرباني للحياة... ومن ثم كان لا بد من توجيه العقل أولًا ـ والكيان الإنساني كلِّه في الحقيقة ـ للتعرُّف إلى الله والإيمان به وطاعته، حتى إذا جاء العقل يتعرف إلى الكون، ويعمل على تسخير طاقاته في عمارة الأرض، كان مهتديًا بالهدي الرباني، فأقام عمارةَ الأرض على أساس المنهج الرباني الذي به وحده تصلُح الحياة»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٣٧).
(٢) مذاهب فكرية معاصرة (ص٥٤٣، ٥٤٤).

والأمة الإسلامية هي التي أنشأت المنهج التجريبيَّ في أبحاثها العلمية بتوجيه من تعاليم الإسلام، حتى قامت عليها حضارةُ الإسلام في عصورها المشرقة التي كانت فيها قائمةً على دين الله ومتمسّكةً بكتاب ربِّها وسُنَّة نبيها ﷺ.

وقامت نهضة أوروبا الحديثة على ذلك المنهج التجريبيِّ الذي أنشأه المسلمون؛ يقول المستشرق هـ. ر. جِب: «أعتقد أنه مِنَ المتَّفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدُّم المعرفة العلمية مساعدةً ماديةً ملموسةً، وأنه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبيُّ إلى أوروبا في العصور الوسطى»[(١)].

ويقول الأستاذ محمد قطب معلِّقًا على هذا النص: «وفي ذلك الاعترافِ ما يكفي لإثبات جهد المسلمين الملموس في ترقية العلوم - نظريّها وتجريبيّها - وقتَ أن كانوا مسلمين.

ولكن هذا التقدُّم المادي - الذي قطعوا فيه أشواطًا عظيمة - لم يفتِنْهم قطُّ، ولم يخرُجْ بهم عن إنسانيتهم، وتلك مزية الإسلام»[(٢)].

الرابع: تدبُّر آيات الله تعالى التي وردت عن أحوال الأمم على مدار التاريخ لمعرفة سُنَّة الله تعالى في الأرض.

فتاريخ الأمم السابقة يعدُّ مجالًا واسعًا لتحقيق سنن الله تعالى الربانية بأكملها، فلا بد من تدبُّر هذه السنن الربانية التي مرَّت بها الأمم السابقة لأخذ العبرة والعِظة والتذكير منها.

«إن التاريخ لا يُدْرَسُ - من وجهة النظر الإسلامية - لتسجيل انتصارات الجيوش وانكساراتها ونشأة الدول وزوالها مجردةً عن القِيَم المصاحِبة لها، وعن مجرى السنن الربانية فيها؛ إنما يُدرَسُ - بادئ ذي بدءٍ - لتتبُّع حياة الإنسان في حالتيه: حالة الهدى وحالة الضلال، وما يجري خلال كل من الحالتين من أحداث ونتائج تترتب على الأحداث، مضبوطة بالمعيار الذي

(١) الاتجاهات الحديثة في الإسلام، عن كتاب منهج التربية الإسلامية (١/ ٩٩).
(٢) منهج التربية الإسلامية (١/ ٩٩).

لا يُخطئ، معيار السُّنَّة الربانية الحتمية التحقيق»[1].

لذلك كلِّه وجَّه الله تعالى الطاقةَ العقلية للنظر في سُنَّته سبحانه في الأرض في كثير من آياته:

فقال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

وقال عز من قائل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال ﷻ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

(١) مذاهب فكرية معاصرة (ص٥٥١، ٥٥٢).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣، ١٤].

وقال ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

* ففي هذه الآيات دعوة صريحة ومتكررة للناس أن ينظروا نظرةَ تفكُّر وتدبُّر في تاريخ مَنْ سبقهم من الأمم من ناحية عوامل الفناء التي حلَّت في مجتمعاتهم، والتدمير الذي حلَّ بهم؛ بسبب كفرهم بالله تعالى ورسله، وإعراضهم عن منهج الله تعالى الذي أنزله إليهم، والذي فيه صلاحُهم وعِزُّهم وسعادتُهم، وتركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسكوتهم عن ذلك، حتى حلَّت بهم الفتنة وهي «الشرك»؛ كما قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]؛ ومن ثَمَّ حلَّ بهم العذاب والدمار في الدنيا، وعذابُ الله في الآخرة أكبر؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، ولم يمنعهم مما حَلَّ بهم مِنْ عذاب الله وانتقامه منهم أنهم كانوا ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١]، ولا بتمكينهم من الناحية المادية؛ فقد ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

وكذلك في الآيات السابقة دعوةٌ صريحة ومتكرِّرةٌ للناس أن ينظروا نظرةَ تفكُّر وتأمُّل وتدبُّر في تاريخ مِنْ قبلَهم من الأمم من ناحية عوامل البقاء والتمكين في المجتمعات، والاستخلاف في الأرض، وإحلال الأمن

والطمأنينة في النفوس؛ بسبب إيمانهم بالله تعالى وتوحيده، والابتعاد عن الشرك بكلِّ صوره وأشكاله، واتِّباعهم منهج الله تعالى، وتحكيم شرعه، الذي فيه صلاحُهم وسعادتهم، وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخذهم على يد الظالم، وحجزه عن الظلم والفساد في الأرض، واستغلال القُوى المادية فيما ينفع الناس ويصلح حالهم.

فكما هو واضحٌ مِنْ خلال آيات القرآن الكريم أن العبرة ليست بالقوة الجسمية، ولا بالقوة المادية، ولا بكثرة الإنتاج، ولا بالتفنُّن في عمارة الأرض والترف في ذلك، وإنما العبرةُ تكمُن في داخل النفس الإنسانية: أهي مهتديةٌ بهَدْي الله تعالى، مطبقةٌ لتعاليم الإسلام، مستجيبةٌ لرُسُله، آمرةٌ بالمعروف، ناهيةٌ عن المنكر، مستغلةٌ نِعَمَ الله تعالى في سُبل الخير والصلاح ونشر الفضيلة بين الناس؟ أم أنها عكس ذلك؛ ضالَّةٌ مُدْبِرَةٌ عن هدي الله تعالى، معرضةٌ عن تعاليم الله تعالى، عاصيةٌ لرُسُله، آمرةٌ بالمنكر والفحشاء، ناهيةٌ عن المعروف، مستغلّةٌ نِعَمَ الله تعالى في الإفساد في الأرض ونشرِ الرَّذيلة بين الناس.

وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ١٨ ـ ٢٠].

فالعقل لا يمكن أن يستغنيَ عن الرسالة، فالرسالةُ تربيةٌ، الهدفُ منها تبصيرُ المكلَّف بما يجلِب له النفعَ ويدفع عنه الضّرر[1]؛ ولهذا جعل الله

(١) انظر: الفتاوى (١٩/ ٩٩).

تعالى في فطرة المكلَّف الحاجةَ إلى طاعته سبحانه وعبادته والتوجه إليه، وجعل في ذلك مصدرَ قوَّته وسعادته وصلاح حياته.

«فالعقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمُل العلم والعمل، ولكنه ليس مستقلًّا بذلك، لكنه غريزةٌ في النفس، وقوةٌ فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور القرآن، كان كنور العين إذا اتصل به نورُ الشمس والنار»(١).

ولهذا، فإن هناك أمورًا لا يمكن للعقل أن يدرك كُنْهَها وحقيقتَها، وليس له إلا التسليمُ والإيمانُ بما قرَّره شرع الله تعالى ومنهجه في كتابه سبحانه، أو على لسان رسوله ﷺ؛ كما سيتَّضح في الكلام اللاحق إن شاء الله تعالى.

ثالثًا: طريق تحديد المجالات التي أُمر العقل بعدم التفكُّر والتدبُّر فيها، وإنما أُمر بالتسليم بها:

هناك عدة أمور لا يستطيع العقل البشري أن يستقلَّ بمعرفتها والنظر فيها وحده دون الرجوع فيها إلى الوحي الذي أنزل الله تعالى؛ وذلك لأن للعقل حدودًا يتوقف عندها إدراكُه ومعرفته، فهناك حقائق لا يمكن لأي إنسان ـ مهما كانت قوة الفهم والذكاء والإدراك عنده ـ أن يدركَها؛ لأنها ليست في محيط إدراكه وتجاربه، فهي إذن خارجُ المحسوس الذي يمكن أن يدركَه بعقله؛ ولذا، فإن الوحي الرباني قد كفى العقلَ البشريَّ هذه الحقائقَ، فلقَّنها له، وأملاها عليه، وليس للعقل إلا أن يتيقَّن من صدق الخبر وصدق الذي جاء منه الخبر(٢).

وعلى هذا ربَّى النبيُّ ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم، فوجَّههم إلى عدم الخوض في معرفة كُنه الله تعالى؛ فقال لهم ﷺ: **(لَا تَفَكَّرُوا في اللهِ،**

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام (٣/٣٣٨، ٣٣٩).

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة (ص٥٣٢).

وَتَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ)[١].

وكذلك نهى النبي ﷺ أصحابَه عن الخوض في القدَر ومسائله وكيفية حدوثه؛ لأنه غيبٌ لا يمكن للعقل إدراكُ كُنْهِه وحقيقته، ولا يَسَعُ المكلَّفَ إلا التسليمُ واتخاذُ الأسباب المشروعة تعبُّدًا لله تعالى الذي أمر باتخاذها.

فعُلم مِنْ هذا أن هناك مجالاتٍ لا يحسُنُ للعقل النظرُ فيها؛ لأنها فوق إدراكه.

ومعرفة هذه الحقيقة عن العقل، وأنه قاصر عن إدراك بعض مجالات الفكر والنظر لا تَنْقُصُ من قدره، وإنما «معرفة هذه الحقيقة تجعلنا نتحفَّظ فقط في تقديرنا للقيمة النهائية للعقل، بحيث لا نجعله هو المحكَّمَ في كل شيء، ولا المرجعَ الأخيرَ لكل شيء، وإنما ننزله منزلَه الحقَّ، فما كان فيه هو المرجعَ الوحيدَ أو المرجعَ النهائيَّ وكَلْناه إليه كلّه، وما كان فيه قَمينًا أن يضلَّ إذا تُرك وحدَه، جعلنا له الصحبةَ التي تمنع ضلالَه، وما كان عاجزًا عن الوصول فيه إلى شيء لم نُقحمه فيه... وهذا هو منهج الإسلام»[٢].

ويمكن القول بأن الإسلام حَظَرَ على العقل أمورًا؛ منها:

الأول: التفكير في ذات الله تعالى وصفاته وقدَرِه من أجل معرفة كُنْهِها.

إن الإسلام حظر على أتباعه أن يتفكروا في الذات الإلهية وصفاتِها وقدرِها؛ حِرصًا منه على صيانة الطاقة العقلية من الضياع والجري فيما لا طائل وراءه، ولتوفير الجهد في النافع من الأعمال؛ لأن الإحاطة بكُنه الله تعالى وصفاته وقدره لا يمكن للعقل أن يصلَ إلى معرفة شيء منها؛ ولذا جاء الإسلام آمرًا أتباعَه بالإيمان بالله تعالى ورسله، والإيقان التامّ بصفات الله تعالى بلا تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل، واتّخاذ الأسباب التي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مذاهب فكرية معاصرة (ص٥٣٣).

شرَعَها لهم في الوقاية من الشرور، والسعي في طلب الرزق من الحلال، والاستسلام لقضاء الله تعالى وقدره بعد ذلك.

وذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يضع لنفسه تصوُّرًا صحيحًا عن الله تعالى وصفاته، وعن قدره ومشيئته، وما يجب له سبحانه، فالإنسان لم يُؤتَ من العلم إلا قليلًا؛ ولذا فلا يمكن لأي عقل - مهما بلغ من القوة والإدراك والنظر - أن يحيط بكلِّ شيء علمًا، ولا أن يُبدِعَ في مجالٍ ليس مجاله.

«فأول انحراف هو محاولةُ إقحام العقل فيما ليس من شأنه أن يُلِمَّ به، فضلًا عن أن يحيط بكُنهه في قضية الذات الإلهية، فمن باب احترام العقل لذاته، ومعرفته لطبيعته وحدود مقدرته، ما كان لهذا العقل أن يقتحم ميدانًا ليس بطبيعته مؤهَّلًا لاقتحامه، ولا قُدرةَ له على الخوض فيه.

إن المحدود لا يتسنَّى له أن يحيط بغير المحدود، والفاني لا قُدرةَ له على الإحاطة بحقيقة الأزل والأبد، حيث لا بداية ولا نهاية ولا حدود، إنما يستطيع العقل أن «يتصور» ذلك لونًا من التصور، وأن يدرك أنه يمكن أن يُوجدَ على هذه الصورة... أما أن يحيط بكُنهه على أي نحو من الأنحاء، فقضية أخرى خارجة عن نطاق العقل، وهي التي توجب عليه أن يتجنَّبَ الخوض فيها؛ لأنه لن يصل فيها إلى شيء له اعتبار»[(١)].

فالعقل لا يمكن أن يدرك كُنهَ الذات الإلهية، وإنما الذي يمكن أن يدركه هو آثارُ هذه القدرة الإلهية، فيصلُ عن طريق هذه الآثار إلى وجود الله تعالى، واتصافه بصفات الكمال والجمال التي وصف بها نفسَه ﷻ، ووصفه بها رسولُه ﷺ.

وكذلك القدر لا يمكن للعقل أن يعرف كُنهَه وحقيقته، وإنما الذي يدركه هو آثار هذا القدر، وأنه مضبوط بضوابطَ غيبيةٍ لا يعلمها إلا خالقُها سبحانه؛ ومن ثم، فلا سبيل للعقل تجاه هذا القدر الإلهي إلا التسليمُ

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة (ص٥٠٢).

المطلق بأن القدرَ خيرَه وشرَّه من الله تعالى، والإيمان بأن ما أصاب المكلَّفَ لم يكن ليخطئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه.

يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «تأملت حالاتٍ عجيبةً، وهي أن الله سبحانه قد بنى هذه الأجسام متقنة على قانون الحكمة، فدل بذلك المصنوع على كمال قدرته ولطيف حكمته، ثم عاد فنقضها، فتحيَّرت العقول بعد إذعانها له بالحكمة في سر ذلك الفعل، ثم رأيت أشياءَ مِنْ هذا الجنس أظرفَ منه؛ مثل اخترام شابٍّ ما بلغ بعضَ المقصود بنيانُه، وأعجبُ مِنْ ذلك أخذُ الطفل من أكفِّ أبويه يتململان، ولا يظهر سرُّ سلْبِه، والله الغني عن أخذه، وهما أشدُّ فقرًا إلى بقائه، وأظرفُ منه إبقاء هَرِمٍ لا يدري معنى البقاء، وليس له فيه إلا مجرَّدُ أذى، ومن هذا الجنس تقتيرُ الرزق على المؤمن الحكيم، وتوسعتُه على الكافر الأحمق؛ في نظائرَ لهذه المذكورات يتحيَّر العقل في تعليلها، فيبقى مبهوتًا، فلم أزل أتلمَّح جملةَ التكاليف، فإذا عجَزَتْ قُوى العقل عن الاطِّلاع على حكمةِ ذلك، وقد ثبتَ لها حكمةُ الفاعل، علمت قصورَها عن دَرْكِ جميع المطلوب، فأذعنتْ مقرَّةً بالعجز»(١).

ويقول: «إنني إذا رأيت القدر يجري بما لا يفهمه العقل ألزمتُ العقل الإذعان للمقدر، فكان أصعبَ التكليف، وخصوصًا فيما لا يعلم العقل معناه»(٢).

الأمر الثاني: النهي عن التشريع مِنْ دون الله تعالى، وبيان ما يحبُّه الله تعالى وما يكرهه.

إن التشريع حقُّ الله تعالى وحده، والبشر لا يستطيعون أن يضعوا لأنفسهم المناهج، أو أن يشرِّعوا الشرائع، وأن يسُنُّوا القوانين والأنظمة؛ ذلك لأنهم لا يمكن أن تسلَمَ عقولُهم من الهوى البشري والضعف الإنساني على ما اتَّصفوا به من قصورهم في العلم والإدراك؛ من أجل ذلك جعل الله

(١) صيد الخاطر (ص٣٠).
(٢) صيد الخاطر (ص٢٢).

تعالى التشريعَ بغير ما أنزل سبحانه كفرًا مخرجًا من ملة الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فالتشريع حقُّ الله تعالى وحده؛ لأنه هو الخالق والمعبود والإله، وهو صاحبُ الأمرِ كلِّه، وهو المدبِّر والمهيمن، وهو العليم الخبير الذي يعلم الخير كلَّه، وكذلك يعلم الشرَّ كلَّه، ومن ثَمَّ يُشرِّع لعباده ما فيه خيرُهم وصلاحهم وسعادتهم إن هم اتَّبعوا أمره وتشريعه، وطبقوه كما أنزله عليهم، وأذعنوا لأحكامه وأوامره صغيرِها وكبيرِها، فالله العليم الخبير هو الذي يحِقُّ له أن يشرع ويسن القوانين والأنظمة لعباده؛ لاتصافه بصفات الكمال والجمال، وتنزُّهه عن الظلم وجميع صفات النقص والقصور.

أما الإنسان القاصر المتَّصف بصفات الضعف والعجز والجهل، وعدم الإحاطة بكُنه الأمور، وجَهْلِه بأمور الغيب القريبة والبعيدة، فلا يستطيع بحال من الأحوال أن يشرِّع أو أن يَسُنَّ القوانين والأنظمة التي تُصلح حالَ المكلَّف وحياته، والتي يمكن أن يتحاكم إليها البشر في الأرض فيقع العدل والخير والصلاح.

لا يمكن ذلك؛ لأن هذا الإنسان ليس خالقًا ولا عليمًا ولا خبيرًا، فهذه صفاتُ رئيسة فيمن له حقُّ التشريع وسنُّ القوانين والأنظمة، أما من عُدمت فيه هذه الصفات، فليس له الحقُّ في أن يشرِّعَ للبشر تشريعاتٍ مِنْ دون الله تعالى من عند نفسه وهواه، أو من أهواء الذين لا يعلمون، ومَنْ يتجرَّأ على ذلك فقد خاب وخسر، واستحقَّ العذابَ الأليم في الدنيا والآخرة؛ لإقحام عقله فيما ليس مِنْ مجاله ولا في مقدرته، ولوقوع الضلال والفساد في الأرض وبين الناس بسبب تلك التشريعات والقوانين والأنظمة التي تخالف شرعَ الله تعالى ومنهجَه، والتي تدعم الفساد والانحراف والخَنا وتقوِّيه، وترفض الخير والصلاح والطهارة وتسعى في إزالتها من الأرض،

والحيلولة بين الناس وبين هذا الخير الذي يُحيي القلوبَ ويُصلحُ العبادَ والبلاد، والذي ينادي به عبادُ الله الصالحين.

يقول الأستاذ محمد قطب حفظه الله تعالى:

«إنما يلزم لمن يضع للإنسان منهجَ حياتِه أن يكون - بادئ ذي بدء - عالمًا بذلك «الإنسان» ليضع له منهجًا على قدِّه، ويلزم له أن يكون محيطَ العلم بماضي ذلك الإنسان وحاضره ومستقبله؛ لكيلا يعالجَ مشكلةً بمشكلةَ جديدة، ولا يُقَوِّمَ انحرافًا بانحراف جديد، ويلزم له أن يكون منزَّهًا عن الغرض، منزَّهًا عن الهوى والشهوات؛ ليكون منهجُه «موضوعيًا» خالصًا بالنسبة لحياة الإنسان»[1].

لهذه الاعتبارات جميعًا وجب على البشر اتِّباعُ منهجٍ ربَّانيٍّ يضعه لهم ربُّ العالمين العليم بهم وبما يصلح لهم، الخبير بحالهم ووضعهم.

فيتوجهون له بالعبادة والتعظيم والخضوع والإذعان لشرعه، فيأتمرون أوامره، وينتهون عن نواهيه؛ طاعةً وتقرُّبًا إليه سبحانه، يرجون رحمته، ويخافون عذابه، ويسعَوْن لإرضائه لكي يرضى عنهم في الدارَيْن، ويكرِمَهم بإدخاله إياهم جناتِ النعيم، مع ما يكون لهم بسبب إذعانهم لشرعه، وتطبيقه في هذه الحياة الدنيا من العِزَّة والنصر والتمكين، والاستخلاف في الأرض، والطمأنينة في القلوب، والبركة في الرزق، إلى غير ذلك من ألوان الفتح المبارك؛ وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة (ص٥٣٨).

هذه هي الأمور التي نهى الإسلامُ العقلَ أن يتناولها.

ولم يكن ذلك حَجْرًا من الإسلام على العقل، و«إنما صيانة لطاقة العقل أن تتبدَّد فيما لا طائلَ وراءه... ومَنْ أبى أن يلتزمَ بالحظْر، فقد أنهك عقلَه وشقِيَ، ولم يجد في النهاية الظِّلَّ الذي يفيءُ إليه مِنْ لَفحة الرمضاء، وهي على - أيِّ حالٍ - نصيحةٌ يلتزم بها العاقلُ، فيجد فيها الخيرَ، ويتجنَّبُها مَنْ يتجنَّبُها، فيلقى جزاءَ المخالفة اضطرابًا وحيرةً لا تستقرّ.

أما التشريع بغير ما أنزل الله، فليس الأمرُ فيه أمرَ نصيحةٍ تُوَجَّه إلى الناس، إنما هي قضيةُ كفر وإيمان»(١).

والناظر في تاريخ كثيرٍ مِنَ الناس الذين أعملوا عقولهم فيما ليس من طبيعة العقل أن يدرِكَهُ، أو أن ينظرَ فيه، يجد أنهم لم يقعوا على شيء، وعادوا بالخيبة والخذلان، إلا مَنْ رحم الله تعالى ممن تاب وعاد منهم إلى التسليم بعجز عقله وعقول من صنع صنيعَه، وآمن بالله تعالى، واستسلم لتعاليمه ووقف عند حدوده.

يقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «لقد أوغل المتكلمون، فما وقعوا على شيء، فرجع عقلاؤهم إلى التسليم، وكذلك أصحابُ الرأيِ مالوا إلى القياس، فإذا أشياءُ كثيرةٌ بعكس مرادهم، فلم يجدوا ملجأً إلَّا التسليمَ؛ فالفقيه مَنْ عَلَّلَ بما يمكن، فإذا عجَز استطوع للتسليم؛ هذا شأنُ العبيد، فأما مَنْ يقول: لِمَ فعلَ كذا؟ وما معنى كذا؟ فإنه يطلب الاطِّلاعَ على سرِّ الملك، وما يجد إلى ذلك سبيلًا؛ لوجهين:

أحدهما: أن الله تعالى ستر كثيرًا من حِكَمِهِ عن الخلْق.

والثاني: أنه ليس في قُوى البشر إدراكُ حِكَمِ الله تعالى كلها»(٢).

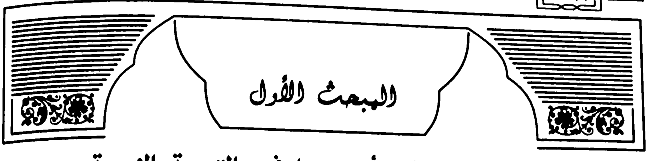
(١) مذاهب فكرية معاصرة (ص٥٣٥).

(٢) صيد الخاطر (ص٢٧٧، ٢٧٨).

الفصل الخامس

منهجه ﷺ في تربيته أصحابه على الحكمة في معالجة الأمور واتخاذ المواقف

* وفيه ثلاثة مباحث:
- المبحث الأول: معنى الحكمة وأهميتها في التربية النبوية.
- المبحث الثاني: نماذج لبعض مواقف النبي ﷺ التي تدل على الحكمة.
- المبحث الثالث: نماذج لبعض مواقف الصحابة رضوان الله عليهم تدل على الحكمة.



المبحث الأول

معنى الحكمة وأهميتها في التربية النبوية

* وفيه مطالب:

○ المطلب الأول: معنى الحكمة في اللغة.

○ المطلب الثاني: معنى الحكمة في الاصطلاح الشرعي.

○ المطلب الثالث: أهمية الحكمة في التربية النبوية.



المطلب الأول

معنى الحكمة في اللغة

جاءت الحكمة في اللغة بعدة معانٍ؛ منها:

١ ـ الحكمة: هي إصابة الحق بالعلم والعقل[١].

٢ ـ والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يُحسن دقائق الصناعات ويتقنُها: حكيم[٢].

٣ ـ والحَكَم والحكيم هما بمعنى: الحاكم والقاضي، والحكيم فعيل بمعنى فاعل، أو هو الذي يُحكم الأشياء ويُتقنها، فهو فعيلٌ بمعنى مُفْعِل[٣].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، كتاب الحاء (ص٢٤٩) مادة: (ح ك م).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٤١٩)؛ ولسان العرب، باب الميم، فصل الحاء (١٢/ ١٤٠)؛ المعجم الوسيط، مادة (ح ك م) (١/ ١٩٠).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٤١٩).

٤ ـ والحكيم: المانع مِنَ الفساد، ومنه سُمِّيت حَكَمَة اللجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجري والذهاب في غير قصد.

والعرب تقول: أحكم اليتيمَ عن كذا وكذا، يريدون: مَنَعَهُ، والسورة المحكَمة، الممنوعة مِنَ التغيير والتبديل، وأن يلحَقَ بها ما يخرجُ عنها، ويزادَ عليها ما ليس منها.

والحكمة من هذا؛ لأنها تمنع صاحبَها من الجهل.

ويقال: أحكم الشيءَ: إذا أتقنَه ومنعه من الخروج عما يريد، فهو محكم وحكيم على التكثير[1].

٥ ـ والحُكم: هو المنع مِنَ الظلم؛ وسُمِّيت حَكَمَة الدابة؛ لأنها تمنعها، يقال: حكمتُ الدابةَ وأحكمتُها، ويقال: حكمتُ السفيه وأحكمته: إذا أخذت على يديه، والحكمة هذا قياسها؛ لأنها تمنع مِنَ الجهل، وتقول: حكَمْت فلانًا تحكيمًا: منعته عما يريد[2].

فالحكمة مِنْ أبرز معانيها اللغوية: المنع.

والحكمة: تمنع صاحبَها مِنَ الوقوع في الظلم، ولا سيما أعظم أنواعه، وهو الشرك بالله تعالى، ومخالفة أمره سبحانه؛ قال الله ﷻ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والحكمة: تمنع صاحبها مِنَ الوقوع في الجهل والأخلاق الدنيئة.

المطلب الثاني

معنى الحكمة في الاصطلاح الشرعي

لقد ذكر أهل العلم لمفهوم الحكمة في الاصطلاح أقوالًا كثيرة؛ فقيل: الحكمة: القرآن، وقيل: العلم والفقه، وقيل: معرفة ناسخ القرآن

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٢٨٨).
(٢) مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون (٢/ ٩١)، مادة: (ح ك م).

ومنسوخه، ومُحكَمِه ومتشابهه، ومقدَّمه ومؤخَّره، وقيل: النبوة، وقيل: الإصابة في القول والفعل، وقيل: خشية الله تعالى، وقيل: صلاح الدين وإصلاح الدنيا، وقيل: الورع في دين الله تعالى، وقيل: العلم والعمل به، وقيل: هي معاني الأشياء وفهمها(١).

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «وأما الحكمة؛ ففيها أقوال كثيرة مضطربة، قد اقتصر كلٌّ مِنْ قائليها على بعض صفات الحكمة، وقد صفا لنا منها: أنَّ الحكمة عبارة عن العلم المتَّصف بالإحكام، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحقِّ والعمل به، والصدِّ عن اتباع الهوى والباطل، والحكيمُ: مَنْ له ذلك؛ قال أبو بكر بن دُريد: كلُّ كلمة وعظَتْك وزجَرَتْك أو دعَتْك إلى مكرُمة، أو نهتك عن قبيح؛ فهي حكمة وحِكَمٌ»(٢).

وقد جاءت كلمة «الحكمة» في القرآن الكريم على نوعين(٣): مفردة، ومقرونة بالكتاب:

فالمفردة؛ كقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

وهذه الحكمة هي المقصودة بما قرَّره أهلُ العلم في مفهوم الحكمة كما تقدم.

أما الحكمة المقرونة بالكتاب، فهي السُّنَّة من أقوال النبي ﷺ

---

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٣٢٤)، وجامع البيان في تفسير القرآن (١/ ٤٣٦)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/ ١٣١)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ١٨٤)، ومدارج السالكين (٢/ ٤٧٨).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٣٣).

(٣) انظر: التفسير القيم (ص٢٢٧)، ومدارج السالكين (٢/ ٢٧٨).

وأفعاله، وتقريراته، وسيرته؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] إلى غير ذلك من الآيات.

فمن هنا يتبين أن الحكمة هي: «فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي»(١).

فهذا تعريف جامع مانع؛ لأنه جمع بين الإتقان والإحكام للأمور وبين تنزيل جميع الأمور في مواضعها المناسبة، وفي أوقاتها الملائمة.

فصاحبُ الحكمة يضع القول المناسب والتربية الحكيمة في مكانها، ويضع الموعظة الحسنة في مكانها، ويضع الجدل بالتي هي أحسنُ في مكانه، والغِلظة والقوة والشدة في مواضعها، مع العناية بأحوال الناس ومراعاتها، سواء النفسية منها، أو المكانية، أو الزمانية.

المطلب الثالث

أهمية الحكمة في التربية النبوية

إن للحكمة في التربية النبوية أهمية كبيرة، حيث إن الحكمة هي إتقان الأمور وإحكامها بحيث تُوضَعُ جميعُ الأمور في مواضعها المناسبة، وفي الأوقات المناسبة؛ فيُوضَعُ القول الليِّن في موضعه، ويُوضع التعليمُ والتربيةُ في موضعهما، وتُوضَعُ الموعظة الحسنة في موضعها، وتُوضَعُ المجادلةُ

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٨).

بالتي هي أحسنُ في موضعها، وتُوضَعُ مجادلةُ الظالمين المعاندين في موضعها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ويُوضَعُ الزجرُ والغِلظة في موضعهما، وتُوضَعُ القوةُ والسيف في موضعهما؛ كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التحريم: ٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الحكمة هي معرفة الحقّ والعمل به، فالقلوب التي لها فهم وقصد تُدعى بالحكمة، فيبين لها الحق علمًا وعملًا، فتقبله وتعمل به.

وآخرون يعترفون بالحقّ، لكن لهم أهواء تصدُّهم عن اتِّباعه، فهؤلاء يُدْعون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل، والوعظ أمرٌ ونهي بترغيب وترهيب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧]؛ فالدعوة بهذين الطريقين لمن قَبِلَ الحقَّ، ومَنْ لم يقبله، فإنه يجادل بالتي هي أحسن»[١].

أما الذين «حادوا عن وجه الحقّ، وعَمُوا عن واضح المحجَّة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم؛ قال الله ﷻ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال جابر: أُمِرْنا مَنْ خالف كتاب الله أن نضربَه بالسيف. قال مجاهد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦] يعني: أهل الحرب ومَنِ امتنع منهم من أداء الجزية»[٢].

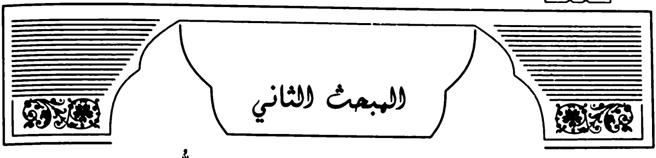
ومِنْ أكبر البراهين العملية على أهمية الحكمة وإتقانها، مراعاة أحوال

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/ ١٤٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٥، ٤١٦).

المدعُوِّين النفسية، والزمانية، والمكانية، على ما كان عليه المربِّي العظيم والرسول الخاتم نبيِّنا محمد ﷺ، في معاملته لأصناف الناس المؤمن منهم والكافر والمنافق؛ كل ذلك بإحكام وإتقان، وقد أعطاه الله تعالى من الحكمة ما لم يُعْطِ أحدًا من الخلق.




المبحث الثاني

نماذج لبعض مواقف النبي ﷺ التي تدلُّ على الحكمة

* ويشتمل على أربعة مواقف؛ وهي:

- الموقف الأول: موقفه ﷺ مع زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي.
- الموقف الثاني: موقفه ﷺ مع الشاب الذي جاء يستأذنه في الزنى.
- الموقف الثالث: موقفه ﷺ مع اليهودي زيد بن سَعْنَة.
- الموقف الرابع: موقفه ﷺ من الكفار قاطبةً، ومن المنافقين خاصّة.



الموقف الأول

موقف النبي ﷺ مع زعيم المنافقين عبد الله بن أبي

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «غزونا مع النبي ﷺ، وقد ثاب[١] معه ناسٌ من المهاجرين، حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لَعَّاب[٢]، فكسع[٣] أنصاريًا، فغضب الأنصاريُّ غضبًا شديدًا حتى تداعَوْا، وقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فخرج النبيُّ ﷺ، فقال: (**مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ؟!**)، ثم قال: (**مَا شَأْنُهُمْ؟**)، فأُخبِرَ بكسعة

---

(١) ثاب معه: أي: اجتمعوا وجاؤوا، لسان العرب (١/ ٢٤٣)، مادة: (ث و ب).

(٢) رجل لعَّاب: أي: بطَّال، وقيل: كان يلعب بالحراب كما تصنع الحبشة، وهو جهجاه بن قيس الغفاري، فتح الباري (٦/ ٥٤٦).

(٣) كسع: أي: ضرب دبره بصدر قدمه أو بيده، انظر: لسان العرب (٨/ ٣٠٨)، مادة: (ك س ع).

المهاجريّ الأنصاريَّ، قال: فقال النبي ﷺ: **(دَعُوهَا، فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ)**، وقال عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سلول: أقد تداعَوْا علينا؟! لئن رجعنا إلى المدينة، ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فقال عمر: ألا نقتلُ - يا رسول الله - هذا الخبيثَ؟! لعبد الله، فقال النبي ﷺ: **(لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ)**[1].

قال النووي: «أما تسميةُ النبي ﷺ ذلك دعوى الجاهلية، فهو كراهة منه لذلك، فإنه مما كانت عليه الجاهلية مِنَ التعاضُد بالقبائل في أمور الدنيا ومتعلّقاتها، وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالعَصَبات والقبائل، فجاء الإسلام بإبطال ذلك، وفصَل القضايا بالأحكام الشرعية، فإذا اعتدى إنسانٌ على آخرَ حكم القاضي بينهما، وألزمه مقتضى عُدوانه، كما تقرَّر من قواعد الإسلام»[2].

وأما قول النبي ﷺ لعمرَ: **(دَعْهُ، لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ)**، فـ «فيه ما كان عليه ﷺ من الحِلم، وفيه تركُ بعض الأمور المختارة، والصبر على بعض المفاسد، خوفًا مِنْ أن يترتَّب على ذلك مفسدةٌ أعظمُ منه. وكان ﷺ يتألَّفُ الناسَ، ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين، وغيرهم لتقوى شوكة المسلمين، وتتمَّ دعوة الإسلام، ويتمكن الإيمان من قلوب المؤلفة، ويرغِّبُ غيرهم في الإسلام، وكان يعطيهم الأموال الجزيلة لذلك، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنى، ولإظهارهم الإسلام، وقد أمر بالحكم بالظاهر، والله يتولّى السرائر؛ ولأنهم كانوا معدودين في أصحابه ﷺ، ويجاهدون معه، إما حَمِيَّةً، وإما لطلب دنيا أو عصبية لمن معه من عشائرهم»[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية (٤/ ١٩١)، رقم الحديث (٣٥١٨).
ورواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا (٤/ ١٩٩٨)، رقم الحديث (٦٣).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ٤٤٤).
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ٤٤٥).

وقال ابن العربي: «قول النبي ﷺ: **(لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ)**: إخبارٌ عن وجه المصلحة في الإمساك عن قتلهم، لِمَا يُرجى من تأليف الكلمة بالعفو عنه، والاستدراك لِمَا فاتهم في المستقبل مِنْ أمرهم، توقُّعًا لسوء الأحدوثة المنفِّرة عن القبول للنبي ﷺ والإقبال عليه»[(١)].

وعند ابن إسحاق، من طريق عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر، ومحمد بن حبان، قال: كلٌّ قد حدَّثني حديثَ بني المصطلق، وشافَه الحديث بتفاصيل الغزوة؛ وفيه: «فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء[(٢)] وردتْ واردةُ الناس، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له مِنْ بني غِفار، يقال له: جهجاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجاهٌ وسِنانُ بن وَبر الجهنيُّ حليفُ بني عوف بن الخزرج، على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهنيُّ: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه، يا معشر المهاجرين، فغضب عبدُ الله بنُ أُبيِّ ابنُ سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم: زيد بن أرقم غلام حَدَثٌ، فقال: أوَقَد فعلوها؟! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب[(٣)] قريش إلا كما قال الأول[(٤)]: سَمِّنْ كلبَك يأكلْك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، ثم أقبل على من حضره من

---

(١) عارضة الأحوذي شرح جامع الترمذي لأبي بكر ابن العربي (١٢/ ٢٠٤).

(٢) هو ماء المريسيع.

(٣) جلابيب: لقب لمن أسلم من المهاجرين، لقَّبهم بذلك المشركون. وأصل الجلابيب: الأُزُر الغلاظ، كانوا يلتحفون بها، فلقبوهم بذلك.

(٤) عند الطبري: «كما قال القائل»، وهو مثل من أمثال العرب، أول من قاله حازم بن المنذر الحِمَّاني، وذلك أنه مر بمحلة همدان، فوجد غلامًا ملفوفًا في ثوب، فرحمه وحمله معه، وقدم به منزله، وأمر أَمَةً له أن تُرضعَه حتى كَبِر وراهَقَ الحلم، فجعله راعيًا لغنمه، وسمَّاه جُحيشًا، وكان لحازم ابنة يقال لها: راعوم، فهويت الغلامَ وهويَها، وانتبه حازم لهذا، فترصد لهما حتى عرف الحقيقة، ووجدهما على الفاحشة، فقال: سَمِّنْ كلبَك يأكلْك، فأرسلها مثلًا، وشد على جُحيش ليقتله، ففرَّ ولحق بقبيلته.
انظر: مجمع الأمثال للميداني، تحقيق محمد محيي الدين (١/ ٣٣٣)، ورقم المثل (١٧٨٧).

قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم؛ أحللتموهم بلادَكم، وقاسمتموهم أموالَكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلُوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيدُ بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوِّه، فأخبره، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُر به عبَّاد بن بِشْر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: (**فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ؟! لا وَلَكِنْ أَذِّنْ بِالرَّحِيلِ**)، وذلك في ساعة لم يكن رسولُ اللهِ ﷺ يرتحل فيها، فارتحلَ الناس.

ومشى عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيدَ بن أرقم قد بَلَّغَه ما سمع منه. فحلف بالله ما قلتُ ما قال، ولا تكلَّمتُ به ـ وكان شريفًا عظيمًا ـ فقال مَنْ حضر رسول الله ﷺ مِنَ الأنصار، مِنْ أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلامُ قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل؛ حَدَبًا[1] على ابن أُبَيٍّ ابنِ سلول، ودفعًا عنه.

فلما استقلَّ رسول الله ﷺ وسار، لقِيَه أُسيدُ بن حُضيرٍ، فحيَّاه بتحية النبوَّة، وسلَّم عليه، ثم قال: يا نبيَّ الله، والله لقد رحتَ في ساعة مبكِّرة، ما كنتَ تروح في مثلها؟ فقال له رسول الله ﷺ: (**أَوَمَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟**) قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: (**عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ**)، قال: وما قال؟ قال: (**زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ**)، قال: فأنت يا رسول الله والله تُخرِجُه منها إن شئتَ، هو والله الذليلُ وأنت العزيزُ، ثم قال: يا رسول الله، ارْفُقْ به، فوالله لقد جاءنا اللهُ بك وإنَّ قومه لينظِمون له الخَرَزَ ليُتَوِّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبْتَه مُلكَه.

ثم مشى رسولُ الله ﷺ بالناس يومَهم ذلك حتى أمسى، وليلتَهم حتى أصبح، وصدْرَ يومهم ذلك حتى آذتْهم الشمسُ، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض، فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليَشغَلَ الناسَ عن الحديث الذي كان بالأمس، مِنْ حديث عبد الله بن أُبيٍّ.

---

(١) أي: عطفًا عليه.

إلى أن قال: وجعل بعد ذلك إذا أحدَث الحدثَ، كان قومُه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويعنِّفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمرَ بن الخطاب حين بلغه ذلك مِنْ شأنهم: (**كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ؟ أَمَا وَاللهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لِيَ اقْتُلْهُ، لَأُرْعِدَتْ**[1] **لَهُ أُنُفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ**)، قال: قال عمر: قد واللهِ علمتُ لأَمْرُ رسولِ الله ﷺ أعظمُ بركةً مِنْ أمري[2].

وهنا تبرُز عَظَمَةُ معالجة النبي ﷺ الحكيمةِ لهذه الفتنة العظيمة الخطيرة التي صدرت من زعيم المنافقين عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ ابنِ سلول، والتي كان يهدف من ورائها إلى تمزيق صفِّ المؤمنين، والتمرُّد على القيادة النبوية الحكيمة.

فيأتي الأمرُ النبوي الكريم إلى أفراد الجيش المسلم بالرحيل في وقت لم يكن مِنْ عادته ﷺ الرحيلُ فيه، وكان الحرُّ فيه شديدًا، وكان مِنْ عادته ﷺ ألّا يرحلَ حتى يبرُدَ الجوُّ[3].

والحكمة واضحةٌ من ذلك الأمر بالرحيل في ذلك الوقت غيرِ المعتاد؛ وهي إشغالُ الجيش عن مثل هذا الخبر الذي صدر عن رأس المنافقين، والحيلولة بينه وبين انتشاره في صفوف المؤمنين حتى لا يسبِّبَ بلبلةً في أفكارهم، أو يثيرَ القِيلَ والقال بينهم؛ مما يؤدي بهم إلى حرب كلامية قد تصل إلى الاقتتال فيما بينهم، فيحُلُّ بجيش الإسلام ما لا تُحمَدُ عُقباه.

فكان الأذانُ بالرحيل والسيرُ بالجيش سيرًا متصلًا ليلًا ونهارًا؛ مما

---

(١) لأرعدت له أُنُف: أي: انتفخت واضطربت أنوفهم حَمِيَّة وعَصَبيَّة.

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩٣).

والحديث رجاله ثقات ولكنه مرسل، أورده ابن جرير الطبري من هذه الطريق نفسها في تاريخه (٢/ ٦٠٥)، وله شاهد عند ابن أبي حاتم من مرسل عُروة بن الزبير، وعمر بن ثابت الأنصاري.

وهو مرسل جيد كما قال ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٦٤٩)، وانظر كذلك: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧١)، وهو أيضًا عند ابن أبي شيبة من مرسل عروة وحده كما في الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٢٢٥)، وأصله في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم وجابر بن عبد الله، وبهذا يكون الحديث حسنًا لغيره.

(٣) انظر: إمتاع الأسماع للمقريزي (ص٢٠٢).

أدى إلى إجهادهم، حتى وقع القوم على الأرض من شدة التعب، فناموا نومًا عميقًا مسح آثار الفتنة العظيمة التي كادت أن تحُلَّ فيما بينهم.

وهذا التصرف الحكيم من القائد العظيم والمربِّي الفَطِن محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم، ينبغي أن يكون نبراسًا للقادة والمربين في كل مكان وزمان؛ يسلكونه، ويجعلونه منهجًا لهم في معالجة الأمور واتخاذ المواقف.

هكذا ربَّى النبيُّ ﷺ أصحابه على الحكمة في اتخاذ المواقف، فرفض مشورة عمر بن الخطاب بقتل عبد الله بن أُبَي، واختار إشغالَهم بتلك الرحلة الشاقة على نفوسهم، حتى أصبح عبدُ الله بن أُبي مَجْمَعَ السخرية والمهانة والمذلَّة عند قومه بعد تلك الحادثة الخبيثة، وكانوا هم الذين يعاتبونه ويعنِّفونه إذا أحدث الحدث؛ ولذا قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب مذكِّرًا ومعلمًا ومربِّيًا له على الحكمة في معالجة الأمور، وفي سياسة النفوس؛ قال: (**كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ؟! أَمَا وَاللهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لِيْ لَأَرْعَدَتْ لَهُ أُنوفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ**)، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وقد وقع ما توقَّعه المربي العظيمُ عليه الصلاة والسلام؛ فهذا عبد الله بن عبد الله بن أُبي يقول: يا رسول الله، إن كنت تريد قتل أبي فيما بلغك عنه، فمُرني به، فوالله لأحملَنَّ إليك رأسَه قبل أن تقومَ مِنْ مجلسك هذا، والله لقد علمَتِ الخزرجُ ما كان فيها رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى يا رسول الله أن تأمرَ غيري بقتله، فلا تدَعُني نفسي أنظرُ إلى قاتلِ أبي يمشي في الناس، فأقتلُه فأدخل النار؛ فقال رسول الله ﷺ: (**مَا أَرَدتُّ قَتْلَهُ، وَمَا أَمَرْتُ بِهِ**)[1].

فاجتهد عبدُ الله بن عبد الله بن أُبي في أن يقف على باب المدينة،

(١) إمتاع الأسماع (ص٢٠٣).

فيحول بين أبيه وبين دخول المدينة حتى يأذَنَ رسولُ الله ﷺ له بالدخول؛ «ذكر عكرمةُ وابن زيد وغيرهما: أن ابنَه عبدَ الله ﷺ وقف لأبيه عبد الله بن أُبي ابن سلول عند مضيق المدينة، فقال: قف؛ فوالله لا تدخلها حتى يأذَنَ رسولُ الله ﷺ في ذلك، فلما جاء رسولُ الله ﷺ استأذنه في ذلك، فأذِنَ له، فأرسلَه حتى دخلَ المدينة»(١).

الموقف الثاني

موقف النبي ﷺ مع الشابِّ الذي جاء يستأذنه في الزنى

عن أبي أُمامة ﷺ، قال: إن فتى شابًّا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنى، فأقبل القومُ عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ مَهْ، فقال له: (**ادْنُهْ**)، فدنا منه قريبًا، قال: (**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**)، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: (**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**)، قال: (**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: (**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**)، قال: (**أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**) قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: (**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**)، قال: (**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**) قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: (**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**)، قال: (**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**) قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: (**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**)، قال: فوَضع يده عليه، وقال: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**)، فلم يَكُ بعد ذلك الفتى يلتفتُ إلى شيءٍ»(٢).

والحكمة ظاهرة في هذا الحديث من تصرُّفه ﷺ مع هذا الشابِّ الذي قد استفزَّ الصحابة بطلبه مِنَ النبي ﷺ أن يأذن له في الزنى؛ وذلك من وجهين:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ١٧٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي أمامة ﷺ (٥/ ٢٥٦، ٢٥٧)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٢٩)؛ وعزاه إلى الطبراني، وقال: «رجاله رجال الصحيح»، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم (٣٧٠) في المجلد الأول.

الوجه الأول: ويتمثل في رفقه ﷺ بهذا الشاب المندفع إلى الرذيلة، وتقريبِهِ إليه، وكفِّ الأصحاب عن عتابه وتوبيخه.

والرفق خُلُقٌ إسلامي له أثر عظيم في النفوس، ولا سيما فيمن يُرْغَبُ استئلاف قلبه للدخول في الإسلام، أو فيمنْ يرغب في زيادة إيمانه وتخليصه من بعض المنكرات والرذائل، مما يكون سببًا في ثباته على الدين والاستقامة.

وقد حثَّ النبي ﷺ أصحابَه على الرفق، وربَّاهم عليه بفعله وقوله؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رَهْطٌ مِنَ اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السامُ عليكم. قالت عائشة: ففهمتُها، فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: **(مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ)**، فقلت: يا رسول الله، أوَلَمْ تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: **(قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ)**[١].

وقال ﷺ: **(يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، وما لا يُعْطِي على مَا سِوَاهُ)**[٢]. وبَيَّن ﷺ: **(أَنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ)**[٣].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **(مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الخَيْرِ)**[٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة السلام (٧/ ١٧٣)، رقم الحديث (٦٢٥٦). ورواه مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بسلام وكيف يرد عليهم (٤/ ١٧٠٦)، رقم الحديث (٢١٦٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرض الذمي وغيره بِسَبِّ النبي ﷺ (٨/ ٦٥)، رقم الحديث (٥٩٢٧). ورواه مسلم، كتاب الصلة والبر والأدب، باب فضل الرفق (٤/ ٢٠٠٤)، رقم الحديث (٢٥٩٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب الصلة والبر والآداب، باب فضل الرفق (٤/ ٢٠٠٤)، رقم الحديث (٢٥٦٤).

(٤) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة من حديث أبي الدرداء (٤/ ٣٢٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٤٥١).

وهذه التوجيهات النبوية الكريمة تبيِّن فضل الرفق وأثره في النفوس، وإنه لحَرِيٌّ بالدُّعاة إلى الله تعالى والمربِّين أن يتخلَّقوا بهذا الخُلق الرفيع، الذي حثَّ عليه المربِّي العظيم ﷺ بفعله وقوله، في جميع تصرفاتهم وأحوالهم؛ وذلك لأن الرفق سببٌ لكلِّ خير وفضيلة، ولأنه يحصُل به من الأغراض، ويسهل به مِنَ المطالب، ومِنَ الثواب الكبير ما لا يحصُل بغيره، وما لا يأتي مِنْ ضدِّه[(١)]؛ وقد حذَّر رسول الله ﷺ أصحابهَ مِنَ العنف والتشديد على الأمة؛ عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: **(اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا، فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ)**[(٢)].

بل كان ﷺ إذا أرسل أحدًا مِنْ أصحابه في بعض الأمور يقول لهم: **(بشِّروا ولا تُنَفِّروا، ويسِّروا ولا تُعسِّروا)**[(٣)].

وقال ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما حينما بعثَهما إلى اليمن: **(يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا)**[(٤)].

الوجه الثاني: يتمثل في طريقة النبي ﷺ في إقناع الشاب ببشاعة الزنى وحقارته، وأن الفِطَرَ السليمةَ لا تستسيغُه، بل تكرهه وتأباه، ولا ترتضيه لأقرب الناس إليها؛ وذلك باستعماله ﷺ مع الشاب الطريقةَ الاستقرائية،

---

(١) **انظر**: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٤٥)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٠/ ٤٤٩)، وتحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي (٦/ ١٥٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم (٣/ ١٤٥٨)، رقم الحديث (١٨٢٨).

(٣) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير (٣/ ١٣٥٨)، رقم الحديث (١٧٣٢).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: **(يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرا)** (٧/ ١٣١)، رقم الحديث (٦١٢٤).

ورواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير (٣/ ١٣٥٩)، واللفظ له ورقم الحديث (١٧٢٣).

والتي تتناول قضايا جزئيةً متتابعةً، والتي تظهر في خطابه ﷺ واستجوابه للشاب بقوله: (**أفتحُبه لأمك؟**)، (**أفتحبُّه لأختك؟**)، (**أفتحبه لعمتك؟**)، (**أفتحبه لخالتك؟**)، وكان الجواب على هذه الاستفسارات المتتالية واحدًا، وهو النفي طبعًا.

«وهذه الأسئلة والأجوبة المتتالية كانت تفعل في النفس فعل السحر، وفي العقول حدَّ الإقناع، فكيف يقبل الإنسان الحرُّ الزنى على أهله؟! وكيف يقبل عليه عقلُه أن يرضى الزنى للآخرين ما دام لا يرضاه لأهله؟! هذه الأسئلة والأجوبة الجزئية ـ وهي حوادثُ خاصَّةٌ تنطوي على معلوم مسمّى مِنَ الناس ـ تَصِلُ إلى الحقيقة العامة الكلية التي تدلُّ على مجهول:

أن الناس لا يرضون الزنى لأهليهم كما لا ترضاه لأهلك؛ فيجب أن تبتعد أنت عن الزنى.

لكن الرسول ﷺ لم يقل له هذه الحقيقة الكلية، بل ترك للسائل الفرصة أن يستنتجَها بنفسه، وذلك آصَلُ للحكم وأَوْكَدُ في النفس»[(١)].

ويمكن القول بأن «هذا الحديث قد حوى الطريقة الاستجوابية؛ فالصحابيُّ دخل على الرسول ﷺ ونفسُه متيقِّنةٌ مِنْ ضرورة الزنى والحاجة إليه، وجاء يأخذ إذنًا بذلك، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام زعزع هذا اليقينَ في نفس المؤمن عن طريق ضرب الأمثال المتعدِّدة التي تنفِّر من الزنى، وتبيِّن خطره على الأسرة، ثم يأتي اليقين بالقناعة العقلية الشخصية، ودعوة الرسول ﷺ: (**اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**)، وهو اليقينُ الذي بلغ نفسَ الفتى ببركة دعاء المصطفى صلوات الله عليه»[(٢)].

وفي هذا الموقف الحكيم العظيم تربيةٌ للصحابة على الحكمة في

---

(١) المربي محمد ﷺ التربية النبوية، شمولها، أهدافها، طرائقها (ص١٠٨، ١٠٩).
(٢) المربي محمد ﷺ التربية النبوية، شمولها، أهدافها، طرائقها (ص١٠٩).

اتخاذ المواقف ومعالجة الأمور، حيث كان بعضُ الصحابة حاضرًا هذا المجلس، ومشاهدًا الحوار الذي دار بين النبي ﷺ وبين ذلك الشاب الذي جاء يطلب الإذن في الزنى، ولاحظوا موقف النبي المربي عليه الصلاة والسلام في معالجة هذا الأمر الخطير المفاجئ، ورسولُ الله ﷺ هو القدوةُ للمؤمنين في جميع التصرُّفات والأحوال إلا ما استُثني؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

الموقف الثالث

موقف النبي ﷺ مع اليهودي زيد بن سِعْنَة(١)

أحدِ أحبار اليهود

جاء زيد بن سعنة إلى رسول الله ﷺ يطلُبه دينًا له، فأخذ بمجامع قميصه وردائه وجَذَبَه، وأغلظَ له القولَ، ونظر إلى النبي ﷺ بوجه غليظ، وقال: يا محمد، ألا تقضيني حقِّي، إنكم يا بني عبد المطلب قومٌ مُطُلٌ! وشدَّد له في القول، فنظر إليه عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في رأسه كالفلك المستدير، ثم قال: يا عدُوَّ الله، أتقولُ لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل ما أرى؟! فوالذي بعثه بالحقِّ لولا ما أُحاذِرُ لومَه، لضربتُ بسيفي رأسَك! ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتُؤدَةٍ وتبسُّم، ثم قال: **(أَنَا وَهُوَ يَا عُمَرُ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ؛ أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التَّقَاضِي؛ اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ، فَاقْضِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ)**؛ فكان هذا سببًا لإسلامه، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وكان زيدٌ قبل هذه القصة يقول: «لم يَبْقَ شيءٌ مِنْ علامات النبوة إلا

---

(١) زيد بن سعنة، أحد أحبار اليهود ومن أكثرهم مالًا، أسلم فحَسُن إسلامه، وشهد مع النبي ﷺ مشاهدَ كثيرةً، وتوفي في غزوة تبوك مقبلًا غيرَ مدبر.
أسد الغابة (٢/ ٢٨٨).

وقد عرفتُها في وجه محمد ﷺ إلا اثنتين لم أَخْبُرْهُمَا منه: يسبِقُ حِلْمُه جهلَه، ولا يزيده شدةُ الجهل إلا حِلمًا»[(١)].

وهذه الحادثة تشهد شهادةَ حقٍّ على حكمة النبي ﷺ في معاملته، وحُسن تدبيره، وإحسانِه إلى مَنْ أساء إليه، وحِلْمِه بمن أغضبه، وعفوِه عند القدرة لمن بغى عليه.

وهذه الأخلاق العالية الرفيعة تدلُّ على الحكمة اتخاذ المواقف الصحيحة في معالجة الأمور، مما يجعلها مِنْ أعظم أسباب إجابة الشاردين والمخالفين دعوة الإسلام والإيمان به.

ولذا فإن رسول الله ﷺ وجَّه الصحابيَّ الجليل عمر بن الخطاب ﷺ بطريق مباشر إلى التخلُّق بالأخلاق الفاضلة؛ مِنَ الحلم، وضبط النفس، والتُّؤَدة، والهدوء، والحكمة في معالجة الأمور، واتخاذ الموقف الصحيح السديد، ووجَّه بقيةَ الأصحاب الحاضرين بطريق غير مباشر إلى تلك المعالم من الأخلاق الحميدة التي ينبغي للداعية أن يتحلَّى بها، ويتصرَّف وَفْقَ دلالتها في معاملاته وتصرفاته اقتداءً برسول الله ﷺ المربي العظيم.

وهكذا ترى أن هذا الحَبْر اليهوديَّ زيدَ بن سعنة اختبر رسول الله ﷺ بهذا الموقف الذي قابل به النبيَّ ﷺ، فوجده كما وصفَتِ التوراةُ، فأسلم وآمن، وصدَّق به، وشهد مع النبي ﷺ مشاهدَه، واستشهد في غزوة تبوك[(٢)].

---

(١) ذكر الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٥٦٦)، هذه القصة، وعزاها إلى الطبراني، والحاكم، وأبي الشيخ في كتابه أخلاق النبي ﷺ، وابن سعد، وغيرهم، ثم قال ابن حجر: «ورجال إسناده موثقون، ومحمد بن أبي السري وثَّقه ابن معين.. والوليد قد صرَّح بالتحديث». وذكرها ابنُ كثير في البداية والنهاية (٢/ ٣١٠)، وعزاها إلى أبي نعيم في الدلائل. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٤٠): «رواه الطبراني، ورجاله ثقات».

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٥٦٦).

﴿ الموقف الرابع ﴾

موقف النبي ﷺ مِنَ الكفار قاطبة ومِنَ المنافقين خاصَّةَ

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أول ما أوحى إليه ربُّه تبارك وتعالى؛ أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أولَ نُبُوَّته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢] فنبأه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾، وأرسله بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومَه، ثم أنذر مَنْ حولهم مِنَ العرب، ثم أنذر العرب قاطبةً، ثم أنذر العالَمِين، فأقام بضع عشرة سنةً بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويُؤمَرُ بالكفِّ والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل مَنْ قاتله ويكفَّ عمَّن اعتزله ولم يقاتِلْه، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدينُ كلُّه لله، ثم كان الكفارُ معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام:

الأول: أهل الصلح والهدنة.

الثاني: أهل الحرب.

الثالث: وأهل الذمة.

فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفيَ لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانةً نبذ إليهم عهدَهم، ولم يقاتِلْهم حتى يُعْلِمَهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل مَنْ نقض عهده، ولمَّا نزلت «سورة براءة» نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلِّها، فأمره فيها أن يقاتل عدوَّه مِنْ أهل الكتاب حتى يعطُوا الجزيةَ، أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسِّنان، والمنافقين بالحُجَّة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذِ عهودهم إليهم، وجعل أهلَ العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قسم أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم.

القسم الثاني: قسم لهم عهد مؤقت، لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يُتِمَّ لهم عهدَهم إلى مدتهم.

القسم الثالث: قسم لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجِّلَهم أربعةَ أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم، وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] وهي الحُرُمُ المذكورة في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. فالحرم ها هنا: هي أشهر التسيير، أولها: يوم الأذان، وهو اليوم العاشر مِنْ ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخرها: العاشر من ربيع الآخر.

فاستقر أمرُ الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام:

الأول: المحاربون له.

الثاني: وأهل العهد.

الثالث: وأهل الذمة.

ثم آلت حالُ أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة.

والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام:

الأول: المسلم المؤمن به.

الثاني: المسالم له الآمن.

الثالث: الخائف المحارب»(١).

هذه سيرته ﷺ مع الكفار، مِنْ مبعثه إلى أن لقِيَ الله تعالى، فكانت معاملةً متسمةً بالحكمة والإتقان وحبِّ الخير والهداية وحسن القصد.

---

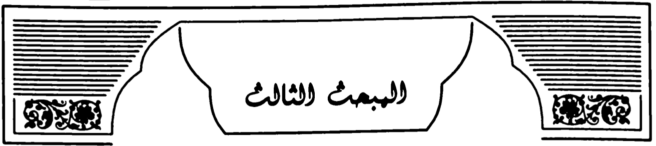
(١) زاد المعاد (٣/١٥٨، ١٥٩، ١٦٠) بتصرف يسير.

«وأما سيرتُه في المنافقين، فإنه أُمر أن يقبَلَ منهم علانيتَهم، ويكِلَ سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدَهم بالعلم والحجة، وأمره أن يُعرِضَ عنهم، ويَغلُظَ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلّيَ عليهم، وأن يقومَ على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفرَ الله لهم.

وأما سيرته في أوليائه وحزبه، فأمره أن يصبرَ نفسَه مع الذين يدعون ربَّهم بالغَداة والعَشِيِّ يريدون وجهه، وألا تعدُوَ عيناه عنهم، وأمره أن يعفُوَ عنهم، ويستغفرَ لهم، ويشاوِرَهم في الأمر، وأن يصلّيَ عليهم، وأمره بهجر من عصاه، وتخلف عنه، حتى يتوبَ، ويراجِعَ طاعته، كما هجر الثلاثة الذين خُلِّفُوا،وأمره أن يقيمَ الحدود على مَنْ أتى موجباتِها منهم، وأن يكونوا عنده في ذلك سواءً شريفهم ودنيئهم»[1].



(١) زاد المعاد (٣/ ١٦١) بتصرف يسير.



المبحث الثالث

نماذج لمواقف الصحابة رضوان الله عليهم تدل على الحكمة

* ويشتمل على ثلاثة مواقف؛ وهي:

○ الموقف الأول: موقف أبي بكر الصديق عقب وفاة النبي ﷺ.

○ الموقف الثاني: موقف عمر بن الخطاب من عُيينة بن حصن.

○ الموقف الثالث: موقف مصعب بن عمير في دعوة أُسيد بن حُضير وسعد بن معاذ.



الموقف الأول

موقف أبي بكر الصديق عقب وفاة النبي ﷺ

«لقد أصيب المسلمون عند وفاة الرسول ﷺ بصدمة عظيمة وهزة عنيفة، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنكر موت النبي ﷺ، وخرج إلى الناس وخطبهم، وقال لهم: والله ما مات رسول الله ﷺ، وليبعثنَّه الله، فليقطعنَّ أيديَ رجال وأرجلهم.

وأقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرس من مسكنه حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلِّم الناسَ حتى دخل على عائشة رضي الله عنها، فتيمَّمَ رسول الله ﷺ وهو مُغَشًّى بثوب حَبِرَةٍ، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه، فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمَعُ الله عليك موتتين ؛ أما الموتةُ التي كُتبت عليك فَقَدْ مِتَّها. ثم خرج أبو بكر ـ وعمر يكلِّمُ الناسَ ـ فقال: أيها

الحالف على رِسْلِك، وقال: اجلس يا عمر، فأبى عمرُ أن يجلس، فلما تكلَّم أبو بكر أقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فجلس عمر رضي الله عنه فحمدَ الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا ﷺ قد مات، ومَنْ كان منكم يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فوالله لكأنَّ الناسَ لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه، وقال عمر رضي الله عنه: والله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكر تلاها، فعُقرتُ حتى ما تُقِلُّني رجلاي، وحتى أهويتُ إلى الأرض حين سمعتُه تلاها، علمتُ أن النبي ﷺ قد مات.

وقال الراوي: فتلقَّاها الناس كلُّهم، فما أسمع بَشَرًا مِنَ الناسِ إلا يتلوها، ونشج الناس يبكون»(١).

فهذا موقف يدل على حكمة الصحابي الجليل أبي بكر الصديق رضي الله عنه في علاجه وتصرُّفه حِيالَ تلك المصيبة العظيمة، وذلك الأمر الكبير، وهو موت الحبيب عليه أفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم، ومفاجأةِ الصحابة به، فقد كان رضي الله عنه ثابتَ الجَنان عند سماع خبر موته ﷺ واستقبله بشجاعة عالية، وتُؤدةٍ فائقةٍ، وحكمة بالغة، فأول ما فعله رضي الله عنه هو أنه تأكد من صدق خبر موت النبي ﷺ، ثم خرج للناس هادئ الفكر، ثابتَ الأركان، فخطبهم، وذكَّرهم بالمعبود الحقِّ، وهو الله تعالى، وأنه سبحانه حيٌّ دائم لا يموت، وأن الخَلْقَ جميعَهم يموتون؛ ولذا فإن الله تعالى كتب على نبيه الموتَ، فمَنْ كان يعبده ﷺ، فليعلم أنه قد مات، وأما من كان يعبد الله تعالى، فإن الله حيٌّ لا يموت، وهذا الأمر بدهي في نفوس الصحابة رضوان الله

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه (٢/٨٨، ٨٩)، رقم الحديث (١٢٤١، ١٢٤٢).

عليهم، فمعبودُهم هو الله تعالى، لكن أبا بكر الصديق ﷺ أراد بذلك تهيئةَ نفوسهم لتَقَبُّلِ ذلك الخطْب الكبير، والمصيبة العظيمة، ثم ذكَّرهم بالآية الكريمة التي تدل على أن النبي ﷺ بشرٌ كبقية الرسل، وأنه سيموت كما ماتوا.

وهذا من حكمته ﷺ في معالجة الأمر العظيم وحل الخلاف والمنازعة فيه، والتي قد استفادها مِنْ هدي الرسول ﷺ، وتربيته له على ذلك.

الموقف الثاني

موقف عمر بن الخطاب ﷺ من عُيينة بن حصن

«روى البخاري بسنده عن ابن عباس ﷺ قال: قدم عُيينةُ بنُ حِصن بن حُذيفة، فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس، وكان مِنَ النفر الذين يُدنيهم عمر، وكان القراءُ أصحابَ مجالس عمر ومشاورته؛ كهولًا كانوا أو شبانًا، فقال عُيينة لابن أخيه: يا ابنَ أخي، لك وجهٌ عند هذا الأمير، فاستأذِنْ لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحُرُّ بن قيس لعُيينةَ، فأذن له عمر، فلما دخل عليه، قال: هِيه يا ابنَ الخطاب، فوالله ما تُعطينا الجَزْل(١)، ولا تحكُمُ بيننا بالعدل. فغضب عمرُ حتى همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا مِنَ الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وَقَّافًا عند كتاب الله»(٢).

وموقف عمر بن الخطاب ﷺ هذا يدل على حكمته وحِلمه في معالجة الأمور، ولا سيما وهو رجلٌ حادٌّ شديدُ الغضب في الله تعالى.

---

(١) الجزل: أي: العطاء الكثير، انظر: لسان العرب (١١/١٠٩)، مادة (ج ز ل).

(٢) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن (سورة الأعراف)، باب ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ (٥/٢٣٥)، رقم الحديث (٤٦٤٢).

فعيينة بن حصن أغلظ عليه، وقال له كلامًا أغضبه فيه؛ فمما قال:

١ ـ قوله: هيهِ يا ابنَ الخطاب، والأولى أن يقول: يا أمير المؤمنين.

٢ ـ قوله: والله ما تعطينا الجزل؛ أي: العطاء الكثير؛ فهو يتَّهمه بالبخل.

٣ ـ وقوله: ولا تحكم بيننا بالعدل؛ فهو يتَّهمه بالظُّلم والجور.

إلا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سكَنَ غضبُه، وهدأت نفسُه عندما ذكَّره الصحابيُّ الجليل الحُرُّ بن قيس بقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فلم يتجاوَزْ هذه الآيةَ عندما سمعها رضي الله عنه، فعفا عن عُيينةَ بنِ حصن، وصفَح عنه.

وهذا من حكمته في معالجة هذا الموقف، ولا سيما وهو أمير المؤمنين، ولا شك أن هذا التصرف أثرٌ مِنْ آثار تربية النبي ﷺ له، فتأثَّر بها حتى أصبحت راسخةً ثابتةً في تصرفاته وأخلاقه رضي الله تعالى عنه.

وكذلك موقف الحرِّ بن قيس رضي الله عنه يدل على حكمته في معالجة الأمور، حيث ذَكَّرَ أمير المؤمنين بالآية التي تأمر بالعفو والصفح، وأخبره أن عُيينَة بنَ حصن مِنَ الجاهلين.

الموقف الثالث

موقف مصعب بن عمير رضي الله عنه في دعوة أُسيد بن حُضَير وسعد بن معاذ

«بعد أن تمت بيعة العقبة الأولى سنة إحدى عشرة من البعثة، بعث النبي ﷺ مع هؤلاء المبايعين أولَ داعيةٍ وأولَ سفيرٍ في يثربَ ليعلمَ المسلمين فيها شرائعَ الإسلام، ويفقِّهَهم في الدين، ولينشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشِّرك، واختار رسول الله ﷺ لهذه المهمة العظيمة شابًّا من شباب الإسلام مِنَ السابقين الأولين، وهو مصعبُ بن عُمير العبدري رضي الله عنه.

نزل مصعبُ بن عمير على أسعد بن زُرارة، ابن خالة سعد بن معاذ، وأخذ يؤدي مهمتَه التي بعثه بها رسولُ الله ﷺ بجِدٍّ وحماس، ومِنْ أروع ما يُروى مِنْ نجاحه في الدعوة: أن أسعدَ بن زُرارة خرج به يومًا يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، فدخلا حائط بني ظفر، وجلسا على بئر يقال لها: بئر مرق، واجتمع إليهما رجالٌ مِنَ المسلمين ـ وسعد بن معاذ، وأُسيد بن حضير سيِّدا قومهما مِنْ بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك ـ فلما سمعا بذلك قال سعد لأُسيد: اذهب إلى هذين اللذَيْن قد أتيا لِيُسَفِّها ضُعفاءنا فازجرهما، وانهَهُما عن أن يأتِيَا دَارَيْنَا، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتُك هذا، فأخذ أُسَيْدٌ حربتَه، وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصْدُقِ اللهَ فيه، قال مصعب: إن يجلِسْ أكلِّمه.

وجاء أسيدٌ، فوقف عليهما متشتِّمًا، وقال: ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا؟! اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيتَ أمرًا قبلتَه، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره. فقال: أنصفتَ، ثم ركز حربته وجلس، فكلَّمه مصعبٌ بالإسلام، وتلا عليه القرآن. قال: فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتهلُّله، ثم قال: ما أحسنَ هذا وأجملَه؟ كيف تصنعون إن أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل، وتطهِّرُ ثوبَك، ثم تشهدُ شهادةَ الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام واغتسل وطهَّر ثوبه، وتشهد، وصلى ركعتين، ثم قال: إنَّ ورائي رجلًا إن تَبِعَكما لم يتخلَّف عنه أحدٌ مِنْ قومه، وسأُرشده إليكما الآن ـ سعد بن معاذ ـ ثم أخذ حربتَه، وانصرف إلى سعد في قومه، وهم جلوس في ناديهم، فقال سعد: أحلِفُ بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف أُسيدٌ على النادي، قال له سعد: ما فعلتَ؟ فقال: كلمتُ الرجلين، فوالله ما رأيتُ بهما بأسًا، وقد نهيتُهما، فقالا: نفعل ما أحببتَ،

وقد حُدِّثت أن بني حارثةَ خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه - وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابنُ خالتك - ليَخْفِروك. فقام سعدٌ مغضبًا للذي ذُكِرَ له، فأخذ حربتَه، وخرج إليهما، فلما رآهما مطمئنَّين عرف أن أُسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتِّمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أُمامة لولا ما بيني وبينك مِنَ القرابة ما رُمْتَ هذا مني، تغشنا في دارنا بما نكره؟

وقد كان أسعدُ قال لمصعب: جاءك والله سيدٌ مِنْ ورائه قومُه، إن يتَّبِعْك لم يتخلَّف عنك منهم أحد، فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيتَ أمرًا قبلته، وإن كرهته عزَلْنا عنك ما تكره، قال: قد أنصفتَ. ثم ركز حربتَه فجلس.

فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلامَ قبل أن يتكلَّمَ في إشراقه وتهلُّله، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالا: تغتسل، وتُطهِّر ثوبك، ثم تشهد شهادةَ الحق، ثم تصلِّي ركعتين، ففعل ذلك.

ثم أخذ حربتَه، فأقبل إلى نادي قومه، فلمَّا رأوه، قالوا: نحلفُ بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما وقف عليهم، قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدُنا وأفضلُنا رأيًا، وأيمَنُنا نقيبةً. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتى تُؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى فيهم رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلمًا ومسلمةً، إلا رجل واحدٌ وهو - الأُصيرم - تأخَّر إسلامُه إلى يوم أُحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقُتل، ولم يسجد لله سجدةً، فقال النبي ﷺ: **(عَمِلَ قَلِيلًا، وَأُجِرَ كَثِيرًا)**.

ورجع مصعبٌ إلى بيتِ أسعد بن زُرارة يدعو الناسَ إلى الإسلام حتى لم تَبْقَ دارٌ مِنْ دور الأنصار إلا فيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخَطْمَةَ بنِ وائل؛ كان فيهم قيسُ بن الأسلت الشاعر

ـ وكانوا يطيعونه ـ فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عامَ الخندق سنة خمس من الهجرة[١].

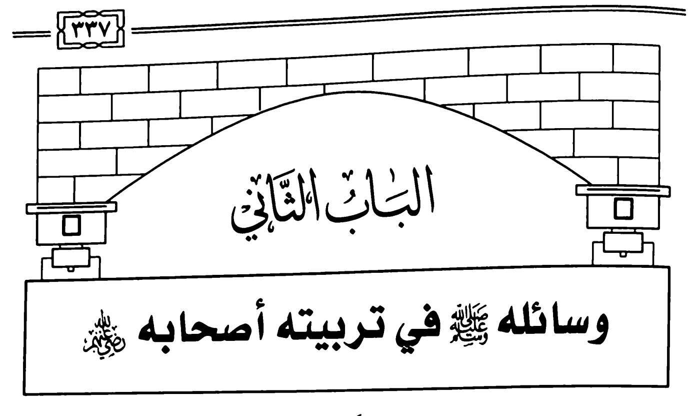
فهذا الموقف الذي اتخذه مصعب بن عمير مع أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، في بيان الحق لهما ودعوتهما إلى الإسلام الذي بعث الله به نبيَّه محمدًا ﷺ، وطريقة عرضه لتعاليم الإسلام عليهما؛ هذا الموقف يدل دلالةً واضحةً على الحكمة البالغة التي تحلَّى بها الداعية الناجح مصعب بن عُمير رضي الله عنه في صبره على جفاء الرجلين السيدين في قومهما، ولطف معاملته معهما وتلطفه بهما والشفقة عليهما، وعرض الأمر عليهما بطريقة معقولة محبَّبة، ليس فيها فَرْضٌ ولا قوةٌ لقبول الحق الذي جاء به، بل جعل الأمر للسامع، وهو مخيَّرٌ في قَبول الحقِّ أو رفضه، والأمر يحتاج إلى سماع الأطراف بعضِها إلى بعضٍ، ثم يكون القرار بعد ذلك؛ فإن اتفقَ الطرفان، فهذا هو المرادُ والمطلوب، وإن اختلفا فالحكم لله مِنْ قبلُ ومِنْ بعدُ، وقد أدى الطرف الأول ـ وهو طرف الحقِّ والدعوة ـ ما عليه، وأقام الحجة على الطرف الثاني، وهو الطرف المدعُوُّ إلى الإسلام، وبَرِئت ذمتُه من التَّبِعَة.

ولا شكَّ أن هذا التصرُّف الحكيمَ مِنْ مصعب بن عُمير رضي الله عنه أثرٌ من تربية النبي ﷺ وتعليمه، وقَبَسٌ مِنْ فعله ﷺ.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٥٢)؛ وسيرة ابن هشام (٢/ ٤٣)؛ والرحيق المختوم (ص١٦٢ ـ ١٦٤)؛ والإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٤٢١)؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ١٤٥)، وحياة الصحابة للكاندهلوي (١/ ١٨٧، ١٨٩).



الباب الثاني

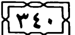
وسائله ﷺ في تربيته أصحابه رضي الله عنهم

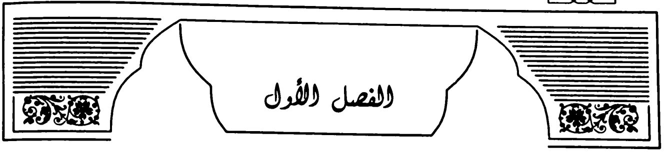
* ويشتمل على أحدَ عشر فصلًا؛ وهي:

- الفصل الأول: التربية بإثارة الانتباه عن طريق التشويق وحب الاستطلاع.
- الفصل الثاني: التربية بالمحاورة الهادئة عن طريق السؤال والجواب.
- الفصل الثالث: تربيته ﷺ أصحابه بتخولهم بالموعظة.
- الفصل الرابع: التربية بالرحمة والرفق بالمتعلم.
- الفصل الخامس: التربية مع الحرص على مراعاة أحوال المتعلمين وقدراتهم.
- الفصل السادس: التربية بالإرشاد إلى تعدد أنواع الخير، والحثّ على القيام بها حسب القدرة.
- الفصل السابع: التربية بضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام.
- الفصل الثامن: التربية بالقدوة.
- الفصل التاسع: التربية بالترغيب والترهيب.
- الفصل العاشر: التربية بالقصة.
- الفصل الحادي عشر: التربية بالمواقف والأحداث.

الفصل الأول

التربية بإثارة الانتباه عن طريق التشويق وحب الاستطلاع





التربية بإثارة الانتباه عن طريق التشويق وحب الاستطلاع

كان النبي ﷺ يتعهد أصحابه، فيحثُّهم على التعلُّم بطريق التشويق وحُبِّ الاستطلاع.

فمن مظاهر ذلك: أنه لَمَّا خرج على بعض أصحابه وهم في الصُّفَّة[١]، والإنسان مركوز في طبعه حبُّ المال بمختلف أنواعه؛ كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، ومركوز في طبعه سروره بما يأتيه مِنَ الخير مِنْ غير جهد وعناء؛ فاستعمل رسول الله ﷺ هذه الطبائع المركوزة لترغيب أصحابه في حفظ القرآن وتعلُّم العلم.

عن عقبة بن عامر، قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة، فقال: (**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إلى بُطْحَانٍ، أو إلى العَقِيقِ، فَيَأْتِيَ منه بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ**[٢]**، فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟**)، فقلنا: يا رسول الله، نحب ذلك. قال: (**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إلى المَسْجِدِ فَيُعَلِّمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ**

---

(١) الصفَّة من البنيان: شِبْهُ البهو الواسع الطويل السُّمْك. وفي الحديث ذكر أهل الصفة، قال: هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلَّل في مسجد المدينة يسكنونه.
لسان العرب (٩/ ١٩٥)، فصل الصاد المهملة.

(٢) الكوماء: الناقة العظيمة السنام.
الصحاح (٥/ ٢٠٢٥)، مادة (ك و م).

كِتَابِ اللهِ ﷻ خَيْرٌ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ)[(١)].

فالمربي العظيم ـ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ بهذا الأسلوب الجذاب يوقظ نفوسَ أصحابه، ويستدعي نشاطَهم، ويُثيرُ انتباهَهم، فالإبل من خيارِ أموالهم، والناقة الكوماء هي مِنْ خيار الإبل، وبُطحان وادٍ قريبٌ منهم، لا يتكلفون في الوصول إليه سفرًا، ولا يتحملون مشقة، فمن الذي لا يحب أن يحصل على مال عظيم بلا كلفة ولا معصية؟!

حتى إذا تشوَّقت نفوسُهم، وعَظُمَ رجاؤُهم، وأصغت إليه آذانُهم، أعلمهم أن القرآنَ أعظمُ مِنْ ذلك، وأن خيرَه أعمُّ، وأن فضلَه أكبر؛ لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى، فخيرُ الناس مَنْ تعلَّم القرآن وعلَّمه، كما ورد عن عثمانَ بن عفان ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**)، وفي لفظ: (**أَفْضَلُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**)[(٢)].

قال المناوي رحمه الله تعالى: «أي: خيرُ المتعلِّمين والمعلِّمين مَنْ كان تعلُّمه وتعليمُه في القرآن، لا في غيره؛ إذ خيرُ الكلام كلامُ الله تعالى؛ فكذا خيرُ الناس بعد النبيين مَنِ اشتغلَ به»[(٣)].

وقال الحافظ ابن حجر: «لا شك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمِّل لنفسه ولغيره، جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدِّي؛ ولهذا كان أفضلَ، وهو مِنْ جملة مَنْ عنى الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، والدعاء إلى الله يقع بأمور شتى؛ مِنْ جملتها تعليمُ القرآن، وهو أشرفُ الجميع، وعكسُه

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه (١/ ٥٥٢)، رقم الحديث (٨٠٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٦/ ١٣٢)، رقم الحديث (٥٠٢٨) ورقم (٥٠٢٧).

(٣) فيض القدير للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوي (٣/ ٤٩٩).

الكافر المانع لغيره مِنَ الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧].

فإن قيل: فيلزم على هذا أن يكون المقرئُ أفضلَ مِنَ الفقيه؟

قلنا: لا؛ لأن المخاطَبين بذلك كانوا فقهاءَ النفوس؛ لأنهم كانوا أهلَ اللسان، فكانوا يدرُون معاني القرآن بالسَّليقة أكثرَ مِمَّا يدري مَنْ بعدَهم بالاكتساب، فكان الفقه لهم سجيةً، فمَنْ كان في مثل شأنهم شارَكهم في ذلك، لا مَنْ كان قارئًا أو مقرئًا محضًا، لا يفهم شيئًا مِنْ معاني ما يقرَؤه أو يُقرِئه.

فإن قيل: «فيلزم أن يكون المقرئُ أفضلَ مِمَّن هو أعظمُ غَناءً في الإسلام بالمجاهدة والرباط، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثلًا؟

قلنا: حرف المسألة يدور على النفع المتعدِّي، فمن كان حصولُه عنده أكثرَ، كان أفضلَ، فلعل «مِنْ» مضمرة في الخبر، ولا بد - مع ذلك - مِنْ مراعاة الإخلاص في كل صنف منهم، ويحتمل أن تكون الخيريةُ وإن أُطلقت مقيدةً بناس مخصوصين خُوطِبوا بذلك كان اللائق بحالهم ذلك، أو المراد خيرُ المتعلِّمين مَنْ يُعَلِّمُ غيره، لا مَنْ يقتصر على نفسه، أو المراد مراعاة الحيثية؛ لأن القرآن خيرُ الكلام، فمتعلِّمه خيرٌ مِنْ متعلِّم غيره بالنسبة إلى خيرية القرآن، وكيفما كان، فهو مخصوص بمن علَّم وتعلَّم، بحيث يكون قد علَّم ما يجب عليه عينًا»[1]. انتهى.

ومِنْ مظاهر إثارة الانتباه والتشويق: ما رواه أبو واقد الليثي[2]: أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر،

(١) فتح الباري (٩/ ٧٦).

(٢) هو أبو واقد الحارث بن عوف الليثي، من بني ليث بن بكر بن عبد مناة، قيل: إنه شهد بدرًا، وكان معه لواء بني ضمرة وبني ليث وبني سعد بن بكر يوم الفتح، يُعَدُّ في أهل المدينة، وشهد اليرموك بالشام، وجاور بمكة سنة ومات بها.
أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٦/ ٣٢٥).

فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحدٌ، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما، فرأى فُرجَةً في الحلقة، فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسولُ الله ﷺ، قال: (**أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟! أَمَّا أَحَدُهُمْ، فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**)[1].

فرسول الله ﷺ يلفت أنظارَ الحاضرين مِنَ الصحابة إلى صنيع أولئك النفر الثلاثة بقوله: (**أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟!**) الا أنبئكم بخبر الثلاثة الرجال الذين مرُّوا على مجلسنا، (**أَمَّا أَحَدُهُمْ، فَأَوَى إِلَى اللهِ**)؛ أي: لجأ إلى الله تعالى، (**فَآوَاهُ اللهُ**)؛ أي: جازاه بنظيرِ فعله بأن ضمَّه إلى رحمته ورضوانه، (**وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا**)؛ أي: ترك المزاحمة، كما فعل رفيقُه حياءً مِنَ النبي ﷺ وممن حضر، فجلس في آخر الحلقة، (**فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ**)، و(**أَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ**)؛ أي: عن الجلوس في الحلقة استكبارًا وترفُّعًا، (**فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**)[2].

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه استحباب الأدب في مجالس العلم، وفضل سَدِّ خَلَلِ الحلقة، كما ورد فيه الترغيب في سَدِّ خَلَلِ الصفوف في الصلاة، وجواز التخطِّي لسدِّ الخَلَل ما لم يُؤْذِ، فإن خشي استُحِبَّ الجلوسُ حيث ينتهي كما فعل الثاني، وفيه الثناءُ على مَنْ زاحم في طلب الخير. قوله: (**فاستحيا**)؛ أي: ترك المزاحمةَ كما فعل رفيقُه حياءً مِنَ النبي ﷺ وممن حضر؛ قاله القاضي عياض، وقد بيَّن أنسٌ في روايته سببَ استحياءِ هذا الثاني، كما أخرجها الحاكم بلفظه، قال: «ومضى الثاني قليلًا، ثم جاء فجلس»؛ فالمعنى: أنه استحيا مِنَ الذَّهاب عن المجلس كما فعل رفيقُه الثالث.

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها (١/ ٢٨)، رقم الحديث (٦٦).

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ١٥٧).

وإطلاق الإعراض وغيره في حقِّ الله تعالى على سبيل المقابلة والمشاكلة، فيحمل كلُّ لفظٍ منها على ما يليق بجلاله ﷻ، وفائدة إطلاق ذلك بيانُ الشيء بطريق واضح»[١].

إن مجالس العلم والعلماء تحوي الخير كلَّه، كيف لا وهي التي تنقُل طالب الحق المخلص في طلبه مِنَ الشكِّ إلى اليقين، ومِنَ الرياء إلى الإخلاص، ومن الغَفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطَّوِيَّة إلى النصيحة؟![٢].

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن الرجل ليخرُج مِنْ منزله وعليه مِنَ الذنوب مثلُ جبال تِهامةَ، فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب، فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب؛ فلا تُفارقوا مجالس العلماء»[٣].

ويبين هذا قولُ رسول الله ﷺ: **(عِنْدَ اللهِ خَزَائِنُ الخَيْرِ وَالشَّرِّ، مَفَاتِيحُهَا الرِّجَالُ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَهُ اللهُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ، مِغْلَاقًا لِلشَّرِّ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَهُ اللهُ مِفْتَاحًا لِلشَّرِّ مِغْلَاقًا لِلْخَيْرِ)**[٤].

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: **(كنَّا مع النبي ﷺ، ونحن فتيان حَزَاوِرَة**[٥] **فتعلَّمنا الإيمان قبل أن نتعلَّم القرآن، ثمَّ تعلَّمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا)**[٦].

فلا بد من غرس الإيمان وتثبيته في نفوس الناشئة قبل الاهتمام بتحفيظه وتلقينه.

---

(١) فتح الباري (١/ ١٥٧).

(٢) انظر: تهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم العزي، مكتبة السوادي بجدة (ص٦١٩).

(٣) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية (١/ ١٢٢).

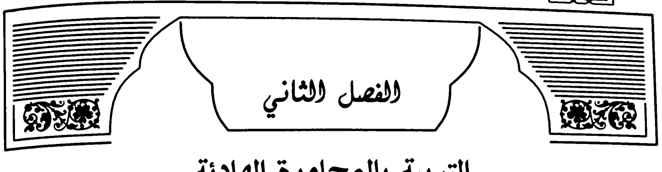
(٤) صحيح الجامع الصغير للألباني (٤/ ٥٦).

(٥) حزاورة: جمع حزوَّر، وهو الذي قارب البلوغ. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١/ ٣٨٠).

(٦) رواه ابن ماجه في سننه، باب الإيمان، رقم الحديث (٦٠) (../ ..).

الفصل الثاني

التربية بالمحاورة الهادئة
عن طريق السؤال والجواب



التربية بالمحاورة الهادئة عن طريق السؤال والجواب

وذلك بطريقتين:

الأولى: المحاورة؛ بإلقائه ﷺ السؤالَ على بعض أصحابه ليلفتَ أنظارَهم، ويثيرَ انتباهَهم للموضوع، ثم ينتظر منهم الإجابة، فإن أجابوا، وإلّا فإنّه يجيبُ الإجابةَ الصحيحة.

الثانية: السؤال ثم الجواب؛ وبتلقِّيه ﷺ الأسئلة المطروحة عليه مِنْ قِبَلِ بعض أصحابه، ثم إجابته عليها بما يفيد السائل والسامع.

الطريقة الأولى

الحوار أو المحاورة

سلك النبي ﷺ في تعليم أصحابه بعض الأمور المهمة التي تتعلق بالعقيدة، والمبادئ الإسلامية؛ طرقًا كثيرة؛ منها:

طريقة الحوار: وذلك بإلقاء السؤال عليهم لكي يلفتَ نظرَهم، ويثير انتباهَهم للموضوع الذي يريد غرسَه في نفوسهم، ثم ينتظر منهم الإجابة، فإن أجابوا، وإلا فإنه يجيب الإجابة الصحيحة؛ وهذه الطريقة واضحة في الحوار الذي دار بينه ﷺ وبين معاذ بن جبل رضي الله عنه:

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «بينا أنا رديفُ النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخِرَةُ الرَّحْلِ، فقال: (يَا مُعَاذُ)، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك[1]، ثم

---

(١) قوله: «لبيك» المراد به: إجابة بعد إجابة، أو إجابة لازمة؛ قاله الحافظ ابن حجر في =

سار ساعة، ثم قال: (**يَا مُعَاذُ**) قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: (**يَا مُعَاذُ**). قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: (**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟**) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (**حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**)، ثم سار ساعة، ثم قال: (**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**)، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: (**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟**) قلت: الله ورسولُه أعلم، قال: (**حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ**)(١).

ولا شك أن في تَكرار نداء النبي ﷺ لمعاذ بن جبل ثلاثًا ـ لا سيما أن معاذًا كان شديدَ القُرب منه؛ إذ كان رديفَه على الدَّابَّة ـ لَفْتًا لنظر معاذ رضي الله عنه إلى ما سيُلقيه عليه، ولتأكيد الاهتمام بما يخبر به المعلِّم ﷺ؛ فيكون أوقعَ في الفهم، وأبلغَ في النفس.

ثم ألقى الرسولُ ﷺ سؤالًا على معاذ قائلًا: (**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟**)؛ أي: هل تعرف ما يستحقُّه الله تعالى على عباده مما جعله لِزامًا وحقًّا عليهم؟(٢) فسكت معاذ رضي الله عنه عن الجواب، وفوَّض عِلْمَ ذلك إلى الله تعالى ورسوله؛ وهذا دليلٌ على حُسن أدب معاذ بن جبل مع رسول الله ﷺ، وأنه لَمَّا سُئل عن شيء لا يعلمه وَكَلَ علمَ ذلك إلى عالِمِهِ، وهذا أَوْلى مِنْ قوله: «لا أدري» في هذا المقام؛ لأن قوله: الله أعلم يفيد ما تفيدُه كلمة «لا أدري» مَعَ اشتماله على الثناء على الله عز وجل وعلى رسوله ﷺ.

= الفتح (٣/ ٤٠٩)، وقال النووي: «الأظهر أن معناها: إجابةٌ لك بعد إجابةٍ؛ للتأكيد». شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢٣١).
وقال ابن هشام: «وسعديك: بمعنى إسعادًا لك بعد إسعادٍ» أوضح المسالك (ص٢٤٣).

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٨/ ٢٠٧)، رقم الحديث (٧٣٧٣).
ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (١/ ٥٨)، رقم الحديث (٣٠).

(٢) انظر: فتح الباري (١١/ ٣٣٩).

«وأخرج السؤالَ بصيغة الاستفهام؛ ليكون أوقعَ في النفس وأبلغَ في فهم المتعلِّم؛ فإن الإنسان إذا سُئل عن مسألة لا يعلمُها، ثم أُخبر بها بعدَ الامتحان بالسؤال عنها، فإن ذلك أدعى لفهمها وحِفظها، وهذا مِنْ حُسن إرشاده وتعليمه ﷺ»[١].

ثم أجاب المربِّي ـ عليه أفضلُ الصلاة وأزكى التسليم ـ الإجابةَ التي يتشَّوق إليها معاذٌ، واستعدَّ لتلقِّيها مِنَ المربِّي والمعلِّم الكبير ﷺ بقوله: **(حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)**.

ولأهمية هذا الأمر ـ وهو معرفةُ حقِّ الله تعالى على عباده ـ ردَّد فيه الرسول ﷺ النداءَ لمعاذ بن جبل ثلاثًا، وهو شديدُ القُرب منه؛ لتأكيد الاهتمام الشديد بما سيخبر به ﷺ؛ لأن عبادةَ الله تعالى هي الهدف الأساسُ مِنْ بعث الرسل وإنزال الكتب.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «والمراد بالعبادة: عملُ الطاعات، واجتنابُ المعاصي، وعَطَفَ عليها عدم الشرك، لأنه تمامُ التوحيد، والحكمةُ مِنْ عطفه على العبادة أنَّ بعض الكَفَرة كانوا يَدَّعون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا يعبدون آلهةً أخرى، فاشترط نفيَ ذلك، والجملةُ حاليَّةٌ، والتقديرُ: يعبُدونه في حال عدم الإشراك به، قال ابن حِبان: عبادةُ الله: إقرارٌ باللسان، وتصديقٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح؛ ولهذا قال في الجواب: **(فَمَا حَقُّ العِبَادِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟)** فعبَّرَ بالفعل ولم يعبِّرْ بالقول»[٢]. انتهى.

«وقد اشتمل هذا الحديث بوضوح على بيان حقِّ الله على عباده؛ وذلك في قوله ﷺ: **(حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)**، وهذا الحقُّ الذي بيَّنه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث مشتمل على النفي والإثبات الذي اشتملت عليه «لا إله إلا الله»؛

---

(١) تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص٦٤).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٣٩).

فإن قوله: (أَنْ يَعْبُدُوهُ)، إثبات، وقوله: (وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) نفي، والمراد بذلك: نفيُ جميع أنواع العبادة عن كلِّ ما سواه، وإثباتها لله وحده لا شريك له، فكما أنه ﷻ المنفرد بالخَلْق والإيجاد، والإحياء والإماتة، فيجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له، وهذا النفيُ والإثبات الذي اشتملت عليه هذه الجملة التي بيَّن بها الرسول الكريم ـ عليه مِنَ الله أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ حقَّ الله على عباده جاء في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]؛ فقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إثبات، وهو بمعنى: إلا الله، وقوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ نفي، وهو بمعنى: لا إله؛ فتحصَّل مِنَ النفي والإثبات معنى «لا إله إلا الله» التي هي كلمةُ الإخلاص.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فهي بمعنى (لا إله إلا الله)، ومنها قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾؛ فجملة الأمر إثبات، وجملة النهي نفي، فهي بمعنى «لا إله إلا الله»، وتنكير «شيئًا» لإفادة عدم الإشراك به أي شيء كان، وأن يُخصَّ بالعبادة وحده لا شريك له.

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ أي: أن تَخصُّوه بالعبادة وحده دون أن تجعلوا له شريكًا في شيء منها.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ فقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ إثبات، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ نهيٌ مُؤدَّاه النفيُ بمعنى: لا إله إلا الله»[1].

ثم بعد أن أجاب رسولُ الله ﷺ معاذًا عن السؤال الأول، سار ساعةً، ثم ناداه مرةً أخرى، وألقى عليه سؤالًا آخرَ شديدَ الصِّلةِ بالسؤال الأول؛ فقال عليه الصلاة والسلام موجهًا السؤال إلى معاذ: (هَلْ تَدْرِي

(١) كتاب عشرون حديثًا من صحيح البخاري للشيخ عبد المحسن العباد (ص١٨٥، ١٨٦).

مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟)؛ أي: هل تعرف ما وَعَدَ الله به عبادَه من الجزاء الحسن والثواب العظيم إذا عبدوه وحدَه سبحانه، ولم يشركوا به شيئًا، فتوقَّف معاذ رضي الله عنه عن الجواب؛ لأنه لم يكن يعرفه، وفوَّض عِلْمَ ذلك إلى الله ورسوله.

ثم أجابه رسولُ الله ﷺ كما أجابه على السؤال الأول الذي لم يعرف إجابتَه رضي الله عنه، وقال له: (**حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ**).

وفي هذا تربيةٌ منه ﷺ لأصحابه، وإرشادٌ منه إلى الطريقة المفيدة في التعليم، وهي إخراج الكلام بصيغة الاستفهام، ليكون أبلغَ في النفس، وأوقعَ في فهم المتعلم.

وعلى المسلم الاقتداءُ برسول الله ﷺ مع مَنْ ولَّاه الله تعالى تأديبه وتربيته وتعليمه؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وفي مجلس مِنْ مجالسه ﷺ مع أصحابه الكرام، نبَّههم على أمر خطير يَمَسُّ العقيدة ويؤثِّر فيها؛ ذلك هو ما كان يظنُّه أهل الجاهلية من نزول الغيث بواسطة النَّوْءِ، إمَّا بصنعه على زعمهم، وإما بعلامته.

فأبطل الشرع قولَهم ذاك، وجعله كفرًا، فتحيَّن المربي العظيم ﷺ المناسبة لكي يلفتَ أنظارَ الصحابة رضوان الله عليهم لذلك الأمر العظيم حينما نزل المطرُ في ليلة من الليالي، فبيَّن لهم ـ بعد صلاة صبح تلك الليلة المطيرة ـ خطورة تلك المقالة التي كان يعتقدها أهلُ الجاهلية في نسبة نزول المطر؛ بطريقة تشد انتباههم وتلفت أنظارهم:

عن زيد بن خالد الجهني، قال: صلى لنا رسولُ الله ﷺ(١) صلاة الصبح بالحُديبية في أثَرِ سماء كانت مِنَ الليل، فلمَّا انصرف، أقبل على الناس، فقال: (**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:

---

(١) أي: صلى بنا، فاللام بمعنى الباء، انظر: فتح الباري (٢/ ٥٢٣).

(قال: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بي وَكَافِرٌ؛ فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِك مُؤْمِنٌ بي وَكَافِرٌ بِالكَوَاكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِك كَافِرٌ بي مُؤْمِنٌ بِالكَوَاكِبِ)[1].

فكما هو واضح في هذا الحديث: لَمَّا انتهى ﷺ مِنْ صلاة صبح تلك الليلة المطيرة، التفت إلى أصحابه قائلًا: (هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟) خاطبهم ﷺ بهذا الاستفهام الذي معناه التنبيهُ؛ لأنه ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ذلك، وإنما هو مِنَ الغيب المستور عنهم، والذي كشفه الله تعالى له بالوحي؛ إذ هو من الأحاديث القدسية، فكان يقصِد مِنَ السؤال تنبيهَهم وشَدَّ قلوبهم لِمَا سيلقيه عليهم مِنْ أمرٍ مهم في حياتهم.

فأقبل الأصحابُ ﷺ على معلمهم وقائدهم ﷺ بقلوبهم وبسمعهم مجيبين: الله ورسولُه أعلم.

وهذا مِنْ حُسن أدبهم رضوان الله عليهم، وهو الواجب على طلاب العلم دائمًا وأبدًا في كل زمان ومكان أن يقولوا عن كل ما لا يعلمونه: الله أعلم، فيردُّون العلمَ إلى مَنْ أحاط علمُه بكلِّ شيء، وهو الله تعالى.

ثم أخبرهم ﷺ بما قاله ربُّهم، فقال: (قَالَ اللهُ تعالى: أَصْبَحَ مِنْ عبادي) هذه إضافةُ عموم، بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢][2].

فانقسم الناس بسبب ذلك إلى قسمين:

الأول: مؤمن بالله تعالى، وهو الذي قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فنسَب المطرَ إلى فضل الله ورحمته؛ لأن المطر ينزل في الوقت الذي

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (١/ ٨٣)، رقم الحديث (٧١).

رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢]، (٢/ ٢٨)، رقم الحديث (١٠٣٨).

أراده الله تعالى برحمته وحكمته وفضله؛ فإن نِعَمَ الله تعالى لا يجوز أن تُضافَ إلا إليه وحده، وهو الذي يُحمَدُ عليها.

الثاني: كافر بالله تعالى، وهو الذي قال: مُطرنا بنَوْءِ كذا وكذا.

وفي هذا تربيةٌ منه ﷺ لأصحابه بأن يتفطَّنوا لإيمانهم، ويحرِصوا عليه، ويحافظوا عليه مِنْ كلِّ ما يخدِشه أو يؤثِّر فيه، وأن يبتعدوا عن كل ما يُوصل إلى الكفر ويؤدي إليه؛ مِنَ الأقوال أو الأفعال، وهذه الطريقة التي سلكها ﷺ في معالجة هذا الأمر الخطير وتنبيه الأصحاب عليه بهذا الأسلوب الحكيم لَحَرِيٌّ بأصحاب الدعوة اليوم أن يسلُكوا هذا الطريق، وأن يستعملوا هذا الأسلوب الذي استعمله الرسول ﷺ، وألا يتساهلوا في أي قولٍ أو فعل يصدر مِنْ أتباعهم، وإن قلَّ، فعليهم سرعةُ العلاج والإصلاح، وتنبيه مَنْ وقعت منه مخالفةٌ قولية أو فعلية في الحال، وخاصة فيما يَمَسُّ عقيدتَهم ودينهم.

ومن ذلك: لَمَّا التقى النبيُّ ﷺ بالصحابة رضوان الله عليهم في يوم النحر، خطب فيهم خطبةً بليغة مُشوِّقة، وفيها يلفت بالسؤال نظرَهم ويثير انتباههم لِمَا سيقوله ﷺ لهم:

عن عبد الرحمٰن بن أبي بكرة، عن أبيه: أن النبي ﷺ قال: **(أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟)** فسكتنا حتى ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمِه، قال: **(أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟!)** قلنا: بلى، قال: **(فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟)** فسكتنا حتى ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه، فقال: **(أَلَيْسَ بِذِي الحِجَّةِ؟)** قلنا: بلى، قال: **(فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، في شَهْرِكُمْ هَذَا، في بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ)**[1].

ففي هذا الحديث يوجه المربِّي ﷺ الخطاب لأصحابه بقوله: **(أَيُّ يَوْمٍ**

---

(١) انظر: فتح الباري (٢/ ٥٢٣).

هَذَا؟) أي: هل تعرفون اسم هذا اليوم؟ فسكت الصحابةُ رضوان الله عليهم، وفوَّضوا علم ذلك لله ورسوله؛ لظنِّهم أنه ﷺ سيسمِّيه باسمٍ آخر.

ثم أجاب ﷺ بقوله: (**أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟**) أجابهم بصيغة التقرير، لعلمه أنهم يعرفون ذلك، فقال الصحابة ﷺ: بلى، إنه يوم النحر.

ثم وجَّه لهم سؤالًا آخر، فقال: (**فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟**) أي: ما اسمُ هذا الشهر، فسكت الصحابةُ ﷺ عن الجواب؛ لظنِّهم أنه سيسمِّيه بغير اسمه، ثم قال ﷺ: (**أَلَيْسَ بِذِي الحِجَّةِ؟**) قالوا: بلى، إنه شهرُ ذي الحجة.

وجواب الصحابة عن كل سؤال بقولهم: الله ورسوله أعلم، أو بسكوتهم، مع علمهم بأنه ﷺ لا يخفَى عليه ما يعرفونه مِنَ الجواب، وأنه ليس مرادُه ﷺ مطلقَ الإخبار بما يعرفونه؛ ولهذا قالوا: حتى ظنَنَّا أنه سيسمِّيه بغيرِ اسمه، ففيه إشارةٌ إلى تفويض الأمور الكلية إلى المشرِّع ﷺ[(١)].

وفي هذا دليل على أثر تربيته ﷺ أصحابه، وحُسْن أدب الصحابة رضوان الله عليهم بتفويض الأمور إلى عالِمها ومشرِّعها، وخضوعهم لِمَا يقرِّر رسول الله ﷺ.

قال القرطبي: «سؤالُه ﷺ عن هذه الأمور، وسكوته بعد كل سؤال منها، كان لاستحضار فهومهم، وليُقبلوا عليه بكلِّيَّتِهم، وليستشعروا عَظَمَةَ ما يخبرهم عنه؛ ولذلك قال بعد هذا: (**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ**)، مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء»[(٢)].

ثم بعد أن استثار هِمَمَ الصحابة، ولفت أنظارَهم ﷺ أعطاهم الإجابةَ الصحيحة التي لم تكن خافيةً عليهم، ثم ربط لهم هذه الإجابة عن طريق

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ: (**رب مبلغ أوعى من سامع**) (١/ ٢٩)، رقم الحديث (٦٧).
ورواه مسلم في كتاب الاستقامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (٣/ ١٣٠٥)، رقم الحديث (١٦٧٩).

(٢) **انظر**: فتح الباري (١/ ١٥٩).

التشبيه بأمور مهمةٍ في حياتهم؛ فقال ﷺ: **(فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا)**.

«ومناط التشبيه في قوله: **(كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ)** وما بعده، ظهوره عند السامعين؛ لأنَّ تحريم البلد والشهر واليوم كان ثابتًا في نفوسهم مقررًا عندهم، بخلاف الأنفس والأموال والأعراض، فكانوا في الجاهلية يستبيحونها، فطرأ الشرع عليهم بأنَّ تحريم دم المسلم وماله وعِرضه أعظمُ مِنْ تحريم البلد والشهر واليوم، فلا يَرِدُ كونُ المشبَّه به أخفضَ رتبةً مِنَ المشبَّه؛ لأن الخطابَ إنما وقع بالنسبة لما اعتاده المخاطَبون قبل تقرير الشرع»[1].

ثم قال ﷺ في آخر حديثه: **(لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ)**؛ أي: ليبلِّغ الحاضرُ في هذا المجلس والذي سمع مقالتي هذه لمن لم يحضرْ وغاب عن هذا المجلس جميعَ ما سمع مني مِنْ أحكام حُرمة سَفْك دماء المسلمين بغير حق، وثَلْبِ أعراضهم، وألا يُلحِقَها سوءًا بالقول أو بالفعل، وأخذ أموالهم بغير حق، فإن ذلك حرَّمه الله تعالى أشدَّ مِنْ حُرمة البلد الحرام مكة المكرمة، ومِنَ الشهر الحرام، وهو ذو الحجة، ومِنَ اليوم الحرام، وهو يوم النحر.

ثم ختم ﷺ حديثَه بقوله: **(فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ)**؛ أي: لعل الغائب الذي بلَغَتْه مقالتي هذه عن طريق أحدكم أن يكون أفهمَ وأحفظَ مِنَ الشاهد الذي حضر مقالتي ثم بلَّغها.

وفي هذا الحديث تربية منه ﷺ لأصحابه على تبليغ العلم، وحَثٌّ لهم على حفظ ما يحدِّثهم به، وأنَّ الفهم ليس شرطًا في الأداء والبلاغ، فرُبَّ مبلِّغٍ أفهمُ مِنْ سامع.

* فعلى المسلمين عمومًا والدّعاة خصوصًا أن يستفيدوا مِنْ هذا

---

(١) فتح الباري (١/ ١٥٩) بتصرف يسير.

التوجيه النبوي الشريف، وأن يربُّوا تلاميذَهم وطلابَهم بمثل هذا الأسلوب التربوي على عِظَمِ حُرمة الدماء والأموال والأعراض.

هكذا كان رسول الله ﷺ يخالط أصحابَه، ويربِّيهم على كثيرٍ مِنَ المسائل بصورة مُشوِّقة إلى قلوبهم، وكان يدرِّبهم على التفكُّر والتأمُّل والنظر، ثم يُبيِّنُ لهم بعد ذلك إن لم يفهموا ما أراد، فيكون ذلك أوقعَ في نفوسهم، وأحفظَ لِمَا أراد ﷺ.

فعلى الدعاة اليوم الاستفادةُ مِنْ منهج الرسول ﷺ في تربية مَنْ ولاهم الله تعالى تعليمهم وتأديبهم، وعليهم أن يدرِّبوهم على طول التفكُّر والتأمُّل، وحُسن النظر فيما يُلقَى إليهم.

وفي مجلس آخر: يلفت المربي ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ انتباهَ السامعين مِنَ الصحابة رضوان الله عليهم، وهو يحذِّرهم مِنْ أن يقعوا في أمرٍ خطير، وهو الإفلاس في الدَّرجات العُلَى في الدار الآخرة، وخسارة المسلم مِنْ حسناته، بسبب عدم ضبطه لجوارحه التي أمره الله بأن يضبطَها ويحافظ عليها، ولا يطلقَها إلا في طاعة ربِّه ومولاه ﷻ، وفي حدود الأوامر والنواهي الشرعية، فيحفظ جوارحَه مِنَ الشتم والقذف، وأكل مال الناس بالباطل، والتعدِّي عليهم بغير حقٍّ:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**) قالوا: المفلس فينا مَنْ لا درهمَ له ولا متاع، فقال: (**الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**)[١].

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (١٩٩٧/٤)، رقم الحديث (٢٥٨١).

ففي هذا الحديث يتوجَّه ﷺ إلى أصحابه بصيغة سؤال، فيقول: (**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**)(١)، فيجيب الصحابة ﷺ بقولهم: المفلس فينا مَنْ لا درهم له ولا متاع؛ أجابوا بحسب ما يعرفونه عن «المفلس» عُرْفًا: بأنه لا يملك درهمًا ولا متاعًا.

و«المتاع: هو كل ما يُنتفع به مِنْ عُروض الدنيا قليلِها وكثيرِها»(٢).

فقال الرسول ﷺ معلمًا ومربيًا لأصحابه: بأن هذا الإفلاسَ الذي قلتم ليس هو حقيقةَ الإفلاس، وإن كان يُطلَقُ عليه عُرفًا أنه إفلاسٌ؛ لأن هذا الأمر - وهو الحِرمان مِنَ المال والمتاع - سيزول وينقطع بموت الإنسان، وربما ينقطع بيسار وغِنى يحصل للعبد بعد الفقر والحِرمان مِنْ متاع الدنيا في حياته قبل موته(٣)؛ ولذا فهو إفلاسٌ مؤقَّت على كل حال.

وأما الإفلاس الحقيقي، فهو الإفلاسُ في الحسنات والدرجات العُلَى في الدار الآخرة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، يوم يكون القِصاص، فتُؤخَذُ حسناتُه لغُرمائه الذين ظلمهم وتعدَّى عليهم في الحياة الدنيا بانتهاك الأموال، أو الأعراض، أو الأنفس، حتى إذا فرغت وانتهت حسناتُه، أُخذ من سيئاتهم فوُضِعت عليه، ثم يُلقى في النار، فتتمُّ خسارتُه وهلاكُه وإفلاسه، وهذا هو المفلس في الحقيقة.

قال بعض أهل العلم في شرح هذا الحديث: «إنه فيه تشديدٌ، وفيه للعقلاء غاية الوعيد، فإن الإنسانَ قلَّ أن تسلَمَ أفعالُه وأقوالُه مِنَ الرياء، ومكايد الشيطان، وإن سلِمَتْ له خَصلةٌ، فقلَّ أن يسلَمَ مِنْ أذيَّة الخلق، فإذا كان يوم القيامة وقد سلِمَتْ له خصلةٌ مَعَ قلَّة سلامتها، طلب خصمك تلك الحسنةَ، وأخذها منك بحكم مولاك عليك، فإنه لا مالَ يوم القيامة تؤدي منه ما عليك، بل من حسناتك يا مغبونُ، إن كنتَ صائمًا بالنهار، قائمًا بالليل، جادًّا في طاعة الرحمن، وقلَّ أن تسلَمَ مِنْ غيبة المسلمين وأذيَّتهم

(١) فتح الباري (١/ ١٥٩).
(٢) النهاية في غريب الحديث (٤/ ٥٩٣).
(٣) انظر: دليل الفالحين (١/ ٥٤٠).

وأخذِ مالهم، هذا حالُ مَنْ كان جادًا في الطاعات، فكيف مَنْ كان مثلَنا جادًا في جمع السيئات مِنْ أكل الحرام والشُّبهات، والتقصير في الطاعات والإسراع إلى المخالفات»[١]. انتهى.

* وفي هذا تربية لدعاة اليوم على أن يلاحظوا تصرفات مَنْ ولّاهم الله تعالى تربيته وتعليمه، فيربُّوهم على طهارة اللسان مِنَ الغيبة، والنميمة، والشتم والسِّباب، والقذف، ويدرِّبوهم على أكل الحلال، والابتعاد عن الحرام بكل صُوَره وأشكاله، ويُحيُوا فيهم الخشيةَ والتقوى مِنَ الله تعالى، حتى يكونوا أفرادًا صالحين مصلحين مؤثِّرين في الناس مِنْ حولهم بسَمْتِهم الحسن، وتصرُّفاتهم الرَّزينة النظيفة، وجميع أفعالهم وتصرفاتهم، ويربُّوهم على التأنِّي، وعدم الاستعجال في الحكم على المسائل والأشخاص إلا بعد أن يجمعوا أطراف الأدلة في الموضوع، وجميع الجرح والتعديل في الأشخاص، ثم يحكُموا بعد ذلك؛ وفي هذا سلامةٌ لهم في أنهم سلكوا الطريقَ الصحيحَ الذي أمرهم به الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وهو العدل في كلِّ شيء. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وسلامةٌ لغيرهم في أنهم لم يقولوا إلا الحق، ولم يقرروا إلا الواقع.

وفي مجلس من مجالسه يلفت الرسول ﷺ نظر أصحابه إلى خطر الغيبة بسؤاله إياهم عنها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟**) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**)، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ، فَقَدْ بَهَتَّهُ**)[٢].

---

(١) دليل الفالحين (١/ ٥٤١).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، والآداب، باب تحريم الغيبة (٤/ ٢٠٠١)، رقم الحديث (٢٥٨٩).

ففي هذا الحديث يُلقي المربّي ﷺ على أصحابه سؤالًا قال فيه: (**أَتَدْرُونَ مَا الغيبَةُ؟**)؛ وذلك لكي يلفتَ نظرَهم إلى أهمية حُرمة الغيبة في حياتهم، ولكي يختبرَ ما عندهم، ثم يربّيهم ـ بعد أن يسمعَ ما عندهم ـ على المقصود الذي يريد أن يوصِلَه إليهم، وإلى الأمر الذي يريد أن يربّيهم عليه.

فأجاب الصحابةُ رضوان الله عليهم ـ كعادتهم فيما لا يعلمونه ـ بقولهم: «الله ورسوله أعلم».

فلما سكت الصحابةُ أجابهم المعلم ﷺ بقوله: (**الغيبةُ: ذكرُك أخاك بما يكره**).

قال ابن التِّين: «الغيبةُ: ذكر المرءِ بما يكرهُه بظهر الغيب»[1].

والغيبة محرَّمة؛ والدليل: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وحديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**لَمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ**)[2].

فالغيبة والنميمة محرَّمتان بإجماع المسلمين، وقد تظاهرتِ الأدلةُ على ذلك[3].

وقال الحسن البصري: «ذِكْرُ الغيرِ ثلاثةٌ: الغيبة، والبُهتان، والإفك، وكلٌّ في كتاب الله تعالى؛ فالغيبة: أن تقول ما فيه، والبهتان: أن تقول ما ليس فيه، والإفك: أن تقول ما بلغك»[4].

والغيبة لا تقتصر على اللسان فقط، بل كلُّ ما أدَّى إليها مِنْ قول،

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٤٦٩).
(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب الغيبة (٤/ ٢٦٩)، رقم الحديث (٤٨٧٨)، وذكره النووي في كتاب الأذكار (ص٢٩٠).
(٣) انظر: كتاب الأذكار (ص٢٨٨).
(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ١٦٠٧).

أو فعل، أو تعريض، أو كتابة، أو إشارة، أو غمز، أو إيماءٍ؛ كلُّ ذلك حرامٌ.

يقول الإمام الغزالي: «اعلم أن الذكر باللسان إنما حَرُمَ؛ لأن فيه تفهيمَ الغير نُقصانَ أخيك، وتعريفَه بما يكرهه؛ فالتعريضُ به كالتصريح، والفعل فيه كالقول، والإشارةُ والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة، وكلُّ ما يُفهم المقصودَ، فهو داخلٌ في الغيبة، وهو حرامٌ»[1].

وبعد أن أجاب الرسول ﷺ عن الغيبة، وبيَّن للأصحاب أنها (**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**)، فقال أحدُهم رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟ فأجاب الرسول ﷺ بقوله: (**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ، فَقَدْ بَهَتَّهُ**).

فوضَّح رسول الله ﷺ لأصحابه أنه إذا كان في الشخص ما قاله عنه، فهذه هي الغيبةُ التي بيَّنها رسولُ الله في أول الحديث؛ (**وَهِيَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**)، وأما إذا لم يكن فيه ما قيل عنه، فهذا هو الباطلُ بعينه، وهو إلصاق شيءٍ بأخيك المسلم، وهو منه بَراءٌ.

والبهتان أشدُّ إثمًا مِنَ الغيبة؛ لأنه تَقَوُّلٌ على عِرض المسلم بغير علم ولا بيِّنة.

هكذا ربَّى النبيُّ ﷺ أصحابه على التحلِّي بالأخلاق الفاضلة والحسنة، والبُعدِ كلَّ البُعد عن الأخلاق السيئة، وعن كلِّ ما ليس فيه فائدةٌ، حتى خرج لنا ذلك الجيلُ الفريدُ في التاريخ كلِّه نتاجًا مباركًا بسبب تلك العناية التي بذلها رسول الله ﷺ لأصحابه بتأييدٍ مِنَ الله تبارك وتعالى، وعونٍ وتوفيق منه سبحانه.

ومَنْ أراد التأكُّد مِنْ ذلك، فليقرأْ سِيَرَ هؤلاء الأبطال صحابة

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/١٦٠٧).

رسول الله ﷺ في كتب التراجم وكتب السير، فسيجد عجبًا عُجابًا لِمَا اتَّصف به أولئك الأخيار.

«وكانوا ﷺ يتلاقَوْن بالبِشر، ولا يغتابون عند الغَيْبَة، ويرَوْن ذلك أفضلَ الأعمال، ويرَوْن خِلافَه عادةَ المنافقين... ويقول بعض أهل العلم: أدركْنا السلفَ وهم لا يَرَوْن العبادةَ في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكفِّ عن أعراض الناس، وكان عبد الله بن عباس يقول: إذا أردت أن تذكر عيوبَ صاحبك، فاذكر عيوبَك، وقال أبو هريرة: يُبصِرُ أحدُكم القَذى في عين أخيه، ولا يبصرُ الجِذْعَ في عين نفسه؟! وكان الحسن يقول: ابنَ آدم، إنك لن تصيبَ حقيقةَ الإيمان حتى لا تعيبَ الناس بعيبٍ هو فيك، وحتى تبدأَ بصلاح ذلك العيب، فتصلحه من نفسك، فإذا فعلتَ ذلك، كان شغلُك في خاصة نفسك. وأحبُّ العباد إلى الله مَنْ كان هكذا...»[١].

الطريقة الثانية

السؤال ثم الجواب

في هذه الطريقة يُسْأل النبي ﷺ فيجيب بما يفيد السائل والسامع في أمور مهمة في العقيدة، وفي الأخلاق، وفي المبادئ الإسلامية؛ فمن ذلك سؤال جبريل عليه السلام:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ بارزًا يومًا للناس، فأتاه رجل، فقال: ما الإيمان؟ قال: (**الإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَبِلِقَائِهِ وَرَسُولِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالبَعْثِ**)، قال: ما الإسلام؟ قال: (**الإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ**)، قال: ما الإحسان؟ قال: (**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ**)، قال: متى الساعة؟ قال: (**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ،**

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٦٠٤، ١٦٠٥) بتصرف يسير.

وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمِ فِي البُنْيَانِ؛ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ) ثم تلا النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآية، ثم أدبر، فقال: **(رُدُّوه)** فلم يرَوْا شيئًا، فقال: **(هَذَا جِبْرِيلُ، جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ)**[1].

وفي هذا الحديث حين جاء جبريل لرسول الله ﷺ في صورة رجلٍ غريب، فسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان، وعن وقت الساعة ـ: ما يتضمَّن عَرْضَ عقيدة الإيمان، وأركان الإسلام، ومعيار الإحسان؛ وهو ما ينبغي أن يتقرَّر في نفوس السامعين، ليتعلَّموا كيف يجيبون عنها إذا سُئلوا عندما يتصدَّوْن للدعوة إلى الله تعالى، وهو مقصود مهمٌّ مِنْ هذه الأسئلة؛ ولذا جاء في نهاية الحديث قوله ﷺ: **(هَذَا جِبْرِيلُ، جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ)**.

* وفي هذا تربية للدعاة إلى الله تعالى بأن يستغلُّوا فرصة سؤال السائل في تعليم مَنْ حولهم مِنْ طلبة العلم، أو مِنَ العامّة ما ينفعُهم في تفقيههم في دين الله تعالى بطريق غير مباشرٍ، وهذا أبلغُ في التأثير على النفس مما لو كان خطابًا مباشرًا.

وأن يكون هَمُّ الداعية إلى الله تعالى شاملًا السائلَ والسامعَ معًا، وألا ينحصرَ همُّه في إفادة السائل دون السامعين.

وفي حديث جبريل هذا مِنَ الفوائد أيضًا: أنه يجوزُ أن يَسْأل العالمُ بما لا يجهله السائلُ لتعليمِ السامع؛ لفعل جبريل عليه السلام.

وفيه أيضًا: أن المسؤول إن سُئِلَ عمَّا لا يعلمُه أجاب بأنه لا يعلمه، وذلك لا ينقُص مِنْ قَدْرِه؛ فإن النبيَّ ﷺ عندما سُئِلَ: متى الساعة؟ قال:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل والنبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، وبيان النبي ﷺ له (١/ ٢٢)، رقم الحديث (٥٠).
ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله ﷻ (١/ ٣٩)، رقم الحديث (٩).

(**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**)؛ وهذا مِنْ تواضعه ﷺ وحسن خُلُقه؛ إذ أشارَ إلى أنه لا يعلم ذلك.

ومِنْ هنا ينبغي للدُّعاة إلى الله تعالى والعلماء ألا يستحيوا إذا سُئلوا عمَّا لا يعلمون أن يقولوا: لا نعلم؛ فإن في ذلك خيرًا كثيرًا لهم، ولمن اقتدى بهم، وسار على طريقهم، واهتدى بهُداهم؛ قال النووي: «يُستنبط منه: أن العالم إذا سُئِلَ عمَّا لا يعلم يصرِّح بأنه لا يعلمُه، ولا يكونُ في ذلك نقصٌ من مرتبته، بل يكون ذلك دليلًا على مزيد ورعه»[1].

وجبريل عليه السلام عندما سأل النبي ﷺ عن هذا السؤال ـ مع علمه بأن النبي ﷺ لا يعمل جوابه ـ إنما سأله عن ذلك ليكفَّ السامعين عن السؤال عن وقت الساعة، وأن يتركوا الانشغالَ بذلك، ويشتغلوا فيما يكون لهم فيه خيرٌ ومنفعة.

قال القرطبي: «ومقصود هذا السؤال كفُّ السامعين عن السؤال عن وقت الساعة؛ لأنهم قد أكثروا السؤالَ عنها كما ورد في كثير مِنَ الآيات والأحاديث، فلمَّا حصل الجوابُ بما ذُكر هنا حَصَلَ اليأسُ مِنْ معرفتها، بخلاف الأسئلة الماضية، فإنَّ المراد بها استخراجُ الأجوبة ليتعلَّمها السامعون، ويعملوا بها، ونبَّه بهذه الأسئلة على تفصيل ما يمكن معرفته مما لا يمكن»[2].

* ومِنْ فوائد هذا الحديث أيضًا: أن الإجابة قد تتضمّن زيادةً على السؤال إن اقتضتِ المصلحةُ ذلك؛ فإن رسول الله ﷺ قال للسائل: (**وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا**)؛ أي: عن علاماتها، وهي على قسمين: علاماتٌ صُغرى قبل قيام الساعة، وعلامات كبرى مقاربة ومضايقة لقيام الساعة؛ والمقصودُ في الحديث: العلامات الصغرى؛ فالجواب قد تضمَّنَ زيادةً على السؤال؛ للاهتمام به إرشادًا للأمة لِمَا يترتَّب على معرفة ذلك مِنَ المصلحة[3].

ومما يؤكد اهتمامَ المربي العظيم ﷺ بتربية أصحابه على أدب

---

(١)(٢) فتح الباري (١/ ١٢١).

(٣) انظر: فتح الباري (١/ ١٢٤).

السؤال: ما رواه الصحابيُّ الجليل أنسُ بن مالك ﷺ بقوله: «نُهينا أن نسألَ رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يُعجِبُنا أن يجيءَ الرجلُ مِنْ أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل مِنْ أهل البادية، فقال: يا محمد، أتانا رسولُك، فزعم لنا أنك تزعُم أن اللهَ أرسلك، قال: (صَدَقَ)، قال: فمن خلق السماء؟ قال: (اللهُ)، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: (اللهُ)، قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال: (اللهُ)، قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال، آللهُ أرسلك؟ قال: (نَعَمْ)، قال: وزعم رسولُك أن علينا خَمْسَ صلوات في يومنا وليلتنا، قال: (صَدَقَ)، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: (نَعَمْ)، قال: وزعم رسولُك أن علينا زكاةً في أموالنا، قال: (صَدَقَ)، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرَك بهذا؟ قال: (نَعَمْ)، قال: وزعم رسولُك أن علينا صومَ شهر رمضان في سنَتِنا، قال: (صَدَقَ)، قال فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: (نَعَمْ)، قال: وزعم رسولُك أن علينا حَجَّ البيت مَنِ استطاع إليه سبيلًا، قال: (صَدَقَ)، قال: ثم ولَّى، وقال: والذي بعثك بالحقِّ، لا أزيد عليهن ولا أنقُص منهن، فقال النبي ﷺ: **(لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ)**[1].

ففي هذا الحديث يخبرنا أنسُ بن مالك ﷺ بأنهم - أي: الصحابة ﷺ - نُهُوا أن يسألوا رسولَ الله ﷺ عن شيء؛ فكان يعجبُهم ﷺ أن يجيء الرجلُ مِنْ أهل البادية العاقل فيسأله وهم يسمعون، فجاء رجلٌ مِنْ أهل البادية؛ أي: ممن لم يكن بَلَغَه النهيُ عن السؤال، وظهر عقله في كونه عارفًا بكيفية السؤال وآدابه والمهم منه وحُسن المراجعة؛ لأن هذه هي أسباب عظم الانتفاع بالجواب[2].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام (١/ ٤١)، رقم الحديث (١٢). ورواه البخاري في كتاب العلم، باب القراءة والعرض على المحدّث (١/ ٢٧)، رقم الحديث (٦٣).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٦٩).

فجاء رجل من البادية - وهو ضِمامُ بن ثعلبةَ؛ كما جاء في رواية الإمام البخاري - فوجَّه الخطاب إلى النبي ﷺ، ومن هنا تبدأ المحاورة بينه وبين الرسول ﷺ، والصحابةُ يستمعون إلى ذلك في سكينة ووقار، وشدة انتباه للسؤال والجواب:

فقال ضِمامُ بن ثعلبةَ: يا محمد، أتانا رسولُك، فزعم لنا أنك تزعُم أن الله أرسلك.

فأجابه الرسول ﷺ على الفور قائلًا: (صَدَقَ)؛ أي: رسولي الذي أرسلتُه إليكم؛ صدق فيما قال وأخبركم به.

ثم سأل ضِمامٌ رسولَ الله ﷺ بقوله: فمَنْ خلق السماء؟ فأجابه الرسول ﷺ بقوله: (اللهُ).

ثم قال الرجل: فمَنْ خلق الأرض؟ فقال له الرسول ﷺ: (اللهُ)، فقال ضِمامٌ: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟

فأجابه النبي ﷺ قائلًا: (اللهُ).

قال القاضي عياض: «والظاهر أن هذا الرجل - أي: ضِمام بن ثعلبة - لم يأتِ إلا بعدَ إسلامه، وإنما جاء مستثبتًا ومشافهًا للنبي ﷺ والله أعلم»(١).

ثم رجع ضِمامُ بن ثعلبةَ إلى محاورة رسول الله ﷺ قائلًا له: فبالذي خلق السماء، وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال، آللهُ أرسلك؟ فقال النبي ﷺ: (نَعَمْ).

قال ضِمام: وزعم رسولُك أن علينا خمسَ صلوات في يومنا وليلتنا؛ أي: إنها متكررة في كل يوم وليلة، قال ﷺ: (صَدَقَ). فقال ضِمام: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ أي: بالصلوات الخمس. فقال النبي ﷺ: (نَعَمْ).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٧١).

فقال ضمام: وزعم رسولك أن علينا زكاةً في أموالنا، فقال له النبي ﷺ: (صَدَقَ). فقال ضمام: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ فقال النبي ﷺ: (نَعَمْ). فقال ضِمام: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا. قال ﷺ: (صَدَقَ). فقال ضِمام: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ فأجاب النبي ﷺ بقوله: (نَعَمْ). فقال ضمام: وزعم رسولك أن علينا حجَّ البيت مَنِ استطاع إليه سبيلًا، قال ﷺ: (صَدَقَ).

وبهذا تكون المحاورة قد انتهت، وانتهى ضمام من مساءلة الرسول ﷺ، فقال بعد ذلك: (**آمنتُ بما جئت به**)؛ كما في روايةَ الإمام البخاري، وعند مسلم قال: (**والذي بعثك بالحق، لا أزيدُ عليهنَّ، ولا أنقُص منهن**).

فهذه جملة من الأسئلة التي تضمنها هذا الحديث تدل على أنواعٍ من العلم.

قال الإمام النووي: «قال صاحب التحرير: هذا مِنْ حُسن سؤال هذا الرجل وملاحة سياقته وترتيبه، فإنه سأل أولًا عن صانع المخلوقات مَنْ هو، ثم أقسم عليه به أن يَصْدُقه في كونه رسولًا للصانع، ثم لَمَّا وقف على رسالته وعلِمَها أقسم عليه بحقِّ مرسلِه. وهذا ترتيب يفتقر إلى عقل رصين، ثم إن هذه الأيمان جرت للتأكيد وتقرير الأمر، لا لافتقاره إليها كما أقسم الله تعالى على أشياء كثيرة»(١). انتهى.

وقال الحافظ: «وكرر القَسَم في كل مسألة تأكيدًا وتقريرًا للأمر، ثم صرَّح بالتصديق، فكل ذلك دليل على حُسن تصرفه وتمكُّن عقله؛ ولهذا قال عمرُ بن الخطاب في رواية أبي هريرة: ما رأيتُ أحدًا أحسنَ مسألةً ولا أوجزَ مِنْ ضِمامٍ»(٢).

وفي هذا تربيةٌ مِنَ النبي ﷺ للصحابة ﷺ على تَعَلُّم العلم، وأدب

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٧١).

(٢) فتح الباري (١/ ١٥١).

المحاورة، وأنَّ العلم سؤال وجواب، وأنه إنما نهاهم عن السؤال إذا كان لا فائدةَ فيه؛ كسؤال بعضهم عن أبيه: هل هو في الجنة أم في النار، وغير ذلك، فنُهوا عن الأسئلة التي لا ينبني عليها عمل.

«والمسألة على وجهين:

أحدهما: ما كان على وجه التبيُّن والتعلُّم فيما يُحتاج إليه مِنْ أمر الدين، فهو جائز مأمورٌ به؛ قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

وقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ مسائل فأنزل الله ﷻ بيانها في كتابه؛ كما في قول الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ...﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ...﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾ [الأنفال: ١].

والوجه الآخر: ما كان على وجه التكلُّف، فهو مكروه، فسكوت صاحب الشرع عن الجواب في مثل هذا زجر وردع للسائل، فإذا وقع الجواب، كان عقوبةً وتغليظًا(١)».

وفي الحديث أنه يُكْتَفَى من المسلم بالاعتقاد المجمل دون تفصيل، فإذا وفِّق لطلب العلم ورُزق معرفةَ التفصيل في أسماء الله تعالى وصفاته وأحكامه فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

«قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله تعالى: وفي الحديث دلالة لصحة ما ذهب إليه أئمة العلماء مِنْ أن العوامَّ المقلِّدين مؤمنون، وأنه يُكتفى منهم بمجرد اعتقاد الحقِّ جزمًا مِنْ غير شكٍّ وتزلزُلٍ، خلافًا لمن أنكر ذلك من المعتزلة، وذلك أنه ﷺ قرَّر ضِمامًا على ما اعتمد عليه في تعرُّف رسالته وصدقه، ومجرد إخباره إياه بذلك، ولم ينكر عليه ذلك،

(١) شرح السُّنَّة للإمام البغوي (١/ ٣١٠، ٣١١).

ولا قال: يجب عليك معرفةُ ذلك بالنظر في معجزاتي، والاستدلال بالأدلة القطعية»[(١)].

ولذا، ينبغي على الدعاة إلى الله تعالى أن يوجِّهوا مَنْ ولَّاهم الله تعالى تربيته وتعليمه إلى الاشتغال بما هو مفيد، وأن يبتعدوا عن الخوض فيما لا فائدةَ فيه، وفيما لا ينبني عليه عمل، فإنَّ كلَّ مسألةٍ لا ينبني عليها عمل في الدنيا أو في الآخرة، فالخوضُ فيها باطلٌ، فلزم توجيهُهم وحثُّهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

ومما يؤكد اهتمامَ المربي الكبير ﷺ أيضًا بتربية أصحابه على السؤال عما ينفعهم: ما ورد في الحديث الذي رواه الصحابي الجليل أنسُ بن مالك رضي الله عنه؛ أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ وهو جالس مع أصحابه، فسأله عن وقت الساعة؛ قال رضي الله عنه: إن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: (**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**) قال: لا شيء، إلا أني أحبُّ الله ورسولَه ﷺ، فقال ﷺ: (**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**)، قال أنس: فما فرحنا بشيء فَرَحَنا بقول النبي ﷺ: (**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**)، قال أنس: فأنا أحبُّ النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبِّي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم[(٢)].

وفي هذا الحديث دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء، وسؤالهم عن أمور الدين لكلِّ مَنْ جَهِلَ أحكامَه؛ قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فأجاب المربي ﷺ السائلَ برفق، ووجَّه عنايتَه وعناية السامعين إلى ما يعود عليهم جميعًا بالفوائد العظيمة، فقال للسائل: (**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**)

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٧١).

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب (٤/ ٢٤١)، رقم الحديث (٣٦٨٨).
ورواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٤/ ٢٠٣٢)، رقم الحديث (٢٦٣٩).

أي: ما العمل الصالح الذي أعددتَّه لتلقَى جزاءَه وثوابَه إذا قامت القيامة؟ وفي هذا كمال نُصح الرسول ﷺ وشفقته على أمته وإرشادهم إلى ما فيه فوزُهم وسعادتهم.

قال الكرماني: «سَلَكَ مع السائل أسلوب الحكيم، وهو تلقِّي السائل بغير ما يُطلب مما يهمُّه أو هو أهم»(١). انتهى.

وفي هذا تربية للدعاة إلى الله تعالى على ألا يكون هَمُّ أحدهم السرعةَ في الإجابة على السائل، وإنما ينبغي التريُّث والتُّؤدَة في الجواب وحُسن التصرف وتوجيه الجواب لِمَا يعود على السائل والسامعين بما يفيدهم في دنياهم وآخرتهم، وأن السؤال عن موعد الساعة لا يتعلق به عمل، وإنما يقصد الشارع الحكيم من ذكر الاستعداد لها لَفْتَ النظر إلى ما هو أَوْلى بالسؤال والاهتمام بمَا له فائدة على المكلف.

ثم أجاب الرجلُ على سؤال رسول الله ﷺ بقوله: لا شيء، إلّا أني أحبُّ الله ورسوله ﷺ؛ أي: إني ما أعددتُ لها كثيرَ نافلةٍ من صلاة ولا صيام ولا صدقة؛ لأنه لا يمكن أن يجتمع في قلب مسلم حب الله ورسوله، وترك الفرائض التي أمر الله بها ورسوله؛ لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كلِّ مَنِ ادَّعى محبةَ الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذبٌ في نفس الأمر حتى يتَّبع الشرع المحمديَّ والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله؛ كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**)(٢)... وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول ﷺ من غير علم فحكمه مردود؛ لقول النبي ﷺ: (**مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**) (٨/ ١٩٨).

يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[١].

فتبين مِنْ هذا أن قصدَ الرجل بقوله: «لا شيء، إلا أنّي أحبُّ اللهَ ورسولَه»: «أي ما أعددتُ لها كثيرَ صلاةٍ، ولا صيامٍ، ولا صدقة؛ أي: غير الفرائض؛ معناه: ما أعددتُ لها كثيرَ نافلةٍ مِنْ صلاة، ولا صيام، ولا صدقة»[٢]، إلَّا أني شديدُ الحبِّ لله ورسوله.

فقال الرسول ﷺ للرجل والصحابة يسمعون: (**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**)، وفي هذا التوجيه النبوي تربية للصحابة رضوان الله عليهم على عِظَمِ شأن محبَّة الله ورسوله، وأنها ملاكُ الأمر كلِّه، بل أساسُه وقاعدتُه، كما جاء في الحديث الصحيح: (**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**)[٣].

وفي قوله ﷺ: (**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**) توجيهُ عناية الصحابة ﷺ إلى محبة الحق وأهله ليحظَوْا بالسعادة والفوز مِنْ عذاب الله تعالى، ويكسبوا محبَّة الله ورضاه؛ لأنَّ المرءَ مَعَ من أحبَّ؛ ولذا فرح الصحابةُ ﷺ بهذا التوجيه النبوي الكريم أشدَّ الفرح، كما صوَّرَ لنا حقيقةَ ذلك الصحابيُّ الجليل أنسُ بن مالك ﷺ بقوله: فما فرحنا بشيءٍ فرَحَنا بقولِ النبي ﷺ: (**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**)، وفي صحيح مسلم: قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشدَّ مِنْ قول النبيِّ ﷺ: (**فَإِنَّك مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**).

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٥٨).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٨٦، ١٨٧).
(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار من الإيمان (١/ ١٣)، رقم الحديث (٢١).
ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (١/ ٦٦)، رقم الحديث (٤٣).

ثم قال أنس: فأنا أحب النبيَّ ﷺ وأبا بكر وعمر.

فجمع أنسٌ رضي الله عنه بين النبي ﷺ وصاحبيه في المحبَّة، ومحبتُهما رضي الله عنهما هي من محبة الرسول ﷺ؛ وذلك لأن المحبةَ الصادقةَ تقتضي موافقةَ المحبوب في محبة ما يحبُّه، وبُغضِ ما يُبغضه، وأبو بكر الصديق وعمرُ بن الخطاب رضي الله عنهما هما حبيباه وصاحباه ﷺ، وقد جمع الله تعالى بين النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما في الدنيا، فدُفِنا بجواره ﷺ، وهما معه في الجنة، وهما مِنْ أفضل مَنْ ولدته النساءُ بعد الأنبياء والمرسلين، وأفضلهما أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وبعده عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، وبعد عمرَ في الفضل عثمانُ رضي الله عنه، ثم علي رضي الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين.

فعلى الدُّعاة إلى الله تعالى أن يبيِّنوا للناس عامة ولطلاب العلم خاصة، أن محبةَ الله ورسوله ليست دعوة باللسان، ولا هُيامًا في الوجدان، وأن الإسلام ليس مجرَّد كلماتٍ تُقال باللسان، ولا مجرد شعائر تقام، ولكنه ـ مع هذا ـ هو طاعةٌ لله والرسول، وعمل بمنهج الله تعالى الذي جاء به رسول الله ﷺ، وأن محبة الله تعالى تستلزم محبةَ طاعتِه، فإنه يحبُّ من عبده أن يطيعَه، والمحبُّ يحبُّ محبوبَه ولا بد، ومِنْ لوازم محبة الله تعالى أيضًا محبة أهل طاعته.

قال شارح الطحاوية: «فمحبة رسول الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله، وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقُّها غيره، فغير الله يُحَبُّ في الله لا مَعَ الله، فإن المحبَّ يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض، ويوالي مَنْ يواليه، ويعادي مَنْ يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عمَّا ينهى عنه، فهو موافقٌ لمحبوبه في كلِّ حال، والله يحب المحسنين، ويحب المتقين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين؛ ونحن نحب مَنْ أحبه الله، والله لا يحبُّ الخائنين، ولا يحبُّ المفسدين، ولا يحب المستكبرين؛ ونحن لا نحبُّهم أيضًا ونبغضهم موافقةً له سبحانه، فالمحبة التامةُ مستلزمةٌ لموافقةِ المحبوب

في محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته»[١]. انتهى.

فلا بد مِنْ بيان ذلك للناس ولطلاب العلم حتى يتميز أهلُ الدين والعقيدة الصحيحة عن غيرهم ممن أدار ظهرَه لهذا الدين ومنهجه.

«وإن الإنسان لا يكون مؤمنًا كاملَ الإيمان الواجب حتى تكون محبتُه تابعةً لِمَا جاء به الرسول ﷺ مِنَ الأوامر والنواهي وغيرها، فيحبُّ ما أمر به، ويكره ما نهى عنه، وقد ورد في القرآن بمثل هذا المعنى في غير موضع؛ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وذم سبحانه من كره ما أحب الله وأحب ما كرهه الله؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]. وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

فالواجب على كل مؤمن أن يحبَّ ما أحب الله محبةً تُوجبُ له الإتيانَ بما وجب عليه منه، فإن زادت المحبةُ حتى أتى بما نَدَبَ إليه منه كان ذلك فضلًا، وأن يكره ما كرهه تعالى كراهة توجب له الكفَّ عما حَرَّم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكفَّ عما كرهه تنزيهًا كان ذلك فضلًا. والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعةَ والموافقةَ في حب المحبوبات وبغض المكروهات؛ فَمَنْ أحبَّ الله ورسوله محبةً صادقةً مِنْ قلبه أوجبَ له ذلك أن يحبَّ بقلبه ما يحبُّه الله ورسوله، ويكره ما كرهه الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبُغض، فإن عمل بجوارحه شيئًا يخالف ذلك، بأنِ ارتكبَ بعضَ ما يكرهه الله ورسوله، أو ترك بعضَ ما يحبُّه الله ورسولُه، مع وجوبه والقدرة عليه، دلَّ ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوبَ مِنْ ذلك، ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة، فجميع المعاصي

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٤٢٣، ٤٣٣).

إنما تنشأ مِنْ تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله»[١]. انتهى.

سؤال حذيفة عن الخير والشر:

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ؛ مخافةَ أن يدرِكَني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنَّا في جاهلية وشرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شرٌّ؟ قال: قال: (**نَعَمْ**)، فقلت: هل بعد ذلك الشرِّ مِنْ خير؟ قال: (**نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ**)، فقلت: وما دَخَنُه؟ قال: (**قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)، فقلت: هل بعد ذلك الخير مِنْ شرٍّ؟ قال: (**نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ؛ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**)، فقلت: يا رسول الله، صِفْهُم لنا، قال: (**نعمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**)، قلت: يا رسول الله، فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: (**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**)، فقلت: فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمام؟ قال: (**فاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**)»[٢].

فحديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه نموذجٌ جَلِيٌّ للطريقة الحوارية التي كان يستعملها رسولُ الله ﷺ في تعليم أصحابه رضي الله عنهم، ومِنَ الملحوظ في هذا الحديث أن الحِوار يحتويه إلى آخره، فالطالب ـ وهو هنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ـ يسأل، والمعلمُ ـ هو الرسولُ ﷺ ـ يجيب. ويبني الطالب على إجابة معلِّمه ﷺ سؤالًا آخر، ويطلُب الإجابةَ عليه، والمعلِّم ﷺ لا يتضجَّرُ، بل يقابل الأسئلةَ بصدْر رحْبٍ، وبحِلم وأناة، ملاحظًا في ذلك

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٣٩٦).
(٢) رواه البخاري، في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٤/ ٢١٤، ٢١٥)، رقم الحديث (٣٦٠٦).
ورواه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال (٣/ ١٤٧٥)، رقم الحديث (١٨٤٧).

السامعين كذلك، فقد أحاطهم باهتمامه وملاحظته؛ وهكذا ينبغي أن يكونَ المربُّون مَعَ مَنْ يعلمونهم الخيرَ ويبيِّنون لهم الحقَّ.

فيبدأ الحديث بقول حذيفة ﷺ: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني.

ويوضح الصحابيُّ الجليل حذيفةُ بنُ اليمان بقوله السابق، أن أكثر الصحابة ﷺ كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن وجوه الخير التي تكون سببًا في نجاتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة لكي يعملوا بها ويبلِّغوها غيرَهم، وأنه ﷺ كان خلافَ ذلك، فإنه كان يسأل رسول الله ﷺ عن الشرِّ وطرقه ليجتنبَه ويحذَرَ منه، ويكون سببًا في دفعه عمَّن أراد الله له النجاةَ من عباده بسبب ذلك.

«قال ابن أبي جمرة: في الحديث حكمةُ الله في عباده، كيف أقام كلًّا منهم فيما شاء، فحبَّب إلى أكثر الصحابة السؤالَ عن وجوه الخير ليعملوا بها ويبلِّغوها غيرَهم، وحبَّب لحذيفةَ السؤال عن الشرِّ ليجتنبَه، ويكون سببًا في دفعه عمَّن أراد الله له النجاة»[1].

ومِنْ ثَمَّ، فإن كلَّ من حُبِّب إليه شيء، فإنه يفوق فيه غيرَه في الغالب؛ ولذا كان حذيفةُ ﷺ صاحبَ سِرِّ رسول الله ﷺ حتى خصَّه ﷺ بمعرفة أسماء المنافقين، وبكثيرٍ مِنَ الأمور التي وقعت بعد وفاته ﷺ.

ثم بدأت المحاورةُ بين الرسول ﷺ وحذيفة ﷺ بقوله: فقلت: يا رسول الله، إنَّا كنا في جاهلية وشرٍّ؛ يشيرُ ﷺ إلى ما كان قبل بعثة النبي ﷺ من الكفر، وعبادة غير الله، واتِّباع غير ما أنزل الله تعالى، وانتشارِ القتل والنهب، وإتيان الفواحش بمختلف أنواعها.

ثم تابع قائلًا: فجاءنا الله بهذا الخير؛ يشيرُ ﷺ إلى الإيمان بالله تعالى وحده، واتِّباع ما أنزل الله تعالى، واجتناب الفواحش ببعثة النبي ﷺ

(١) فتح الباري (١٣/ ٣٧).

وإرساله للناس كافَّة، وحصول الأمن والأمان وصلاح الحال بسبب ذلك.

وبعد تلك المقدمة اللطيفة التي قدَّم بها حذيفةُ حديثه لرسول الله ﷺ، تقدَّم سائلًا رسول الله ﷺ: هل يمكن أن يكون شرٌّ بعد هذا الخير الذي نحن فيه. فقال النبي ﷺ: (نَعَمْ).

«والمراد بالشرِّ: ما يقع مِنَ الفتن مِنْ بعد قتل عثمان رضي الله عنه وهلُمَّ جرًّا، أو ما يترتب على ذلك مِنْ عقوبات الآخرة»(١).

فبنى حذيفةُ رضي الله عنه على جواب النبي ﷺ سؤالًا آخر، فقال: وهل بعد ذلك الشرِّ مِنْ خيرٍ؟ أي: هل بعد هذا الشرِّ الذي سيحدُث، والفتن التي ستحلُّ بهذه الأمة، هل بعد هذه الأمور مِنْ خيرٍ يستريح المؤمنون في ظِلِّه؟

فأجابه النبي ﷺ بقوله: (نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ).

«والدَّخَنَ ـ بالمهملة ثم المعجمة المفتوحتين بعدها نون ـ: وهو الحقد، وقيل: الدَّغَل، وقيل: فسادٌ في القلب، ومعنى الثلاثة متقارب. يشير إلى أن الخير الذي يجيء بعد الشرِّ لا يكون خيرًا خالصًا، بل فيه كَدَرٌ، وقيل: المراد بالدَّخَن: الدخانُ، ويشير بذلك إلى كدَر الحال، وقيل: الدَّخَنُ كلُّ أمر مكروه»(٢). انتهى.

ثم بنى الطالب سؤالًا آخر، فقال: وما دَخَنُه؟ أي ما كُدورةُ هذا الخير، فأجاب النبي ﷺ بقوله: (قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ)؛ أي: أنهم لا يكونون على الهيئة والسِّيرة التي كان عليها رسولُ الله ﷺ، وإنما فيهم وفيهم؛ أي: أنك تعرف مِنْ أعمالهم ما يوافق الطريقةَ المستقيمةَ، وأحيانًا ترى غير ذلك مما تنكره عليهم وتتعجَّب منه. والله أعلم.

فقال حذيفة: فهل بعد ذلك الخير مِنْ شرٍّ؟ أي: هل بعد هذا الخير الذي فيه دَخَنٌ مِنْ شرٍّ يجيء بعدَه.

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٣٥، ٣٦).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٦).

فقال رسول الله ﷺ: **(نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ؛ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا)**؛ أي: دعاة إلى غير الحق، وأطلق عليهم «على أبواب جهنم» باعتبار ما يؤول إليه حالُهم، كما يُقال لمن أمر بفعل محرَّم: وقف على شفيرِ جهنَّم[١].

فمن أجاب هؤلاء الدعاة إلى الباطل صار مآله مآلَهم، وهي جهنمُ والعياذ بالله؛ فينبغي الحذَرُ مِنْ دُعاة الباطل؛ مِنَ العَلمانيين والحداثِيِّين والشيوعيين والاشتراكيين والرأسماليين، وغيرهم مِنْ دُعاة الباطل في هذا الزمان.

وقد طلب حذيفةُ مِنْ رسول الله ﷺ أن يصِفَ هؤلاء الدعاة؛ فقال ﷺ: **(نَعمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا)**؛ فهم ليسوا غرباءَ عنا في الجنس واللسان، وإنما غرباءُ عنا في المنهج والمعتقَد، ومِنْ هنا كانت صعوبةُ الحَذَر والحيْطة، فإنهم يَدَّعُون الإسلام وقد يأتون ببعض تعاليمه لكي ينخدِعَ الناسُ بهم، ثم يطعنون في الإسلام بشُبَهِهم وتشكيكاتهم.

«قال القابسي: معناه أنهم في الظاهر على مِلَّتنا، وفي الباطن مخالفون؛ وجِلدَةُ الشيءِ: ظاهرُه، وهي في الأصل: غِشاءُ البدن»[٢].

ثم قال حذيفةُ مستنصحًا رسولَ الله ﷺ: فما تأمُرُني إن أدركني ذلك؟ أي: ما الذي تنصحُني به يا رسول الله إن أدركني ذلك الزمانُ الذي أرى فيه هؤلاء الدعاة إلى أبواب جهنم، والذين هم مِنْ جلدتنا ويتكلَّمون بألسنتنا؟ فنصحه رسول الله ﷺ بأن يلزمَ جماعةَ المسلمين وإمامَهم؛ لأنَّ في ذلك العصمةَ والنجاةَ مِنْ شرِّ هؤلاء الدعاة الضالِّين.

ولكن حذيفة راجَعَ رسول الله ﷺ قائلًا: فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ فنرى أن حذيفةَ سأل رسول الله ﷺ: فإن لم يكن للمسلمين جماعةٌ تميِّزهم عن غيرهم، ولم يكن لهم إمامٌ يسوسُهم ويقومُ عليهم، وإنما

---

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٣٦).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٦).

كانت الغَلَبَةُ للطُّغاة أصحابِ الأهواء والدعوة إلى الباطل، وكان المسلمون مستضعَفين، ولا قوةَ لهم ولا منعة؟ فأجابه النبي ﷺ بقوله: (**فاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**).

قال البيضاوي: «والمعنى: إذا لم يكن في الأرض خليفةٌ، فعليك بالعُزلة والصبر على تحمُّل شدَّة الزمان، وعَضُّ أصل الشجرة كنايةٌ عن مكابدة المشقَّة؛ كقولهم: فلانٌ يعَضُّ الحجارَةَ مِنْ شدة الألم»[1].

هكذا كان رسول الله ﷺ يدير حلقةَ العلم، ويجلس لأصحابه رضوان الله عليهم، يتلقَّى منهم الأسئلةَ، ويجيب عليها بوضوح تامٍّ، وتوجيهٍ سديدٍ، ينتفع بمدلوله السائلُ والسامعُ على حدٍّ سواء، بطريقة مشوِّقة، لا غموض فيها ولا تعقيد، مشوبة بالمحبة الصادقة بين المعلم وطلابه، وبين الجليس وجلسائه، وإن هذه الصورة الواضحة الصادقة لحَرِيٌّ بدعاة الإسلام والمربِّين أن يقتبسوها مِنْ رسول الله ﷺ، ويدرِّبوا أنفسَهم على هذه الروح العالية التي ما عرفها أحدٌ إلا استأنس بها، وسكن إليها، وسمع توجيهَها، ووقَر في قلبه فحواها.

وعليهم كذلك أن يوسعوا صدورَهم لمن سألهم، ولمن أحبَّ الاستفادة منهم، وأن يكونوا مثلَ رسولهم ﷺ؛ فواضحٌ مِنْ هذه الأحاديث السابقة ـ وخاصَّةً حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ـ سَعَةُ صدرِه ﷺ على السائل ومراجعته وكثرة تساؤله، وإجابته ﷺ بما ينفع السائل والسامعين.

وعليهم أيضًا ألا يتحرَّجوا ممَّن يسألهم عن الشر مخافةَ الوقوع فيه، أو ممن يسألهم عن النظرة المستقبليَّة للإسلام وللدعوة إليه حسب سنن الله تعالى الجارية، فإنَّ لهم قدوةً في المنهج النبوي الكريم.

وعليهم أن يبينوا لمن ولَّاهم الله تعالى تربيتَه وتعليمَه وتوجيهَه خطرَ

---

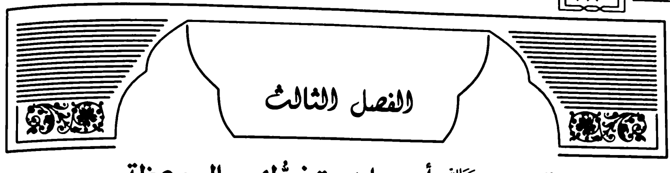
(١) فتح الباري (١٣/ ٣٦).

دُعاة الباطل مِنَ العلمانيِّين، والحداثِيِّين، والشيوعيين، والاشتراكيين والرأسماليين، وأن يكشفوهم لطلابهم بصفاتهم وأسمائهم وأفعالهم - إذا استدعى الأمر -؛ حتى يسْلَموا مِنْ شُرورهم، ويحذَروا مِنْ سُمومهم، وحتى يتَّخذوهم أعداءً؛ إلى أن يرجِعوا عن غَيِّهم، ويتوبوا إلى بارئهم.



الفصل الثالث

تربيته ﷺ أصحابه بتخولهم بالموعظة



تربيته ﷺ أصحابه بتخوُّلهم بالموعظة

فَطَرَ الله تعالى النفس الإنسانية على حب الخير والرغبة فيه ونشاطها في تحصيله، ثم إنها سَرَعان ما تَمَلُّ وتسأمُ مِنْ تكرار الموعظة والترغيب في ذلك.

وقد راعى المربي العظيم ـ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ هذا الجانبَ في تربيته أصحابه، فكان يتخوَّلهم بالموعظة خوفًا عليهم مِنَ السآمة والمَلَل:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يتخوَّلُنا بالموعظة في الأيام؛ كراهةَ السآمة علينا»[(١)].

فواضحٌ مِنْ هذا الحديث أن رسول الله ﷺ كان يراعي في موعظته وتوجيهه الحالةَ النفسية لأصحابه رضوان الله عليهم، فكان يتخوَّلهم بالموعظة؛ أي: يتعهَّدهم بها في مظانِّ القَبول، ولا يكلِّمهم في كل وقت لئلا يسأموا[(٢)].

فكان ﷺ يراعي الأوقات في تذكير الصحابة، ولا يفعل ذلك كل يوم خشية أن يمَلُّوا، وما ذلك إلا لأن في النفس إقبالًا وإدبارًا، ومِنْ ثم لا بدّ من تحيُّن فرصة إقبالها، ومراعاة حال نشاطها لكي تقبل على الموعظة بكل قواها، فتتأثر بها، وتُطبِّق محتواها، فيكون ذلك أنشطَ في تطبيقها والتزامها مع المتابعة لذلك.

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كيلا ينفروا (١/ ٢٩)، رقم الحديث (٦٨).

(٢) انظر: شرح السنة للإمام البغوي (١/ ٣١٣).

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: حَدِّثِ القومَ ما حَدَجُوكَ بأبصارهم وأقبَلَتْ عليك قلوبُهم، فإذا انصرفت عنك قلوبُهم، فلا تحدِّثْهم، قيل: وما علامةُ ذلك؟ قال: إذا التفتَ بعضُهم إلى بعض، ورأيتَهم يتثاءبون، فلا تحدِّثْهم[١].

قوله: «حدَجوك بأبصارهم» أي: رَمَوْك بها، يريد: حدِّثهم ما داموا يشتهون حديثَك، فإذا أعرضوا عنك فاسكُتْ[٢].

ولذلك كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما يذكِّر الناس ويعِظُهم في كل خميس؛ خشيةَ أن يَملَّ الناسُ، ولَمَّا طلب منه بعضُهم أن يذكِّرهم كلَّ يوم أجابهم بقوله: إنه ما يمنعُه مِنْ ذلك إلا أنه يكره أن يُمِلَّهم، وأن يدخل عليهم السآمة مِنْ كثرة حديثه لهم؛ عن أبي وائل، قال: كان عبدُ الله بن مسعود يذكِّرُ الناسَ في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمٰن، لوَدِدتُّ أنك ذكَّرتنا كلَّ يوم؟ قال عبد الله بن مسعود: أمَا إنه يمنعُني مِنْ ذلك أني أكره أن أُمِلَّكم، وإني أتخوَّلُكم بالموعظة كما كان النبيُّ ﷺ يتخوَّلنا بها؛ مخافةَ السآمة علينا»[٣].

فكان رضي الله عنه يتعهدهم بالموعظة اقتداءً برسول الله ﷺ فإنه كان يتعهد الصحابة، ويطلب أحوال نشاطهم ثم يعِظُهم؛ مخافةَ السآمة عليهم.

فإذا كان الرسول ﷺ يخاف على أصحابه السآمة والملل، وهو رسول الله، والكلُّ يشتاق لحديثه وتوجيهه وتعليمه، فكيف بغيره؟! ما كان أحدٌ أن يتصوَّرَ أن يَمَلَّ أحدٌ مِنْ حديث رسول الله ﷺ، ولكن النفوس هي النفوس، تنشط حينًا، وتتعب حينًا آخر؛ ولذا كان ﷺ يحدِّثها حالَ نشاطها وإقبالها رحمة بها.

---

(١)(٢) شرح السُّنَّة (١/ ٣١٣، ٣١٤).
(٣) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من جعل لأهل العلم أيامًا معلومة (١/ ٣٠)، رقم الحديث (٧٠).
ورواه مسلم في كتاب صفة المنافقين وأحكامهم، باب الاقتصاد في الموعظة (٤/ ٢١٧٣، ٢١٧٤)، رقم الحديث (٢٨٢١).

وإن هذا لأبلغ درس للدعاة إلى الله تعالى وللوعاظ لكي يقتدوا برسولهم ﷺ، ويحذوا حذوه كما فعل الصحابة رضي الله عنهم.

عن عكرمةَ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «حدِّثِ الناسَ كلَّ جمعة مرةً، فإن أبيتَ فمرتين، فإن أكثرتَ فثلاثَ مرات، ولا تُمِلَّ الناسَ هذا القرآنَ، ولا أُلفِيَنَّك تأتي القومَ وهم في حديث مِنْ حديثهم، فتَقُصُّ عليهم، فتقطعُ عليهم حديثَهم فتُمِلَّهم، ولكن أنصت، فإذا أمرُوك، فحدِّثهم وهم يشتهونه، وانظر السجعَ مِنَ الدعاء فاجتنبه، فإني عهدتُّ رسولَ الله ﷺ وأصحابَه لا يفعلون ذلك»[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها لعُبيد بن عُمير: ألم أُحدَّثْ أنك تَجْلِسُ ويُجْلَسُ إليك؟ قال: بلى، يا أم المؤمنين. فقالت: فإياك وإملالَ الناس وتقنيطَهم.

وروي أنها قالت له: اقصُص يومًا، واترك يومًا؛ لا تُمِلِّ الناس[٢].

«فيستحبُّ تركُ المداومة في الجِدِّ في العمل الصالح خشية الملال، وإن كانت المواظبةُ مطلوبةً، لكنها على قسمين: إما كلَّ يوم مع عدم التكلف، وإما يومًا بعد يوم، فيكون يوم الترك لأجل الراحة ليقبل على الثاني بنشاط، وإما يومًا في الجمعة، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ والضابط: الحاجة مع مراعاة وجود النشاط»[٣].

وكما كان ﷺ يتخوَّل الصحابةَ بالموعظة، كان أيضًا يتحيَّن الفُرص المناسبة لوَعْظهم وتعليمهم، ويتخيَّر الأوقاتَ التي تذكر الآخرة كاتباع الجنازة وغيرها.

عن علي رضي الله تعالى عنه، قال: كان النبيُّ ﷺ في جنازة، فأخذ شيئًا، فجعل ينكت به الأرض، فقال: (**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ**)، قالوا: يا رسول الله: أفلا نَتَّكِلُ على كتابنا، ونَدَعُ العمل؟ قال: (**اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ؛**

---

(١) شرح السُّنَّة للبغوي (١/ ٣١٤).
(٢) شرح السُّنَّة للبغوي (١/ ٣١٤).
(٣) فتح الباري (١/ ١٦٣).

أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ، فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ)، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥، ٦]»[1].

فالنبي ﷺ تحيَّن ذَهاب الصحابة ﷺ معه لدفن واحدٍ مِنْ إخوانهم، والتأثُّر والحزنُ ظاهرٌ على ملامحهم، وتذكر الآخرة ماثلٌ بين أيديهم، وهم يشيِّعون واحدًا منهم انتقلَ مِنْ دار الدنيا إلى دار الآخرة.

فيحدِّثُ الصحابيُّ الجليل علي بن أبي طالب ﷺ أن النبيَّ ﷺ كان في جنازة، فأخذ عودًا وهو في المقبرة فأخذ يخُطُّ في الأرض خطًّا يسيرًا مرة بعد مرة، وذلك فعل المفكِّر المهموم[2].

فوجَّه الخطابَ إلى أصحابه قائلًا: **(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ)**. أي: أن الله تعالى يعلم مَنْ منكم مِنْ أهل النار، ومَنْ منكم مِنْ أهل الجنة، وهذا الكلامُ يتناسب مَعَ الحالة التي هم فيها، فلفت انتباهَهم إلى مقصوده ﷺ؛ ومِنْ ثَمَّ لَمَّا سمع الصحابةُ قولَ الرسول ﷺ بادروا قائلين: يا رسول الله، أفلا نَتَّكِلُ على كتابنا ونَدَعُ العمل؟ أي: ألا نتَّكلُ على ما قُدِّرَ لنا في علم الغيب، ونتركُ مشقَّة العمل، فمن كان منَّا مِنْ أهل الجنة دخلها، ومَنْ كان مِنْ أهل النار دخلها، إذ إن الله تعالى قدَّر هذه المقاديرَ، وعلم مَنْ هم أهلُ الجنة، ومَنْ هم أهلُ النار.

فأجابهم النبي ﷺ بأنه لا مشقَّةَ في ذلك؛ لأن كُلًّا ميسرٌ لِمَا خُلق له، فأمرهم بالعمل، ونهاهم عن ترْكه، وأنَّ مَنْ كان منكم مِنْ أهل السعادة،

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ (٦/ ١٠١)، رقم الحديث (٤٩٤٥).
ورواه مسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٤/ ٢٠٣٩)، رقم الحديث (٢٦٤٧).

(٢) انظر: كتاب عشرون حديثًا من صحيح البخاري (ص٢١٩).

فإن الله تعالى سييسّره لعمل أهل السعادة والفلاح، ومَنْ كان مِنْ أهل الشقاء، فإن الله تعالى سييسّرُه لعمل أهل الشقاء والخُذلان، وأن هذا غيبٌ، لا يعلمُه إلا الله تعالى، أما غيرُه فلا عِلْمَ له به.

قال الحافظ ابن حجر: «والفاء معقِّبة لشيء محذوف، تقديرُه: فإذا كان كذلك، أفلا نتَّكِلُ؟ وحاصلُ السُّؤال: ألا نتركُ مشقَّةَ العمل، فإنا سنصير إلى ما قُدِّرَ علينا. وحاصل الجواب: لا مشقَّةَ؛ لأن كلًّا ميسَّرٌ لِمَا خُلق له، وهو يسير على من يسره الله. قال الطيبي: الجوابُ مِنَ الأسلوب الحكيم؛ مَنَعَهم عن ترك العمل، وأمرهم بالتزام ما يجب على العبد مِنَ العبودية، وزجرهم عن التصرُّف في الأمور المغيَّبة، فلا يجعلوا العبادةَ وتَرْكها سببًا مستقلًّا لدخول الجنة والنار، بل علامات فقط»[(١)].

ففي هذا تربية للصحابة على اتخاذ الأسباب المشروعة من العملِ وغيره، والتعلُّقِ بالله تعالى، والاتِّكالِ بعد ذلك على ما سبق في علم الله تعالى[(٢)].

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤٩٧).

(٢) وهذا الحديث أصل في باب القضاء والقدر، وأنه سبق في علم الله تعالى أن المكلَّفين فريقان، فريق في الجنة وفريق في السعير؛ قال النووي: «قال الإمام أبو المظفَّر السمعاني: سُبُل معرفة هذا الباب التوقيفُ مِنَ الكتاب والسُّنَّة دون مَحْضِ القياس ومجرَّد العقول، فمَنْ عدَل عن التوقيف فيه ضَلَّ وتاه في بحار الحَيْرة، ولم يبلُغْ شِفاءَ النفس، ولا يصِلُ إلى ما يَطمئِنُّ به القلب؛ لأن القَدَر سرٌّ مِنْ أسرار الله تعالى التي ضُربت من دونها الأستار، اختصَّ الله به وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم؛ لِمَا علمه مِنَ الحكمة. وواجبنا أن نقف حيث حدَّ لنا ولا نتجاوزه، وقد طوى الله تعالى علم القدر عن العالم، فلم يعلمه نبيٌّ مرسَل ولا ملَك مقرَّب». شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٩٦).

وهذا أصلٌ مِنْ أصول أهل السُّنَّة والجماعة، فالقدر سِرُّ الله تعالى في خَلْقه، ولا يطَّلِعُ عليه أحدٌ كائنًا مَنْ كان غيرُ الله تعالى، وأن إطلاق العقل في رجاء معرفته والتوصل إلى شيء مِنْ أسراره دليلُ الخُذلان، وسُلَّمُ الحرمان والبوار والخسران.

قال الطحاوي رحمه الله تعالى: «وأصلُ القَدَرِ سرُّ الله تعالى في خلقه، لم يطَّلع على ذلك ملَكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل، والتمعُّن والنظر في ذلك ذريعةُ الخُذلان، وسُلَّمُ الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذرَ كلَّ الحذرِ مِنْ ذلك نظرًا وفكرًا ووسْوَسَة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه؛ كما قال الله تعالى في كتابه: =

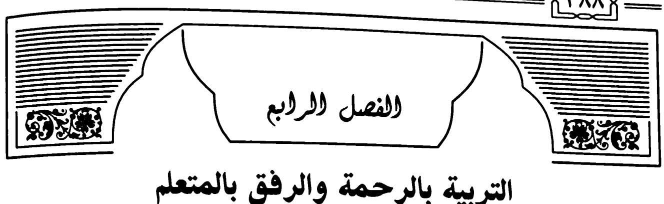
وهو تربية للدُّعاة وطلاب العلم في كلّ زمان ومكان على ذلك.



= ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٤٩).
وقال: «فلو اجتمع الخَلْقُ كلُّهم على شيء كتبه الله فيه أنه كائن ليجعلوه غيرَ كائن لم يقدِرُوا عليه، ولو اجتمعوا كلُّهم على شيءٍ لم يكتُبْه الله تعالى فيه ليجعلوه كائنًا لم يقدروا عليه، جَفَّ القلمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبدُ لم يكن ليصيبَه، وما أصابَه لم يكن ليخطِئَه». شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٦٦).
وقال: «فويلٌ لِمَنْ صار لله تعالى في القدر خصيمًا، وأحضر للنظر فيه قلبًا سقيمًا؛ لقد التمس بوَهْمِه في فحص الغيب سرًّا كتيمًا، وعاد بما قال فيه إفكًا أثيمًا».
شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٦٦ ـ ٢٧٤) بتصرف.

الفصل الرابع

التربية بالرحمة والرفق بالمتعلِّم



الفصل الرابع

التربية بالرحمة والرفق بالمتعلم

كان النبي ﷺ واسعَ الصدرِ مع أصحابه - رضوان الله عليهم - في تعليمهم وتربيتهم، وخاصةً مَعْ مَنْ جهِل حكمًا أو أمرًا مِنْ أمور الإسلام؛ فإنه ﷺ يعلِّمُه ويربيه دون تعنيف أو تجريح.

ومما يدل على ذلك: ما رواه الشيخان في صحيحيهما: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا دخل المسجد - ورسول الله ﷺ جالسٌ في ناحية المسجد - فصلَّى، ثم جاء، فسلَّم عليه، فقال له رسول الله ﷺ: **(وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ)**، فرجع فصلَّى، ثم جاء فسلم، فقال: **(وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، فَارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ)**، فقال في الثانية - أو في التي بعدها -: علِّمني يا رسولَ الله، قال: **(إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا)**، وقال أبو أسامة في الأخير: **(حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا)**(١).

فهذا الحديث يؤكد حرصَه ﷺ وشفقَته وسَعَة صدره على تعليم أصحابه رضي الله عنهم ما ينفعُهم، وتفهيمهم ما لم يفهموه، فهذا رجلٌ أعرابيٌّ يدخل

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر (١/ ٢٠٧)، رقم الحديث (٧٥٧).
ورواه مسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (١/ ٢٩٨)، رقم الحديث (٣٩٧).

المسجدَ ورسولُ الله ﷺ جالسٌ في ناحية المسجد، ومعه أصحابُه، كما جاء في رواية إسحاق بن أبي طلحةَ، قال: «بينما رسول الله ﷺ جالسٌ ونحن حولَه»[١].

وهذا الرجل الذي دخل المسجد هو خَلَّادُ بن رافع[٢]؛ كما بيَّنه ابنُ أبي شيبةَ، عن عباد بن العوَّام[٣]، عن محمد بن عمرو، عن علي بن يحيى[٤]، عن رِفاعةَ: أنَّ خلادًا دخل المسجد[٥].

فلما دخل خلَّاد هذا إلى المسجد أخذ يصلِّي، ورسولُ الله ﷺ كان يرمُقُه في صلاته[٦]، ثم جاء فسلَّم على النبي ﷺ، فردَّ عليه النبي ﷺ بقوله: (**وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**). فأمره بأن يعيدَ صلاتَه؛ لأن صلاته التي صلاها غيرُ صحيحة.

فرجع الرجل فصلَّى، ثم جاء، فسلم على النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: (**وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**).

فأمره بإعادة الصلاة مرة ثانية، فقال في الثانية أو الثالثة: علِّمني يا رسول الله، ويترجَّح أنه قال ذلك بعد المرة الثالثة؛ لعدم وقوع الشكِّ فيها، ولكونه ﷺ مِنْ عادته استعمالُ الثلاث في تعليمه غالبًا[٧].

---

(١) خلاد بن رافع بن مالك الخزرجي، يكنى أبا محمد، أخو رفاعة، ذكرهما ابن إسحاق وغيره في البدريين. وقد ذكر ابن الكلبي أن خلادًا قتل ببدر، ولم يذكره في شهداء البدريين غيره. قال الحافظ ابن حجر: وقيل: إنه المسيء صلاتَه.
الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، تحقيق د. طه محمد الزين (١/ ٤٥٣).

(٢) انظر: فتح الباري (٢/ ٢٧٧).

(٣) هو عباد بن العوام بن عمرو بن عبد الله بن المنذر، الإمام المحدث الصدوق، أبو سهل الكِلابي الواسطي، حدَّث عن أبي إسحاق الشيباني، والإمام أحمد بن حنبل، توفي وعمره بضع وثمانون ومئة. سير أعلام النبلاء (٨/ ٥١١).

(٤) هو علي بن يحيى بن خلاد بن رافع الزرقي الأنصاري المدني، روى عن أبيه يحيى بن خلاد وأبي السائب، وروى عنه بكير بن الأشج وسليمان بن بلال، وروى له البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه. تهذيب الكمال ٢١/ ١٧٣).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (١/ ٢٨٧)، وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٧٧).

(٦) كما ورد في مصنف ابن أبي شيبة (١/ ٢٨٧)، وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٧٨).

(٧) انظر: فتح الباري (٢/ ٢٧٨).

وهذا يدل على حُسْن خُلُقه ﷺ ولُطف معاشرته، وحُسْن تعليمه.

وقد استشكل بعضُ أهل العلم تقريرَ النبيِّ ﷺ للصحابي الجليل خَلّاد بن رافع على صلاته وهي فاسدة على القول بأنه أخلَّ ببعض الواجبات.

فأجاب العلماء على ذلك:

١ ـ **فقال المازري**: «بأنه أراد استدراجَه بفعل ما يجهلُه مراتٍ؛ لاحتمال أن يكون فِعْلُه ناسيًا أو غافلًا، فيتذكره، فيفعله مِنْ غير تعليم، وليس ذلك مِنْ باب التقرير على الخطأ، بل مِنْ باب تحقُّق الخطأ»[(١)].

٢ ـ **وذكر النووي** نحوه؛ قال: «وإنما لم يعلِّمه أولًا ليكون أبلغَ في تعريفه وتعريف غيره بصفة الصلاة المجزئة»[(٢)].

٣ ـ **وقال ابن الجوزي**: «يحتمل أن يكون ترديدُه لتفخيم الأمر وتعظيمه عليه، ورأى أن الوقتَ لم يَفُتْه، فرأى إيقاظَ الفِطنة للمتروك»[(٣)].

٤ ـ **وقال ابن دقيق العيد**: «ليس التقرير بدليلٍ على الجواز مطلقًا، بل لا بدّ مِنَ انتفاء الموانع، ولا شك أن في زيادة قَبول المتعلم لِمَا يُلقى إليه بعد تكرار فعله واستجماع نفسه وتوجُّه سؤاله مصلحةً مانعةً مِنْ وجوب المبادرة إلى التعليم، لا سيما مع عدم خوف الفوات، إما بناءً على ظاهر الحال، أو بوحي خاصٍّ»[(٤)].

ومن هنا يتبين أن النبي ﷺ أراد استدراجَ الرجل ـ وهو خلَّاد ـ بفِعل ما يجهله ثلاثَ مراتٍ لكي يتأكَّد أنَّ فعلَه لم يكن صادرًا عن نِسيان أو غفلة، ولو كان كذلك لتذكَّر في المرة الثانية أو الثالثة، أما وإنه ما زال يقع في الخطأ نفسه، دلَّ ذلك على انتفاء المانع، وهو هنا الغفلة والنسيان، وتبين أنه جاهلٌ لأركان الصلاة وواجباتها، مما جعل خلّادًا رضي الله عنه يتفطّن

(١) فتح الباري (٢/ ٢٨١).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٠٩).
(٣) فتح الباري (٢/ ٢٨١).
(٤) فتح الباري (٢/ ٢٨١).

لخطئه، فطلب من الرسول ﷺ أن يعلِّمه الصلاة الصحيحة المجزئة.

وهذا أبلغ وأوقع في النفس في تعريفه ﷺ، وتعريف مَنْ حضر مِنْ الصحابة ﷺ بصفة الصلاة المجزئة مما لو علَّمه في أول الأمر.

وفيه كذلك تربيةٌ للصحابة ﷺ على الصبر وسَعَة الصدر على المخطئ، وأن يضبطوا أنفسَهم من الانفعال لمجرد وقوع الخطأ، وتربيةٌ لهم على التريُّث والتُّؤدة عند تصحيح الخطأ، والتحقيق منه، والتأكد من انتفاء الموانع من غفلة أو نسيان، ثم سَعة الصدر والتحمُّل، مع الشفقة والرحمة عند تعليم الجاهل بغير تعنيف أو تجريح.

* وإنه لحَرِيٌّ بالدُّعاة والمربين أن يتأسَّوْا بهذا الخُلُق الكريم الرفيع في التعامل مع الآخرين في تصحيح أخطائهم، وفي إرشاداتهم وتوجيهاتهم، وأن يتحلَّوْا بسَعة الصدر والشفقة والرحمة على المخطئ، فيبينوا له الصواب، مع مراعاة مشاعره وأحاسيسه، هذا إذا لم يأتِ بالمخالفة استخفافًا أو عنادًا، ثم إعانتُه على الطاعة والالتزام بمنهج الله القويم.

فلما طلب خلَّادٌ ﷺ مِنَ الرسول ﷺ أن يعلِّمه الصلاة الصحيحة علَّمه رسول الله ﷺ ذلك، فأمره إذا أراد الصلاة أن يسبغ وضوءَه، فيأتي به تامًّا بكمال صفته وآدابه، ثم أمره باستقبال القبلة، لأن يكبِّر تكبيرةَ الإحرام، ثم يقرأ ما تيسَّر من القرآن، ثم يكبِّر ويركع حتى تطمئنَّ مفاصلُه وتسترخي، ثم يرفع من الركوع حتى يستويَ أو يعتدل قائمًا، ثم يسجدُ حتى تطمئنَّ مفاصله وتسترخي، ثم يرفع من السجود حتى يستوي قاعدًا على مقعدته ويقيم صُلْبَه[1]، ثم يسجد الثانية حتى يطمئنَّ ساجدًا، ثم أمره بأن يفعل ذلك في صلاته كلِّها.

«وفي الحديث أن المفتي إذا سُئل عن شيء وكان هناك شيء آخر يحتاج إليه السائل ولم يسألْ عنه، يستحبُّ له أن يذكره له، ويكون هذا من النصيحة، لا مِنَ الكلام فيما لا يعني، وموضع الدلالة أنه قال: علِّمني

(١) انظر: فتح الباري (٢/ ٢٧٩).

يا رسول الله؛ أي: علِّمني الصلاةَ الصحيحة، فعلَّمه الصلاة واستقبال القبلة والوضوء، وليسا مِنَ الصلاة، لكنهما شرطان لها»[١].

«واستُدِلَّ بهذا الحديث على وجوب الطمأنينة في أركان الصلاة، وبه قال الجمهور»[٢].

ويُظهِر سَعَةَ صدر النبي ﷺ ورِفقَه بالجاهل في تعليمه، ورأفته به، وحُسنَ تعليمه، واللُّطفَ به، وتقريبَ الصواب إلى فهمه ـ: حديثُ معاويةَ بن الحَكَم[٣] رضي الله عنه؛ إذ يحكي فيه موقفًا حَدَثَ له مع النبي ﷺ وبعض الصحابة رضي الله عنهم:

فبينما كانوا يصلُّون مَعَ النبي ﷺ إحدى الصلوات إذ عطس رجل من الصحابة رضي الله عنهم وهو في الصلاة، فشمَّته معاويةُ رضي الله عنه وقال له في الصلاة: يرحمُك الله، ولم يكن يعلم أن الكلام قد حُرِّمَ على المصلي ما دام في صلاته، وكان مِنْ قبلُ حلالًا، كما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نسلِّمُ على رسول الله ﷺ وهو في الصلاة، فيردُّ علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلَّمنا عليه، فلم يرُدَّ علينا، فقلنا: يا رسول الله، كنا نسلِّمُ عليك في الصلاة فتردُّ علينا، فقال: (**إِنَّ في الصَّلَاةِ شُغْلًا**)[٤].

فنظر الصحابة رضي الله عنهم إلى معاوية بأبصارهم نَظَرَ إنكارٍ لفِعْله، فاستغرب

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٠٨).

(٢) فتح الباري (٢/ ٢٧٩).

(٣) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (١/ ٣٨١)، رقم الحديث (٥٣٧). عن معاوية بن الحكم السلمي، قال: «بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عَطَسَ رجلٌ مِنَ القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثُكل أُمِّيَاه، ما شأنكم تنظرون إليَّ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلمَّا رأيتهم يُصَمِّتُونني، لكني سكتُّ. فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ معلمًا قبلَه ولا بعده أحسنَ تعليمًا منه؛ فوالله ما كَهرني ولا ضربني ولا شتمني. قال: (**إِنَّ هَٰذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**).

(٤) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (١/ ٣٨٢)، رقم الحديث (٥٣٨).

ذلك منهم، وقال: ما شأنكم تنظرون إليَّ؟! فأخذ الصحابةُ ﭬ يضربون بأيديهم على أفخاذهم ليُسَكِّتُوه، وهذا محمولٌ على أنه كان قبل أن يُشْرَعَ التسبيحُ لِمِنْ نابَه شيءٌ في صلاته، فلما أحسَّ معاويةُ ﭬ مِنَ الصحابة أنهم يريدونه أن يصمُتَ سكت ﭬ، فلمَّا انتهت الصلاةُ التفتَ إليه الرسولُ ﷺ فلم ينتهِرْه، ولم يضْرِبه، ولم يشْتُمه، وإنما أخذ يعلِّمُه ويصحِّحُ خطأه برفق ولين وشَفقَة، ثم قال له ﷺ: **(إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ والتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ)**[١].

وفي هذا تربيةٌ منه ﷺ لأصحابه على حُسن تعليم الجاهل، واللطفِ به، وتقريبِ الصواب إلى فهمه بغير تعنيف، ولا تجريح، ولا شتم، بل برحمة وشَفقةٍ ولينِ كلام، ولا سيما إذا لم يأتِ بالمخالفة استخفافًا أو عنادًا.

وهذا الخُلُق العظيم الذي اتَّصف به رسولُنا الأمينُ محمد ﷺ والذي شهد له به اللهُ تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وشهد له الصحابةُ ﭫ، ومِنْ بينهم معاويةُ بنُ الحكم في هذا الحديث الذي نحن بصدَده بقوله ﭬ: «فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ معلِّمًا قبلَه ولا بعده أحسنَ تعليمًا منه» ـ حَرِيٌّ بدُعاة اليوم ومعلِّمي المستقبل والمربين أن يتخلَّقوا بهذا الخُلُق عند معاملاتهم مع الناس، وخاصَّةً في تعليم الجاهل، وهداية المخطئ والضال، وتصحيح الخطأ، وتربية التلاميذ؛ «لأن الناس ينفرون من الكثيف، ولو بلغ في الدين ما بلغ، وللهِ ما يجلب اللُّطف والظُّرف من القلوب، فليس الثُّقلاءُ بخواصِّ الأولياء، وما ثَقُلَ أحدٌ على قلوب الصادقين المخلصين إلا مِنْ آفة هناك، وإلا فهذه الطريق تكسو العبدَ حلاوةً ولطافة وظَرفًا، فترى الصادق فيها مِنْ أحلى الناس، وألطفِهم وأظرفِهم، قد زالت عنه ثَقالة النفس، وكُدورة الطَّبع، فتراه أكرمَ الناس عِشرةً، وألينَهم عريكةً، وألطفهم قلبًا وروحًا»[٢]. انتهى.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ٢١).

(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص٥٧٦).

وقال جرير بن عبد الله ﵁: «ما حجبني النبيُّ ﷺ منذ أسلمتُ، وما رآني إلا تبسَّمَ»(١).

وقال الله تعالى واصفًا نبيَّه ﷺ باللِّين والرحمة مع أصحابه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فلو كان رسول الله فظًّا غليظَ القلب - وحاشاه أن يكون كذلك - لانفضَّ الصحابةُ مِنْ حوله، هذا مع ما امتاز به مِنْ علم باتصاله بالوحي، وحلٍّ لمشكلاتهم ومعضلاتهم، هذا وهو رسول مؤيَّدٌ بالوحي، فكيف بغيره مِمَّن لم يصِل - ولن يصلْ - إلى مرتبة النبي ﷺ فمن باب أوْلى، فعلى الجميع أن يتَّقُوا الله تعالى في أنفسهم، وفي أخلاقهم، وفي معاملاتهم داخل بيوتهم وخارجها، وخاصةً مَعَ مَنْ ولاهم الله تعالى تعليمه وتربيته.

ومما يؤكد ذلك: ما أخبرنا به أنسُ بن مالك(٢) ﵁ أنه بينما الصحابةُ ﵃ مَعَ رسول الله ﷺ في المسجد؛ إذ دخل رجلٌ مِنْ أهل البادية، فقام يبول في ناحيةٍ مِنْ المسجد، فزجره أصحابُ رسول الله ﷺ بألسنتهم ونهَوْه عن فعله؛ «لأن الاحترازَ مِنَ النجاسة كان مقرَّرًا في نفوس الصحابة ﵃؛ ولهذا بادروا إلى الإنكار بحضرته ﷺ قبل استئذانه، ولما تقرر عندهم أيضًا مِنْ طلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(٣).

فإنكارُهم ﵃ على الأعرابي كان صادرًا مِنْ شدة غَيْرَتهم على حُرمات الله تعالى، وعلمهم بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولذا فإن النبي ﷺ لم ينكر على الصحابة، ولم يقل لهم: لِمَ نهيتُمُ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من لا يثبت على الخيل (٤/ ٣٢)، رقم الحديث (٣٠٣٥).
ورواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه (٤/ ١٩٢٥)، رقم الحديث (٢٤٧٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد (١/ ٧٠)، رقم الحديث (٢٢٠).

(٣) فتح الباري (١/ ٣٢٤).

الأعرابيَّ؟ وإنما أمرهم بتركه والكفِّ عنه للمصلحة الراجحة، وهو دفعُ أعظم المفسدَتَيْن باحتمال أيسَرِهما، وتحصيلُ أعظمِ المصلحتين بترك أيسَرِهما[١]؛ فأمرهم رسول الله ﷺ بأن يتركوه ولا يقطعوا عليه بوله.

«قال العلماء: كان قولُه ﷺ: (دَعُوهُ) لمصلحتين:

إحداهما: أنه لو قطع عليه بوله تضرَّر، وأصل التنجيس قد حصل، فكان احتمالُ زيادته أوْلى مِنْ إيقاع الضَّرَر بالأعرابي.

والثانية: أن التنجيس قد حصل في جزء يسيرٍ مِنْ المسجد، فلو أقاموه في أثناء بوله لتنجَّست ثيابُه وبدنُه ومواضعُ كثيرةٌ مِنَ المسجد»[٢]، ولربما انكشفت عورتُه أيضًا.

فأمرهم النبي ﷺ بتركه؛ لأنه قد شرع في المفسدة، فلو مُنِعَ منها لزادت هذه المفسدةُ، أو لوقع الضررُ عليه في بدنه كما تقدم بيانُه[٣].

فلما انتهى الأعرابي من بوله دعاه الرسول ﷺ فجاء إليه والصحابة ﵃ جلوس يرَوْن صنيعَ رسول الله ﷺ مع الأعرابي.

فقال النبي الكريم ﷺ للأعرابي معلِّمًا وناصحًا ومبيِّنًا مِنْ غير تعنيف ولا إيذاء[٤]، بل برفق وسماحة، لا سيما أن هذا الأعرابي قد وقع فيما وقع فيه جهلًا منه بآداب المسجد، ولم تكن مخالفتُه استخفافًا وعنادًا، كما هو واضحٌ مِنْ سياق القصة، فقال له النبي ﷺ: **(إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا البَوْلِ وَلَا القَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ ﷻ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ)**؛ ففي هذا صيانةٌ للمسجد، وتعظيمٌ له، وتنزيهه عن الأقذار والقذى

(١) انظر: عمدة القاري للعيني (٣/ ١٢٧).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ١٩١).
(٣) انظر: فتح الباري (١/ ٣٢٣).
(٤) وقال الأعرابي بعد أن فقه: «فقام النبي ﷺ إليّ؛ بأبي وأمي، فلم يسبَّ ولم يؤنِّبْ، ولم يضرب».
أخرجه أحمد في المسند بترتيب أحمد شاكر، وهو تكملة للحديث السابق من رواية أبي هريرة ﵁ (٢٠/ ١٣٤)، برقم (١٠٥٤٠)، وابن ماجه (١/ ١٧٥).

والبُصاق ورفع الأصوات والخصومات والبيع والشراء وما في معنى ذلك[١].

وفي هذا تربيةٌ للصحابة ﷺ على الرأفة وحُسن الخلق في تعليم الجاهل ما يلزمه ويحتاج إليه من غير تعنيف إذا لم يكن ذلك منه عنادًا أو استخفافًا.

وكذلك تربيةٌ لدُعاة الأمة ومعلِّميها على الشَّفقة والرحمة وحسن الخلق في تعليم الجاهل، وتصحيح الخطأ، ومتابعة الأفراد، وتكوين الشخصية المستقيمة المعتدلة، وإنشاء الدعاة المُصلحين مِنْ هؤلاء الشباب الراغبين في الالتزام والهداية، والصبر على تكوينهم وتهيئتهم لحمل أعباء الدعوة من بعدهم، وحتى يكونوا خيرَ خَلَفٍ لخير سلف.

ومما سبق يتَّضح أن النبيَّ ﷺ كان واسعَ الصدر في معالجة الخطأ، فكان حريصًا على ضمان عدة قضايا تربوية مَعَ أصحابه رضوان الله عليهم؛ منها:

١ ـ حرصه ﷺ على تصحيح الخطأ الذي وقع، فلا فائدةَ مِنْ تجريح المخطئ وتعنيفه، لا سيما أن الخطأ قد وقع وانتهى، فكان المهم ـ والحال هذه ـ هو السعيُ إلى تصحيح ذلك الخطأ، وتنبيه السامعين إليه، حتى يكونَ في ذلك حصنًا للمخطئ وللحاضرين مِن الوقوع فيه مرة أخرى.

٢ ـ حرصُه ﷺ على أن يضمن استمرارَ سماع المخطئ وإقباله إليه لكي يتمكَّن من تعليمه وتربيته وتصحيح خطئه.

٣ ـ حرصُه ﷺ على ملازمة الرفق في كل شيء، وخاصة في تربية أصحابه، وعدم تركه إلا إذا جاء ما يوجب ذلك، كما حدث في معاملته ﷺ للثلاثة الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك.

٤ ـ حرصه ﷺ على مراعاة نفوس أصحابه والعناية بهم، وبُعْده عن

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ١٩١، ١٩٢).

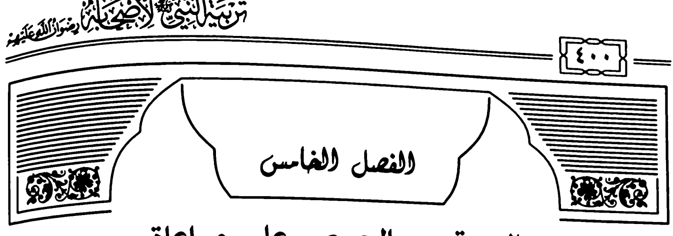
التحطيم النفسي؛ سواء كان بالإغلاظ القولي أو الفعلي، وأنه ﷺ لو كان يغلُظ على كلِّ جاهل أو مخطئ، لَمَا بقي معه أحدٌ، ولنَفَرُوا وانفضُّوا من حوله؛ لأن كلَّ بني آدمَ خطَّاءٌ.

وقد امتدح الله تعالى رسوله ﷺ على سَعة صدره وحِلمه وعطفه على أصحابه، فقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].



الفصل الخامس

التربية مع الحرص على مراعاة أحوال المتعلِّمين وقُدُراتهم



التربية مع الحرص على مراعاة أحوال المتعلّمين وقُدُراتهم

كان النبي ﷺ يخصُّ بعضَ الصحابة بنوع من العلم، ويأمرهم بألا يحدِّثوا العامةَ به؛ خوفًا عليهم مِنْ ألا يفهموه، فيفتتنوا بذلك.

عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ ومعاذُ بن جبل رديفَه على الرَّحْل، قال: **(يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ)**، قال: لبيك يا رسول الله وسعدَيك، قال: **(يَا مُعَاذُ)** قال: لبَّيك يا رسولَ الله وسعديك، ثلاثًا، قال: **(مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إلا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ)**، قال: يا رسول الله، أفلا أُخبِرُ الناسَ، فيستبشروا؟ قال: **(إِذَنْ يَتَّكِلُوا)**. وأخبر بها معاذٌ عند موته تأثُّمًا»[1].

فهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه لَمَّا كان رديفَ النبيِّ ﷺ على حمار - وليس معهم أحدٌ آخرُ - فقال الرسول ﷺ: **(يَا مُعَاذُ)**، فأجابه معاذٌ بقوله: لبيك وسعديك: «أي إجابةٍ بعد إجابةٍ، وإسعادًا بعد إسعاد»[2].

ثم ناداه مرةً ثانية، وثالثة، ليشدَّ انتباهه، ويلفت نظرَه إلى ما سيقوله ﷺ، ثم قال ﷺ لمعاذ: **(مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إلا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ)**.

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم، كراهة ألا يفهموا (١/ ٤٧)، رقم الحديث (١٢٨).
ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (١/ ٦١)، رقم الحديث (٣٢).

(٢) فتح الباري (١/ ٢٢٦).

«فقوله: (صِدْقًا) فيه احترازٌ عن شهادة المنافق، وقوله: (مِنْ قَلْبِهِ)؛ أي: يشهد بلفظه ويصدِّق بقلبه»[١].

وقد أجاب العلماءُ عن الإشكال الواقع في مثل هذه الإطلاقات التي وردت في بعض الأحاديث الصحيحة فيمن قال: لا إله إلا الله، دخل الجنة، أو حرم على النار، أو نحو ذلك من الأحاديث:

فقال الحافظ المنذري: «ذهبت طوائفُ مِنْ أساطين أهلِ العلم إلى أن مِثْلَ هذه الإطلاقات التي وردت فيمن قال: «لا إله إلا الله دخل الجنة أو حَرُم على النار» أو نحو ذلك، كان في ابتداءِ الإسلام حين كانت الدعوة إلى الله مجرَّد الإقرار بالتوحيد، فلمَّا فُرضت الفرائض، وحُدَّتِ الحدودُ نُسخ ذلك، والدلائل على هذا كثيرةٌ متظاهرة، وإلى هذا القول ذهب الضحاك والزهري وسفيان الثوري وغيرهم.

وقالت طائفة أخرى: لا احتياجَ إلى ادِّعاء النسخ في ذلك، فإنَّ كلَّ ما هو من أركان الدين وفرائض الإسلام هو مِنْ لوازم الإقرار بالشهادتين وتتِمَّاته؛ فإذا أقرَّ ثم امتنع عن شيء مِنَ الفرائض جَحْدًا أو تهاوُنًا ـ على تفصيل الخلاف فيه ـ حكمنا عليه بالكفر وعدم دخول الجنة»[٢]. انتهى.

ويقول ابن القيم: «وليس التوحيدُ مجرَّدَ إقرارِ العبد بأنه لا خالقَ إلا الله، وأن الله ربُّ كلِّ شيء ومليكُه كما كان عُبَّادُ الأصنام يُقِرُّون بذلك وهم مشركون، بل التوحيدُ يتضمَّنُ مِنْ محبة الله، والخضوع له، والذُّلَّة له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحُبِّ والبغض ـ ما يحُولُ بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها، ومَنْ عرف هذا عرف قولَ النبي ﷺ: (إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ)، وقوله: (لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وما جاء مِنْ هذا الضَّرب مِنَ الأحاديث التي أشكلت على كثيرٍ مِنَ الناس حتى

(١) فتح الباري (١/ ٢٢٦).
(٢) الترغيب والترهيب (٣/ ٢٢٠).

ظنَّها بعضُهم أنها منسوخةٌ، وظنَّها بعضُهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرارِ الشَّرع، وحمَلَها بعضُهم على نار المشركين والكفار، وأوّل بعضُهم الدخولَ بالخلود؛ فقال: المعنى: لا يدخُلها خالدًا، ونحو ذلك مِنَ التأويلات المستكرهة.

والشارع صلواتُ الله وسلامه عليه، لم يجعل ذلك حاصلًا لمجرد قول اللسان فقط، فإنَّ هذا خلافُ المعلوم مِنْ دين الإسلام؛ فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها؛ في الدَّرْك الأسفل مِنَ النار... فلا بدّ من قول القلب، وقول اللسان، وقولُ القلب يتضمَّن مِنْ معرفتها، والتصديق بها ومعرفةِ حقيقة ما تضمَّنته مِنَ النَّفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غيرِ الله، المختصَّة به، التي يستحيلُ ثبوتُها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب عِلْمًا ومعرفةً ويقينًا وحالًا ـ ما يوجب تحريمَ قائلها على النار... وتأمَّلْ قيامَ ما قام في قَلْبِ قاتلِ المئة مِنْ حقائق الإيمان التي لم تشغَلْه عند السياق عن السير إلى القرية، وحملَتْه وهو في تلك الحال على أنْ جعلَ ينتقلُ بصدره، ويعالج سكرات الموت، فهذا أمرٌ آخرُ وإيمان آخر، ولا جَرَمَ أنه أُلحق بالقرية الصالحة، وجُعل بين أهلها...»[1].

ولخشية الرسول ﷺ وخوفه مِنْ ألا يفهم العامة مثل هذه الإطلاقات، مَنَعَ معاذًا رضي الله عنه لَمَّا استأذنه أن يبشِّرَ الناس بقوله ﷺ: **«إِذَنْ يتَّكِلُوا»** أي: إن أخبرتَهم يا معاذ يتَّكلوا ويتركوا العملَ اعتمادًا على ما فهموه مِنْ ظاهر الحديث.

ومثلُ ذلك قولُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي هريرة، وقد أمره النبيُّ ﷺ أن يبشِّرَ الناس بمثل ما في حديث معاذٍ رضي الله عنه، وقال له: ارجِعْ يا أبا هريرة، ثم دخل عمرُ مِنْ فورِه على النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، أنت قلت لأبي هريرة كذا وكذا؟ فقال له النبي ﷺ: **«نَعَمْ»**، فقال عمر: لا تفعلْ

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣٠ ـ ٣٣٢).

يا رسول الله، فإني أخشى أن يتَّكِلَ الناسُ، فخَلِّهم يعملون؛ فأقرَّه الرسولُ ﷺ على ذلك وقال: (فَخَلِّهِمْ)(١).

وما ذلك إلا لأن تحديث العامة بكلِّ شيء ـ مع العلم بأن عقولَهم لا تهضم كلَّ شيء، ولا تستوعبه ـ مما يؤدي إلى تكذيب الخبر، بحجة أنهم لم يفهموه، وأنه فوق إدراكهم، وأنه يؤدي في كثيرٍ من الأحيان إلى ترك بعض التكاليف الشرعية وأحكامها، فتحديث العامة بما يفوق عقولَهم، ويعلو على أفهامهم مدعاةٌ إلى ارتيابهم وتشكُّكهم في الدين وتحلُّلهم من بعض تكاليفه؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب ﷺ: «حدِّثوا الناسَ بما يعرفون؛ أتحبُّون أن يُكذَّبَ اللهُ ورسولُه؟!»(٢).

فهنا يأمر عليّ ﷺ بأن يحدِّث الدُّعاة والمصلحون والمربُّون الناس بما يفهمونه، ولا يكون مشتبهًا عليهم، فإنه ينبغي مراعاة أحوال المكلَّفين في الفهم والحفظ وغير ذلك.

وأنه لا ينبغي أن يذكر المتشابه مِنَ القول عند العامة أو عند طالب العلم المبتدئ والمتوسط حتى لا يقعوا في فتنة؛ كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلُغُه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»(٣).

ولَمَّا كان نهيُ النبي ﷺ لمعاذ عن تبشير الناس للمصلحة لا للتحريم، أخبر به معاذٌ عند موته خوفًا مِنْ إثم كتمان العلم(٤).

«ودلَّ صنيعُ معاذٍ على أنه عرف أن النهي عن التبشير كان على التنزيه، لا على التحريم، وإلا لَمَا كان يخبر به أصلًا، أو عرف أن النهي مقيَّدٌ بالاتِّكال، فأخبر به مَنْ لا يخشى عليه ذلك، وإذا زال القيد زال المقيَّد،

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (١/ ٦٠، ٦١)، رقم الحديث (٣١).
(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهة ألا يفهموا (١/ ٤٦)، رقم الأثر (١٢٧).
(٣) رواه مسلم في المقدمة (١/ ١١).
(٤) انظر: فتح الباري (١/ ٢٢٨).

والأول أوجه؛ لكونه أَخَّرَ ذلك إلى وقت موته»[(١)].

وقال بعضهم: «النهي في قوله ﷺ: **(لا تبشرهم)** مخصوص ببعض الناس، وبه احتجَّ البخاريُّ على أن للعالم أن يخصَّ بالعلم قومًا دون قوم، كراهة ألا يفهموا، وقد يَتَّخذ أمثالَ هذه الأحاديث البَطَلَةُ[(٢)] والإباحية ذريعةً إلى ترك التكاليف ورفع الأحكام، وذلك يُفضي إلى خراب الدنيا بعد خراب العُقبى، وأين هؤلاء مِمَّن إذا بُشِّروا زادوا جِدًّا في العبادة؟! وقد قيل للنبي ﷺ: أتقوم الليلَ وقد غفَرَ الله لك؟ فقال ﷺ: **(أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)**[(٣)]»[(٤)].

ولو تتبع العلماء والمربُّون سيرة الصحابة الكرام ﷺ ـ وخاصة الذين لازموا النبي ﷺ وفهموا هذا الدينَ حقَّ الفهم ـ لعلموا كيف أنهم كانوا يُقِلُّون من رواية الحديث إلا للخاصة، أو ما يتعلق منه بالأحكام الشرعية؛ مراعاة منهم لأحوال المكلَّفين واقتداء برسولهم الأمين ﷺ؛ فها هو عمر بن الخطاب ﷺ كان ينهى عن رواية الحديث؛ يقول قُرَظَةُ بن كعب[(٥)]: «خرجنا نريدُ العراقَ، فمشّى معنا عمر إلى حرار، فتوضأ، فغسل اثنتين، ثم قال: أتدرون لِمَ مشيتُ معكم؟ قالوا: نعم، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، مشيتَ معنا، فقال: إنكم تأتون أهلَ قرية لهم دَوِيٌّ بالقرآن كدويِّ النحل،

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢٢٧).

(٢) يقال أبطل: إذا جاء بالباطل. والبَطَلة: السَّحَرة والشياطين.

(٣) رواه البخاري في كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل حتى ترم قدماه (٢/ ٥٦، رقم الحديث (١١٣٠).
ورواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٤/ ٢١٧١)، رقم الحديث (٢٨١٩).

(٤) من كتاب قواعد التحديث للشيخ محمد جمال القاسمي.

(٥) قُرَظَة بن كعب بن ثعلبة بن عمرو الأنصاري الخزرجي، شهد أُحُدًا وما بعدها من المشاهد، وهو أحد العشرة الذين وجههم عمر مع عمار بن ياسر إلى الكوفة من الأنصار وكان فاضلًا. وشهد قرظة مع علي مشاهده، وتوفي في خلافته في داره بالكوفة.
أسد الغابة (٤/ ٤٠٠).

فلا تصدُّوهم بالأحاديث فتشغَلُوهم، جَوِّدُوا القرآن، وأقِلُّوا الروايةَ عن رسول الله ﷺ، امضُوا وأنا شريكُكم، فلما قدم قُرَظَةُ قالوا: حدِّثنا، قال: نهانا عمرُ بن الخطاب»[١].

قال ابن عبد البر: «قول عمر إنما كان لقومٍ لم يكونوا أحْصَوُا القرآن، فخشي عليهم الاشتغالَ بغيره عنه؛ إذ هو الأصل لكل علم»[٢]. انتهى.

«وهذا أبو عبيدة بن الجراح ﷺ كان مِنْ خِيرَةِ الصحابة، وعلى جانب مِنَ التفقُّه في الدين والورع والتقوى، دعا النبيَّ ﷺ لأن يسمِّيَه أمينَ هذه الأمة، وقد سمع مِنْ رسول الله ﷺ حديثًا ربما لم يسمَعْه منه أحدٌ من الصحابة، أو سمعه بعضُ الخاصَّة، فرأى هذا الأمينُ أن يطوي هذا الحديث بين الجوانح، ويضِنَّ به على العامَّة كما ضنَّ به عليهم رسولُ الله ﷺ؛ لأن عقولَ العامة يلابِسُها الاغترارُ، ونفوسُهم يلامسُها الضعف وحبُّ الشهوات، فهم بالوعيد أوْلى، وبإلزامهم ظواهر الشرع أحْرى.

ولكن لَمَّا ألجأته الضَّرورةُ القُصوى، وهو محصور مَعَ المسلمين في حمصَ، ورأى منهم فتورًا عن الحرب ـ لا لوهن في نفوسهم، أو جُبن أصابهم، كلا! وإنما هو لرهبة الخالق التي تمكَّنت مِنْ أفئدتهم وقلوبهم، وأخافَتْهم مِنَ الموت، لا لذاته، بل لِمَا بعده ـ فقام، فخطب فيهم وتلا عليهم ذلك الحديثَ، وهو قوله ﷺ: (**مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ**)[٣] استحثاثًا لهِمَمِهم، وتخفيفًا لرَوْعهم مما بعد الموت، رجاءَ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١٠٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد له طرق تُجمع ويذاكر بها».
ورواه ابن ماجه (١/ ١٢).
(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (ص١٧٤).
(٣) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه «لا إله إلا الله» (٢/ ٨٧)، رقم الحديث (١٢٣٨).
ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب من لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة (١/ ٩٤)، رقم الحديث (٩٢).

رحمة الله وعفوه عن ذنوبٍ اقترفوها مما دون الشرك، إذا تابوا وأنابوا، قال لهم هذا وهو يظنُّ أن هذا الحديث لا يتعدَّى أسماعهم؛ لاعتقاده أنهم إذا خرجوا لمكافحة الروم، لا يبقى منهم أحدٌ يحدِّث به، أو يلابِسُ نفسَه أثرٌ منه، لكثرة من كان على حصارهم مِنْ جند الروم، ولَمَّا تم الظَّفَر للمسلمين، ونجَوْا مِنْ براثن العدو، ندم على أن حدَّثهم بذلك الحديث، وخشي أن يَعْلَقَ في نفوسهم شيء منه مع أنه عَلَّقه على التوبة، فقام وخطب فيهم، فقال: «لا تتَّكِلُوا، ولا تزهدوا في الدرجات، فلو علمتُ أنه يبقى منا أحدٌ لم أحدِّثْكم بهذا الحديث».

«وتالله إن قومًا بلغ بهم الإيمان الصادقُ واليقين الثابت ذلك المقام، مقام الرهبة مِنَ الله ومِنَ الوقوف بين يديْ قدرته بعد الموت، لَقَوْمٌ عامَّتُهم أعلمُ بالدين وأخلَصُ في اليقين مِنْ خاصَّتنا، ومع هذا، فقد ندم أبو عبيدة على أنْ حدَّثهم بذلك الحديث. فليت شِعري! كيف يكون الحال بعد ذلك العصر، وماذا يُشترط في المحدِّثين وحَمَلَة علوم الدين؟! ألا يُشترط الوقوف على مقاصد الإسلام، والتفقُّه في الحديث، والعلم بحالة المخاطَبين، واجتناب الغلُوِّ معهم في الترغيب والترهيب، ومراعاة ما يلابس عقولَهم من القُوَّة والضعف؟! وأنَّى يتيسَّر هذا، وقد نتج عن كثرة الرواة وحمل الحديث بلا تفقُّه فيه زَيْغُ العقول عن مقاصد الشرع، واجتراء الكذابين على وضع الحديث، وشَحْن الكتب الإسلامية بما لا يرضاه الله والرسول، وهو ما كان يحذره عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ ولهذا نهى في عصره الذي هو خير العصور، عن الإكثار من رواية الحديث، فما بالك بما يلي عصره من العصور؟»(١).

هكذا سار الصحابة رضي الله عنهم على هذا المنهج النبوي في عصرهم، فامتنعوا عن التحديث بما لا تدركه وتفهمه عامة الناس؛ خشيةَ أن يفتَتِنوا، فيتركوا بعضَ ما فرضه الله عليهم.

---

(١) قواعد التحديث (ص١٧٧، ١٧٨)، نقلًا عن الشيخ رفيق العظم في كتابه أشهر مشاهير الإسلام.

وهكذا سار التابعون والأئمة مِنْ بعدهم، فكانوا يكرهون التحديثَ بما يكون مثارَ فتنٍ وقلاقلَ للعامة بسبب قصورهم في الفهم، أو خشيةَ استغلال أصحاب الأهواء والسلاطين والمضلّلين ظواهر النصوص لتأييد بِدَعِهم، وتسويغ ظلمهم وطُغيانهم، وتسلُّطهم على دُعاة الله المخلصين في الأرض.

فهذا الحسن البصري يُنكر على أنس تحديثَ الحَجَّاج بقصة العُرَنيِّين[١]؛ لأنه اتخذها وسيلةً إلى ما كان يفعله من المبالغة في سفك الدماء، ولا حجةَ له في ذلك سوى تأويلاتِه الفاسدة الواهية.

وهذا الإمام أحمد بن حنبل يكره التحديث ببعض الأخبار التي يكون ظاهرها الخروج على الأمير[٢].

والإمام مالك بن أنس كان يكره التحديثَ في أحاديث الصفات، وأبو يوسف كان يكره التحديث بالغرائب[٣].

وكان ذلك منهم ﷺ أجمعين، محافظة على سلامة العقيدة والدين من أصحاب الهوى، وحِفظ الأمة مِنْ أهل الخَنا والشَّغَب وأصحاب الفتن؛ لأنه كثيرًا ما يتعلَّل المبطلون وأصحابُ الإباحة بظواهر الأحاديث التي يكون ظاهرها غيرَ مرادٍ، فيتحلَّلون بذلك مِنَ الأحكام الشرعية، ويخرُجون إلى صريح الزندقة والكفر مِنْ حيث يشعرون أو لا يشعرون، أمثال العلمانيين والشيوعيين وغيرهم مِنْ أصحاب المذاهب الهدَّامة والأفكار الكُفرية في هذا العصر.

ولذلك أمسك الصحابةُ ﷺ وكذلك التابعون ﷺ، عن التحديث بما يكون ذريعةً للتقصير والتهاون بسبب القصور في النظر، أو يكون سُلّمًا لأهل الهوى والبدع ومَنْ شاكلهم، حتى لا تكون فتنةٌ، ويكون الدينُ كلُّه لله تعالى.

---

(١) العُرَنِيُّون: نفر قدموا على النبي ﷺ، فأسلموا، فاجتَوَوُا المدينة، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا، فصحُّوا، فارتدوا وقتلوا رعاتها، واستاقوا الإبل، فبعث في آثارهم فأتي بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمَل أعينَهم، ثم لم يحسِمْهم حتى ماتوا. والحديث في الصحيحين وغيرهما، راجع: فتح الباري (١٢/ ١١١).

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ٢٢٥).

(٣) انظر: فتح الباري (١/ ٢٢٥).

«وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوِّي البدعةَ، وظاهره في الأصل غيرُ مراد، فالإمساك عنه عند من يُخْشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب»[(١)]. انتهى.

فعلى الدعاة إلى الله تعالى والمربين أن يتأسَّوْا بسلَفِهم الصالح من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين في مراعاة أحوال المكلَّفين عند الوعظ والإرشاد والتعليم، وأن يحدِّثوهم بما يفهمون ويعُون، وأن يبتعدوا عن كل ما فيه إشكالٌ عليهم، وفوق مستواهم وأفهامهم، وليَسَعْهم ما وسع رسولَهم ﷺ وصحابتَه الكرام، والتابعين الأفاضل، وأن يتحرَّوْا ما فيه فائدةٌ للمسلمين ونفعٌ لهم، فيحدثوهم فيه ويربوهم عليه، وأن يبتعدوا عن كل ما يجلب عليهم الشبهة والفتنة في الدين.

ولا يعني ذلك كَتْمَ العلم عن بعض الناس؛ فإنَّ الله تعالى بيَّن في كتابه أن على علماء الأمة ومربيها أن يبيِّنوا الحقَّ للناس، وألا يكتموا منه شيئًا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وقال رسول الله ﷺ: (**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**)[(٢)].

إلى غير ذلك مِنَ النصوص التي تتوعد كاتِمَ العلم بالعذاب الشديد يوم القيامة.

كما لا يعني ذلك أيضًا أن هناك علمًا للخاصة، وعلمًا للعامة، كلا، وإنما علم الله تعالى واحد والجميع مطالَبٌ به كل على قدر ما يستوعب وما يعي منه، وإنما المقصودُ مِنْ ذلك هو التدرُّج في التعليم والتربية عليه، وأخذ المكلف خطوة خطوة، ونقلُه مِنْ مستوى إلى مستوى أعلى منه وهكذا.

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٢٥).
(٢) رواه الترمذي (١٠/ ١١٨) وقال: «حديث حسن».

فيعطى كلُّ طالب علم ما يستوعبه وما يحتاجه على حسب مستواه وإدراكه وفهمه، فإذا ارتفع مستواه العلمي، وزاد فهمُه وقوِيَ إدراكه أُعطي جرعات أخرى من العلم أرفع من الأولى.

وهكذا يتابع في كل مرحلة بحسبها، ويربَّى على ذلك، فيكون هذا التدرج أزكى لنفسه، وأوعى لعقله، وأنقى لسلوكه.

وأختم هذا المبحث بما قاله عليٌّ ﷺ لكُمَيل بن زياد:

«يا كُميلُ، إن هذه القلوب أوعيةٌ، فخيرُها أوعاها للخير، والناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلِّم على سبيل نجاة، وهَمَجٌ رِعاع أتباع كلِّ ناعق يميلون مع كل صائح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق... ثم قال: آه، إن هاهنا علمًا ـ وأشار إلى صدره ـ لو أصبتُ له حملة، بل قد أصبت لقنًا[١] يستعمل آلة الدين للدنيا، يستظهر بحجج الله على كتابه، وبنعمه على معاصيه، أو حامل حقٍّ لا بصيرة له في إحيائه، ينقدح الشكُّ في قلبه بأول عارض من شُبهة، لا يدري أين الحق... إن قال أخطأ، وإن أخطأ لم يدر، مشغوف بما لا يدري، فهو فتنة لمن فُتن به، وإن مِنَ الخير كُلِّه من عَرَّفَه الله دينه، وكفى بالمرء جهلًا ألا يعرف دينه»[٢].

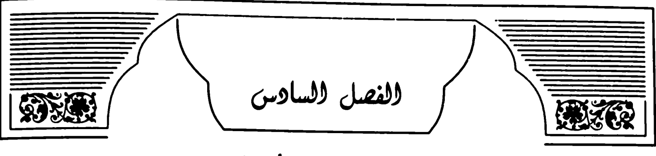
ومِنْ هنا تعرف أهمية التدرُّج في التربية واختصاص بعض الأفراد دون بعض لمزية الفهم ووضع الكلام في موضعه واستبصار الأمور وإنزالها في منازلها.

❁ ❁ ❁

(١) لقنًا: أي: سريع الفهم. لسان العرب (١٣/ ٣٩٠)، مادة: (ل ق ن).
(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية (٢/ ١٧٦).

الفصل السادس

التربية بالإرشاد إلى تعدُّد أنواع الخير
والحثّ على القيام بها
حسب القدرة


الفصل السادس

التربية بالإرشاد إلى تعدُّد أنواع الخير والحث على القيام بها حسب القدرة

في مجلس من مجالسه ﷺ مع أصحابه، حثَّهم فيه على بذل الخير بكلِّ صوره حسب طاقتهم وقدراتهم، ولَفَتَ أنظارهم إلى أن المؤمن إيجابي في كل وقت وعلى كل حال، فعن سعيد بن أبي بُردة، عن أبيه، عن جده؛ قال: قال النبي ﷺ: (**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**)، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: (**فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ**)، قالوا: فإن لم يستطع، أو لم يفعل؟ قال: (**فَيُعِينُ ذَا الحَاجَةِ، المَلْهُوفَ**)، قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: (**فَلْيَأْمُرْ بِالخَيْرِ أَوْ بِالمَعْرُوفِ**)، قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: (**فَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ**)[١].

وورد في مسند أبي داود الطيالسي تقييدُ ذلك بـ (**في كُلِّ يَوْمٍ**)، وهذه الصدقة «على سبيل الاستحباب المتأكِّد، أو على ما هو أعمُّ من ذلك. والعبارة صالحة للإيجاب والاستحباب؛ كقوله ﷺ: (**عَلَى المُسْلِمِ سِتُّ خِصَالٍ...**)، فذكر منها ما هو مستحبٌّ اتفاقاً»[٢].

وقولهم: «فإن لم يجد» دليلٌ على سرعة استجابتهم وامتثالهم لرسولهم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فسألوه عمّا إذا لم يجد ما يتصدق به.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب على كل مسلم صدقة (٢/١٤٨)، رقم الحديث (١٢٤٥).

ورواه مسلم في كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٢/٦٩٩)، رقم الحديث (١٠٠٨).

(٢) فتح الباري (٣/٣٠٨).

قال الحافظ: «كأنهم فهموا من لفظ الصدقة العطية، فسألوا عمَّن ليس عنده شيء، فبيَّن لهم أن المراد بالصدقة ما هو أعمُّ مِنْ ذلك ولو بإغاثة الملهوف، والأمر بالمعروف»[١].

هكذا ربَّى النبيُّ ﷺ أصحابه على جميع أنواع الخير مراعاة لقدراتهم واستطاعتهم، وفي هذا تربية لهم على مَلْءِ أوقاتهم بما يعود عليهم بالنفع الأُخروي والدنيوي؛ فباب الصدقة واسع، والتنافس فيه يسعهم جميعًا؛ فمن كان قادرًا على العمل عمل بيديه، فنفع نفسه، وتصدَّق على إخوانه المحتاجين، ومَنْ لم يستطع، أو لم يفعل[٢]؛ فيعين ذا الحاجة الملهوف؛ أي: المستغيث، سواء كان عاجزًا أو مظلومًا، فيعينه بالفعل، أو بالقول، أو بهما معًا؛ فإن لم يفعل، فليأمر بالخير أو بالمعروف؛ أي: وينهى عن المنكر؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متلازمان، وقد جاء الجمع بينهما في رواية أبي داود الطيالسي في مسنده.

فإن لم يفعل (**فَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ**) والمراد بالشر: ما منعه الشرع، والضمير في «فإنه» يعود إلى الإمساك.

قال الزين بن المُنَيِّر: «إنما يحصل ذلك للممسك عن الشر إذا نوى بالإمساك القُربة، بخلاف محض الترك، والإمساك أعمُّ من أن يكون عن غيره، فكأنه تصدق عليه بالسلامة منه، فإنْ كان شرّه لا يتعدَّى نفسَه، فقد تصدق على نفسه بأنْ منعها مِنَ الإثم»[٣]، انتهى.

* ففي الحديث تربية للمسلم على أن يكون إيجابيًّا بالنسبة إلى مجتمعه؛ يقدم الخير لهذا المجتمع، ويعطي مِنْ ماله وجُهده ووجاهته، وأدنى درجات العطاء لمجتمعه أن يكُفَّ أذاه عن الناس، فيعطيهم السلامةَ

(١) فتح الباري (٣/ ٣٠٨).
(٢) لأن الصدقة كما قال الحافظ ابن حجر: «قد تكون واجبة وقد تكون مستحبة»؛ ولذا جاء في الحديث: «أو لم يفعل».
(٣) فتح الباري (٣/ ٣٠٨).

منه، فليس العطاء إذن مقصورًا على الأغنياء، بل الفقراء يُعطون كذلك عطاءً يتناسب مع إمكاناتهم، والذي لا يستطيع أن يشارك في خير المجتمع بقوته، يستطيع أن يشارك بلسانه، وهكذا.

وقال الزَّين بن المُنَيِّر: «وليس ما تضمَّنه الخبرُ مِنْ قوله: «فإن لم يجد» ترتيبًا، وإنما هو للإيضاح لِمَا يفعلُه مَنْ عَجَزَ عن خَصلة مِنْ الخصال المذكورة، فإنه يمكنه خصلةٌ أخرى، فمَنْ أمكنه أن يعمل بيده فيتصدق، وأن يُغيث الملهوف، وأن يأمرَ بالمعروف وينهى عن المنكر، ويمسكَ عن الشر، فليفعل الجميع»[١] انتهى.

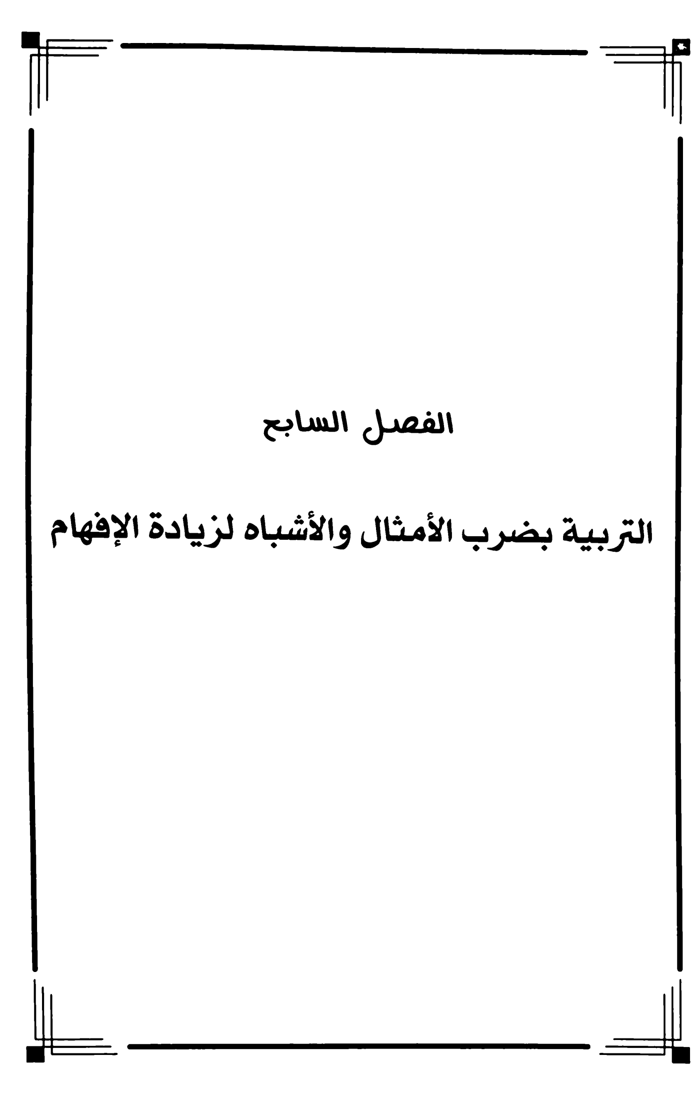
فالنبي ﷺ بيَّن لأصحابه في هذه الأحاديث السابقة خِصالَ الخير، وأنها تتفاضَلُ في الثواب، وأن بعضَها أوْلى من بعض، ويتَّضح لي أن الترك عمل وكسب للعبد يثيبه الله تعالى عليه إن كان دافعُ الترك هو طاعةَ الله تعالى، ورجاءَ ثوابه، والخوف من عقابه.

وفيها حثٌّ على الإحسان إلى الغير، والشفقة على الخلق؛ إما بتعليمهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وإمَّا بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإما بإعانتهم بالمالِ، أو بالإمساكِ عن الشرِّ، مع قصد القُربة إلى الله تعالى، وهو أقلُّها، إن لم يحصل مِنَ المسلم فِعْلُ الخير مع ذلك.

فربَّاهم ﷺ على هذه الخصال العظيمة، حتى ظهر مِنَ الصحابة، رضوان الله عليهم الحرص على معرفة الحقِّ، وتبيُّن درجاته، والاستجابة لتوجيهات رسولهم المربي ﷺ، فكانوا بحقٍّ خيرَ أمة أخرجت للناس.

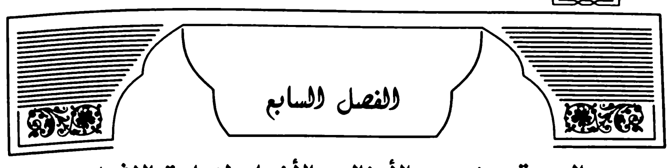


(١) فتح الباري (٣/ ٣٠٨).



الفصل السابع

التربية بضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام



التربية بضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام

وفي جلسة من جلساته المباركة يلقي رسولُ الله ﷺ سؤالًا على أصحابه قاصدًا به ﷺ استخراج ما عندهم مِنَ العلم، ومذكِّرًا لهم بقيمة الإيمان الذي يحملونه، وبكرامة هذا الإنسان بسبب إيمانه، وأنه بغير هذا الإيمان لا يساوي شيئًا، وشبَّهه بالشجرة الطيبة، وهي النخلة.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مِثْلُ الْمُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**) قال: فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: فوقع في نفسي أنها النخلة، ثم قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: (**هِيَ النَّخْلَةُ**)[١].

فقوله ﷺ لأصحابه: (**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مِثْلُ الْمُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**)؛ أي: بيِّنوا لي ما تلك الشجرة التي هي أشبهُ ما تكون بالمسلم.

فكما ترى أنه ﷺ ألقى السؤالَ على الحاضرين، وحفَّه ببعض القرائن التي تُقرِّبُ الإجابة إلى الأذهان؛ فوصف الشجرة بأنها لا يسقُط ورقها، فالسؤال ـ والحالة هذه ـ يوحي بالإجابة مِنْ غير مشقَّة.

يقول الحافظ ابن حجر: «ينبغي للمُلْغِز أن يتفطَّن لقرائن الأحوال الواقعة عند السؤال، وأنَّ الملغِزَ ينبغي له ألا يبالغ في التعمية بحيث لا يجعل للملغز بابًا يدخل منه، بل كلَّما قرَّبه كان أوقعَ في نفس سامعه»[٢].

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم (١/٢٦)، رقم الحديث (٦٢).
(٢) فتح الباري (١/١٤٦).

وقوله: «فوقع الناس في شجر البوادي»؛ أي: ذهبت أفكارُهم في أشجار البادية، فجعل كلُّ واحدٍ منهم يفسِّرها بنوع مِنَ الأنواع، وذُهِلوا عن النخلة، إلا عبد الله بن عمر؛ فقد وقع في نفسه أنها النخلة، إلا أنه لم يقل ذلك حياءً؛ لأنه كان أصغرَ الحاضرين، وكان في المجلس أبوه وأبو بكر وغيرهما من كبار الصحابة ﷺ[١].

فلمَّا عجَز القومُ عن الإجابة الصحيحة طلبوا مِنَ الرسول ﷺ الإجابة، فأجاب المربي عليه الصلاة والسلام، وبيَّن لهم أنها النخلة.

«فضَرْبُ الأمثال والأشباه لزيادة الأفهام، وتصويرُ المعاني لترسَخَ في الذهن، ولتحديدِ الفكر في النظر في حكم الحادثة، وأن تشبيه الشيءِ بالشيءِ لا يلزم أن يكون نظيره مِنْ جميع وجوهه، فإن المؤمن لا يماثله شيء من الجمادات ولا يعادله»[٢].

قال ابن حجر نقلًا عن القرطبي: «فوقع التشبيه بينهما مِنْ جهة أنَّ أصلَ دين المسلم ثابت، وأنَّ ما يصدُر عنه مِنَ العلوم والخير قُوتٌ للأرواح مُستطابٌ، وأنه لا يزال مستورًا بدينه، وأنه ينتفع بكلِّ ما يصدر عنه حيًّا وميتًا»[٣].

فينبغي استعمالُ هذا الأسلوب في التربية الإيمانية؛ لأن رسول الله ﷺ استعملَها في بيان الإيمان، فالإنسانُ لا يساوي شيئًا بغير دينه وإيمانه، وهو بإيمانه استحقَّ التكريم والرِّفعة في هذه الأرض؛ لأنه بهذا الإيمان يكون نافعًا لنفسه، مِعطاءً لغيره، ولو بكفِّ شرِّه عن الناس، فمثلُه مثلُ هذه النخلة

---

(١) فتوقير الكبير، وتقديم الصغير أباه في القول، وأنه لا يبادره بما فهمه، وإن ظن أنه الصواب، مِنْ محاسن الأخلاق وكريم الخصال، وأن العالم الكبير قد يَخفَى عليه بعض ما يدركه من هو أصغرُ منه وأقلُّ منه علمًا؛ لأن العلم مواهب يؤتيها الله من يشاء.

انظر: فتح الباري (١/ ١٤٧).

(٢) فتح الباري (١/ ١٤٧) بتصرف يسير.

(٣) فتح الباري (١/ ١٤٧).

الطيِّبة؛ فإن كلَّ ما يتعلَّق بها نافعٌ: مِنْ ظِلِّها، وطِيب ثمرِها، وجودته، وتنوُّعه، ولَذَّته، ومِنْ خشبها، وورقها، وأغصانها، ونَواتها؛ كل هذه منافعُ وخيرٌ وجمال(١).

ومن هنا نرى أن المثل يضرب عادة لتوضيح معنى من المعاني بإعطاء صورة محسوسة مما يألفه الإنسان في حياته العادية، ويسهل عليه تخيلها حين يسمعها أو يقرؤها، فيتجسد المعنى المطلوب في ذهنه من خلال الصورة المحسوسة.

وفي القرآن عدد غير قليل من الأمثال المضروبة في مختلف المعاني، قصد بها حث الإنسان على التفكر والتدبر، وقد جاء بيانه في قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ومن أكثر المعاني التي يضرب لها المثل في القرآن: حالات الهدى والضلال، والإنفاق إيمانًا واحتسابًا أو الإنفاق رئاء الناس، والمقارنة بين الحق والباطل، وبين العمل الصالح والعمل الفاسد، وبيان قصر الحياة الدنيا وسرعة زوالها.

واستخدم القرآن في المثل المضروب أنواعًا مختلفة من التشبيهات؛ فقد استُخْدمَ الحمارُ في المثل المضروب في حق بني إسرائيل الذين أنزل الله

---

(١) «قال العلماء: وشبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام، فإنه من حين يطلُع ثمرُها لا يزال يُؤكَلُ منه حتى ييبسَ، وبعد أن ييبس يُتَّخذ منه منافعُ كثيرةٌ، ومن خشبها وورقها وأغصانها، فيستعمل جذوعًا وحطبًا وعِصِيًّا ومخاصرَ وحُصُرًا وحِبالًا وأوانيَ وغير ذلك، ثم آخر شيءٍ منها نواها، وينتفع به علفًا للإبل، ثم جمال نباتها، وحُسن هيئة ثمرها؛ فهي منافعُ كلُّها، وخيرٌ وجمال، كما أن المؤمن خيرٌ كلُّه مِنْ كثرة طاعاته، ومكارم أخلاقه، ويواظب على صلاته وصيامه وقراءته وذكره والصدقة والصلة، وسائر الطاعات، وغير ذلك، فهذا هو الصحيحُ في وجه التشبيه». شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ١٥٤).

إليهم كتابًا مفصلًا لهدايتهم فنبذوه وراء ظهورهم، وخالفوا ما جاء فيه من تشريعات وتوجيهات فلم يعملوا بها، بل عملوا على عكسها؛ قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

وفي مثل النافرين من الهدى في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١].

واستُخْدم الكلبُ في وصف الذي آتاه الله علمًا وهدًى فانسلخ منه وصار عاصيًا كالجاهلين؛ في قول الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

واستُخْدِمَ العنكبوتُ في حق الذين يتخذون آلهةً من دون الله تعالى؛ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

ولكن الغالب في الأمثال المضروبة في القرآن هو استخدام مشاهد الطبيعة فيرد فيها ذكر الرعد والبرق، والمطر النازل من السماء، والنبات والزرع، والبحار والأنهار، وكلها مشاهد حية فيها الحياة وفيها الحركة وفيها الجمال، فضلًا عن كونها مألوفة للإنسان يسهل عليه تخيلها بمجرد الإشارة إليها، فيدرك الهدف المقصود من المثل المضروب بها.

❁ ❁ ❁

الفصل الثامن

التربية بالقدوة

* ويشتمل على توطئة وستة مباحث:

○ المبحث الأول: وضوح شخصيته ﷺ.

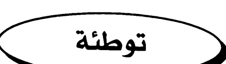
○ المبحث الثاني: عبادته ﷺ وخشيته.

○ المبحث الثالث: تواضعه ﷺ وحلمه وعفوه.

○ المبحث الرابع: جوده ﷺ وكرمه.

○ المبحث الخامس: قوته ﷺ وشجاعته.

○ المبحث السادس: ثباته ﷺ على مبدئه ودعوته.



توطئة

إن الله تعالى وهو الذي يعلم البشر، الخبيرُ بما يصلُح لهم، وما يُصلِحُهم، لم تقتضِ مشيئتُه أن تكونَ معرفتُهم بتعاليم هذا الدين الذي رضِيَه لهم عن طريق كتابٍ يُتلى عليهم دون بيان رسول الله ﷺ، وينتهي الأمرُ عند مشيئتِهِ سبحانه أن يجعل رسولًا نموذجًا بشريًا عمليًا لذلك الكتاب الذي أنزله لإخراج الناس مِنَ الظُّلمات إلى النور، حتى كان ذَلك الرسول ﷺ قرآنًا حيًّا يمشي على الأرض، وكأن المنهج الربانيَّ المتمثِّلَ في القرآن الكريم قد تحوَّل «إلى حقيقة واقعة، تتحرك بين الناس، تحوَّل إلى بشر يُترجم بسلوكه وتصرُّفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ ذلك المنهج ومعانيه»[١]، فيعرف الناس عندئذٍ أنه الحقُّ، فيتبعونه.

فلا بد مِنْ قدوة ليتربى الناس على المنهج الرباني الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ لذا بعث الله تعالى نبيَّنا محمدًا ﷺ قُدوةً للناس جميعًا، في أخلاقه وأفعاله وحياته كلِّها، ووضع في شخصه ﷺ «الصورةَ الكاملة للمنهج الإسلامي، الصورةَ الحية الخالدةَ على مدار التاريخ»[٢].

فكلُّ حكم جاء به القرآن الكريم، قد امتثله الرسول ﷺ، ومثَّله للناس بفعله، وبيَّنه بقوله، وما مِنْ شيء أمرَ به الرسولُ ﷺ إلا سبق الناسَ إليه عملًا وخلقًا، هديًا وسمتًا[٣].

وقد سأل سعدُ بن هشام[٤] أمَّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها عن خلق

---

(١) منهج التربية الإسلامية (١/ ١٨٠). (٢) منهج التربية الإسلامية (١/ ١٨١).
(٣) الرسالة المحمدية للشيخ سليمان الندوي (ص١٦٨، ١٦٩) بتصرف يسير.
(٤) هو: سعد بن هشام بن عامر الأنصاري المدني، ابن عم أنس بن مالك، روى عن أنس بن =

رسول الله ﷺ، فقالت: «ألستَ تقرأُ القرآنَ؟» قال: بلى، قالت: «فإن خُلُقَ نبي الله ﷺ كان القرآن»(١).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى بعد أن أورد هذا الحديث ما لفظه: «ومعنى هذا: أنه ﷺ مهما أمرَه به القرآنُ امتثَلَه، ومهما نهاه عنه تركه؛ هذا ما جبَله الله عليه من الأخلاق الجِبِلِّية الأصلية العظيمة التي لم يكن أحدٌ مِنَ البشر ـ ولا يكون ـ على أجملَ منها... فكان فيه مِنَ الحياء، والكرم، والشجاعة، والحِلم، والصَّفح، والرحمة، وسائر الأخلاق الكاملة ـ ما لا يُحَدُّ، ولا يمكن وصفُه»(٢).

لقد تمثل النبي ﷺ خصائصَ المنهجِ الربَّاني في الحياة البشرية، حتى برزت في حياته تفاصيلُ ذلك المنهج، فقبَسَ الصحابةُ ﷺ قبساتٍ مِنْ ذلك النور الذي أرسله الله تعالى لهداية البشرية المتمثِّل في شخص النبي ﷺ كلٌّ بقدر قدراته وقُربه من النبي ﷺ، حتى كان منهم المُقِلُّ والمُكثر من تلك القَبَسات الإيمانية، التي كانت تعطي لهم دفعاتٍ مِنَ الثقة والتصديق بما جاءهم به نبيُّهم ﷺ؛ لأنهم ﷺ كانوا يرَوْنَه بعيونهم متحقِّقًا في عالم الواقع، فيُسارعون إلى تطبيق تلك المبادئ؛ اقتداءً وامتثالًا بمن رأوْها متمثلةً فيه.

فمن هنا كان الصحابةُ ﷺ أشدَّ تأثُرًا، وتعلُّقًا ومحبَّةً به ﷺ مِنْ غيرهم، وتعلَّموا منه على أتمِّ ما يمكن للمتعلم أن يتعلَّمه مِنْ أمور هذا الدين العظيم؛ لِمَا شاهدوه بأعينهم مِنْ أحوال هذا الرسول المربي ﷺ، «فأخذوا الشُّحنةَ كاملةً في أرواحهم وقلوبهم وأفكارهم ومشاعرهم

= مالك وسَمُرَة بن جُندب، وروى عنه الحسنُ البصري وحُميد بن هلال، وروى له الجماعة.
تهذيب الكمال (١٠/ ٣٠٧).

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (١/ ٥١٣)، رقم الحديث (٧٤٦).

(٢) شمائل الرسول ﷺ لابن كثير (ص٥٨).

وأجسادهم، فانطلقوا - وهم حفنة قليلة - يصنعون أعجبَ أحداث التاريخ»[١].

ولكن من رحمة الله تعالى بعباده أن هيَّأ لمن لم يَحْظَ بمشاهدة أحوال الرسول ﷺ الاطّلاعَ على أفعاله وأحواله مِمَّن نقل إلينا ذلك ممن شاهدوه، وهذا الاطلاع وسيلةٌ قريبةٌ مِنَ مشاهدته ﷺ تؤدي إلى ثمارٍ يانعةٍ طيبة بإذن الله تعالى؛ فالرسول ﷺ قدوةٌ متجددة حيثما ذُكرت سيرتُه العَطِرة، وأخباره الطيبة وأحواله المتلألئة[٢]؛ فهو قدوة باقية ما بقيَ هذا الكونُ؛ لأنه ﷺ أرسل للعالمين كلِّهم، وللناس كافة، في جميع الأزمان ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

ولذا؛ فقد تمثَّلت فيه ﷺ «شخوصٌ كثيرةٌ مجتمعة في شخص واحد، كل واحد منها متكامل في ذاته، وكأنه متخصِّص في جانبِهِ، منقطع له، ثم تجتمع الشخوص كلُّها - على تكاملِ كلٍّ منها - فتتكامل على نطاق أوسعَ، وتتناسق في محيطها الشامل، وتتألَّف منها نفسٌ واحدةٌ تجمع كلَّ النفوس، وتجمعها في توازن واتساق... وكل هذه الشخوص المتفرقة مجموعةٌ في شخصه ﷺ مجموعة على تناسق وتوافق واتزان، كل منها يأخذ نصيبَه كاملًا من نفسه، ومع ذلك لا يميل؛ لأن طاقاتٍ أخرى عظيمةً توازنه في كل اتجاه»[٣].

«فأخلاق محمد ﷺ كانت كلُّها تنبُع مِنْ فطرته بنِسَبٍ متَّفقة؛ فصبرُه، مثلُ شجاعته، وشجاعتُه مثل كرمه، وكرمُه مثل حِلمه، وحِلمُه مثلُ رحمتِه، ورحمته مثل مُروءته، وهكذا لا تجد له خُلُقًا في موضعه مِنَ الحياة يزيدُ أو

---

(١) منهج التربية الإسلامية (١/ ١٨٤).
(٢) انظر: كتاب أفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام الشرعية للدكتور محمد سليمان الأشقر (١/ ٣٥).
(٣) منهج التربية الإسلامية (١/ ١٨٢، ١٨٣).

ينقُصُ على خلق آخر في موضعه منها، ومِنْ هنا كان جِماعُ أمره عند قومه «الأمين»؛ وهذا اسم يمثل التكافؤ الخُلُقِيَّ أصدقَ تمثيل»[١].

وسأحاول إبراز بعض تلك الجوانب المشرقة في حياته ﷺ في المباحث التالية.



(١) محمد رسول الله (١/ ٢١١).



المبحث الأول

وضوح شخصيته ﷺ

كان رسول الله ﷺ واضحًا في شخصيته وضوح الشمس في رائعة النهار قبل أن يبعثه الله تعالى معلمًا للبشرية وبعدها، وفي جميع أحواله؛ سواء في حالة الحرب أو السِّلم؛ فلم تتلبسْ أعمالُه أو تصرُّفاته ﷺ «بشيءٍ مِنَ الغُموض والتورية والتأويل الذي يلجأ إليه أهلُ السياسة، بل كانت واضحةً سهلةً، بعيدةً عن الالتواء والتحايُل»[(١)].

فلم تعرف العرب والعجم أصحَّ عقلًا، وأسدَّ رأيًا، وأنقى فكرًا، وأطهرَ قلبًا، وأزكى روحًا، وأكملَ جسمًا، وأعلى نقاءً وصفاءً؛ مِنْ محمد بن عبد الله ﷺ الذي اختاره الله تعالى لرسالته على علم منه سبحانه بشخص هذا الرسول الكريم، الذي هو أكملُ البشرية سِنًّا وعقلًا، وفكرًا وقلبًا وروحًا؛ فعليه صلواتُ ربِّي وسلامه[(٢)].

ولقد اعترف أعداؤه الألداءُ ـ وهم في حالة عداوتهم له ـ بذلك: فهذا عتبةُ بن ربيعةَ يقول لقومه بعد أن سمع من النبي ﷺ: «قد سمعت قولًا، والله ما سمعت مثلَه قطُّ، والله ما هو بالشِّعر، ولا بالسِّحر، ولا بالكهانة، يا معشرَ قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه؛ فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم»[(٣)].

والنَّضر بن الحارث ـ وهو رأس المعادين للدعوة ـ يقول لقومه، وقد أصابتهم حيرة وتلَجْلُج: «يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم

(١) الغرباء الأولون (ص٢٣٥).
(٢) انظر: محمد رسول الله (٢/ ١٩٧).
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٤).

له بحيلةٍ بعد، وقد كان محمد فيكم غلامًا حَدَثًا أرضاكم فيكم، وأصدَقَكم حديثًا، وأعظمَكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صُدغه الشيبَ، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر، لا والله، ما هو بساحر...»(١).

وكما جاء في قصة أبي سفيان مع هرقل حين سأله قائلًا: كيف نَسَبُه فيكم؟ فقال: هو فينا ذو نسب... إلى أن قال له: فهل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا.. فقال: فكيف كان قتالُكم إياه؟ فقال أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سِجالٌ، ينال منا وننال منه.. ثم قال هرقلُ لأبي سفيان: سألتُك عن نسبه، فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نَسَبِ قومها، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليَذَرَ الكذب على الناس ويكذبَ على الله، وسألتُك: هل يغدِر؟ فذكرتَ أنْ لا، وكذلك الرسل لا تغدر..(٢).

وعندما قال ﷺ لقومه عندما أمره ربُّه بإنذارهم: (أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟) قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا، قال: (فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)(٣).

فهذه شهادة له ﷺ مِنْ أعدائه باستقامته، ومباعدته لأخلاق الجاهلية، وبراءته ﷺ مِنْ كل ما يُدَنِّس شخصيته وشرفه، واعترفوا كذلك بصدقه، وأمانته، وطهارته، وعفافه، وزهده عن مطامع الدنيا، والشهرة، والرياسة، والجاه، وعلِموا ذلك يقينًا، فلمَّا أرادوا أن يغمِزُوه بما يَشينُه ﷺ عجزوا عن ذلك، ولم يجِدُوا ما يغمِزونه به البَتَّةَ، إلا أنهم جعلوا من بعض فضائله

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢٩٩، ٣٠٠).
(٢) جزء من حديث رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب (١/ ٦)، رقم الحديث (٧).
(٣) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب سورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (٦/ ١١٤)، رقم الحديث (٤٩٧١).
ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (١/ ١٩٣، ١٩٤)، رقم الحديث (٣٥٥).

معايبَ، ومِنْ بعض محاسنه مساوئَ، كما فعل أبو سفيان لَمَّا سأله هرقل بقوله: هل يغدِر؟ فقال أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدةٍ لا ندري ما هو فاعلٌ فيها. قال أبو سفيان: ولم تُمْكِنِّي كلمةٌ أُدخل فيها شيئًا غيرُ هذه الكلمة.

وحاولوا أن يُلصقوا فيه ما هو منه بريءٌ، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا، كما وصفوه بالسحر والجنون والشعر والكهانة، وحاشاه ﷺ من ذلك؛ وما ذلك إلا لوضوح شخصيته ﷺ وضوحًا تامًّا لا غَبَشَ فيه، أفسد على المغرضين تلك الدعاوى والافتراءات، فكان معروفًا لدى الأصدقاء والأعداء بحُسن سيرته وسلوكه ﷺ.

يقول عبد الله بن سلام رضي الله عنه: «لَمَّا قدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة، انجفل الناسُ إليه، وقيل: قَدِمَ رسول الله ﷺ! قَدِم رسولُ الله ﷺ! فجئت في الناس لأنظرَ إليه، فلمَّا استثبتُّ وجهَ رسول الله ﷺ عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب»(١).

و«مَنْ تتبَّع سيرتَه الشريفة في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خَلْوته وجَلْوته ـ لا يشكُّ في أنه كان أبعدَ الناس عن المداجاة والمواربة، وأن سِرَّه وعلانيته كانا سواءً في دِقَّة الصدق وصراحة الحقِّ، في جليل الشؤون وحقيرها.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة (٤/ ٥٦٣)، رقم الحديث (٢٤٨٥)، وقال: «هذا حديث صحيح»، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها، باب ما جاء في قيام الليل (١/ ٤٢٣) برقم (١٣٣٤)، وفي كتاب الأطعمة، باب إطعام الطعام (٢/ ١٠٨٣)، برقم (٣٢٥١)، والدارمي في كتاب الصلاة، باب فضل صلاة الليل برقم (١٤٦٨)، (١/ ٢٨٠)، وفي كتاب الاستئذان، باب في إفشاء السلام برقم (٢٦٣٥)، (٢/ ١٨٨)، وأحمد في المسند (٥/ ٤٥١)، والحاكم في كتاب البر والصلة (٤/ ١٦٠)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وفي كتاب الهجرة (٣/ ١٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.
كلهم من طريق عوف بن أبي جميلة، عن زرارة بن أوفى، عن عبد الله بن سلام.

وإن ذلك كان أخصَّ شمائله، وأبرزَ صفاتِه، قبل النبوة وبعد أن أوتِيَها»[1].

ولقد أوضح ذلك الصحابيُّ الجليلُ جعفر بن أبي طالب ﷺ لما استدعاه النجاشي هو وأصحابه، فسألهم قائلًا: ما هذا الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

فكان مما قاله جعفر ﷺ للنجاشي إجابة على سؤاله الذي طرحه: «...حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه»[2].

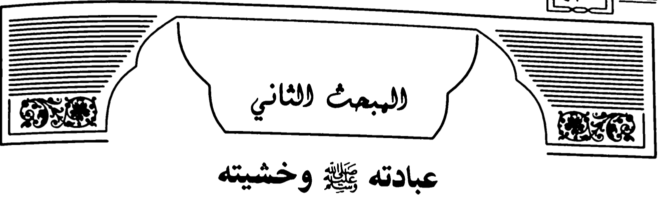
ويكفيه ﷺ تزكية ربه ﷻ له بقوله في كتابه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فقد كان ﷺ: «أحسنَ الناس خَلْقًا، وأعلاهم خُلُقًا، وأفضلَهم عِشرةً، وأرضاهم طريقةً، وأعدلَهم سيرةً، وأطهرَهم سريرةً، وأشرفَهم عملًا، وأرصنهم رأيًا، وأعظمَهم عقلًا، وأشدَّهم أمانةً، وأظهرهم نبلًا»[3].

* فعلى الداعية إلى الله تعالى أن يقتدي برسول الله ﷺ في أن تكون شخصيتُه واضحةً كما كان رسول الله ﷺ، وأن يطهِّر شخصه من الغموض والالتواء والتحايل، وأن يسعى إلى جَعْل جميع أعماله وتصرفاته وَفْقَ شرع الله تعالى وتعاليمه.

---

(١) معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم (١/ ٣٨٩).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٨/ ١٨٠، ١٨١).



المبحث الثاني

عبادته ﷺ وخشيته

لقد كان ﷺ موصولًا بربِّه في ليله ونهاره، وفي سِرِّه وجهره، شديدَ المراقبة لربه في سَكَناته وفي حركاته، كثيرَ الذِّكر لربِّه في غَدواته ورَوحاته، تنام عيناه وقلبُه لا ينام.

فكان يجد في الصلاة لَذَّة المناجاة لربه، وكانت العبادةُ قُرَّة عينه ﷺ، كما قال ﷺ: (**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ الطِّيبُ وَالنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**)(١).

وكان النبي ﷺ يجتهد في العبادة والخشية مِنْ ربِّه تعالى؛ فعن المغيرة بن شعبة، قال: إن كان النبي ﷺ ليقوم ـ أو ليصلي ـ حتى ترم قدماه، فيقال له: يا رسول الله، أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فيقول: (**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!**)(٢).

وعن أنس رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ يفطر مِنَ الشهر حتى نظُنَّ أنه لا يصوم منه، ويصُوم حتى نظنَّ أنه لا يفطر، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيتَه، ولا نائمًا إلا رأيته»(٣).

---

(١) أخرجه النسائي من حديث أنس رضي الله عنه في عشرة النساء، باب حب النساء (٧/٥٨)، وأحمد في المسند (٣/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، وسنده حسن، وصححه الحاكم (٢/ ١٦٠) من طريق آخر، ووافقه الذهبي.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخاري في كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل ونومه، وما نسخ من قيام الليل (٢/٥٨)، رقم الحديث (١١٤١).

ومراد أنس رضي الله عنه ـ والله أعلم ـ أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يخصُّ الوتر بوقت معين، بل كانت صلاتُه تختلف بالليل دون أن يرتِّبَ وقتًا معيَّنًا، فقد تراه في أول الليل =

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يذكر الله على كلِّ أحيانه»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إلى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةً)(٣).

وعن الأغرِّ المُزني أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّه لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةً)(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيتُ النبي ﷺ منذ نزل عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] يصلِّي صلاة إلا دعا، أو قال: (سُبْحَانَكَ رَبِّي وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي)(٥).

«قال العلماء: إنما ألزم الأنبياءُ أنفسَهم بشدة الخوف؛ لعلمهم بعظيم نعمة الله تعالى عليهم، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبذلوا مجهودَهم في عبادته ليؤدُّوا بعضَ شُكره، مع أن حقوقَ الله أعظمُ مِنْ أن يقومَ بها العبادُ»(٦).

= نائمًا، وقد تراه مصليًا وكذا وسط الليل وآخره؛ ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: «مِنْ كل الليل أوتر». رواه البخاري في أبواب الوتر، انظر: فتح الباري (٣/ ٢٣).

(١) ذكره البخاري تعليقًا بصيغة الجزم في كتاب الأذان، هل يتبع المؤذن فاه (١/ ١٧٦). ورواه مسلم في كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها (١/ ٢٨٢)، رقم الحديث (٣٧٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٧/ ١٨٨)، رقم الحديث (٦٣٠٧).

(٣) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.

(٤) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٤/ ٢٠٧٥، ٢٠٧٦)، رقم الحديث (٢٧٠٢).

(٥) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١/ ٣٥١)، رقم الحديث (٤٨٤).

(٦) فتح الباري (٣/ ١٥).

وكان الصحابة ﷺ يتتبَّعون حالَ المصطفى ﷺ لكي يتأسَّوا بأفعاله ﷺ، كما فعل أولئك الرهط الثلاثة، وهم: عليُّ بن أبي طالب وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعثمان بن مظعون[١]:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن مِنَ النبي ﷺ وقد غفر الله له ما تقدَّم مِنْ ذنبه وما تأخَّر؟! فقال أحدهم: أمَّا أنا، فإني أصلِّي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أُفطر، وقال آخر: أنا أعتزلُ النساء، فلا أتزوجُ أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ، فقال: (**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي**)[٢].

* ففي هذا تربيةٌ منه ﷺ لهؤلاء الأصحاب بالقُدوة، حيث إن هؤلاء الصحابة جاؤوا يسألون عن عبادة النبي ﷺ لكي يقتدوا به في ذلك، فلما أُخبروا بعبادته في السِّرِّ، فكأن كلَّ واحدٍ منهم رأى أنها قليلةٌ، ثم سارعوا إلى إيجاد العِلَّة في ذلك، فوجدوا أنها كامنةٌ في أن الله قد غفر لنبيه ﷺ ما تقدم مِن ذنبه وما تأخر، أما نحن فنحتاج إلى المبالغة في العبادة عسى أن يحصُل لنا المقصودُ، وهو غُفران الله تعالى لذنوبنا ورضاه عنا؛ فعندئذ بيَّن المربِّي ﷺ أن ذلك ليس بلازم؛ لأنه أشدُّهم خشيةً لله، وأتقاهم له ﷺ، ومع هذا فهو يصوم ويفطر، ويصلي من الليل ما شاء الله له ذلك، ثم ينام، ويتزوج النساء؛ فهذه هي الطريقةُ المثلى والمنهج القويم الذي أرسل به، فمن ترك طريقتَه، وأخذ بطريقة أخرى غيرِها، فليس منه وليس على طريقته.

---

(١) كما جاء في مرسل سعيد بن المسيب. انظر: الفتح (٩/ ١٠٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٦/ ١٤٢)، رقم الحديث (٥٠٦٣).

ورواه مسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة (٢/ ١٠٢٠)، رقم الحديث (١٤٠١).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «والمراد: مَنْ ترك طريقتي وأخَذَ بطريقة غيري فليس مني، ولَمَّحَ بذلك إلى طريق الرهبانية، فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى[١]، وقد عابهم بأنهم ما وَفَّوْا بما التزموه، وطريقة النبي ﷺ الحنيفية السَّمحة، فيُفطر ليتقوَّى على الصوم، وينام ليتقوَّى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة وإعفاف النفس وتكثير النسل»[٢].

وقد كان رسول الله ﷺ يلفت أنظار الصحابة رضوان الله عليهم إلى أهمية التربية بالقدوة، فقد كان يأمرهم بأن يصلُّوا كصلاته، فكان يقول لهم: (**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**)[٣]، وقال لهم في حجة الوداع: (**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**)[٤].

وفي معاهدة صلح الحديبية لَمَّا أمر النبيُّ ﷺ أصحابَه رضوان الله عليهم بعدما فرغ مِنْ قضية الكتاب، قال لهم: (**قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا**)، فما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاثَ مراتٍ، فلما لم يقم منهم أحدٌ، دخل على أمِّ سلمة زوجِه ﵂، فذكر لها ما لقي مِنَ الناس؛ فقالت أم سلمة: يا نبيَّ الله، أتحبُّ ذلك؟ اخرجْ ثم لا تكلِّمْ أحدًا منهم كلمةً حتى تنحرَ بُدْنَك، وتدعُوَ حالِقَك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك؛ نَحَرَ بُدْنَه، ودعا حالقَه فحلقه، فلما رأوْا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضُهم يحلِقُ بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا[٥].

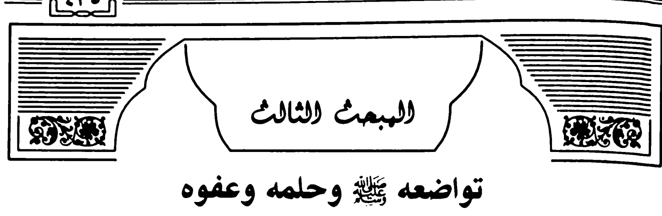
---

(١) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧].
(٢) فتح الباري (٩/ ١٠٥).
(٣) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب من قال ليؤذن في السفر مؤذن واحد (١/ ١٧٦، رقم الحديث (٦٣١).
(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣١٨)، ورواه النسائي في كتاب مناسك الحج في حديث جابر بن عبد الله (٥/ ٢٧٠).
(٥) رواه البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٣/ ٢٤٠)، رقم الحديث (٢٧٣١).

هكذا كان ﷺ أكبرَ قدوة للصحابة ومَنْ بعدهم حتى تقومَ الساعةُ، فهو المربي والهادي بسلوكه وفعله قبل أن يكون هاديًا ومربيًا بالكلام الذي ينطق به.

* فعلى الداعية إلى الله تعالى أن يكونَ قدوةً للناس في عبادته وتصرُّفاته حتى يلتفَّ الناسُ حولَه، ويحبُّوه ويصدقوه فيما يأمرهم به وما ينهاهم عنه، ويمتثلوا المبادئ التي يأمرهم بها؛ لأنهم يرَوْنها ماثلةً فيه رأيَ العين.





تواضعه ﷺ وحلمه وعفوه

لقد كان ﷺ في الذروة من التواضع والحِلم والعفو، فكان يمازح أصحابه، ولا يقول في مُزاحه إلا الحقَّ؛ يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس خُلُقًا، وكان لي أخٌ يقال له: أبو عُمَير، قال: فكان إذا جاء رسولُ الله ﷺ فرآه، قال: (**يَا أَبَا عُمَيْرُ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**؟) قال: فكان يلعب به»[1].

وكان ﷺ يُوَرِّي، ولا يقول في توريته إلا الحقَّ؛ مثل أن يريد جهة يقصدها، فيسأل عن غيرها كيف طريقها؟ وكيف مياهها ومسلكها؟ كما قال ابن إسحاق راويًا عن شيوخه: «وكان رسول الله ﷺ قَلَّ ما يخرج في غزوة إلا كَنَّى عنها، إلا ما كان مِنْ غزوة تبوك، فإنه بَيَّنَهَا للناس؛ لبُعد الشُّقَّة، وشدة الزمان، وكثرة العدو...»[2].

وكان ﷺ يُشير ويَستشير، كما استشار زوجَه أمَّ سلمة رضي الله عنها فيما لقِيَه من الناس في صلح الحديبية لَمَّا أمرهم أن ينحروا وأن يحلِقوا، فأشارت عليه بأن ينحرَ بُدْنَه ويحلِق، وسيفعل الناس اقتداءً به ﷺ[3].

واستشار رسول الله ﷺ أصحابه عندما بلغه خروج قريش لقتاله في غزوة بدر الكبرى.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل (٧/ ١٥٤)، رقم الحديث (٦٢٠٣).
ورواه مسلم في كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه (٣/ ١٦٩٢)، رقم الحديث (٢١٥٠).

(٢) كما جاء في قصة كعب بن مالك رضي الله عنه عندما تخلف عن غزوة تبوك.

(٣) سبق تخريجه.

عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور أصحابه، حين بلغه إقبالُ أبي سفيان؛ قال: فتكلم أبو بكر، فأعرض عنه، ثم تكلم عمر، فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: «إيانا تريد يا رسول الله، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نُخيضها البحرَ لأخضناها، ولو أمرْتَنا أن نضرب أكبادَها إلى بَرْكِ الغماد لفعلنا...»(١).

وهذا مِنْ تواضعه ﷺ، وتربيةٌ للدعاة مِنْ بعده على الاستشارة؛ لأن فيها الخيرَ الكثير.

وكان ﷺ يعود المريضَ، ويشهد الجنازة، ويجيب الدعوة، ويمشي مع الأرملة والمسكين والضعيف في حوائجهم؛ عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يُدْعَى إلى خبز الشعير والإهالة السَّنِخَة فيجيب، ولقد كان له درعٌ عند يهودي، فما وجد ما يفكُّها حتى مات(٢).

وعنه أيضًا رضي الله عنه قال: لم يكن شخصٌ أحبَّ إليهم مِنْ رسول الله ﷺ، قال: وكانوا إذا رأوْه لم يقوموا؛ لِمَا يعلمون مِنْ كراهته لذلك(٣).

وعنه أيضًا رضي الله عنه قال: إن امرأة كان في عقلها شيءٌ، فقالت: يا رسول الله، إنِّي لي إليك حاجةٌ، فقال: **(يَا أُمَّ فُلَانٍ، انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ)**، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغَتْ من حاجتها(٤).

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر (٣/ ١٤٠٣، ١٤٠٤)، رقم الحديث (١٧٧٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب البيوع، باب شراء النبي ﷺ بالنسيئة (٣/ ١١)، رقم الحديث (٢٠٦٩).

ورواه الترمذي في الشمائل المحمدية واللفظ له، **انظر**: مختصر الشمائل المحمدية للألباني (ص١٧٧).

(٣) رواه الترمذي في كتاب الأدب، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل ، (٥/ ٨٤) رقم الحديث (٢٧٥٤).

(٤) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٤/ ١٨١٣)، رقم الحديث (٢٣٢٦).

فكان ﷺ متواضعًا حليمًا مع مَنْ حوله مِنَ الصحابة رضوان الله عليهم، وكان يجلس بين ظهرانيهم؛ كما قال أبو هريرة ﷺ: «كان النبي ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه، فيجيء الغريبُ، ولا يدري أيُّهم هو؟ حتى يسأل، فطلبنا إلى النبي ﷺ أن نجعلَ له مجلسًا يعرفه الغريب إذا أتاه، فبنينا له دكانًا من طين، فكان يجلس عليه ونجلس بجانبه».

وكان عليه الصلاة والسلام متواضع حليم، ممتثلًا قولَ ربِّه ﷻ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

قال ابنُ مسعود ﷺ: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ يكلِّمه فأُرْعِدَ، فقال له ﷺ: **(هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَلَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أنا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ القَدِيدَ بِمَكَّةَ)**[١].

فكان ﷺ أحسنَ الناس معاملةً، وخاصَّةً فيما يلقاه مِنْ جفوة الأعراب، فقد روى الشيخان عن أنس ﷺ قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فجبذه جبْذَةً شديدةً، فنظرتُ إلى صَفْحة عاتق النبي ﷺ، وقد أثَّرت به حاشيةُ البُرْدِ من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي مِنْ مال الله الذي عندك، فالتفتَ إليه ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء»[٢].

واقترض النبيُّ ﷺ بعيرًا، فجاء صاحبه يتقاضاه، فأغلظَ للنبيِّ ﷺ، فَهَمَّ به أصحابُه، فقال ﷺ: **(دَعُوهُ؛ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا)**[٣].

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الأطعمة (٢/ ١١٠١)، ورواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٧، ٤٨)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، وأقره الذهبي.

(٢) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب البرود والحبر والشملة (٧/ ٥١)، رقم الحديث (٥٨٠٩).

(٣) رواه البخاري في كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب لصاحب الحق مقال (٣/ ١١٧)، رقم الحديث (٢٤٠١).
ورواه مسلم في كتاب المساقاة، باب من استلف شيئًا فقضى خيرًا منه (٣/ ١٢٢٥)، رقم الحديث (١٦٠١).

وكان ﷺ يتَّصف بالحلم والتواضع مع الأعداء كذلك؛ رغبةً منه ﷺ في إسلامهم واهتدائهم، وخيرُ مثال لذلك: معاملتُه لأهل مكةَ يوم الفتح، وهم الذين أمعنوا في اضطهاده، وأسرفوا في إيذائه وإتعابه، حتى تآمروا على قتله وأخرجوه مِنْ بلده وأرضه، وحاولوا إلْصاقَ التُّهم به، وقذفوه بكل بهتان توصَّلوا إليه.

ولَمَّا نصره الله عليهم، وأكرمه بفتح مكة، حتى أصبحت البلاد تحت إمرته، ووقع كُبراءُ مكةَ أسارى في يده ﷺ وأيدي أصحابه رضوان الله عليهم، وهم يظنُّون كلَّ الظنِّ أن النبي ﷺ سيؤاخذهم بذنوبهم وجرائرهم السابقة، وكاد الدم ينشف في عروقهم وتَتَيَبس أعصابهم من شدة الخوف والفزع الذي انتابهم، مِنْ أن يقضيَ فيهم رسولُ الله ﷺ بما يستحقونه، أو يَسِمَهم بمَيْسم الذُّلِّ والهوان الأبدي، فيجعلهم عبيدًا وخَوَلًا، يتقاسمُهم المجاهدون الفاتحون.

لكنه ﷺ رَقَّ لهم ورحمهم، ووقف منهم جميعًا - إلا ما استُثني[(١)] - كموقف أخيه يوسف مِنْ قبلُ مع إخوته الذين كادوا له ومكروا به؛ فعاملهم ﷺ بالعفو والصَّفح الجميل، وتناسى كلَّ ماضيهم الأثيم، وجازاهم بالبِر والإحسان، فقال لهم ﷺ: **(مَاذَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟)**، قالوا: خيرًا؛ أخٌ كريم، وابنُ أخ كريم، وقد قدَرْتَ، فقال ﷺ: **(إِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفَ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ)**[(٢)].

فخرجوا من المسجد فرِحين مسرورين كأنما نُشروا مِنَ القبور.

«هذا موقفٌ مِنْ مواقف العفو الكريم والصَّفح الجميل، لم يعرفه

---

(١) كابن خَطَل، والحارث بن نُفيل، ومِقْيَس بن صُبابة؛ فهؤلاء أمر النبي ﷺ بقتلهم ولو وُجِدُوا في آمَنِ مأمن، متعلّقين بأستار الكعبة؛ لأنه لم يكن في قلوبهم مكانٌ للإيمان والهداية.

(٢) رواه ابن إسحاق في المغازي (٤/ ٨٧)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ١٤١)، وانظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).

التاريخ، ولا عرف مثلَه في النُّبل والإحسان ومكارم الأخلاق، وقفه رسول الله ﷺ مع من أساؤوا إليه، وكذَّبوه، وسخروا منه، وآذَوْه بالقول والفعل، حتى أخرجوه من بلده المحرَّم الآمن مهاجرًا في سبيل أداء رسالته ونشر هداها، وآذوْا أصحابه، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وعشائرهم»(١).

واشترى ﷺ من يهوديٍّ شيئًا إلى أجل، فجاءه قبل أن يَحُلَّ الأجل، يتقاضاه ثمنَه، فقال ﷺ: (لَمْ يَحُلَّ الأَجَلُ)، فقال اليهودي: إنَّكم لمُطْلٌ يا بني عبد المطلب، فَهَمَّ به أصحابُه، فنهاهم، فلم يزِدْه ذلك إلا حِلمًا، فقال اليهودي: كلُّ شيء منه قد عرفتُه مِنْ علامات النبوة، وبقيَتْ واحدةٌ، وهي أنه لا تزيدُه شدةُ الجهل عليه إلا حِلمًا، فأردت أن أعرفَها، فأسلم اليهودي(٢).

وليس هذا مستغربًا منه ﷺ، فهو صاحبُ الخُلق العظيم الذي لم يغضب لنفسه قطُّ، ولم ينتصر مِنْ مظلِمةٍ ظُلِمَها قط؛ تقول عائشة رضي الله عنها: «ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ منتصرًا مِنْ مظلمة ظُلِمَها قط ما لم يُنتهك مِنْ محارم الله شيء، فإذا انتُهك مِنْ محارم الله شيء، كان مِنْ أشدِّهم في ذلك غضبًا، وما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرَهما، ما لم يكن مأثمًا»(٣).

وتقول أيضًا رضي الله عنها: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحِّشًا، ولا صخَّابًا في الأسواق، ولا يَجزي بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح»(٤).

وهذا أنس بن مالك رضي الله عنه يبين لنا صورةً مشرقةً من حياة قضاها في

(١) محمد رسول الله (٤/ ٣٣٨). (٢) سبق في (ص٣٣٤).

(٣) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٤/ ٢٠١)، رقم الحديث (٣٥٦٠).
ورواه مسلم في كتاب فضائل النبي ﷺ، باب مباعدته ﷺ للآثام (٤/ ١٨١٣)، رقم الحديث (٢٣٢٧).
وأبو داود في الأدب (٤/ ٢٥٠) برقم (٤٧٨٥).

(٤) قال الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله بعد إيراده هذا الحديث: «قلت: وقال: حديث حسن صحيح». رواه الطيالسي (٢٤٢٣)، وأحمد (٦/ ١٧٤، ٢٣٦، ٢٤٦)، وسنده صحيح، وللشطر الأول منه شواهد عند أبي الشيخ (ص٣٧) من مختصر الشمائل المحمدية (ص١٨٢).

بيت النبوة، وفي كنَفِ المربي محمد ﷺ، فوجد قمةَ خُلُقٍ، وأرفعَ حِلْم، وأكبرَ تواضع في شخص النبي ﷺ؛ يقول أنس رضي الله عنه: «لقد خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، فوالله ما قال لي: أفٍّ، قط، ولا قال لشيء فعلتُه: لِمَ فعلتَ كذا؟ ولا لشيءٍ لم أفعلْه: ألَا فعلْتَ كذا»[(١)].

فينبغي على الدُّعاة إلى الله تعالى أن يقبِسُوا مِنْ رسولهم ومربِّيهم ﷺ قبساتٍ مِنْ تواضعه وحِلمه وعفوه وسَعة صدره ﷺ، وأن يتذكروا دائمًا أخلاقه ﷺ ووَصْفَ القرآن الكريم له بأنه كان على خُلُقٍ عظيم؛ «لكي يدركوا العلاقة الوثيقة بين شخصية النبي ﷺ التربوية الخلقية وبين عمله ورسالته التربوية الخلقية، وبين كونه قدوةً في هذا.

وتلك مرحلةٌ تربوية مهمة؛ لأن التربية لا يمكن أن تصِلَ إلى أهدافها إلا إذا كان صاحبُها مؤمنًا مطَبِّقًا لها على نفسه، داعيًا لها، قدوةً فيها، وهذا ما كان عليه رسول الله ﷺ»[(٢)].

وصدق الله العظيم القائل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل (٧/ ١٠٩)، رقم الحديث (٦٠٣٨).
ورواه مسلم في كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا (٤/ ١٨٠٤)، رقم الحديث (٢٣٠٩).

(٢) المربي محمد ﷺ، تأليف محمد سعيد المولوي (ص٨٧).



جوده ﷺ وكرمه

لقد كان الكرمُ طبعَه ﷺ وسجِيَّتَه، فكان لا يردُّ سائلًا، ولا يمنع طالبًا؛ فعن محمد بن كثير، قال: «سمعت جابرًا يقول: إنَّ رسول الله ﷺ لم يُسْأَلْ شيئًا قط، فقال: لا»[(١)].

وعن موسى بن أنس، عن أبيه، قال: «ما سُئل رسولُ الله ﷺ على الإسلام شيئًا قطُّ إلا أعطاه، فأتاه رجلٌ فسأله، فأمر له بغنم بين جبلين، فأتى قومَه، فقال: أسلِمُوا: فإن محمدًا يعطي عطاءَ مَنْ لا يخشى الفاقةَ»[(٢)].

فكان ﷺ جوادًا كريمًا يُعطي عطاءَ من لا يخشى الفقر، وكان أجودَ وأكرمَ بالخير مِنَ الريح المرسلة، وكان أجودَ ما يكون في رمضان؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ أجودَ الناسِ، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام، وكان جبريل عليه السلام، يلقاه كلَّ ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن؛ قال: فرسول الله ﷺ أجودُ بالخير مِنَ الريح المرسلة»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل.
ومسلم في كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئًا قط، فقال: لا (٤/ ١٨٠٥)، رقم الحديث (٢٣١١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط، فقال: لا، وكثرة عطائه (٤/ ١٨٠٦)، رقم الحديث (٢٣١٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب حدثنا عبدان (١/ ٥)، رقم الحديث (٦).
ورواه مسلم في كتاب الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (٤/ ١٨٠٣)، رقم الحديث (٢٣٠٨).

وبجوده وكرمه ﷺ جَذَبَ القلوب النافرة، وألانَ الأفئدةَ القاسية؛ فعن سعيد بن المسيب أن صفوان بن أمية قال: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأَبْغَضُ الناس إليَّ، فما برِح يعطيني حتى إنَّه لأحبُّ الناس إليَّ»[١].

وفي رواية مسلم[٢] أنه ﷺ أعطى صفوانَ بن أميةَ مئةً مِنَ الإبل، ثم مئةً، ثم مئةً؛ وفي هذا بيانٌ لقوله في الرواية الأولى: «ما زال يعطيني».

وعن جُبير بن مطعم قال: لَمَا قفَل رسول الله ﷺ مِنْ غزوة حنين تبِعَه الأعراب يسألونه؛ يقولون: يا رسول الله، اقسِمْ لنا فيْئَنا مِنَ الإبل والغنم، حتى ألجؤوه إلى شجرة خَطفت رداءَه، فقال ﷺ: (**رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي أَيُّهَا النَّاسُ، فَوَاللهِ لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ شَجَرِ تِهَامَةَ نَعَمًا**[٣] **لَقَسَمْتُهَا عَلَيْكُمْ، ثُمَّ مَا لَقِيتُمُونِي بَخِيلًا، وَلَا جَبَانًا، وَلَا كَذَّابًا**)[٤].

هكذا سَمَتْ مكارمُ رسول الله ﷺ في الجود والكرم، واستعان بما آتاه الله من المال في استئلاف قلوب الذين لم يُسلموا، أو الذين أسلموا ولم يَخْلُصْ إيمانهم من شوائب الشك؛ وإشفاقًا منه ﷺ عليهم أن تتلقَّفهم الشياطينُ، فتكبَّهم في النار على وجوههم، وكان هؤلاء المستألَفون أشرافًا مِنْ أشراف جاهلية قريش وغيرها من قبائل العرب، فأعطى ﷺ المئاتِ من الإبل، والعديدَ من أواقي الفضة لأفرادٍ مِنْ هؤلاء المؤلفة، ولم يعطِ خواصَّ أصحابه مِنَ المهاجرين والأنصار وغيرهم ممن رسخ إيمانُهم وصفا يقينُهم، فأنفقوا أموالَهم وثرواتِهم في سبيل الدعوة إلى الله تعالى[٥]، وإلى ذلك

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا، وكثرة عطائه (٤/١٨٠٦)، رقم الحديث (٢٣١٣).

(٢) نفس الحديث السابق رقم (٢٣١٣) من صحيح مسلم (٤/١٨٠٦).

(٣) النَّعم: هي الإبل والغنم والبقر.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٤/٨٤) من حديث جبير بن مطعم.

(٥) انظر: محمد رسول الله ﷺ (٤/٣٩٢، ٣٩٣).

أشار ﷺ بقوله: (**إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ؛ خَشْيَةَ أَنْ يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ**)[١].

وذكر ابنُ إسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث[٢]، أن قائلًا قال لرسول الله ﷺ - من أصحابه -: يا رسول الله، أعطيتَ عيينة بن حصن[٣] والأقرع بن حابس[٤] مئةً، مئةً، وتركتَ جُعيل بن سُراقةَ الضَّمري[٥]؟!. فقال ﷺ: (**أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَجُعَيْلُ بْنُ سُرَاقَةَ خَيْرٌ مِنْ طِلَاعِ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ مِثْلُ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ، وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَلَكِنِّي تَأَلَّفْتُهُمَا لِيُسْلِمَا، وَوَكَلْتُ جُعَيْلَ بْنَ سُرَاقَةَ إِلَى إِسْلَامِهِ**)[٦].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة (١/ ١٤)، رقم الحديث (٢٧).
ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه (١/ ١٣٢)، رقم الحديث (١٥٠).

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن الحارث بن خالد القرشي التيمي أبو عبد الله المدني، روى عن أسامة بن زيد بن حارثة، وأسيد بن حُضير، وروى عنه أسامةُ بن زيد الليثي وحُميد بن قيس الأعرج، وروى له الجماعة. تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٠١).

(٣) عُيينة بن حِصن بن حُذيفة بن بدر الفَزاري، يكنى أبا مالك، أسلم بعد الفتح، وقيل: أسلم قبل الفتح، وشهد الفتح مسلمًا، وشهد حنينًا والطائف أيضًا، كان مِنَ المؤلفة قلوبهم ومن الأعراب الجُفاة.
وكان ممن ارتدَّ وتَبع طُليحةَ الأسديَّ، وقاتل معه، فأُخذ أسيرًا، وحُمل إلى أبي بكر، فكان صبيان المدينة يقولون: يا عدوَّ الله، أكفرتَ بعد إيمانك، فيقول: ما آمنتُ بالله طرفةَ عين، فأسلم، فأطلقه أبو بكر. أسد الغابة (٤/ ٣٣١).

(٤) الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان، قدم على النبي ﷺ مع عُطارد بن حاجب والزِّبرقان بن بدر وقيس بن عاصم وغيرهم من أشراف تَيم بعد فتح مكة، وشهد مع النبيِّ ﷺ حُنينًا والطائف، وكان شريفًا في الجاهلية والإسلام، استعمله عبد الله بن عامر على جيشٍ سَيَّره إلى خراسان، فأصيب بالجُوزجان هو والجيش. أسد الغابة (١/ ١٢٨).

(٥) جُعيل بن سُراقة الضَّمري، وقيل: الغفاري، أخو عوف، وقيل: جُعال، من أهل الصُّفَّة، أسلم قديمًا، وشهد مع النبي ﷺ أحدًا وأصيبت عينهُ يوم قريظة، أثنى عليه النبيُّ، ووكَلَه إلى إيمانه. أسد الغابة (١/ ٣٣٨).

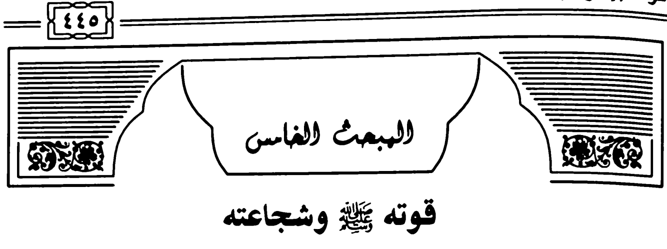
(٦) قال الحافظ ابنُ حجر: «هذا الحديث، أخرجه ابنُ إسحاق في المغازي من طريق محمد بن إبراهيم بن الحارث التيّمي، وهو مرسل حسن، لكن له شاهد موصول، =

وقال أنس ﷺ: «إن كان الرجلُ ليُسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليه مِنَ الدنيا وما عليها»(١).



= رواه الروياني في مسنده وابن عبد الحكم في فتوح مصر من طريق بكر بن سَوادة عن أبي سالم الجيشاني عن أبي ذر. وإسناده صحيح». الإصابة (١/ ٢٣٩).

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب ما سُئل النبي ﷺ شيئًا قط فقال: لا، وكثرة عطائه (٤/ ١٨٠٦)، رقم الحديث (٢٣١٢).



قوته ﷺ وشجاعته

كان ﷺ في أعلى مراتب القوة حتى كان الصحابةُ رضوان الله عليهم يلجؤون إليه في الملمّات والشدائد؛ كما حصل عند حفر الخندق عندما قابلتهم صخرةٌ أعجزتهم، فأتى رسولُ الله ﷺ فأخذ المِعْوَلَ، ففتَّتَ الصخرةَ الكبيرة الصَّلدة التي أعجزت سواعدَ بعض الصحابة؛ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كنا يوم الخندق نحفر، فعرَضت كُدْيَة[1] شديدة، فجاؤوا للنبي ﷺ فقالوا: هذه كُدْيَةٌ عرضت في الخندق، فقال: (أَنَا نَازِلٌ). ثم قام وبطنُه معصوبٌ بحجر، ولبثنا ثلاثةَ أيام لا نذوق ذَواقًا، فأخذ النبيُّ ﷺ المِعْوَلَ، فضرب في الكُديةَ، فعاد كثيبًا أهْيَلَ[2]»[3].

وكان ﷺ شجاعًا مِقدامًا حتى في أخطر المواقف، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ أحسنَ الناس، وأجودَ الناس، وأشجع الناس، ولقد فزِعَ أهلُ المدينة ذات ليلةٍ، فانطلق الناس قِبَلَ الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول: (لَمْ تُراعُوا)، وهو على فرسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ ما عليه سَرْجٌ في عنقه سيف، فقال: (لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا)، أو (إِنَّه لَبَحْرٌ)[4].

---

(١) الكدية ـ بضم الكاف وتسكين الدال ـ : هي القطعة الصَّلبة الصَّمَّاء. انظر: لسان العرب (١٥/ ٢١٦)، مادة (ك د ي).

(٢) أَهْيَل: أي: صار رملًا يسيل ولا يتماسك، لسان العرب (١١/ ٧١٤)، مادة: (هـ ي ل).

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٥/ ٥٥)، رقم الحديث (٤١٠١).

(٤) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٧/ ١٠٨)، رقم الحديث (٦٠٣٣). =

فكان ﷺ أشجعَ الناس، سُئِلَ البراءُ بن عازب ﷺ: أفررتم يومَ حُنين؟ قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفِرَّ... ولقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ على بغلته البيضاءِ، وإن أبا سفيان آخِذٌ بزِمامها، وهو يقول: (**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**)[١].

وقال العلماء: «رُكوبه ﷺ البغلةَ في موطن الحرب وعند اشتداد الناس هو النهاية في الشجاعة والثبات، ولأنه أيضًا يكون معتَمَدًا يرجع المسلمون إليه وتطمئنُّ قلوبُهم به وبمكانه، وإنما فعل هذا عمدًا، وإلا فقد كانت له ﷺ أفراسٌ معروفة، ومما ذكر في هذا الحديث مِنْ شجاعته ﷺ: تَقَدُّمُه يُرْكِضُ بغلتَه إلى جمع المشركين، وقد فرَّ الناسُ عنه، وفي الرواية الأخرى أنه نزل إلى الأرض حين غَشُوهُ، وهذه مبالغةٌ في الثبات والشجاعة والصبر، وقيل: فعل ذلك مواساةً لمن كان نازلًا على الأرض مِنَ المسلمين، وقد أخبرت الصحابةُ ﷺ بشجاعته ﷺ في جميع المواطن»[٢].

وقال عِمران بن حُصين: «ما لقيَ النبيُّ ﷺ كتيبةً إلا كان أولَ مَنْ يَضرب»[٣].

وقال علي بن أبي طالب: «كنا إذا حَمِيَ أو اشتد البأس اتَّقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه ﷺ[٤]، ولقد رأيتني يومَ بدر ونحن نلوذُ برسول الله ﷺ، وهو أقربُنا إلى العدوِّ، وكان مِنْ أشدِّ

= ورواه مسلم في كتاب الفضائل، باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب (٤/ ١٨٠٢)، رقم الحديث (٢٣٠٧).

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ (٥/ ١١٦)، رقم الحديث (٤٣١٥).
ورواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (٣/ ١٤٠٠)، رقم الحديث (١٧٧٦).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٢/ ١١٤).

(٣) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (٢/ ٣٣٠).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٤٣)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

الناس يومئذ بأسًا، وقيل: كان الشجاع هو الذي يَقْرُبُ منه ﷺ؛ لِقُربه مِنَ العدو»[١].

وقال ابنُ كثير في تفسيره بعد أن روى خبرَ غزوة حنين ما نصه: «وهذا في غاية ما يكون مِنَ الشجاعة التامَّة، أنه في مثل هذا اليوم في حَوْمة الوغى، وقد انكشف عنه جيشُه، وهو مع هذا على بغلة ليست سريعةَ الجري، ولا تصلُح لِفَرٍّ ولا لكَرٍّ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضًا يُركضها إلى وجوههم، وينوِّه باسمه ليعرفَه مَنْ لم يعرِفْه ـ صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ـ وما هذا كلُّه إلا ثقةٌ بالله، وتوكُّلٌ عليه، وعلمٌ منه بأنه سينصره ويُتِمُّ ما أرسله به، ويُظهرُ دينَه على سائر الأديان»[٢].

فهذه المواقف الشُّجاعة، والسلوك النبيل من هذا القائد العظيم محمد ﷺ، هي التي ربَّت في الصحابة رضوان الله عليهم الشجاعةَ الفذَّة، والمواقفَ النبيلة، وأنتجت المجاهدين الأبطال، والقادة البارعين، الذين باعوا أنفسَهم وأموالَهم لإعلاء كلمة الله تعالى ونُصرة الحقِّ المبين، لَمَّا رأوْها ماثلةً أمامَ أعينهم في شخص قائدهم ومربِّيهم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقد كان مشاركًا لأصحابه في جميع الأحوال، في العُسر واليُسر، وفي المنشط والمكره، والشدة والرخاء، وفي الشِّبَع والجوع؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسولَ الله ﷺ قال: **(وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِي يَدِهِ، لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، مَا قَعَدتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو في سَبِيلِ اللهِ، وَلَكِنْ لا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، ولا يَجِدُونَ سَعَةً فَيَتَّبِعُوني، وَلَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَقْعُدُوا بَعْدِي)**[٣].

---

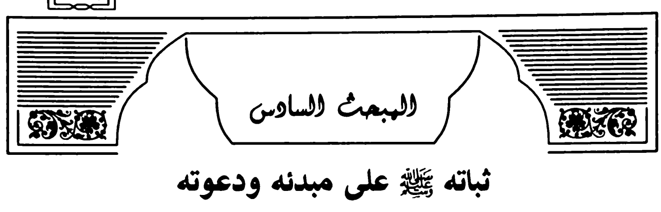
(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (٢/ ٢٣٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٥).
(٣) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب تمني الشهادة (٣/ ٢٦٨)، رقم الحديث (٢٧٩٧). ورواه مسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (٣/ ١٤٩٧)، رقم الحديث (١٠٦).

فرسول الله ﷺ قدوةٌ للناس جميعًا في واقع هذه الأرض، فلا بد أن يتأسَّى به الناس على اختلاف طبقاتهم.

و«ليعلم الناس أن رسالة الإسلام لا تُبيحُ للقادة والرؤساء والحكّام والزعماء المتولِّين أمورَ قيادة الشعوب والأمم، أن يستأثروا بالعيش الرَّغد الرَّخِيِّ الهنيِّ، والحياة المترفة المتنعمة، وهم يديرون شؤون أممهم من وراء جدران القصور، يتثاءبون من الكِظَّة، ويتجشَّؤون من البِطْنَة، وهم يعلمون أن شعوبَهم المسلمة تعيش على شَظَفِ العيش، وقِفار اللُّقمة إن وجدوها وقدَرُوا عليها، ويعيشون على عُري العورات في حَمْأةِ القَيْظ وقَرقرة الصَّقيع»[1].



(١) محمد رسول الله ﷺ (٤/ ١٥١).



ثباته ﷺ على مبدئه ودعوته

إن الثبات على المبدأ سِمَةٌ بارزة مِنْ سمات الصادقين؛ ولذا كانت هذه الصفةُ بارزةً في شخصية المربِّي العظيم والقُدوة الكبير محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ لأنه هو أصدقُ الخَلْق أجمعين، ورسولُ ربِّ العالمين، أرسله الله بالرسالة الخالدة إلى العالم أجمع ليُخرجهم مِنَ الظُّلمات إلى النور المبين، وأمره ربُّه أن يُنذِرَ أولَ مَنْ ينذرُ عشيرتَه الأقربين؛ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

فدعاهم وأبلغهم رسالةَ التوحيد على أكمل وأرفق ما يكون التبليغ والبيان، وصدَع بدعوة الحق في سائر قومه، وساكني البلد الحرام ومَنْ يأتيها في المواسم وفي الأسواق، فسمعوا قولَه، وتحدَّثوا عنه أولَ ما أعلنهم بدعوته، ثم عالنوه العداوةَ لَمَّا عاب آلهتهم وسَخِرَ من عقولهم التي لم تقبَلِ الحقَّ وتنزعْ عن الباطل؛ عند ذلك أعظموا الأمرَ، وأنكروه أشدَّ الإنكار، ثم حاولوا معه ﷺ أن يكفَّ عن عيب آلهتهم والسخرية من عقيدتهم، فلم يُلْقِ ﷺ لعَتَبِهم وإنكارهم وزنًا، ومضى في تبليغ دعوته يقرع بها آذانَهم، ويهزُّ بها أوتار قلوبهم.

عندئذ تآمروا عليه، وانتهضوا لمقاومته، والحيلولة بينه وبين دعوته، فبعث القومُ وفدًا منهم إلى عمه أبي طالب لكي يكفَّ ابنَ أخيه عن سبِّ آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، وعيب دينِهم، أو أن يخلِيَ بينه وبينهم، ليتولَّوْا هم منعه وإسكاته.

أخرج الطبراني وأبو يعلى، عن عقيل بن أبي طالب، قال: جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا له: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يأتينا في

أفنيتنا ونادينا، فيُسمِعُنا ما يؤذينا به؛ فإن رأيتَ أن تكفَّه عنا فافعل، فقال لي: يا عقيل، التمِسْ لِيَ ابنَ عمِّك، فأخرجته مِنْ كِبْس ـ بيت صغير ـ من أكباس أبي طالب، فأقبل يمشي معي، حتى انتهى إلى أبي طالب، فقال أبو طالب: يا ابنَ أخي، والله ما علمتُ إنْ كُنْتَ لي مُطيعًا، وقد جاء قومُك يزعُمون أنك تأتيهم في كعبتهم، وفي ناديهم، تُسمِعُهم ما يؤذيهم، فإنْ رأيت أن تكفَّ عنهم، فحلَّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: (**وَاللهِ مَا أَنَا بِأَقْدَرَ أَنْ أَدَعَ مَا بُعِثْتُ بِهِ مِنْ أَنْ يُشْعِلَ أَحَدُكُمْ مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ شُعْلَةً مِنْ نَارٍ**)، فقال أبو طالب: والله ما كذب ابنُ أخي قطُّ، ارجعوا راشدين[١].

وروى ابنُ جرير بسنده عن السُّدِّي: أن ناسًا من قريش اجتمعوا، فيهم أبو جهل بن هشام، والعاصُ بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، في نفرٍ مِنْ مشيخة قريش، فقال بعضُهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب، فلنكلِّمْه فيه، فليُنصِفْنا منه، فيأمره فليكفَّ عن شتم آلهتنا، وندعه وإلَهه الذي يعبُدُ، فإنّا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون مِنَّا شيء، فتعيِّرنا العرب، فيقولون: تركوه حتى إذا مات عمُّه تناولوه.

قال: فبعثوا رجلًا منهم يُدعى المطَّلب، فاستأذن لهم على أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيخةُ قومِك وسَرَواتُهم، يستأذنون عليك، فقال: أدخِلْهم، فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرُنا وسيِّدُنا، فأنصِفْنا مِن ابنِ أخيك، فمُره فليكُفَّ عن شتم آلهتنا، وندَعُه وإلَهه، قال: فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ، قال: يا ابنَ أخي، هؤلاء مشيخةُ قومك وسَرَواتُهم، وقد سألوك النَّصَفَ: أن تكُفَّ عن شتم آلهتهم، ويَدَعُوك وإلَهك، قال: فقال: (**أَيْ عَمِّ، أَوَلَا أَدْعُوهُمْ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْهَا؟**) قال: وإلامَ تدعوهم؟ قال: (**أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِكَلِمَةٍ تَدِينُ لَهُمْ**

---

(١) رواه البخاري في التاريخ عن محمد بن العلاء عن يونس بن بُكير.
ورواه البيهقي عن الحاكم عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار عنه، به، قاله الإمام ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٤).

بِهَا العَرَبُ، وَيَمْلِكُونَ بِهَا العَجَمَ)، قال: فقال أبو جهل مِنْ بين القوم: ما هي وأبيك، لنعطينَّك وعشرَ أمثالها؟ قال: (تَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، قال: فنفروا، وقالوا: سَلْنا غيرَ هذه، قال: (لَوْ جِئْتُمُونِي بالشَّمْسِ حَتَّى تَضَعُوهَا فِي يَدِي مَا سَأَلْتُكُمْ غَيْرَهَا). قال: فغضبوا، وقاموا من عنده غِضابًا، وقالوا: والله لنشتمَنَّك، والذي يأمرك بهذا، ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ...﴾ إلى قوله: ﴿...إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[1] . . . الحديث.

فثبت ﷺ على دعوته، ولم يتخاذلْ أو ينكُص عنها؛ لأنه ﷺ قد أمره الله بأن يصدَعَ بالتوحيد، وأن يُعلن دعوتَه للناس، وأن يجهر بهذا البيان حتى يتَّضحَ للسامعين، وأمره بأن يُعرِضَ عن المشركين المستهزئين به وبدينه، وألا يبالي بهم، ولا يحسب لغضبهم أيَّ حساب؛ قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥].

فمضى ﷺ في دعوته، معلنًا إياها بكل ما يملك من وسيلة، بعزيمة قاهرة، وثبات مطمئن، وإرادة صادقة، في قُوَّة إيمان بربِّه وبرسالة نفسه ﷺ، إيمانًا لا يعدِلُه في الكون شيءٌ.

فبثباته ﷺ على دعوته، ومُضِيِّه قُدُمًا في تبليغ دعوته، أخفقت جهود زعماء قريش مع أبي طالب في إيقاف دعوة التوحيد، وتجميد رسالة الإسلام.

وأخذَ الإسلام يفشو، ورأَوْا أصحابَ رسول الله ﷺ يزيدون ويكثُرون، وأسلم حمزةُ بن عبد المطلب.

---

(١) **انظر**: تفسير ابن جرير الطبري (٢٣/ ١٢٧، ١٢٨) واللفظ له، ورواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن (٥/ ٣٦٥، ٣٦٦)، وقال عنه: «حديث حسن». وفي تحفة الأحوذي (٩/ ١٠١، ١٠٢)، ورد قوله: «هذا حديث حسن صحيح»، وقال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٤١٨: رواه الترمذي وصحَّحه. ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٠٠)، ورواه أحمد (١/ ٢٧٧، ٣٦٢)، ورواه الحاكم في مستدركه (٢/ ٤٣٢ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي، وعزاه ابن كثير في التفسير (٤/ ٢٨) إلى النسائي وابن أبي حاتم، كما عزاه الشوكاني في تفسيره فتح القدير (٤/ ٤١٨).
وانظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤١٧).

عندئذ غَيَّرَ زعماءُ قريشٍ أسلوبَ المواجهة إلى المواجهة بالمساومة، وعَرْضِ بعض الإغراءات على رسول الله ﷺ، لَعَلَّه يقبل شيئًا منها، فيكُفَّ عن دعوتهم، وتسفيه أحلامهم، وعَيْبِ آلهتهم.

إلا أن هذه الإغراءات والمساومات ما زادت نبيَّ الله ﷺ القدوةَ العظيمَ إلا ثباتًا، ورسوخًا على الحق الذي أُرسل به، وما زادته إلا إصرارًا على تبليغ رسالة الله الخالدة، وبَذْلِ الجهد في إيصال الحقِّ إلى أكبر عدد ممكن.

فأرسلوا إليه عُقبةَ بنَ ربيعةَ ـ وكنيتُه «أبو الوليد» ـ فَكَلَّم رسولَ الله ﷺ وعرض عليه أمورًا لعلَّه يقبل شيئًا منها، فيعطوها له، ويكفّ عنهم:

روى ابن إسحاق عن محمد بن كعب القُرظي، قال: حُدِّثْتُ أن عُتبةَ بن ربيعةَ قال يومًا ـ وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد وحده ـ: يا معشر قريش، ألا أقومُ إلى محمد فأكلِّمه، وأعرض عليه أمورًا لعلَّه يقبل بعضَها، فنعطيه أيَّها شاءَ ويكفُّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزةُ ﷺ ورأوْا أصحابَ رسول الله ﷺ يزيدون ويكثُرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابنَ أخي، إنَّكَ منا حيث علمتَ من السِّطةِ في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيتَ قومَك بأمرٍ عظيم، فرَّقْتَ به جماعتَهم، وسفهت أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مَنْ مضى مِنْ آبائهم، فاسمع مني أعرِضْ عليك أمورًا تنظرُ فيها، لعلَّك تقبل منها بعضها.

قال: فقال له رسول الله ﷺ: **(قُلْ يَا أَبَا الوَلِيدِ أَسْمَعْ)**، وقال: يا ابنَ أخي، إن كنتَ إنما تريدُ بما جئتَ به مِنْ هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالًا.

- وإن كنتَ تريدُ به شرَفًا سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونَك.
- وإن كنت تريد به ملكًا ملَّكناك علينا.

ـ وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيًا تراه لا تستطيع رَدَّه عن نفسك طلبنا لك الأطباء، وبذلْنا فيها أموالَنا حتى نُبرِئَك منه، فإنّه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبةُ ورسولُ الله ﷺ يستمع منه، قال: (**أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ**)؟ قال: نعم. قال: (**فَاسْتَمِعْ مِنِّي**)، قال أفعلُ. قال: (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ** ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ٤])، ثم مضى رسولُ الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه، فلما سمعَ عتبةُ أنصتَ لها، وألقى يديه خلف ظهره، ومعتمدًا عليهما، يستمعُ منه، حتى انتهى رسولُ الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: (**قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ**).

فقام عتبةُ إلى أصحابه، فقال بعضُهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنِّي سمعت قولًا والله ما سمعتُ مثلَه قط، والله ما هو بالسِّحر، ولا بالشعر، ولا بالكَهانة، يا معشر قريش، أطيعوني وأجْعلوها لي؛ خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزِلوه، فوالله ليكونَنَّ لقولِه الذي سمعتُ نبأٌ، فإن تُصِبْه العربُ، فقد كُفِيتُموه بغيركم، وإن يظهرْ على العرب، فمُلْكُه ملكُكم، وعِزُّه عِزُّكم، وكنتم أسعدَ الناس به، قالوا: سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم»[1].

وقد أخرج هذه القصةَ العلامة مُغلطاي في سيرته منسوبةً إلى ملأ قريش مجتمعين وفيهم عتبةُ، كما أخرجها ابنُ إسحاق كذلك بعد روايته قصة عتبةَ منفردًا عن الملأ[2]، فقال: عن سعيد بن جُبير وعكرمة مولى ابن عباس

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٣، ١٩٤)، السيرة الحلبية (١/ ٣٣٨).
(٢) قال الشيخ محمد الصادق إبراهيم العرجون بعد أن أورد هذه القصة كما رواها ابن إسحاق، وكما أخرجها العلامة مغلطاي في سيرته ـ: «واختلاف الروايتين في سياق =

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمع عُتبةُ بن ربيعةَ، وشيبةُ بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنَّضر بن الحارث بن كَلَدَة، وأبو البَختريِّ بن هشام، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وزَمعةُ بن الأسود، والوليدُ بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيهٌ ومنبِّهٌ ابنا الحجاج، وأميةِ بن خلف ـ عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضُهم لبعض: ابعثوا إلى محمد، فكلِّموه وخاصِموه حتى تُعْذِروا فيه، فبعثوا إليه: إنَّ أشراف قومِك قد اجتمعوا لك ليكلِّموك، فأْتِهِم، فجاءهم رسولُ الله ﷺ سريعًا، وهو يظنُّ أنْ قد بدا لهم فيما كلَّمهم فيه بَداءٌ، وكان حريصًا عليهم، يحبُّ رُشدَهم، ويَعِزُّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد، إنَّا قد بعثنا إليك لنكلِّمَك، وإنا والله ما نعلم رجلًا مِنَ العرب أدخل على قومه مِثْلَ ما أدخلتَ على قومك؛ لقد شتمت الآباء وعِبْتَ الدِّين، وشتمت الآلهة، وسفَّهت الأحلام، وفرَّقت الجماعة. ثم عرضوا عليه الأمور التي عرضها عتبة.

فقال لهم رسول الله ﷺ: (**مَا بِي مَا تَقُولُونَ؛ مَا جِئْتُ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبَ أَمْوَالَكُمْ، وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ، وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ، فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ، أَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**)[1].

= القصة سندًا أو حالًا وأسلوبًا وإجابةً يفيد تَكرار القصة، وأنها وقعت مرتين أو أكثر، مرةً في لقاء زعماء قريش مجتمعين وفيهم عتبة، ومرةً في لقاء عتبة منفردًا عن الملأ، سواء كان هذا اللقاء الانفرادي باقتراح عتبة، أو كان باقتراح الملأ، وفي كلٍّ من اللقاءين حكمةٌ تتجلَّى في سياسة توجيه النبي ﷺ لسير دعوته وتبليغ رسالته، ولا مانع من وقوع اجتماع آخر بين رسول الله ﷺ وملأ طُغاة قريش». من كتاب محمد رسول الله ﷺ (٢/ ١٨٩).

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٥، ٢٩٦)، والسيرة الحلبية (١/ ٣٤٠)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٥٠، ٥١)، وفقه السيرة للغزالي (ص١١٢، ١١٣)، وقال الشيخ الألباني: «حسن إن شاء الله». **انظر**: فقه السيرة للغزالي بتخريج العلامة الشيخ ناصر الدين الألباني (ص١١٢، ١١٣).

ففي هذا الموقف الذي طلبت فيه قريشٌ المصالحةَ مع النبي ﷺ، وعرضت عليه هذه الأمور الدنيوية الزهيدة في حِسِّ صاحب الاعتقاد السليم، والغالية في حِسِّ صاحب الاعتقاد السقيم - عبرةٌ واضحةٌ تشهد بقوة إيمان المربي محمد ﷺ بالرسالة التي أمره الله بإبلاغها للناس، وبثباته على مبدأ التوحيد، بحيث لا يزحزحه عن هدفه المنشود ترغيبٌ ولا ترهيبٌ ولا يمكن أن يقفَ أمامَ هدفه وَعْدٌ ولا وعيد.

كما أن هذه القصة تشهد بصدق النبي ﷺ في إبلاغ دعوته ورسالته، بعزيمة صادقةٍ، وصرامة قوية في إيصال الحق وبيانه، في هدوء، وثقة، ويقين بوعد الله الكريم[١].

كما تشهد بسمُوِّ مكارمه ﷺ وعُلُوِّ خُلُقه في مخاطبة مَنْ أراد محاورته مهما كانت شدَّةُ عداوته له ﷺ، مع أناةٍ في التفكير، وسَدادٍ في الرأي، وصبر وحِلم؛ كما تشهد بما وهبه الله وحَباه من علم ومعرفة بدخائل النفوس وطبائعها، والقُدرة على معاملتها والتلطُّف بها، مما كان سببًا في نجاحه في تبليغ رسالته ﷺ، ونشر دعوته في تلك المرحلة المكيَّة التي كانت أشدَّ مراحل الدعوة والبيان؛ لأنها مرحلةُ كفاحٍ مريرٍ، ونضال شديد.

«فمحمد ﷺ عاش منذ مهده وشبوبيته ورجوليته على سمع قومه وبصرهم، فلم يطلب من أحدٍ منهم شيئًا مما يتَّصل بالدنيا، ولَمَّا بعثه الله تعالى برسالته رحمةً للعالمين، لم يُعَنِّتْ قومَه ولم يسألْهم دنياهم، ولا زاحمهم عليها، وكان أبعدَ الناس عن زُخرُفِها وحُطامها والتكثُّر منها، وإنما سألهم أن يطَهِّروا أنفسَهم وعقولَهم وقلوبَهم مِنْ رِجْسِ الوثنية، ووَضَرِ الشرك، سألهم أن يوحدوا الله في تعبدهم، وأن يخلعوا من أعناقهم عبادة الأحجار والأوثان؛ كل ذلك في كلمة واحدة إذا قالوها وعملوا بمضمونها وحقيقتها ملكوا الدنيا بها»[٢].

---

(١) انظر: كتاب محمد رسول الله (٢/ ١٩٠). (٢) محمد رسول الله ﷺ (٢/ ١٩٦).

وأختم هذا المبحث بموقف النبيِّ ﷺ وهو في طريقه إلى مكةَ لتأدية العمرة في عام الحديبية، ذلك الموقف الذي يدلُّ على ثباتِه على الحقِّ مهما كانت الظروف، ويقينِه التامِّ بنصر الله له وللمؤمنين:

تواردت الأخبارُ على رسول الله ﷺ أنَّ أهلَ مكة تجمَّعوا على أن يمنعوه مِنْ دخول مكة، فقال كلمتَه الحكيمة الدالَّة على ثباته ويقينه: **(يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ، أَكَلَتْهُمُ الحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ العَرَبِ؟ فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ؟! فَوَاللهِ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللهُ بِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ)**(١).

لقد أنصف رسولُ الله ﷺ بكلمته الجامعة هذه مخالفيه، لو كانوا يعقلون، كما أن هذه الكلمةَ أفصحت عن عزيمةِ النبيِّ ﷺ القوية التي لا تفتُرُ ـ مهما كانت الظروف ـ عن المضي قُدُمًا في الدعوة إلى الله تعالى، في الأمر الذي بدأ أولَ الأمر متواريًا، ثم أخذ يستعلن في الآفاق شامخًا قويًّا حتى أظهره الله على الدين كلِّه، مع كراهة المشركين لذلك؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

* فصاحبُ الدعوة عليه الصلاة والسلام له هدفٌ، وله منهج، وله طريق، وهو يمضي في طريقه على منهجه إلى هدفه المنشود مفتوحَ العينين، مفتوحَ القلب، يَقِظَ العقل، لا يرضَى بالوهم، ولا يعيش بالرُّؤى، ولا يقنع بالأحلام، حتى تصبحَ الدعوة إلى الله تعالى واقعًا في عالم الناس.

هكذا كان منهجُ رسولِ الله ﷺ واضحًا لا لَبْسَ فيه، ثابتًا عليه، مُصِرًّا على تطبيقه في واقع الناس؛ ولذا يجبُ أن تكونَ هذه القضايا واضحةً في حِسِّ الداعية إلى الله تعالى، فيعزم على الإصرار عليها، والثبات عليها، والسعي إلى تحقيقها في واقع الناس.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٠٩)، وعيون الأثر (٢/ ١١٤).

الفصل التاسع

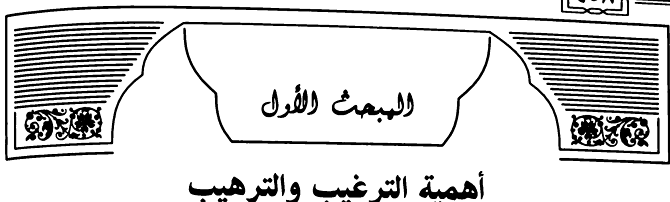
التربية بالترغيب والترهيب

* ويشمل ثلاثة مباحث:

○ المبحث الأول: أهمية الترغيب والترهيب.

○ المبحث الثاني: نماذج من الترغيب وأثره في نفوس الصحابة.

○ المبحث الثالث: نماذج من الترهيب وأثره في نفوس الصحابة.



المبحث الأول

أهمية الترغيب والترهيب

الوسائل والأساليب التي استخدمها الرسول ﷺ في تربيته لأصحابه رضوان الله عليهم كثيرةٌ ومتعددةٌ؛ ومنها أسلوب الترغيبِ والترهيب، وهو أسلوب له تأثيره ووقعه في نفوس كثيرٍ مِنَ البشر؛ وذلك لأن الله تعالى قد فَطَرَ النفس البشرية على حبِّ الخير والسلام، والرغبة في الحصول على كل محبوب، كما فطرها على كراهية الشرِّ والأذى، والرهبة مما يصيبُها مِنْ بلاء في النفس والأهل والمال.

ولأهمية أمر الترغيب والترهيب في التربية الإسلامية وأثرِهما في النفس الإنسانية، فإنَّ الله ﷻ قد جعل مِنْ مهمة نزول القرآن الكريم على رسوله ﷺ: الترغيب والترهيب، أو البشارة والإنذار، لِمَا لهما مِنْ أثر بالغ في تربية النفس والارتفاع بها عن مغريات الحياة وبَهْرَجِها[(١)].

من ذلك، قول الحق تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١، ٢].

فمن هذين الوترين المتقابلين المتجاورَيْن ـ الترغيب والترهيب ـ

---

(١) انظر: معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم (١/ ٥٤٦).

«يُمسك الإسلام بزمام النفس البشرية، فيَعِدُها ويُمَنِّيها، ويخوِّفها ويرَهِّبها، وفيما بين ذلك يغرس فيها كل البذور الصالحة التي يقصد إلى غرسها في قرارة النفوس.

فالقرآن يربط توجيهاتِه كلَّها، وأوامرَه ونواهيه بهذا الخطِّ أو ذاك، أو بهما مجتمعين، ويكرِّرُ ذلك تكرارًا حتى تتلازم في أعماق النفس، ويصبحَ هذا التلازُمُ قوةً شعورية ولاشعورية توجِّه إلى الخير، وتُبعد عن الشرِّ»[(١)].

فالترغيب والترهيب آيةٌ مِنْ آيات الله العظمى، لإزعاج النفوس الشِّرِّيرة عن مواطن المعاصي والرذائل مهما ولغت فيها، وجعل النفوس البارَّة الطاهرة أكثرَ استقامةً وصلاحًا، متى أُحسن استعماله، ووُضع في موضعه.

وقد جاء الكتاب والسُّنَّة بالترغيب؛ ليكون دافعًا للنفوس على العمل الصالح، وهي ترجو في الدار الآخرة ثواب الله الذي أعدَّه الله لعباده المتَّقين، لا ليكون أداةً للتفلُّت مِنَ التكاليف الشرعية، والوقوع بها في مدارج الاستباحة، طمَعًا في عفو الله تعالى ومغفرته.

ولذا جاء الترهيب بجانب الترغيب، لكي يتمَّ الاعتدالُ على صفحات النفوس، فيرسم لها صورةَ العقاب كما رسم لها صورة الثواب.

فيكون الترغيب والترهيب بهذا دواءً للنفوس، وداعيًا لها إلى الخير والفلاح، ويُذكِّرها بالثواب، ويُمَكِّنها مِنَ الرغبة في حصوله، وزاجرًا لها عن الشر والفسوق، ويذكِّرها بالعقاب، ويمكِّنها مِنَ الرهبة من وقوعه، لكن بميزان معتدل في كل ذلك، فلا يؤدي الترغيب إلى أن تطمع النفس في المغفرة إلى حدِّ الطمع والغرور الذي يستدرجُها في الإباحة والشرور، ولا يؤدي الترهيب إلى حدِّ اليأس والقُنوط الذي يجعلها تسترسل في الشهوات وارتكاب المنكرات[(٢)].

---

(١) منهج التربية الإسلامية (١/١٣٨).

(٢) انظر: قواعد التحديث (ص١٧٦ ـ ١٧٩).

وعلى هذا الأساس شرع الله الترغيب والترهيب في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ.

وذلك لأن غَرْسَ الخوف من عذاب الله تعالى وغضبه، وعقابه العاجل والآجل في نفوس المتربِّين مطلبٌ شرعيٌّ سامٍ، يحمل هذه النفوسَ على تقوى الله تعالى، فتفعلُ الطاعاتِ والقُرُباتِ طمَعًا في ثوابه ومرضاته، وتجتنبُ المعاصي والموبقات خوفًا مِنْ عقابه وعذابه.

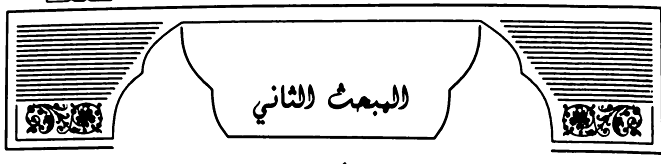
كما أن غرسَ الرجاء في نفوسهم، والترغيبَ فيما عند الله تعالى من الخير العميم الذي لا منتهى له مطلبٌ شرعيٌّ كذلك، حتى يبادرَ المكلَّفُ إلى المسارعة إلى فعل الخيرات والطاعات، والبعد عن المنكرات والمحرَّمات.

والنفس البشرية إنما تسعى في هذه الحياة الدنيا وتكدح لتدركَ النفع، وتدفع الضُّرَّ عنها، سواء في الدنيا أو في الآخرة.

فإذا تَرَبَّت هذه النفوسُ على الإيمان بأنه لا يدركها نفعٌ ولا ضُرٌّ عاجل أو آجلٌ، إلا بما كتبه الله تعالى لها، عندئذ تتجه القلوب إلى الله تعالى، ترجو ما عنده من الخير والفضل والنجاة مِنَ النار بطاعته وتنفيذ أمره، وتخاف ما عنده مِنَ الشرِّ المستطير والعذاب الأليم لِمَنْ خالف أمره وأعرض عن حُكمه.

ومِنْ هنا، فإن النبيَّ ﷺ قد أحيا باعثَ الخوف والرجاء في نفوس أصحابه بالترغيب والترهيب؛ لِمَا له مِنْ أثر عجيب في النفوس، ولِمَا له من نتائج محمودة عند الله ﷻ، كما هو واضحٌ في المبحثَيْن التاليين.

❁ ❁ ❁



نماذج من الترغيب وأثره في نفوس الصحابة

عن عمر بن الخطاب ﷺ، قال: قدم رسول الله ﷺ بسَبْيٍ، فإذا امرأةٌ مِنَ السَّبي تسعى، إذ وجدت صبيًّا في السَّبْي أخذته، فألزقته ببطنها، فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: **(أتَرَوْنَ هَذِهِ المَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟!)** قلنا: لا والله، فقال: **(للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا)**(١).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، فيما يحكي عن ربّه تبارك وتعالى، قال: **(أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ ربِّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ)**(٢).

فبيَّن النبي ﷺ لأصحابه أن باب التوبة مفتوح أمام العباد، وأن الله

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٧/ ٩٩)، رقم الحديث (٥٩٩٩).
ورواه مسلم في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (٤/ ٢١٠٩)، رقم الحديث (٢٧٥٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، (٨/ ٢٥١)، رقم الحديث (٥٧٠٧).
ورواه مسلم في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٤/ ٢١١٢)، رقم الحديث (٢٧٥٨).

تعالى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، متى رجعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه، وأقلعوا عما هم فيه من المعاصي والفسوق؛ لأن الله تعالى هو أرحم بعباده مِنَ الوالدة بولدها، بل إنّه سبحانه يفرح فرحًا شديدًا - يليق بجلاله - بتوبة عباده وإقبالهم إليه؛ كما أخبر بذلك نبي الله عليه الصلاة والسلام، حيث قال: (**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ إِذَا اسْتَيْقَظَ عَلَى بَعِيرِهِ، قَدْ أَضَلَّهُ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ**)(١).

فلا يأس ولا قُنوط مِنَ رحمة الله تعالى؛ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ففي هذه الآية الكريمة دعوة لجميع الناس إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى، والإقلاع عمَّا حرَّم الله تعالى، وإخبار بأن الله تعالى يغفر جميع الذنوب لمن تاب وأناب مهما كانت هذه الذنوبُ، وإن كثُرت وكانت مثلَ زَبَدِ البحر(٢).

هكذا ربَّى النبيُّ ﷺ أصحابَه على التعلُّق بالله تعالى، والطمع في مغفرته ورضوانه، بترغيبهم في رحمة الله تعالى ومغفرته، وفرحه بتوبة التائبين وأوبة الشاردين؛ مما جعل لهذا الأسلوب أثرًا كبيرًا في نفوسهم، فكان الواحد منهم إذا اقترف ذنبًا أو زَلِقَتْ قدمُه في خطيئة، فسرعان ما يُقلع عن ذلك الذنب، ويُسرع إلى طلب التطهير والتنظيف من رسول الله ﷺ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني عالجتُ امرأةً في أقصى المدينة، وإنِّي أصبتُ منها ما دون أن أمَسَّها(٣)، وأنا هذا، فاقضِ فيَّ ما شئتَ. فقال له عمر رضي الله عنه: لقد سترك الله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٤/٢١٠٢)، رقم الحديث (٢٦٧٥).

(٢) **انظر**: تفسير ابن كثير (٤/٥٨).

(٣) المراد بالمسِّ: الجماع، ومعناه: استمتعت بها، بالقبلة والمعانقة وغيرهما من جميع أنواع الاستمتاع إلا الجماع، من كلام الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في تعليقه على صحيح مسلم (٤/٢١١٦).

تعالى، لو سترت نفسك. قال: فلم يردَّ النبي ﷺ شيئًا، فقام الرجل، فانطلق، فأتبعه النبيُّ ﷺ رجلًا فدعاه، وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، فقال رجل من القوم: يا رسول الله، هذا له خاصةً؟ قال: (بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً)[1]، وفي رواية أبي أمامة[2]: فقال له ﷺ: (أَرَأَيْتَ حِينَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِك، أَلَيْسَ قَدْ تَوَضَّأْتَ فَأَحْسَنْتَ الوُضُوءَ؟!) قال: بلى يا رسول الله، قال: (ثُمَّ شَهِدتَّ الصَّلاةَ مَعَنا؟) قال: نعم يا رسول الله، قال: فقال له رسول الله ﷺ: (فَإِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ حَدَّكَ)، أو قال: (ذَنْبَكَ).

«وجملة ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مسوقةٌ مساقَ التعليم للأمر بإقامة الصلوات، وتأكيدُ الجملة بحرف «إنَّ» للاهتمام وتحقيق الخبر. و«إنّ» فيه مفيدةٌ معنى التعليل والتفريع، وهذا التعليل مُؤذِنٌ بأن الله جعل الحسنات يُذهبن السيئات، والتعليلُ مشعرٌ بعموم أصحاب الحسنات؛ لأن الشأن أن تكون العِلَّةُ أعمَّ مِنَ المعلول مع ما يقتضيه تعريفُ الجمع باللام من العموم... ومحمل السيئات هنا على السيئات الصغائر التي هي من اللَّمَم حملًا لمطلَق هذه الآية على مقيَّد آية: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، فيحصُل من مجموع الآيات أنَّ اجتناب الفواحش جعله الله سببًا لغُفران الصغائر، أو أن الإنسان بالحسنات يُذهِبُ أثرَ السيئات الصغائر»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (٢١١٦/٤)، رقم الحديث (٢٧٦٣).
ورواه البخاري موجزًا في كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ (٢٥٦/٥)، رقم الحديث (٤٦٨٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (٢١١٧/٤)، رقم الحديث (٢٧٦٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٨٠).

فالصلاة يمحو الله بها الخطايا إذا اجتُنبت الكبائر، لقوله ﷺ: **(الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إلى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إلى رَمَضَانَ: مُكفِّراتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ)**[١].

وهذا ماعزُ بن مالك رضي الله عنه يَضْعُفُ، فتسقُط به قدمه في الزنى فينهض بعد تعثُّره، وتستيقظ فِطرته، ويتذكَّر رحمة الله الواسعة، وأنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، كما ربَّاهم على ذلك رسولُ الله ﷺ، فيطرُد اليأس والقنوط من قلبه، وتقوى إرادتُه، فلا يستسلم لذلك الضعف الطارئ، وإنما يُقلع عنه، ويُسرع إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يطهِّره مما عَلِقَ به، فيقيم عليه النبي ﷺ حد الزنى، والمرأة الغامدية كذلك؛ وما دفعهما إلى ذلك إلا أمرٌ عظيمٌ قامٍ في قلبيهما رضي الله عنهما؛ ألا وهو الإيمان واليقين بعفو الله وغفرانه، والعلم بأنَّ عذاب الآخرة أشدُّ وأبقى، فعندئذ آثَرا أن يأخذا عقابهما في هذه الدنيا قبل الآخرة:

عن بريدة رضي الله عنه قال: جاء ماعزُ بن مالك رضي الله عنه إلى النبي ﷺ، فقال: «يا رسول الله طهِّرني، فقال: **(وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرْ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ)**، قال: فرجع غيرَ بعيدٍ، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهِّرني، فقال النبي ﷺ مثلَ ذلك، حتى إذا كانت الرابعةُ، قال رسول الله: **(مِمَّ أُطَهِّرُكَ؟)**، قال: من الزنى، فسأل رسولُ الله ﷺ: **(أَبِهِ جُنُونٌ؟)** فأُخبر رسولُ الله أنه ليس بمجنون، فقال: **(أَشَرِبَ خَمْرًا؟)** فقام رجل، فاستنكَهَه، فلم يجد ريحَ خمر، فقال: **(أَزَنَيْتَ؟)** قال: نعم، فأمر به فرُجم، فلبثوا يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسولُ الله ﷺ فقال: **(اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ، لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ)**..

ثم جاءته امرأةٌ مِنْ غامدٍ مِنَ الأزد، فقالت: يا رسول الله، طهِّرني، فقال: **(وَيْحَكِ، ارْجِعِي، فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ)**، فقالت: تريد أن تردِّني

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (١/ ٢٠٩)، رقم الحديث (٢٣٣).

كما رَددتَّ ماعزَ بنَ مالك؟ أنا حبلى من الزنى، فقال: (**أَنْتِ؟**) قالت: نعم، قال لها: (**حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ**)... فلمَّا فطمَتْه أتته بالصبي في يده كِسرةُ خبزٍ، فقالت: هذا يا نبيَّ الله، قد فطمتُه، وقد أكل الطعام. فدفع الصبيَّ إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها، فحُفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فيُقبل خالد بن الوليد بحجر، فرمى رأسها، فتَنَضَّحَ الدمُ على وجه خالد فسبَّها، فقال رسول الله ﷺ: (**مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ**[1] **لَغُفِرَ لَهُ**)، ثم أمر بها فصلَّى عليها ودُفنت»[2].

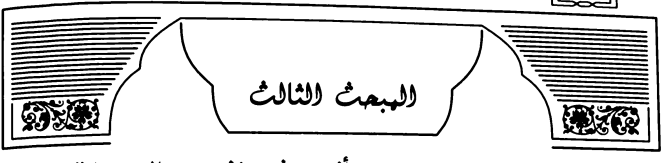
لقد كان صحابة رسول الله ﷺ «ناسًا مِنَ البشر، لا يملكون أن يتخلَّصوا مِنْ مشاعر البشر، وضَعْف البشر، وليس مطلوبًا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري، ولا أن يخرُجوا مِنْ إطار هذا الجنس، ويفقدوا خصائصَه ومميزاته، فلهذا خلقهم الله؛ خلقهم ليبقَوْا بشرًا، ولا يتحوَّلوا جنسًا آخر... كانوا ناسًا مِنَ البشر يفزعون، ويضعُفون بالشدة، ويُزَلْزَلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة، ولكنهم كانوا ـ مع هذا ـ مرتبطين بالعُروة الوثقى التي تشدُّهم إلى الله، وتمنعُهم مِنَ السُّقوط، وتُجَدِّدُ فيهم الأملَ، وتحرسُهم من القُنوط، وكانوا بهذا وذاك نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية لم يُعرفْ له نظير».

❁ ❁ ❁

---

(١) «مَكَسَ» في البيع من باب ضرب و«ماكَسَ مماكَسَة» و«مكاسًا» و«المكس» أيضًا: الجباية. و«المَكّاس» العَشّار؛ وهو الذي يأخذ العُشر من أموالهم.
انظر: مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي (ص٤٥٩).

(٢) رواه مسلم في كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى (٣/ ١٣٢٣)، رقم الحديث (١٦٩٥).



نماذج من الترهيب وأثره في نفوس الصحابة

عن أنس رضي الله عنه قال: بلغ رسولَ الله ﷺ عن أصحابه شيءٌ فخطب، فقال: (**عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَاليَوْمِ فِي الخَيْرِ والشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**)، فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشدُّ منه، غَطَّوْا رؤوسَهم ولهم خنين[(١)].

ففي هذا الحديث ترى أن النبيَّ ﷺ استعمل أسلوب الترهيب والتخويف في تربية أصحابه على الجِدِّ؛ حتى لا يرخُوا للنفس العَنان في كثرة الضحك والغفلة، وذلك عندما رأى حالَهم وهم يتحدَّثون ويضحكون، وكأنهم نَسُوا ذلك اليوم الآخر وما فيه مِنْ أهوال، فناسب أن يذكِّرَهم به، لكي لا يطولَ نسيانُهم وضحكُهم، فتقسُوَ بذلك قلوبُهم فلانت قلوبُ الصحابة بالإيمان الذي يحملونه، وأذعنت للنور الذي جاءهم به نبيُّهم ومربِّيهم عليه أفضلُ الصلاة والسلام، فكانت كلماتُه ﷺ كالسهام اخترقت قلوبَهم، فأثَّرت فيها التأثيرَ الإيجابي المفيد الذي جعلها تتذكر سريعًا، وتتأثر تأثيرًا بليغًا، مما جعل أنسًا رضي الله عنه يصف حالهم رضوان الله عليهم بقوله: «فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشدُّ منه، غطَّوْا رؤوسَهم ولهم خنينٌ»، فانقلب الضحكُ بكاءً، والغفلةُ تذكُّرًا، والفرحُ حزنًا.

يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى: «مَنْ علم أن الموتَ موردُه، والقيامةَ موعدُه، والوقوفُ بين يدي الله تعالى مشهدُه، فحقُّه أن يطولَ في

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ (٤/ ١٨٣٢)، رقم الحديث (٢٣٥٩).
ورواه البخاري في كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: (**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**) (٧/ ٢٣٨)، رقم الحديث (٦٤٨٥).

الدنيا حزنُه»[١].

وعن أبي مسعود الأنصاري، قال: كنت أضرب غلامًا لي. فسمعت من خلفي صوتًا: **(اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ)**؛ فالتفتُّ، فإذا هو رسول الله ﷺ. فقلت: يا رسول الله، هو حرٌّ لوجه الله، فقال: **(أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أو لَمَسَّتْكَ النَّارُ)**[٢].

ففي هذا الحديث يربِّي النبي ﷺ أصحابَه على الرحمة والرفق بالمملوك، وبكلِّ مَنْ ولّاهم الله تعالى عليهم، وكان تحت أيديهم، ونبَّههم على استعمال العفو وكظم الغيظ عنهم[٣]، وأن اللهَ أقدرُ عليهم منهم على هؤلاء المساكين، بأسلوب الترهيب والتخويف من عذاب الله تعالى.

فَأَثَّر هذا الموقفُ في نفس الصحابي الجليل أبي مسعود ﷺ، فألقى السوطَ من يده لَمَّا سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول له: اعلَمْ أبا مسعود أن الله أقدرُ عليك منك على هذا الغلام.

فتحرَّك قلبُه، وندم على خطيئته، وأقلع عن فِعْلته، وبادر إلى تكفير تلك الخطيئة التي كان سببُها تربيةَ مملوكه على خطأ اجترحه، فبادر بقوله ﷺ: هو حرٌّ لوجه الله تعالى يا رسول الله، فأجابه المربي الرحيم عليه الصلاة والسلام بقوله: **(أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ)**.



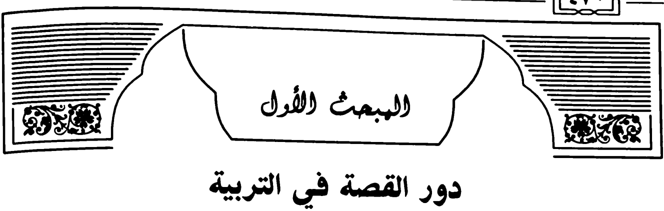
(١) فتح الباري (١١/ ٣٢٠).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان في باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (٣/ ١٢٨٠)، رقم الحديث (١٦٥٩) ورواه أحمد في مسنده (٤/ ١٢٠) وفيه أن أبا مسعود قال: فحلفت ألا أضرب مملوكًا أبدًا.
(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ١٣٠).

الفصل العاشر

التربية بالقصة

* وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: دور القصة في التربية.
- المبحث الثاني: نماذج من القصص النبوي الشريف.



المبحث الأول

دور القصة في التربية

من الوسائل التي استخدمها رسول الله ﷺ في تربية أصحابه رضوان الله عليهم القصةُ.

والقصةُ مِنْ أحبِّ الوسائل التصويرية إلى النفوس؛ لأنها تدخل إليها مباشرة فتؤثرُ فيها، وتشدُّ انتباه السامعين، وتشوِّقُهم إلى الاستماع والاستفادة منها؛ لأن القصة «تقوم على سرد الأحداث المجهولة، وتعتمد على العُقدة التي يتبعها الحلُّ، ومِنَ الحلِّ يخرج الحكم الذي يصل إلى القلوب تقريرًا أو استنتاجًا»(١)؛ ولذا فإن القصة تعدُّ مِنْ أقوى الوسائل التربوية جميعًا في التأثير والتأديب؛ «حيث تشترك كلُّ الاستعدادات والمدارك في متابعتها بيقَظَة تامة وحرص كبير على ألَّا يتفلَّتَ منها شيء، فتتشرَّبَ المعلومات بطريق مباشر أو غير مباشر، وتنسلَّ الأفكارُ إلى النفس بسرعة، وتتمكَّن من الأعماق بقوة»(٢).

فالقصة جذَّابة للنفس تستولي على المشاعر، فتعيش معها النفس بكل أحاسيسها، بشوق ولهفة بالغة؛ «لأن الكلماتِ قد تُنسى، ولكن الوقائع قلما تُنسى»(٣).

والقصة من الوسائل التي تُعين على ترسيخ الفكرة في عقول السامعين وقلوبهم، وهي أبلغُ من النُّصح المجرد؛ لأن «الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع، فإذا تخلَّلها مواطنُ العبرة في أخبار الماضين،

---

(١) المربي محمد ﷺ (ص١٠٩). (٢) السبق التربوي في فكر الشافعي (ص٣٧١).
(٣) ثقافة الداعية ليوسف القرضاوي (ص١٤١).

كان حبُّ الاستطلاع لمعرفتها مِنْ أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس... ومما لا شك فيه أن القصة المُحكمة الدقيقة تطرُق المسامع بشغَف، وتنفُذُ إلى النفس البشرية بسهولة ويُسر، وتسترسل مع سياقها المشاعر، فلا تَمَلُّ، ولا تكلُّ، ويرتاد العقل عناصرَها، فيجني مِنْ حقولها الأزاهيرَ والثمار، والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل، ولا تستطيع الناشئة أن تتابعها وتستوعب عناصرها إلا بصعوبة وشدة، وإلى أمدٍ قصير؛ ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعًا، وأكثرَ فائدةً، وهذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغي للمربِّين أن يفيدوا منها في مجالات التعليم»[(١)].

«والإسلام يدرك هذا المَيْل الفِطري إلى القصة، ويُدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب، فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم، وهو يستخدم كلَّ أنواع القصة: القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها، والقصة الواقعية التي تعرضُ نموذجًا لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين، أو بأيِّ شخص يتمثل فيه ذلك النموذج، والقصة التمثيلية التي لا تُمَثِّل واقعةً بذاتها، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة مِنَ اللحظات وفي أي عصر مِنَ العصور»[(٢)].

والقرآن والسُّنَّة يستخدمان «القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجها التربوي: تربية الروح، وتربية العقل، وتربية الجسم، والتوقيع على الخطوط المتقابلة في النفس، والتربية بالقدوة، والتربية بالموعظة»[(٣)].

وهكذا تجد أن القصةَ لها «تأثيرٌ كبير في نفوس الصغار والكبار، ولها القدرة على إثارة العواطف والانفعالات والإقناع الواقعي والعقلي والتوجيه نحو التفكير والتأمُّل؛ فالله ﷻ استعمل القصة في القرآن كثيرًا ليتعظ الناس منها، وليُثَبِّتَ الرسول ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا

---

(١) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص٣٠٥ - ٣١٠).
(٢) منهج التربية الإسلامية (١/ ١٩٣).
(٣) منهج التربية الإسلامية (١/ ١٩٤).

﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وهي كما أنها للعبرة تدعو إلى التفكُّر؛ قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]»[١].

والرسول ﷺ قد استعمل القَصص في تربية أصحابه وبنائهم؛ «والقصص النبوي يعتمد على حقائق ثابتة وقعت في غابر الزمن، وهي بعيدة عن الخُرافة والأساطير، وإنما هي قَصص تبعث في الصغار والكبار الثقة بهذا التاريخ، كما تُضفي على أرواحها الاندفاع والانطلاق، وتبني فيهم الشعور الإسلامي المتدفق الذي لا يجفُّ نبعُه، والإحساس العميق الذي لا يعرف البلادة»[٢].

وقد عرف السلف رضوان الله عليهم أهمية القصة ودورها في التربية والتهذيب والتعليم حتى ورد عن بعضهم قولُه: «الحكايات جند مِنْ جنود الله تعالى، يثبت بها قلوب أوليائه؛ وشاهده من كتاب الله تعالى قوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إليَّ من كثير مِنَ الفقه؛ لأنها آداب القوم»؛ وشاهده في كتاب الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]»[٣].

«وتكثُر القصص في التربية النبوية وتتنوع، وفي كل قصة حادثة وشخصيات وتشويق ونتيجة، أو حكمة تنفُذ إلى القلوب بعد أن تلهَّفت إليها، سواءٌ أجاءت هذه الحكمة موضَّحة مِنْ قبل الرسول عليه الصلاة والسلام، أم مستنتجة مِنْ قِبَلِ السامعين، وهذه القصص كلُّها ليست مقصودةً

---

(١) أصول الفكر التربوي في الإسلام د. عباس محمود (ص١٠٣).
(٢) التربية النبوية للطفل (ص٣٢٩) بتصرف يسير.
(٣) التربية النبوية للطفل (ص٣٢٩).

بذاتها، وإنما هي مرتبطة بغاياتها؛ لذلك لم يكن مِنَ الضَّروري ذكر الحوادث بتفصيلات حشوية لا حاجة إليها، بل قد تخرُج القصةُ إلى مجرد الحكاية البسيطة التي يتبعها التقرير للأحكام»(١).

ويتلخَّص دور القصة في الأمور التالية:

١ ـ أن الله تعالى جعل في الفطرة الإنسانية المَيْل إلى القصة، وجعل لها تأثيرًا قويًّا على القلوب.

٢ ـ أن القصة مِنْ أقوى وسائل التربية في التأثير والتأديب؛ لاشتراك جميع المدارك والاستعدادات عند السامع في متابعة أحداثها بيقَظة تامّة وحرصٍ كبير على ألا يفوتَه شيء مِنْ فُصولها، فتتشرَّب النفسُ عندئذ بالمعلومات التي تهدف إليها القصةُ، فتنسلُّ إلى النفس، وتُعطي ثمرتها التربوية السريعة في التأثر.

٣ ـ أن الإسلام استخدم كلَّ أنواع القصة في التربية والتقويم؛ وهي(٢):

أ ـ القصة التاريخية الواقعية، والتي تكون مقصودةً بأماكنها وأشخاصها وحوادثها.

وهذا النوع يتمثَّل في جميع قصص الأنبياء، وقصص المكذِّبين بالرسالات، وما أصابهم من جزاء بسبب هذا التكذيب والإعراض عن دين الله.

ففي هذه القصَص يذكر الله أسماء أشخاصها، وأماكن وقوعها وأحداثها بالتحديد؛ مثل: موسى وفرعون، عيسى وبني إسرائيل، صالح وثمود، هود وعاد، شعيب ومدين، لوط وقريته، نوح وقومه، إبراهيم وإسماعيل.

ب ـ القصة الواقعية التي تعرض نموذجًا لحالة بشرية يستوي فيها أنْ

---

(١) المربي محمد ﷺ (ص١١٣).
(٢) انظر: منهج التربية الإسلامية (١/ ١٩٣، ١٩٤).

تكون بأشخاصها الواقعيين، أو بأي شخص يتمثَّل فيه هذا النموذج؛ ومثال هذا النوع قصة ابنَي آدم:

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٠].

جـ ـ القصة التمثيلية التي لا تمثِّلُ واقعةً بذاتها، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة من اللحظات، وفي أي عصر من العصور؛ ومثالها: قصة صاحب الجنَّتين:

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤٣].

٤ ـ أن الإسلام استخدم أنواع القصة كلّها، لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي: في التربية الإيمانية، والتربية العقلية،

والتربية الجسمية، وكذلك التوقيع على الخطوط المتقابلة في النفس البشرية، وفي التربية بالقدوة، والتربية بالموعظة.

٥ ـ القصة في الإسلام لها أهداف تربوية كثيرة؛ منها:

أ ـ تثبيتُ فؤاد النبي ﷺ، وتثبيتُ قلوب المؤمنين.

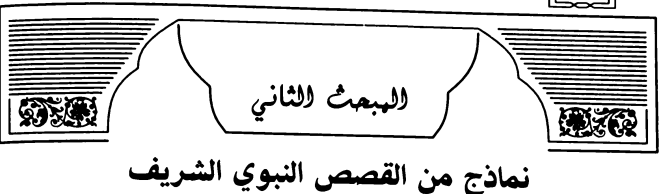
ب ـ الاتّعاظ وأخذ العبرة من قصص السابقين في اتخاذ أسباب النجاة والفوز والنصر، والابتعاد عن أسباب الهلاك والخذلان.

جـ ـ التفكُّر والتأمُّل في آيات الله تعالى، وأن الأيامَ دولٌ بين الناس، ومعرفة سنن الله تعالى الجارية، وخاصة فيما يتعلق بالصراع بين الحق والباطل، وأن هذا الصراع قديمٌ وباق إلى أن تقوم الساعة؛ لأنه سُنَّةٌ ثابتة من سُنن الله تعالى في الحياة الدنيا، فتؤدي معرفة ذلك إلى الحرص الشديد على الثبات على دين الله.

د ـ تُنَمِّي القصةُ في السامع مَلَكَةَ الاستنتاج والتحليل والربط بين الأحداث، والتخيُّل، وتوقُّع النتائج.

وسأتناول في المبحث الثاني بعض القصص التي قصها رسول الله ﷺ على أصحابه تربيةً لهم على ما ينفعهم، وترغيبًا في الخير، وتحذيرًا من الوقوع في ضده.





المبحث الثاني

نماذج من القصص النبوي الشريف

* وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: قصة في الابتلاء والتضحية في سبيل الله تعالى وأثرها في الدعوة.
- المطلب الثاني: قصة في التجرد والإخلاص.
- المطلب الثالث: قصة في الورع والقناعة.



المطلب الأول

قصة في الابتلاء والتضحية في سبيل الله وأثرها في الدعوة

عن صهيب ﵁؛ أن رسول الله ﷺ قال:

(كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ. فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ؛ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ. فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ، إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ، فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ

فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ، فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ[1] وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ. فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ، فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ[2]، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ،

---

(١) الأكمه: الذي يولد أعمى. انظر: لسان العرب (١٣/ ٥٣٦).

(٢) مهموز في رواية الأكثرين، ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياءً، وروي: «المنشار» بالنون، وهما لغتان صحيحتان. من كلام الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي. انظر: صحيح مسلم بتحقيقه (٤/ ٢٣٠٠).

فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ[١]، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ. ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ، فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ[٢]. قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ[٣] فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ[٤] فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ، فَأَحْمُوهُ فِيهَا[٥]، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ[٦] أَنْ تَقَعَ فِيهَا،

---

(١) القرقور: السفينة الصغيرة، وقيل: الكبيرة. صحيح مسلم الهامش (٤/ ٢٣٠٠).

(٢) أي: ما كنت تحذر وتخاف. هامش صحيح مسلم (٤/ ٢٣٠١).

(٣) الأخدود: هو الشق العظيم في الأرض، وجمعه أخاديد. المرجع السابق (٤/ ٢٣٠١).

(٤) أفواه السكك: أي: أبواب الطرق. المرجع السابق (٤/ ٢٣٠١).

(٥) «فأحموه فيها: كذلك في عامة النسخ: فأحموه، بهمزة قطع بعدها حاء ساكنة. ونقل القاضي اتفاقَ النسخ على هذا. ووقع في بعض نسخ بلادنا: «فأقحموه»، بالقاف. وهذا ظاهر، ومعناه: اطرحوه فيها كرهًا. ومعنى الرواية الأولى: ارموه فيها. من قولهم: أحميتُ الحديدةَ وغيرها، إذا أدخلتها النار لتحمى».

انتهى من كلام الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، انظر: صحيح مسلم (٤/ ٢٣٠١).

(٦) فتقاعست: أي: توقفت ولزمت موضعَها، وكرهت الدخول في النار. انظر: صحيح مسلم (٤/ ٢٣٠١).

فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ[١].

هذه القصة قصة تاريخية واقعية مقصودةٌ بأماكنها وأشخاصها وحوادثها، ولا يمكن أن تُكَرَّر بنفس الصورة، وبنفس الأشخاص، وفي نفس المكان، وبنفس الأحداث، وإنما الذي يتكرَّر دائمًا مِنْ هذه القصة الصراعُ بين الحق والباطل، والابتلاء للمؤمنين، فالصراع قديمٌ، وهو مِنْ سُنن الله الجارية في هذه الحياة الدنيا إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

والقصة هذه حديثٌ مِنَ الواقع، وقصة مِنَ الحياة، قد مرَّت بأحداثها وأشخاصها وأماكنها في تاريخ بعض الأمم السابقة[٢].

وهي مليئة بالعبر والعظات، وغنيَّة بالأهداف العظيمة التي تَبني النفوس المؤمنة، وترسُم الطريقَ للدُّعاة إلى الله تعالى، وتُجلِّيه لهم تجليةً واضحةً لا غَبَشَ فيها ولا غُموضَ مِنْ أول الطريق إلى نهايته، وتقرِّر لهم أن النصر والمستقبل لهذا الدين، وأن التمكين لأتباعه الذابِّين عنه، والمحافظين على حُرُماته ومبادئه مِنْ عبث العابثين، وتسلُّط الطغاة الظالمين، الذين لم يألوا جهدًا في تحريف الكَلِم عن مواضعه، واغتصابهم لحقوقٍ ليست مِنْ حقوقهم، وإنما هي حقٌّ خالصٌ لله تعالى، كادِّعاء الربوبية على الناس[٣]، والتشريع لهم من دون الله تعالى، فيُحِلُّون ما حرَّم، ويحَرِّمون ما أحلَّ الله، ويحكُمون في أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم بما لم يأذَنْ به الله تعالى.

وعندئذ سيقع الصراع بين الفريقين: فريق الهُدى والرشاد، وفريق الضَّلالة والعناد، وسيَبتلي الله تعالى كلَّ فريق بالآخر، فيمحَقُ الله أهلَ الضلال والعِناد، ويُمَحِّصُ أهلَ الهداية والرشاد؛ قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد: ٣١]، ثم تكون النهاية النُّصرة والتمكين

---

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٤/٢٢٩)، رقم الحديث (٣٠٠٥).

(٢) ويؤرخونها بعام (٥٢٤) من التاريخ النصراني. انظر: محاسن التأويل (١٧/٦١١٦).

(٣) كفرعون عليه لعنة الله؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ومثل الملك في هذه القصة وقوله لمن آمن: «أولك ربٌّ غيري».

للذين نجحوا في الابتلاء، وهم حزب الله تعالى، والهلاك والتشريد للراسبين في الابتلاء، وهم حزب الشيطان الرجيم، عليهم مِنَ الله ما يستحقون.

وهذه القصة قد ذكرها الله تعالى في كتابه مجملةً في سورة البروج، وقصَّها رسولُ الله ﷺ على أصحابه بالتفصيل؛ وسيلةً مِنْ وسائل تربيته ﷺ لهم وبناء نفوسهم، ورَبْط قلوبهم على الصبر والثبات عند البلاء، والتمسُّك بدينهم وعقيدتهم، والتضحية في سبيل ذلك بكلِّ غالٍ ورخيص، وعلَّمهم ﷺ كذلك أن الابتلاءَ ضريبةُ الإيمان، ولازِمٌ مِنْ لوازم الدعوة إلى الله تعالى لأصحاب الدعوات والرسالات؛ وذلك لأن «الإيمان ليس كلمةً تُقال، إنما هو حقيقةٌ ذاتُ تكاليفَ، وأمانةٌ ذاتُ أعباءٍ، وجهادٌ يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال؛ فلا يكفي أن يقول الناس: آمنَّا، وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرَّضوا للفتنة، فيثبُتوا عليها، ويخرجوا منها صافيةً عناصرُهم، خالصةً قلوبُهم، كما تَفْتِنُ النارُ الذهبَ لتفصِل بينه وبين العناصر الرَّخيصة العالقة به ـ وهذا هو أصل الكلمة اللغوي، وله دلالته وظِلُّه وإيحاؤه ـ وكذلك تصنعُ الفتنةُ بالقلوب؛ هذه الفتنة على الإيمان أصلٌ ثابتٌ، وسنَّةٌ جارية في ميزان الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، والله يعلم حقيقةَ القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوفٌ لعلم الله، مُغيَّبٌ عن علم البشر، فيحاسب الناسَ إذن على ما يقع مِنْ عملهم، لا على مجرَّد ما يعلمُه سبحانه مِنْ أمرهم، وهو فضلٌ مِنَ الله من جانب، وعدلٌ مِنْ جانب، وتربيةٌ للناس مِنْ جانب؛ فلا يأخذون أحدًا إلا بما استعلَن مِنْ أمره، وبما حقَّقه فعلُه، فليسوا بأعلمَ مِنَ الله بحقيقة قلبه.

ونعود إلى سنَّة الله في ابتلاء الذين يُؤمنون، وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين، إن الإيمان أمانةُ الله في الأرض، لا يحمِلُها إلا مَنْ هم لها أهلٌ، وفيهم على حملها قدرةٌ، وفي قلوبهم تجرُّدٌ لها وإخلاص، وإلا الذين يُؤْثِرونها على الراحة والدَّعَة، وعلى الأمن والسلام، وعلى المتاع والإغراء. وإنها لأمانةُ الخِلافة في الأرض، وقيادةُ

الناس إلى طريق الله، وتحقيق كلمتِه في عالم الحياة، فهي أمانةٌ كريمةٌ، وهي أمانة ثقيلة، وهي مِنْ أمر الله يضطلع بها الناسُ، ومِنْ ثم تحتاج إلى طراز خاصٍّ يصبر على الابتلاء.

ومن الفتنة أن يتعرَّض المؤمنُ للأذى مِنَ الباطل وأهله، ثم لا يجدُ النصيرَ الذي يسانده ويدفع عنه، ولا يملك النُّصرةَ لنفسه ولا المَنَعَةَ، ولا يجد القوةَ التي يواجه بها الطغيان»[1].

والله ﷻ حينما يبتلي المؤمنين والمؤمنات لا يريد تعذيبَهم والمشقَّة عليهم، ولا أن يؤذِيَهم بذلك، فحاشاه سبحانه، فهو أرحم الراحمين؛ كما قال عن نفسه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]، ولكن يريد ﷻ أن يُعِدَّ عبادَه المؤمنين إعدادًا حقيقيًا لكي يحمِلُوا أمانةَ التكليف؛ وهي: التمسُّك بدين الله تعالى، والدعوة إليه، والصبر في سبيل تحقيقه، وهذه الأمانةُ تحتاج إلى إعدادٍ خاصٍّ لا يمكن أن يتمَّ إلا بالمعاناة العملية للمشاقِّ، وبالاستعلاء الحقيقيِّ على جميع الشهوات، وبالصبر الحقيقي على الآلام والمشاقِّ والمتاعب، ثم بالثقة المبنيَّة على اليقين في نصر الله وثوابه، مهما طالت الفتنة، واشتد البلاء.

و«النفس تصهرها الشدائدُ، فتنفي عنها الخَبَثَ، وتستجيش كاملَ قُواها المذخورةَ، فتستيقظ وتتجمَّع، وتطرُقها بعنف وشدة، فيشتدُّ عُودها، ويصلُب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبُها عودًا، وأقواها طبيعةً، وأشدُّها اتصالًا بالله، وثقةً فيما عنده مِنَ الحُسنيَيْن: النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يتسلَّمون الرايةَ في النهاية، مؤتمَنِين عليها بعد الاستعداد والاختبار، وإنهم ليتسلَّمون الأمانةَ وهي عزيزةٌ على نفوسهم بما أدَّوْا لها مِن غالي الثمن، وبما بذلوا لها مِنَ الصبر على المِحَن، وبما ذاقوا في سبيلها مِنَ الآلام والتضحيات، والذي يبذُل مِنْ دمه

(١) طريق الدعوة (١/ ٢٢٣).

وأعصابه، ومِنْ راحته واطمئنانه، ومِنْ رغائبه ولَذَّاته، ثم يصبر على الأذى والحرمان، يشعر ـ ولا شك ـ بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل، فلا يُسلمها رخيصةً بعد كل هذه التضحيات والآلام.

فأما انتصار الإيمان والحق في النهاية، فأمرٌ تكفَّل به وعد الله، وما يشكُّ مؤمنٌ في وعد الله، فإنْ أبطأ فلِحكمةٍ مقدَّرة، فيها الخيرُ للإيمان وأهله، وليس أحدٌ أغيرَ على الحقِّ وأهلِه مِنَ الله، وحَسْبُ المؤمنين الذين تصيبهم الفتنةُ، ويقع عليهم البلاء، أن يكونوا هم المختارين مِنَ الله، ليكونوا أمناءَ على حقِّ الله، وأن يشهدَ الله لهم بأنَّ في دينهم صلابةً، فهو يختارهم للابتلاء. جاء في الصحيح قوله ﷺ: (**أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ، فالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ لَهُ فِي البَلَاءِ**)[1].

وأما الذين يَفتِنون المؤمنينَ، ويعملون السيئات، فما هم بمُفلِتين من عذاب الله ولا ناجين[2]، مهما انتفخ باطلُهم وانتفش، وبدا عليه الانتصار والفلاح؛ وَعْدُ الله كذلك وسُنَّتُه في نهاية المطاف: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، فلا يحسَبَنَّ مُفسِدٌ أنه مُفلتٌ، ولا سابقٌ، ومن يحسِبْ هذا، فقد ساءَ حُكمُه، وفسَدَ تقديرُه، واختلَّ تصوُّرُه؛ فإن الله الذي جعل الابتلاءَ سُنةً ليمتحنَ إيمانَ المؤمن، ويميِّزَ بين الصادقين والكاذبين، هو الذي جعل أخذَ المسيئين سُنةً لا تتبدَّل، ولا تتخلَّف ولا تحيدُ»[3].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، ورواه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (٢/ ١٣٤، ٣/ ٤٠٢٣)، ورواه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٤/ ٦٠١، ٦٠٢).

(٢) إلا أن يتوبوا إلى الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

(٣) طريق الدعوة (١/ ٢٢٤).

وهذه القضايا والأحكام المقرَّرة فيما سبق لم تأتِ بالنص في القصة، ولم يقرِّرْها رسولُ الله ﷺ لأصحابه بكلام مستقلٍّ منفرد، وإنما جعل ذلك للسامع يستنتجُها بنفسه، ثم يصلُ إليها بتفكيره وتأمُّله؛ وذلك لأن السامع بعد سماعه لهذه القصة ستذهب نفسُه إلى استنتاج الهدف الذي سَرَدَ رسولُ الله ﷺ القصةَ مِنْ أجله، فيرسخ الهدف عندئذ في النفس، ويعطي التأثيرَ المطلوب فيها؛ «لأنه مرتبط بحوادثَ وتطوراتٍ اكتسبت لباس الإثارة، واتَّسمت بسِمَةِ التشويق، فكان الاقترانُ سبيلًا لقوة التأثير، والانغراس في الذات انغراسًا أكيدًا وعميقًا»[١].

وهناك مواقف في القصة قد أثارت السامعين؛ منها:

الموقف الأول: خروج دابَّةٍ عظيمةٍ قطعت الطريق على الناس، وألجأتهم إلى التوقُّف عن السير، فلم يستطيعوا حِيلةً في إبعادها عن الطريق، فاستسلموا للأمر الواقع.

هنا استغل الغلامُ المؤمنُ هذا الموقفَ الرهيبَ، فتقدم إلى جهة الدابة على مسمع ومرأى الناس من حوله، وقال: اليومَ أعلمُ الساحرُ أفضلُ أم الراهبُ أفضل؟ فأخذ حجرًا، فقال: اللهمَّ إن كان أمرُ الراهبِ أحبَّ إليك من أمر الساحر، فاقتُلْ هذه الدابة حتى يمضيَ الناس.

فهنا يتلهَّف السامعون ويتشوَّقون لمعرفة أيِّ الرجلين على الحقِّ والهُدى، فلمَّا سمعوا أن الدابة قد قتلت، فعندئذ تُوقِنُ قلوبُهم، ويرسخ في أذهانهم أن طريقةَ الراهبِ المبنيَّة على الإيمان الصحيح هي الطريقة السليمة، وأن الراهب أفضل من الساحر، ويكبُر في نفوسهم قدر الغلام.

والموقف الثاني: يتجلَّى في محاولات الملك المتعدِّدة لقتل الغلام، فمرةً يحاول طرحَه مِنْ أعلى جبل في المدينة، ومرة يحاول إغراقَه في البحر، فتبوء تلك المحاولات بالإخفاق، فيعطيه الغلامُ المؤمنُ الحلَّ لهذه

(١) المربي محمد ﷺ (ص١١١).

المشكلة التي قد أعجزته، فيقول الغلام للملك: «إنك لست بقاتلي» فالطريق مسدودٌ أمام ما تشتهي أيها الملكُ، والجدار محكَمْ، لا يمكنك اقتحامُه، وجميع الأبواب مغلقة في وجهك، إلا بابًا واحدًا فقط، يمكنك عن طريقه أن تقضِيَ نهَمَك، فتقتلَني منه، فيتشوَّقُ السامعُ إلى معرفته، وتتطلَّع العيون إلى رؤيته، فيقول الغلام للملك: تجمع الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتصلُبُني على جِذْعٍ، ثم خذ سهمًا مِنْ كِنانتي، ثم ضَعِ السَّهمَ في كبد القوس، ثم قل: باسمِ الله ربِّ الغلام، ثم ارمِنِي، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتَني. ففعل الملك ذلك، فمات الغلام. فقال الناس: آمنا بربِّ الغلام، آمنا بربِّ الغلام، آمنا بربِّ الغلام(١).

فهنا ظهرت للناس حجةُ الغلام وصِدقُه، ودعوى الملك وكَذِبه، وزيف ما يدّعيه مِنَ الإلهية لنفسه، وذلك عندما بان عجزُه عن التأثير في الغلام حتى استعان على قتله «باسم الله تعالى»؛ ولذا اتَّجهت فِطَرُ الناس وقلوبُهم إلى الرب الحقيقي، وهو ربُّ العالمين، وصَدَق الله ﷻ حيث قال: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وتبرز من هذه القصة عدة قضايا هي:

الأولى: اليقين الجازم بأن الله واحدٌ لا شريكَ له، ولا ربَّ غيرُه، ولا معبودَ بحقٍّ سواه، وأنه ﷻ صاحبُ الخَلْق والأمر، وأنه هو المتصرِّف في جميع الكون بما فيه ومَنْ فيه؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥١، ٥٢]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢].

الثانية: اليقين الجازم بأنه لا نَفْعَ ولا ضَرَّ إلا بأمر الله تعالى فقط لا غير؛ قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ

(١) انظر: المربي محمد ﷺ (ص١١٢، ١١٣).

أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال عليه الصلاة والسلام في وصيَّة لابن عمّه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: **(وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)**(١).

الثالثة: اليقين الجازم بأن السِّحرَ كفرٌ بالله تعالى، وأن السحر لا يثبُت أمام الحقائق، وأن الساحر لن يُفلِحَ أينما جاء وحيثما أتى؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]؛ وقال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الرابعة: اليقين الجازم بأن النصر مع الصبر، وأنه لا بد من الابتلاء والأذى في سبيل نصرة دين الله تعالى؛ ولهذا فلا بد من الصبر على البلاء، والثبات على طريق الحق في سبيل نصرة دين الله والنجاة يوم الدين؛ قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

الخامسة: أن المسلمَ الحقَّ لا بد أن يتحرك لإسلامه ودينه، ويشعر أن عليه مسؤوليةَ الدعوة إلى الله تعالى، وإنقاذَ الناس مِنْ عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، والسعي لتحقيق: تلك الغاية ما استطاع إلى ذلك سبيلًا بالجهد والنفس والمال، والوقت، وخاصة في المجتمعات التي كثُر فيها

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٩/ ٣١٩)، وقال: «حديث حسن صحيح».

الفساد والانحلال، وانتشرت فيها الفواحش والمُوبِقات، واندرست فيها كثيرٌ مِنْ معالم دين الله الحنيف، واختلَّت فيها كثيرٌ مِنْ مفاهيم الإسلام.

ثم ليعلم إذا بذل جهده في الدعوة إلى الله تعالى: أن النتيجةَ ليست بيده، وإنما عليه بَذْلُ الوسيلة والطاقة حتى يحقِّقَ الله سبحانه النتيجةَ على يد الجيل الذي يختاره ﷻ ويعلم أنه أهلٌ لذلك؛ لأن النصرَ من عند الله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

هكذا كان بَطَلُ هذه القصة، وهو ذلك الغلام المؤمن الذي استشعر أن عليه عِبْءَ الدعوة إلى الله تعالى، فبدأ التعلُّم على يد الراهب المؤمن، ثم بدأ بعون الله تعالى بعد أن هداه الله تعالى لمعرفة الحقِّ والصواب، فأخذ يحاول إنقاذَ الناس مِنَ الشرك الذي هم فيه، وحاول بكلِّ الوسائل أن يخرجهم من عبادة الملك إلى عبادة الله الواحد القهار، وأخذ كل الضوابط الشرعية من الحذَر والحَيْطة، ودراسة الواقع مِنْ حوله ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فاستطاع ـ بتوفيق الله تعالى ـ أن يُخرِجَ بعضَ الناس الذين استجابوا له من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد سبحانه، في حياته، ثم تمكَّنَ ثانيةً بتوفيق الله تعالى له أن يخرج كثيرًا مِنَ الناس مِنَ الشرك إلى التوحيد، ومِنَ الضلال إلى الهدى، وبعد موته؛ بسبب ثباته على الحقِّ الذي آمن به واعتنقه، وقدَّم نفسَه رخيصةً في سبيله، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧].

السادسة: أن موقفَ الراهب وجليسِ الملك والغلامِ وبقيةِ الذين آمنوا من تهديد الطاغية المتجبِّر، وثباتَهم على الإيمان، وعدمَ التراجعُ عنه، ليُمَثِّلُ أروعَ صورة مِنْ صُور النصر؛ لأن العدوَّ سيموت كَمَدًا وحسرةً وقهرًا حين تعجِز كلُّ وسائله التي يملكها أن تَثنِيَ أهلَ الإيمان واليقين عن إيمانهم ويقينهم؛ وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١١٩].

المطلب الثاني

قصة في التجرد والإخلاص

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ نَفرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ المَبِيتُ إلى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا: إنَّه لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إلَّا أَنْ تَدعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ.**

قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، كُنْتُ لَا أَغْبُقُ[1] **قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَأَنْ أَغْبُقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ ـ وَالقَدَحُ عَلَى يَدِي ـ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرِقَ الفَجْرُ، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ**[2] **عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ؛ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهُ.**

قَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، ـ وفي رواية: **كُنْتُ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ ـ فَأَرَدْتُها عَلَى نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ**[3]**، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِئَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا** ـ وفي رواية: **فَلَمَّا قَعَدتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا ـ قَالَت: اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إلا**

---

(١) أي: ما كنت أقدِّمُ عليهما أحدًا في شُرب نصيبِهما مِنَ اللبن الذي يشربانه. لسان العرب (١٠/ ٢٨٢).

(٢) أي: يصيحون ويضِجُّون مِنَ الجوع. انظر: لسان العرب (١٤/ ٤٨٥).

(٣) الجدب والقحط، والمعنى: أنها وقعت في سنة جدب وقحط، فاحتاجت إلى المال. انظر: الفائق في غريب الحديث للزمخشري (٢/ ٢٠٢).

بِحَقِّهِ، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ؛ فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا.

وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، وَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ، حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ، أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ والغَنَمِ والرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَسْتَهْزِئْ بي، فَقُلْتُ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ؛ فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ)(١).

فهذه القصة قصةٌ واقعيةٌ، تعرض نموذجًا لحالةٍ بشريةٍ، يستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيِّين، أو بأيِّ شخصٍ تمثَّلَ فيه ذلك النموذج.

والقصة هذه حديث من الواقع، وقصة من حياة نفرٍ مِنَ البشر مِنَ الأمم السابقة، وهي مليئةٌ بالعبر والعِظات، وغنيةٌ بالأهداف العظيمة التي تبني النفوسَ المؤمنةَ على الإخلاص ومراقبة الله تعالى في السِّرِّ والعلن، وتُقرِّر للسامع أن العمل المتقبَّل عند الله تعالى هو الذي يشتمل على أصلين عظيمين هما:

الأول: أن يكون العمل مِمَّا شَرَعَه الله تعالى؛ فالله هو المعبود بحقٍّ ولا يقبل سبحانه عبادةً مِنْ أحدٍ إلا بما شرعه سبحانه؛ قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك أجره (٣/ ٦٩)، رقم الحديث (٢٢٧٢).

ورواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (٤/ ٢٠٩٩)، رقم الحديث (٢٧٤٣).

الثاني: إخلاصُ النية لله تعالى في تقديم تلك الأعمال المشروعة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذه القصة قصَّها رسولُ الله ﷺ على أصحابه رضوانُ الله عليهم، وأخبرهم بما وقع لأحوال أولئك النَّفر الثلاثة بالتفصيل وسيلةً مِنْ وسائل تربيته ﷺ في بناء نفوسهم، وتزكية قلوبهم بالإخلاص لله تعالى في جميع شؤونهم، وأنهم تقرَّبوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم في ساعة الشدة والضِّيق، بعد أن اتَّخذوا الأسبابَ التي تُخلِّصهم مِمَّا نزل بهم، فلم تنفَعْهم تلك الأسباب والمحاولات البشرية، وأخفقت أمامهم الحِيَلُ، وظنُّوا أنْ لا ملجأ لهم ولا مُنقِذَ إلا اللهُ تعالى؛ وذلك لِمَا في قلوبهم مِنَ يقين عظيم بربهم سبحانه، وأنه هو الذي بيده خلاصُهم ونجاتُهم، وأنه هو الذي يرفع الضُّرَّ عن عباده، ويكشف السوء؛ عندئذ لجؤوا إلى التضرُّع إليه سبحانه بالدعاء، وطلبوا منه أن يفرِّج عنهم كُربتَهم، ويزيلَ عنهم غمَّهم، ويجعل لهم مِنْ ضيقهم مخرجًا، فأخذ كلٌّ منهم يتوسل إلى الله تعالى بأصلح أعماله التي تجرَّد فيها له سبحانه، وأخلَصَ له النية.

ومِنْ تواضعهم وتجرُّدهم: أنْ أحالَ كلَّ واحدٍ منهم أمرَ إخلاصه وتجرُّده لعلم الله تعالى، فقال كلٌّ منهم بعد دعائه: «اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك»، وفي بعض الروايات: «اللهم إن كنتَ تعلمُ أني فعلت ذلك مِنْ خشيتك»[(١)].

والناظر في هذه القصة يرى أن الأعمال التي قام بها أولئك النفرُ الثلاثة مِنْ فقه المعاملات، وليست مِنَ الشعائر التعبُّدية التي شرعها الله تعالى لعباده؛ كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والعمرة، والذكر،

---

(١) كما في رواية الإمام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء في باب حديث الغار (٤/١٧٧)، رقم الحديث (٣٤٦٥).

ونحو ذلك؛ فهل هناك فرقٌ في منهج الله تعالى بين «فقه العبادات» و«فقه المعاملات»؟

إن مفهوم العبادة قد اختلَّ في أذهان وتصوُّر كثيرٍ مِنَ المسلمين اليوم، وانحسر في حِسِّهم في نطاق الشعائر التعبُّدية وحدَها، بحيث تكون اللحظاتُ التي يقومون فيها بأداءِ الشعائر التعبُّدية هي لحظاتِ العبادةِ فقط، دون بقية الأعمال الأخرى[١].

ولكن الأمر يختلف تمامًا في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، فإن الناظر في مجموع نصوصهما يجد أن مدلول العبادة فيهما شاملٌ، لا يقتصر على الفرائض فحسب، بل إن الحياة في منهج الله تعالى بكلِّ ما فيها لله تعالى.

والإسلام يجمع دائمًا بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، وبين العقيدة والعبادة والمعاملات، ويجعل كلَّ حركةٍ في حياة المؤمن وثيقةَ الصلة بعقيدته يتوجَّه بها إلى الله تعالى، ويُنَفِّذُ فيها حُكْمَه وأمرَه سبحانه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] .

فالعبادة التي كلَّفَ اللهُ بها الإنسانَ ـ كما هو واضح من الآية الكريمة ـ تشمل الصلاةَ وبقية الشعائر التعبُّدية، وتشمل معها كذلك كلَّ الحياة، بل الموتَ أيضًا، وأقلُّ شيء فيه أن يموت الإنسان على التوحيد بعيدًا عن الشرك بالله.

وعلى هذا المفهوم الواضح ربَّى النبي ﷺ أصحابَه، فكانوا يقومون ـ رضوان الله عليهم ـ بعبادة ربِّهم، وهم يمارسون الحياة في مختلف

---

(١) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب (ص١٧٥ ـ ١٧٩).
ويعني بفقه المعاملات: السلوك العملي في علاقة الإنسان مع غيره، لا المعنى الاصطلاحي عند الفقهاء.

مجالاتها، وكانت عبادتُهم الكبرى هي العملَ في كل مجالات الحياة وَفْقَ ما شرع الله تعالى[(١)]؛ ومِنْ ثَمَّ لم يُنقلْ عن أحدٍ منهم ـ رضوانُ الله عليهم ـ مِمّن سمع هذه القصة استغرابُه ومعارضتُه بأنَّ هذه الأعمال التي قام بها أولئك النفر الثلاثة ليست مِنَ العبادة؛ لأنهم تربَّوْا على أن الحياة كلَّها عبادةٌ لله تعالى، «وأن الشعائر إنما هي لحظاتٌ مركَّزة يتزوَّدُ الإنسانُ فيها بالطاقة الروحية التي تعينه على أداء بقية العبادة المطلوبة منه؛ ولذلك كانوا يحتفلون بها احتفالًا خاصًا، كما يحتفل المسافر بالزاد الذي يعينه على الطريق، وباللحظة التي يحصل فيها على الزاد»[(٢)].

وهكذا فَهِمَ سلف هذه الأمة أن العبادةَ تشمل الحياةَ كلَّها، وقرَّر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «أن العبادةَ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[(٣)].

بل زاد الأمرَ وضوحًا ببيان أنواع العبادات بقوله رحمه الله تعالى: «فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصِدْقُ الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك مِنَ الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة»[(٤)].

وعَدَّ مِنَ العبادة أيضًا: «حبَّ الله ورسوله، وخشية الله تعالى، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك»[(٥)].

---

(١) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح (ص١٨١).
(٢) مفاهيم ينبغي أن تصحح (ص١٨٠).
(٣) العبودية (ص٣٨).
(٤) نفس المصدر (ص٣٨).
(٥) نفس المصدر (ص٣٨).

فكل ما أمر الله به عبادَه ليمتثِلوه في أقوالهم، وأفعالهم، وتصرُّفاتهم، وسلوكِهم، وعلاقاتهم بعضهم مع بعض، وعلاقتهم مع الناس حسب المنهج الذي قرَّره وشرَعَه لهم في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ؛ كلُّ ذلك داخلٌ في مفهوم العبادة التي أرادها مِنْ عباده وخَلَقهم من أجلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وإنما وقع الخلل في مفهوم العبادة عند المتأخرين بسبب التفرقة التي أحدثها كثير من الفقهاء حينما قسموا الأحكام الشرعية في كتاباتهم إلى «فقه العبادات» و«فقه المعاملات»، وكان القصد من ذلك التيسير والتبويب لتقريب المراد إلى أذهان الناس، فكان تقسيمًا اصطلاحيًا علميًا فقط، مع اعتقادهم بأن الدينَ يشمَلُها كلَّها، ولا يقتصرُ على أحدها دون الأخرى.

«إلا أن التقسيم الاصطلاحي الفني الذي هو طابع التأليف العلمي، أنشأ فيما بعد ـ كما ذكر بعضُ المعاصرين ـ آثارًا سيئةً في الحياة الإسلامية كلّها؛ إذ جعل يترسَّب في تصوُّرات الناس: أن صفة «العبادة» إنما هي خاصة بالنوع الأول مِنَ النشاط الذي يتناوله «فقه العبادات»، بينما أخذت الصفة تبهَت بالقياس إلى النوع الثاني مِنَ النشاط الذي يتناوله «فقه المعاملات».

إن ذلك التقسيم ـ مع مرور الزمن ـ جعل بعضَ الناس يفهمون أنهم يملِكون أن يكونوا «مسلمين» إذا هم أدَّوْا نشاطَ «العبادات» وَفق أحكام

الإسلام، بينما هم يزاولون «المعاملات» وَفْقَ منهجٍ آخرَ، لا يتلقَّوْنَه مِنَ الله، ولكن مِنْ إله آخر، هو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة ما لم يأذن به الله تعالى.

وهذا وهمٌ كبيرٌ؛ فالإسلام وحدةٌ لا تنفَصِمُ، وكلُّ مَنْ يفصِمُه إلى شطرين ـ على هذا النحو ـ فإنما يخرُج مِنْ هذه الوحدة»[(١)].

وهناك بعض المواقف التي أثارت السامعين منها:

الموقف الأول: يتجلى في الاستسلام لقضاء الله تعالى وقدره، واليقين بأنه لا يُنجي مِنَ الضيق والغمِّ إلا اللهُ تعالى.

فإنه لمَّا وقعت الصخرة، وسَدَّتْ على النفر الثلاثة الغارَ، استعانوا بالله تعالى، وتوسَّلوا إليه بصالح أعمالهم.

فهذا المشهد يؤثر في نفس السامع، فيتسرَّبُ اليقين إلى قلبه، وتقوى عزيمتُه، وتتجدَّدُ صلتُه بربه، فيستشعرُ عَظَمَةَ إخلاص الأعمال لله تعالى وثمرتها، ونتيجةَ التجرُّد له ﷻ.

الموقف الثاني: ويتجلَّى في هذه الاستجابة السريعة من الله تعالى، التي تُعطي أبلغَ الأثر في النفس البشرية بقُرب الله تعالى، وقُدرته، ومعونته واستجابته لعباده الصالحين، وخاصةً دُعاءَ المضطرين منهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فيقوى الإيمانُ بذلك، وتقوى الرابطةُ الإيمانية بين العبد وربِّه، فيزداد خُضوعُ العبدِ وذُلُّه ومحبَّته لربه ﷻ.

---

(١) خصائص التصور الإسلامي (ص١٣٢).

وتبرُزُ مِنْ هذه القصة قِيَمٌ عديدة؛ منها:

١ ـ فضل بر الوالدين، والقيام على خدمتهما، وإيثارهما على الأهل والولد، وتَحَمُّلِ المشاقِّ لأجل راحتهما؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وإن ارتباط الإحسان بالوالدين بعبادة الله تعالى: «له دلالة واضحة بطبيعة الحال على أن عبادة الله تعالى ينبغي أن تسبِقَ كلَّ عمل على الإطلاق، فأخلاقيات الإسلام هي ميثاقٌ بين الإنسان وبين الله تعالى مباشرةً، فهي تصل للآخرين مِنْ خلال صلة الإنسان بالله تعالى؛ فمثلًا: أخلاقيات الإنسان نحو والديه ـ وهي البِرُّ بهما ـ تَصِلُ إلى الوالدين مِنْ خلال عبادة الإنسان لله تعالى، وكذلك أخلاقيات أيِّ أمرٍ مِنَ الأمور؛ فالصدق مع الناس هو لله أوّلًا ثم للناس، والوفاء بالعهد هو لله أولًا ثم للناس، وهكذا كلُّ عمل يتصل فيه الإنسان بالآخرين، فهو صلةٌ بالله أولًا ثم بالآخرين»[1].

٢ ـ فضل العفة التي تمنع الشهوة وتفطِمُها عَمَّا حرَّمَ الله تعالى، وتَحُولُ بينها وبين المعصية، ولا سيما عند القدرة عليها، والتمكُّن مِنْ فِعلها؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٣ ـ فضيلة أداء الأمانة والحفاظ عليها، مع تنميتها واستثمارها ـ إن أمكن ذلك ـ وردُّها إلى أصحابها، والحفاظ على النفس مِنْ أكل مالِ الغير، أو الطمع في شيء منه، ولا سيما بعد أن كثُر ذلك المالُ، وحلَّت فيه بركةُ الله تعالى؛ وقد جعل الله تعالى حِفْظَ الأمانة مِنْ صفات الذين آمنوا، وامتدحهم بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المعارج: ٣٢].

(١) دراسات قرآنية (ص٢٠٠) بتصرف.

المطلب الثالث

قصة في الورع والقناعة

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (**اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا، فَوَجَدَ الَّذِي اشْتَرَى العَقَارَ في عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى العَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ، وَلَمْ أَشْتَرِ الذَّهَبَ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الأَرْضُ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلَامٌ، وَقَالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ، قَالَ: أَنْكِحَا الغُلَامَ الجَارِيَةَ، وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا**)[1].

هذه القصة لا تمثِّلُ واقعةً بذاتها، لكنها يمكن أن تقعَ في أية لحظة من اللحظات، وفي أي عصر من العصور.

والهدف مِنْ هذه القصة هو تربيةُ النفوس على الزهد في الدنيا، والتعلُّق بما عند الله تعالى، فإن ما عنده خيرٌ وأبقى، وتربيتُها كذلك على الورع مما فيه حُرمةٌ أو شُبهةٌ لصيانةِ الإيمان، وصيانةِ النفس، والحفاظ على الحَسَنات من أن تَضيعَ.

وهذه القصة قصَّها رسولُ الله ﷺ لأصحابه رضوانُ الله عليهم، وأخبرهم بحال هذين الرجلين اللذَيْن بلغا أعلى درجة في الزهد والورع، وسيلةً مِنْ وسائل تربيته ﷺ في بناء نفوسهم، وتزكية قلوبهم بإحياء خُلُقِ الزهد والورع في قلوبهم وأفكارهم، وذلك بأخذ العبرة والعظة بصنع هذين الرجلين المتمثل في خروجهما وابتعادِهما مِمَّا فيه شُبْهَةٌ، وتركهما لِمَا لا بأس به مخافةَ أن يكون به بأسٌ، وهذه صفةٌ بارزةٌ مِنْ صفات المؤمنين بالله تعالى، فإنهم يتركون كثيرًا مما أباح الله تعالى حِفاظًا على صيانة

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب (٤/ ١٨٠)، رقم الحديث (٣٤٧٢).
ورواه مسلم في كتاب الأقضية، باب استحباب إصلاح الحاكم بين الخصمين (٣/ ١٣٤٥)، رقم الحديث (١٧٢١).

أنفسهم، وخوفًا مِنْ تكدُّر صَفْوِها، وانطفاءِ نُورها، ولا سيما إذا كانت تلك المباحات برزخًا بين الحلال والحرام(١).

وهناك بعض المواقف التي أثارت السامعين؛ منها:

الموقف الأول: يتمثَّل في الورع الذي يحمل صاحبَه على أن يترفَّع ويعلُوَ على إغراءِ المادة، ولا يتلمَّس الأسبابَ لحيازة المال متى خالطت هذه الأسبابَ شُبهةٌ؛ لأن الموقف الشائعَ بين الناس في مثل هذه الحالة في القديم والحديث: هو أن يستأثِرَ مَنْ وجد المالَ به لينتفع به دون غيره، وقد تسيل بينهما الدماءُ مِنْ أجل ذلك.

لكن السامع يفاجأ عندما يسمع أن المشتري لم يلجَأْ إلى شيءٍ مِنَ التصرُّفات التي تدور في أذهان الناس، وإنما أخذ جَرَّةَ الذهب وأعطاها للبائع قائلًا له: خذ ذهبك، إنما اشتريتُ منك الأرض، ولم أشترِ الذهبَ. ثم يتخيل السامع أن البائع سيشكُرُ المشتري على صِدقه وأمانتِه، ويأخذ الذهب، لكنه يُفاجَأُ مرةً أخرى بردِّ البائع للمشتري بقوله: إنما بعتُك الأرضَ وما فيها.

إن هذا السلوكَ الصادر مِنَ الرجلين (البائع والمشتري) المبنيَّ على اليقين والزهد والورع فيما ليس به بأسٌ مخافة أن يكون به بأسٌ، وابتعادَهما عما فيه شُبهةٌ، وتنازُلَ كلٍّ واحدٍ منهما لأخيه وإيثاره له بذلك الذهب بنفس راضية، وقلب مطمئن ـ إن هذا التصرف، ليؤدِّي إلى أبلغ الأثر في نفوس السامعين وينبههم إلى حقارة الدنيا وزهادتها، وإلى قيمة الورع في تزكية النفس مِنَ الشُّحِّ والطَّمع، والرضا بما قسم الله تعالى للعبد في هذه الدنيا، والقناعة بذلك، واليقين بأن الغنى غنى النفس، وليس الغنى عن كثرة العَرَض في المال والولد؛ فتتسرَّبُ هذه المعاني الجليلة والأخلاق الفاضلة الرفيعة إلى قلب السامع بطريق سهل ميسَّرٍ، لا تَكَلُّفَ فيه ولا عناءَ، فيعطي التأثيرَ المناسب فيه، وتنطبع تلك الأخلاق في سلوك السامع.

---

(١) **انظر**: مدارج السالكين (٢/ ٢٦).

الموقف الثاني: يتجلَّى في تصرُّف الحَكَم الذي ارتضاه البائع والمشتري ليحكُمَ بينهما في جرَّةِ الذهب التي زهِدا عنها، وتورَّعا في أخذها؛ فهنا يتلهَّف السامع ويتشوَّق إلى معرفة الحُكم الذي سيحكم به ذلك الحَكَم، فتذهب نفسُه إلى تخيُّل عدة احتمالات:

فالحَكم وجَّه سؤالًا إلى الرجلين بقوله: ألكما ولد؟

فيتعجب السامع من هذا السؤال، ويقول في نفسه: وما دخل الولد في جرة الذهب؟!

فيجيب الرجلان عن السؤال، فيقول الأول: لي غلام، ويقول الآخر: لي جارية، فيقول الحكم لهما: أنكِحا الغلامَ الجاريةَ، وأنفقا على أنفسِهما منه وتصدَّقا، فيرضى الرجلان بذلك، وتكون النتيجةُ في النهاية شاملةً للرجلين وأولادهما، وتقوى بتلك القصة الرابطةُ بين الرجلين، وذلك كلُّه ببركة الزهد والورع والإيثار؛ وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وهذا مما يؤكد أن طاعةَ الله سبحانه والتخلُّق بأخلاق الصالحين لا يتوقف أثرُها على سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، بل يمتدُّ أثرُها إلى الذرية، حيث يتفضَّلُ الله عليها بالخير والإسعاد ببركة آبائهم.

❀ ❀ ❀

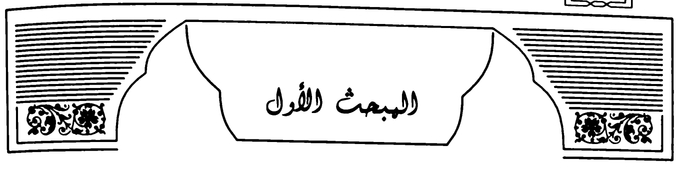
الفصل الحادي عشر

التربية بالمواقف والأحداث

* وفيه مبحثان:

○ المبحث الأول: أهمية المواقف والأحداث في التربية.

○ المبحث الثاني: نماذج من المواقف والأحداث.



المبحث الأول

أهمية المواقف والأحداث في التربية

من الوسائل التي استخدمها رسول الله ﷺ في تربية أصحابه رضوان الله عليهم التربية بالمواقف والأحداث.

والتربية بالمواقف والأحداث مِنَ الوسائل النافعة والفعَّالة في التربية؛ لأنها تؤثر في النفس تأثيرًا خاصًا، هو أقربُ للانصهار؛ وذلك لأن «الحادثةَ تثير النفس بكاملها، وترسل فيها قدْرًا مِنْ حرارة التفاعل والانفعال يكفي لصهرها أحيانًا أو الوصول بها إلى قرب الانصهار، وتلك حالة لا تحدث كل يوم في النفس، وليس من اليسير الوصولُ إليها والنفسُ في راحتها وأمنها وطمأنينتها، مسترخيةً أو منطلقةً في تأمُّل رخي»(١).

فالأحداث تُمثِّل في الغالب جزءًا مِنْ حياة المتربِّي، يتفاعل معها، ويتأثر بها، وقد يكون عنده من القوة بحيث يؤثر فيها ويغيِّر مِن مجراها، فيتخذ من آثارها ونتائجها ما يكون منطلقًا له في التغيير والتأثير؛ وذلك لأن «المربي البارع لا يترك الأحداث تذهب سدى بغير عبرة وبغير توجيه، وإنما يستغلّها لتربية النفس وصقْلِها وتهذيبها، فلا يكون أثرُها موقوتًا لا يلبث أن يضيع»(٢).

لذا فإن استغلال الحادثة، والنفسُ منفعلةٌ ومضطربةٌ بها، مهمةٌ عظيمة من مهمات التربية النبوية، ليبني المربي على النفس وهي في حالة تأثر واستجابة ما يريد أن يبنيه من توجيهات إيمانية، وتهذيبات أخلاقية،

(١) منهج التربية الإسلامية (١/٢٠٧، ٢٠٨).
(٢) المرجع السابق (١/٢٠٧).

فتنطبع في النفس، وتتأثَّر بها وهي على أتمّ الاستعداد لتقبُّل ذلك.

وكان رسول الله ﷺ يقوم في يَقَظةٍ دائمة وإلهام بصير، بالتقاط الأحداث والوقائع والمناسبات في كل فرصة، واستخدامها بحكمة بالغة في بناء هذه النفوس، والوحي يؤيِّده ويسدِّدُه ﷺ، حتى تُصنعَ تلك الجماعة المختارة على عين الله تعالى، بتوفيق الله، على يديْ رسول الله ﷺ.

وقد قام رسول الله ﷺ وهو يربي أصحابه باستغلال الأحداث في تربية نفوسهم استغلالًا عجيبًا، لعلمه ﷺ مَا للأحداث الجارية من تأثير في النفس البشرية، مختلف عن تأثير التوجيهات والأساليب الأخرى، فالتوجيه هنا يأتي عَقِبَ حَدَث معيَّن يحدُث للنفس، فيؤثرُ فيها ويهزُّها كلَّها هزًّا عنيفًا، فتكون النفس عندئذٍ جاهزةً للتأثُّر، وقابلةً للتوجيه، ومستعدةً للتعليم، وعندها يكون التأثير والتوجيه والنُّصح أبلغَ وأعمقَ مِنَ التوجيهات العابرة التي تمرُّ على النفس وهي باردة ومسترخية.

والمربي ـ بطبيعة الحال ـ ليس في استطاعته أن يفتعل حَدَثًا معينًا؛ لأن الأحداث تجري بقدر الله تعالى في جميع الأمور صغيرها وكبيرها سواء، لكن الذي يستطيعه المربي هو انتهاز الفرصة المناسبة في الأحداث التي تقع بقدر الله تعالى، والتي يرى أنها تصلُح لتوجيهٍ تربويٍّ معيَّن، سواء كان الانفعال بالحدث قائمًا في نفس المتربِّي، أو كان بإثارة المربي لذلك الانفعال في نفس المتربي، بالتعليق على الحدث[١].

* ولذا، فإن الدعاة والمربين ـ وهم يحاولون تطبيقَ المنهج التربوي الإسلامي ـ لا يملكون إعادةَ شريط الأحداث كما حدث في الجيل الأول، جيل الصحابة رضوان الله عليهم، لكي يتتبَّعوا توجيهاتِ القرآن والسنّة في تربيتهما بالأحداث واحدًا إثر واحد، كما وقع أولَ مرة، وليس هذا مطلوبًا منهم.

«وإنما المقصود هو حكمةُ التربية بالأحداث... المقصود هو الطَّرق

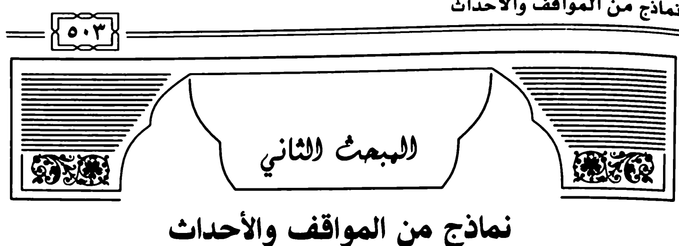
(١) انظر: منهج التربية الإسلامية (٢/ ١٥١ ـ ١٥٣).

والحديد ساخن حتى لا تفلِتَ الحادثةُ بلا عبرةٍ مستفادةٍ، ولا أثرٍ ينطبع في النفس ويبقى.

والهدف هو ربط القلوب دائمًا بالله تعالى، في كل حادثة، وفي كل شعور، والمجال دائمًا مفتوحٌ أمامَ كلِّ مربٍّ له عينٌ مفتوحةٌ، وقلبٌ واعٍ، وإدراك بصير، إنه يستطيع أن يدرك اللحظة المناسبةَ للتوجيه، اللحظة التي تبلغ فيها حرارةُ الانفعال درجةَ الانصهار، وعندئذ يعقد العُقدة الوثيقة التي لا تنحلُّ، ويطبعُ الطابعَ العميقَ الذي لا يزول»[1].



(١) المصدر السابق (١/ ٢١٥).



نماذج من المواقف والأحداث

* وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: حادثة الخسوف والكسوف.
- المطلب الثاني: حادثة الشفاعة في حدود الله تعالى.
- المطلب الثالث: موقف هدايا العمال.



المطلب الأول

حادثة الخسوف والكسوف

عن عائشة ﵂ أنها قالت: خَسَفت[1] الشمس في عهد رسول الله ﷺ، فصلى رسول الله ﷺ بالناس، فقام فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم قام فأطال القيام - وهو دون القيام الأول - ثم ركع فأطال الركوع، وهو دون الركوع الأول، ثم سجد فأطال السجود، ثم فعل في الركعة الثانية مثلَ ما فعل في الأولى، ثم انصرف وقد انجلتِ الشمسُ، فخطب الناس، فحمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: (**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللهَ وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا**)، ثم قال: (**يَا أُمَّةَ**

(١) يقال: كسَفَت الشمس والقمر، وكُسِفا، وانكسفا وخسفا، والكسوف بمعنى، وجمهور أهل اللغة وغيرهم على أن الخسوف والكسوف يكون لذهاب ضوئهما كلِّه، ويكون لذهاب بعضه، انظر: لسان العرب (٩/ ٦٧)، مادة (خ س ف).

مُحَمَّدٍ، وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ[(١)] أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ[(٢)] لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)[(٣)].

هذه الحادثةُ حادثةٌ كونية، والأحداث الكونية في العادة تشد انتباه الناس، وتشغَل تفكيرَهم، ويربطون بها بعض التفسيرات المختلفة التي ورثوها من الجاهلية؛ إذ كانوا يزعُمون أن كسوف الشمس وخسوفَ القمر لا يحدُث إلا بحدوث تغييرات في العالم من حولهم؛ مِنْ موت، أو وقوع ضَرر، أو نقص في الأنفس، أو في الأموال، ونحو ذلك مِنْ خُرافات أهل التنجيم وغيرهم من أهل الضلال والزيغ.

فحدث أن خسفت الشمس في عهد المربي العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ووافق ذلك اليومُ موتَ إبراهيم[(٤)] ابن النبي ﷺ.

فشاع بين الناس أن الشمس إنما خَسَفتْ لموت إبراهيم ابن النبي ﷺ، فهنا استغلَّ المربي البصير عليه الصلاة والسلام هذا الحدثَ العظيمَ في تربية أصحابه لتصحيح مفاهيمَ عن حقيقة هذا الحدث الكبير الذي شدَّ نفوسَهم، وشغل أفكارهم، والذي يمَسُّ العقيدةَ ويؤثِّر فيها؛ فبدأ؛ رسول الله ﷺ بالصلاة المخصوصة بهذا الحدث الكوني العظيم.

فصلى بالناس في المسجد تلك الصلاة الخاصة بهذا الحدث، والتي لم تكن معروفةً لديهم قبل ذلك؛ لأن المناسبةَ لم تكن وقعت بعد، فكانت

---

(١) معناه: ليس أحدٌ أمنعَ مِنَ المعاصي مِنَ الله تعالى، ولا أشدَّ كراهةً لها منه ﷻ، هامش صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٢/ ٦١٨).

(٢) أي: لو تعلمون مِنْ عِظَمِ انتقام الله تعالى من أهل الجرائم وشدة عقابه، وأهوال القيامة وما بعدها، كما علمتُ، وترَوْنَ النار كما رأيت في مقامي هذا وفي غيره، لبكيتم كثيرًا، ولقلَّ ضَحِكُكُم، لفكركم فيما علمتموه. هامش صحيح مسلم (٢/ ٦١٨).

(٣) رواه الإمام البخاري في كتاب الكسوف باب الصدقة في الكسوف (٢/ ٣١)، رقم الحديث (١٠٤٤).
ورواه مسلم في كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف (٢/ ٦١٨)، رقم الحديث (٩٠١).

(٤) جاء ذلك في رواية الإمام البخاري في كتاب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس، من حديث المغيرة بن شعبة (٢/ ٣٠)، رقم الحديث (١٠٤٣).

صلاتُهُ ليست كبقية الصلوات، وإنما هي صلاةٌ متميِّزة بركوعها وسجودها، وقراءة القرآن.

واستمر ﷺ هكذا حتى انجلتِ الشمسُ، فعندها عرف الناس ـ بالتطبيق العمليِّ الذي مارسوه مع مربيهم ومعلمهم عليه الصلاة والسلام ـ أن لهذه الظاهرة صلاةً خاصةً بها، ثم بعد أن انتهى مِنَ الصلاة، قام فخطب الناس، فحمِدَ الله، وأثنى عليه، ثم قال: (**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ**[1]، **فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللهَ وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا**).

فبيّن ﷺ أن المطلوبَ مِنَ المسلمين عند رؤية هذه الظاهرة الكونية، هو الدعاءُ والتكبيرُ والصلاةُ، والتصدق على الفقراء والمساكين، وإنها لا صِلَةَ لها بما كان يظنُّه أهلُ الجاهلية مِنْ أنها توجب حدوثَ تغييراتٍ في العالم من موت عظيمٍ أو حدوثِ مصيبةٍ.

فتصحيح مفاهيم الناس مِنَ الأهداف الأساسية والأولية في دين الله تعالى، بغضِّ النظر هل حقَّقَ مصلحةً شخصيةً للداعية أم لم يحقق؛ فالرسول ﷺ كان حريصًا على تصحيح مفهوم الناس عندما عَلَّقُوا كسوفَ الشمس بموت ابنه إبراهيم، وهذا الأمر مِنَ الأمور التي يفرح بها العظماء؛ لأنه يحقّق مصالحَهم في استعباد الناس لهم، حيث يجعل الناس تلتفُّ حولَهم وتعظِّمُهم، فيَكْبُرُون بذلك في نفوسهم، فتلتبسُ الحقيقةُ على الناس، فيؤدي ذلك إلى أخذ التشريعات من غير الله تعالى؛ وفي ذلك ضلال مبين، وصدٌّ عن سبيل الله كبير.

إلا أن رسولَ الله ﷺ غيرُ هؤلاء العظماء؛ فهو رسول مِنْ عند الله تعالى إلى البشر كافَّةً لكي يعرِّفَهم بربهم الحق، وبما يريدهُ منهم، والدعاة

(١) قال الحافظ ابن حجر: قوله: (**وَلَا لِحَيَاتِهِ**) استشكلت هذه الزيادة؛ لأن السياقَ إنما ورد في حقِّ مَنْ ظنَّ أن ذلك لموت إبراهيم، ولم يذكروا الحياة.
والجواب: أن فائدةَ ذكر الحياة دَفْعُ توهُّم مَنْ قال: لا يلزم من نفي كونه سببًا للفقد ألا يكون سببًا للإيجاد، فعمَّم الشارعُ النفيَ لدفع هذا التوهم. فتح الباري (٢/ ٥٢٩).

إلى الله تعالى هم وَرَثَةُ الأنبياء؛ لذا ينبغي لهم أن يحرِصوا على تصحيح المفاهيم الإسلامية للناس، وأن يقدِّموها لهم كما أرادها الله تعالى، دون النظر إلى مصالحهم الشخصية.

وبهذا قضى ﷺ على الخرافة التي كانت توحي لكثير من الناس بصلة الكواكب والنجوم بالإنسان وارتباطِها به، وأنَّ لها فعلًا وتأثيرًا فيه.

«فأعلمهم النبيُّ ﷺ أن الذي كانوا يتوهَّمونه من ذلك باطلٌ، وأن خسوف الشمس والقمر آيتان مِنْ آيات الله تعالى - يخوِّف بهما عبادَه - ويريهما خَلْقَه ليعلموا أنهما خَلْقان مسخَّران لله ﷻ، وليس لهما سلطانٌ في غيرهما، ولا قدرةَ على الدفع عن أنفسهما، وأنهما لا يستحقَّان أن يُعبدَا فيُتَّخذا إلهَيْن؛ وهو معنى قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]»[١].

ثم استغلَّ النبي ﷺ انفعال الناس وتأثُّرهم بذلك الحدث الكوني، وقد تفتَّحت أذهانُهم، واستعدَّت لقَبول ما يُلقى إليها، فناسبَ أن ينهاهم عن جريمةٍ اجتماعية خطيرة؛ وهي جريمة الزنى التي هي مِنْ أقبح المعاصي.

فخوَّفهم عليه الصلاة والسلام في هذا المقام الذي هزَّ نفوسَهم، وشدَّ انتباههم، وشغل فكرهم مِن ارتكاب الزنى الذي يتعدَّى ضررُه إلى الغير، وبه تختلط الأنساب، وتزولُ الغَيْرَة، وترتكس الفطرة.

قال الطِّيبي وغيره: «ووجه اتِّصال هذا المعنى بما قبلَه مِنْ قوله: **(فَادْعُوا اللهَ، وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا)** مِنْ جهة أنهم لَمَّا أُمروا باستدفاع البلاء بالذكر والدعاء، والصلاة والصدقة، ناسبَ ردْعُهم عن المعاصي التي هي من أسباب جلب البلاء، وخصَّ منها الزنى؛ لأنه أعظمُها في ذلك»[٢].

---

(١) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للخطابي، تحقيق د. محمد بن سعد (١/ ٦١٠، ٦١١) بتصرف يسير.

(٢) فتح الباري (٢/ ٥٣١).

المطلب الثاني

حادثة الشفاعة في حدود الله تعالى

عن عائشة رضي الله عنها: أن قريشًا أهمَّهم شأنُ المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلمُ رسولَ الله ﷺ؟ فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامةُ بنُ زيدٍ حِبُّ رسول الله ﷺ، فكلَّمه أسامةُ، فقال رسول الله ﷺ: (**أَتشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى؟!**)، ثم قام فاختطب، ثم قال: (**إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِم الضَّعِيفُ، أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**)(١).

هذه حادثة امرأة - مِنْ بني مخزوم مِنْ أشراف مكة، وأحد الفروع العظيمة التي تُكَوِّنُ قبيلةَ قريش - سرقت على عهد رسول الله ﷺ، وَرُفِعَ أمرُها إليه عليه الصلاة والسلام، فحكم ﷺ عليها بأن يقامَ عليها الحدُّ الذي أمر الله تعالى به في قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فلا بد أن تُقطعَ يدُها، ولا مناصَ مِنْ تنفيذ حكم الله تعالى، لكن بعض الناس - بسبب رواسب الجاهلية التي عَلِقَتْ في نفوسهم - ظَنُّوا أن للحاكم أن يغيِّرَ الأحكام كما يشاء، فيطبِّقَ الحكمَ الواجب على مَنْ أراد، ويرفعه عمن أراد، بحسب مكانة الفرد في المجتمع وبين القبيلة، فمَنْ كان مِنْ ذوي الشرف والمَكانة رُفِعَ عنه العقابُ في الجاهلية ولجؤوا إلى التحايل على ذلك بدفع فدية لأهل المجنيِّ عليه، وينتهي الأمر عند ذلك، أمَّا إن كان الجاني مِنَ الضُّعفاء الذين لم يحظَوْا بمنزلة الشرف في مجتمعهم، فهذا هو الذي يجب أن ينفَّذَ فيه الحكمُ، وأن يعاقَبَ أشدَّ العقاب على خطئه وجريمته.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحدود إذا رفعت إلى السلطان (٨/ ٢١)، رقم الحديث (٦٧٨٨).
ورواه مسلم في كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (٣/ ١٣١٥)، رقم الحديث (١٦٨٨).

فهنا قَلَّبَ بنو مخزوم الأمرَ فيما بينهم، وفَكَّروا في قضيَّتهم تفكيرًا عميقًا لكي يدرؤوا عن امرأتهم الحدَّ، وعن أنفسهم الفضيحةَ، فأبدَوْا استعدادَهم بدفع فدية[1] مهما كانت، مقابلَ منع تنفيذ الحكم على السارقة الشريفة.

فلمَّا اتفقُوا على ذلك، فَكَّرُوا فيمن يُرسلونه إلى رسول الله ﷺ، فيكلِّمه بهذا الأمر الذي أزعجهم وأهمَّهم وأوجعهم، ولكن مَنِ الذي يجرؤ على مفاتحة رسول الله ﷺ بذلك؟ لا بد مِنْ أن يبحثوا عن رجل مِنَ المقرَّبين إليه عليه الصلاة والسلام، وممن تكون له منزلةٌ عنده، لكي يرفعَ أمرَهم إليه.

فوقع اختيارُهم على أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما فهو محبوبُه المقرَّبُ إليه وابن حِبِّه، وكان إذا شفع في أمرٍ قَبِلَ شفاعتَه.

ولهذا فقد ذهب وفد بني مخزوم إلى أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما، يلتمسون منه أن يذهبَ شفيعًا للمرأة السارقة لدى النبي ﷺ، لعلَّه يخفِّفُ عنها الحكم، أو يقبل منهم فديةً مِنَ المال بدلَ إقامة الحد عليها، ورضي أسامة رضي الله عنه، فذهب إلى النبي ﷺ وقدَّم شفاعتَه بين يدي رسول الله ﷺ، وكأنه لم يفطن ولم ينتبه إلى أنَّ في هذا الأمر مخالفةً شرعيةً لأمر الله تعالى، وأنه لا تجوز الشفاعة في حدٍّ مِنْ حدود الله تعالى، أو لأنه ظنَّ أن الفديةَ التي تكفَّل بها بنو مخزوم للمسروق عوضًا عن متاعه، قد تقوم مقامَ الحدِّ المفروض وتُسقطه.

وسمع رسول الله ﷺ شفاعةَ أسامة، وهنا استعمل المربي العظيمُ ـ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ هذه الحادثةَ في تربية أسامة رضي الله عنه في تصحيح

---

(١) كما ورد عند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ فقال قومها: نحن نفديها». مسند أحمد (٢/ ١٧٧).
وكما في حديث مسعود بن الأسود؛ وفيه: «فجئنا إلى النبي ﷺ فقلنا: نحن نفديها بأربعين أوقية. فقال: تطهّر خيرٌ لها». فتح الباري (١٢/ ٩٣).

مفهوم الشفاعة عنده؛ فغضب ﷺ حتى ظهرت علاماتُ الغضب على وجهه، والتفت إلى أسامةَ يؤنِّبه ويعاتِبُه ويؤدِّبه، ويلومُه على ما أقدم عليه، وكأنه يقول له: لئن كُنْتُ أقبلُ شفاعتَك فيما مضى، فلأنك يا أسامةُ لم تُقْدِمْ على ما أقدمتَ عليه في هذا اليوم، فإنك لم تطلب منِّي فيما مضى أن أرفع حدًّا عمَّن استحقَّه، ولا أن أوقف تنفيذَه عمَّن وجب عليه، وإنما كانت شفاعتُك فيما دون ذلك[1]، أما أن تشفع يا أسامةُ في حدٍّ مِنْ حدود الله تعالى التي فرضها على عباده، وأوجَبَها على مَنِ استحقَّها مِمَّن يتعدَّوْن حدود الله تعالى - فيرتكبون ما حرَّم الله تعالى، وينتهكون حُرُماتِه، ويَعيثون في الأرض فسادًا، فهذا أمرٌ لا أقبلُه منك، ولا مِنْ غيرك، ولا أرضاه أبدًا مهما كان قدْر الشافع فيه ومكانتُه؛ لأنه أمْرُ الله تعالى، فأوامرُ الله ﷻ لا تقبل التأجيلَ والمماطلة، ولا المحاباة ولا المناقشة ولا المجادلة، فإذا ثبَتَتِ الجريمةُ ورفعت إلى القضاء، فلا بد مِنْ تنفيذ الحكم، وإيقاعِ العقوبة على الجاني أيًّا كان ذلك الجاني.

ثم استغل المربي البصير ﷺ هذه الحادثةَ في تربية بقية الناس، وفي مقدمتهم أولئك الرَّهْط مِنْ بني مخزوم، الذين يسْعَوْن في طلب الشفاعة، وتقديم الفداء ليد الشريفة.

وكذلك أولئك الناس الذين سمعوا بهذا الحادث، ولم يعلموا ما آل إليه الأمر، فلا بد مِنْ توجيهٍ تربويٍّ حازم واضحٍ لبيان حقيقة الأمر؛ فلهذا قام المربي ﷺ خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهلُه، ثم بيَّن وأوضح حقيقةَ الأمر، ووضع مِنْ خلال هذه الخطبة الأُسُسَ السليمة لبناء وحماية المجتمع المسلم الذي يحبه الله ويرضاه.

فقال لهم: إن مِنْ أسباب هلاك الأمم، وفساد أمورهم في الدنيا والآخرة، وانتكاس أحوالهم، واضطرابِ مجتمعاتهم، وزوالِ الأمن والطمأنينة عن أرضهم وأنفسهم: أنهم كانوا يحابُونَ في حدود الله تعالى،

(١) انظر: قطوف من رياض السُّنَّة، د. صالح أحمد رضا (١/٢٥٩).

ويراعون بعضَ الأفراد في جرائمهم لشرفهم ومنزلتهم في المجتمع وفي القبيلة، ولا ينظرون إلى العمل الذي ارتكبوه واقترفوه، ولا يُقَوِّمُونَهُ حسب الضوابط الشرعية المنزلة من عند الله تعالى، كما بيَّن سبحانه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وأما إن كان مرتكب الجريمةِ مِنَ الفقراء المعدَمين، الذين لا مكانةَ لهم في المجتمع أو بين أفراد القبيلة، وليس لهم وجاهةٌ عند قومهم وعند حكامهم، فلا بأس مِنْ تنفيذ العقاب على هؤلاء، ولا ضرَرَ في أن يحاسَبوا حسابًا شديدًا على جرائمهم، وكأن الله تعالى لم يُنزل شرعَه ومنهجَه لكي يطبَّقَ على جميع الناس، وحتى يكونوا أمامَه سواسيةً كأسنان المشط، لا فرق بين الملك والرعية، ولا بين أبناء الملوك وأبناء بقية الناس، ولا بين الأمراء والأجراء، ولا بين الأغنياء والفقراء، ولا بين أصحاب الوجاهة والمنزلة والمحرومين من ذلك كلِّه.

فَبَيَّنَ النبي ﷺ للأصحاب ـ رضوان الله عليهم ، بل للناس عامةً، إلى أنْ يرِثَ الله الأرض ومَنْ عليها ـ الحقَّ الذي يجب أن يتَّبعوه، وأن يطبقوه، والذي هو أصلٌ مِنْ أصول دين الله تعالى، وعُروةٌ مِنْ عُرى الإسلام، ألا وهو أنَّ مخالفةَ أمر الله تعالى، وانتهاكَ حُرُماته ﷻ، يعدُّ جريمةً مهما كانت منزلةُ مرتكبها، وأن على خليفة المسلمين، أو من وَلِيَ أمرَهم، أن يوقِعَ العقوبةَ المحدَّدة في شرع الله تعالى، على ذلك الجاني، بغضِّ النظر عن وضعه في المجتمع، وألا تأخُذَه رأفةٌ ورحمةٌ في دين الله تعالى، لقرابة أو لمكانة يحتلُّها، إذا ثبتت الجريمةُ، وتحقَّقت شروطُها، وانتفت موانعُها[1].

ولذا أكَّد رسول الله ﷺ هذا الأمرَ في نفوس مَنْ سمِعه مِنَ الصحابة رضوان الله عليهم، وكذلك في قلوب مَنْ وعاه مِنَ المسلمين فيما بعد، مِنْ أنَّ فاطمة ابنة محمد ﷺ لو أقدمت على السرقة، فسرقت ـ وحاشاها رضي الله عنها

(١) انظر: حول تطبيق الشريعة. محمد قطب (ص٣٦، ٣٧).

أن تفعل - ما كان موقفُ رسول البشرية ﷺ - وهي بَضْعَةٌ منه، وأعزُّ أهلِه عنده، وأحبُّ الخلق إليه - إلا أن يقيمَ عليها حدَّ الله تعالى الذي فرضه، ويطبِّقَه في قَطْعِ يدها؛ لأن أمرَ الله تعالى وحُكْمَه لا مداهنَةَ فيه، ولا جدالَ.

فلا بدَّ مِنْ إقامة الحدِّ على كلِّ مكلَّفٍ، وترك المحاباة في إقامة الحد على من وجب عليه، ولو كان ولدًا أو قريبًا كبيرَ القدْرِ(١).

فجميع الناس متساوون أمام العدل الإلهي، ومِنَ الظلم أن يميَّزَ بينهم في أعمالهم الإجرامية التي يرتكبونها، فالعمل الإجرامي الواحد يجب أن يكون جزاؤه واحدًا بغضِّ النظر عن مرتكبه وفاعله، فلا فَرْقَ في إقامة حدود الله تعالى في الإسلام بين سيد ومَسُود، ولا قويٍّ وضعيف، ولا غني وفقير، فالكلُّ أمامَ حدود الله تعالى سواسيةٌ كأسنان المشط، فعندها تكون العدالةُ الاجتماعية بين جميع أفراد المجتمع، فيفرح المسلمون بتطبيق شرع الله تعالى وحكمه، وتطمئن قلوبُهم بذلك، فتحُلُّ البركةُ، ويحصُل التمكين، وتزول الفواحشُ، ويأمَنُ المسلمون على أعراضهم وأموالهم وأنفسهم.

المطلب الثالث

موقف هدايا العمال

عن أبي حُميد الساعديِّ، قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلًا مِنَ الأزد على صدقات بني سُليم، يُدعى ابنُ اللُّتبيَّة(٢)، فلما جاء حاسبُه، قال: هذا مالُكم وهذا هديةٌ لي، فقال رسول الله ﷺ: (**فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا؟!**).

---

(١) **انظر**: فتح الباري (١٢/ ٩٥).

(٢) **هو**: عبد الله بن اللتبية، استعمله النبي ﷺ على بعض الصدقات؛ ذكره في حديث أبي حميد الساعدي أسد الغابة: (٣/ ٣٧٤).

ثم خطبنا، فحَمِدَ الله، وأثنى عليه، ثم قال: (**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى العَمَلِ مِمَّا وَلَّاني اللهُ، فَيَأْتِي، فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أَفَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا؟! واللهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إلا لقِيَ اللهَ تَعَالَى يَحْمِلُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ**[1] **أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ**[2] **أَوْ شَاةً تَيْعَرُ**)[3]، ثم رفع يديه حتى رُئِيَ بياضُ إبْطيه، ثم قال: (**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**)[4].

ففي هذا الحديث ترى أن رسول الله ﷺ قد استعمل رجلًا من الأزد، يقال له: «ابن اللُّتبية»، لجباية الصدقة وجَمْعِها، فلما عاد مِنْ مهمَّته، قال لرسول الله ﷺ: هذا لكم وهذا أُهدي إلي. فابن اللُّتبيَّة قد استباح الهديةَ لنفسه ظنًّا منه أن هذا عمل مشروع، وأنه لا حَرَجَ فيه، وكان ﷺ حَسَنَ النِّية عند أخذه الهدية بدليل أنه قال لَمَّا رجع: هذا ما جمعتُه لكم وهذا أُهدِيَ إليَّ.

فقَبول الهدية في الأصل مشروع في الشريعة الإسلامية، ولكن «هذا في حقِّ مَنْ لم يتعيَّن لعملٍ مِنْ أعمال المسلمين، فأما مَنْ تعيَّن لعمل كالقُضاة والولاة والعمال ونحوهم، فعليهم التحرُّز عن قَبول الهدية، خصوصًا مِمَّن كان لا يُهْدي إليه قبل ذلك؛ لأنها قد تكون مِنْ باب الاستمالة لقضاء حاجة مِنَ الحاجات التي يجب على الموظف قضاؤها بدون إهداء، فإذا حصل الإهداء كان هذا نوعًا مِن الرِّشوة»[5].

---

(١) الرُّغاء: صوت البعير. (٢) الخوار: صوت البقرة.

(٣) أي: تصيح، واليعار صوت الشاة.

(٤) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال (٣/ ١٤٦٣)، رقم الحديث (١٨٣٢).

رواه البخاري مختصرًا في كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠] ومحاسبة المصدِّقين مع الإمام (٢/ ١٦٧)، رقم الحديث (١٥٠٠).

(٥) المبسوط لشمس الدين السرخي (١٦/ ٨٢).

فاستغل المربي البصيرُ ﷺ هذا الحادث في تربية هذا الصحابي الجليل (ابن اللُّتبية) في أن عمله هذا خطأ، وأنه لا يحقُّ له أن يأخذَ شيئًا أثناء تأدية عمله؛ لأنها في الحقيقة ليست هدية وإنما هي رشوة في صورة هدية؛ لأنها قد تكون مِنْ باب الاستمالة لقضاء حاجة مِنَ الحاجات التي يجب عليه قضاؤها، واستمالتهُ ليتهاون في تحصيل حقٍّ أو منعه، فيجب عليه أن يحرِص على أداء عمله لوجه الله تعالى وابتغاءَ مرضاته، وأن يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، فيقضي حاجته ولا يتسبب في تعطيلها أو تأخيرها.

فالرسول ﷺ صحَّح للصحابي مفهومه عن الهدية، وأن ما يُعطى للعامل بسبب الولاية التي تولاها لا يدخل في الهدية، بدليل أنه لو لم يتوَلَّ هذا العمل، وجلس في بيت أبيه وأمه ما جاءته؛ لذلك عاتَبه على قَبول الهدية أثناء عمله، ثم أخذها منه ﷺ وضمَّها إلى بيت مال المسلمين، فكان درسًا تربويًا لابن اللُّتبية رضي الله عنه.

ولَمَّا رد عمر بن عبد العزيز الهدية، قيل له: كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية، فقال: كان ذلك له هدية، وهو لنا رشوة؛ أي: كان يتقرَّب إليه لنبوته لا لولايته، ونحن إنما نُعطَى للولاية[١].

لكن لَمَّا كان هذا المفهوم الخاطئ عن الهدية قد لا يكون مقصورًا على ابن اللُّتبية، دعت الحاجة إلى إعلانه وتصحيحه لدى الجماعة، حتى يتناسب سلوكهم مع القيم الصحيحة التي يُهيمن عليها استشعارُ المسلم رقابةَ الله سبحانه الذي لا تخفَى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، والخوفُ من يوم الحساب، فجمع ﷺ الناسَ، وخطب فيهم خطبةً عرَض فيها هذا الداءَ الخطيرَ الذي يقع فيه كثيرٌ مِنَ العُمَّال وغيرُهم، ويلتبس عليهم الحرام والحلال، فقال: (**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى العَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللهُ، فَيَأْتِي، فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أَفَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا**).

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٩٢٦).

ففي هذا الاستفهام الاستنكاريّ لِمَا حدث: (**أَفَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ؟!**) تعنيفٌ شديدٌ لِمَا حدَث، يتَّفق مع حجم الضرر الذي يقع على المجتمع مِنْ جرَّاء انتشار هذا الداء العُضال؛ لأنه ﷺ لم يقل: «أفلا جلَسَ فِي بَيْتِهِ»؛ لأن هذه الصيغة أخفُّ وطئًا في التَّعنيف والتوبيخ، وإنما أراد ﷺ أن يعنِّف ويوبِّخ كلَّ مَنْ سوَّلت له نفسُه أن يُقْبِلَ على مثل هذا العمل المُحَرَّم.

هكذا بدون أن يتعرَّض لشخص ابن اللُّتبيَّة، فلم يُسَمِّه باسمه، ولم يُشَهِّر به، محافظةً على إحساسه ومُراعاةً لشعوره مما يؤذيه نفسيًا، أو يحطُّ منْ قدْره، أو يلحق به إهانةً قد لا تُمحى.

وهذا كلُّه مِنْ جَمِّ أدبه ﷺ، وحُسنِ معاملته لأصحابه، ورحمتِه بهم، وشفقتِه عليهم، وهو يربِّيهم ويُغلِظُ عليهم أحيانًا لمصلحتهم، وقد امتثل - عليه أفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم - قولَ ربِّه ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولم يكتف ﷺ بهذا التعنيف والتوبيخ، وإنما عرَض صورةَ مَنْ يقبل الرِّشوة يوم القيامة حتى يتَّضحَ الأمرُ على حقيقتِه، وتكتملَ الصورة في أذهانهم، وأن هناك يومًا تتكشف فيه النوايا، ويحاسَبُ فيه العبادُ على ما كانوا قد صنعوه في حياتهم الدنيا؛ فالعلاقةُ وثيقةٌ جدًّا بين الدنيا والآخرة في دين الله تعالى.

فابتدأ رسولُ الله ﷺ هذا العرْضَ بالقَسَم بالله تعالى تأكيدًا لِمَا سيقع لمن قَبِلَ الرِّشوة، وأكل مالًا ليس له في حقٍّ في ذلك اليوم الرهيب: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]؛ في ذلك اليوم الذي تتزلزل فيه النفوس، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

فقال لهم رسولُ الله ﷺ: (**والله لا يأخُذُ أحدٌ منكم منها شيئًا بغيرِ حقِّهِ إلا لقِيَ اللهَ تعالَى يَحْمِلُهُ يومَ القِيامةِ، فلأعْرِفَنَّ أحدًا منكم لقِيَ اللهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغاءٌ أوْ بَقَرَةً لَها خُوارٌ أوْ شاةً تَيْعَرُ**)، ثم رفع يديه حتى رُئِيَ بياضُ إبْطيه، ثم قال: (**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**).

«وإذا ثبتت هذه التشديدات، فالقاضي والوالي ينبغي أن يقدر نفسَه في بيت أمه وأبيه، فما كان يُعطى بعد العزل، يجوز له أن يأخذَه في ولايته، وما يعلم أنه إنما يُعطاه لولايته، حَرُم أخذه، وما أشكل عليه في هدايا أصدقائه، أنهم هل كانوا يُعطونه لو كان معزولًا، فهو شُبهةٌ، فليجتَنِبْه»[١].

وبما أن هذا الداء الخطيرَ قد انتشر في المجتمعات اليوم، سواء منها الفقير أو الغني، بتسميات شتَّى؛ فمنها ما يُطلق عليه «أتعاب» أو «سمسرة» أو «سعي»، إلى غير ذلك مِنَ التسميات التي يسمُّونها بغيرِ اسمِها، والتي هي في النهاية ـ على كثرة صورها وأشكالها المختلفة ـ غالبًا ما تكون مقابلَ أداءِ عملٍ مكلَّفٍ به العاملُ ضمن عمله الذي يأخذ عليه أجرًا مِنْ قبل الجهة التي يعملُ فيها، فأصبحت مصالحُ الناس ومعاملاتُهم تُعَطَّلُ مِنْ كثيرٍ مِنَ العمال وغيرِهم ما لم يدفَعْ أصحابُها رِشوةً لهم حتى تخرُجَ مِنْ ظُلُماتِ أدراجهم[٢].

ولا مُنقذَ لهذه الأمة مِنْ هذا الداء الخطير، إلا بما جاء به رسولُ الله ﷺ، ولا بدَّ مِنْ أن تتربَّى الأمةُ على الإيمان بالله تعالى، لكي تحيا القلوبُ بتقوى الله تعالى، مَعَ التركيز الشديد على جزاء الله تعالى العادل يوم الحساب: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، فعندها تحيا الضمائر، ويقوَى الوازعُ الدينيُّ في النفوس حتى يصبحَ سدًّا منيعًا في مواجهة ما قد يقوم عليه مِنْ إثم؛ سواء في حقِّ نفسه، أو حقِّ الأفراد، أو حقِّ المجتمع، مَعَ مراعاة سدِّ حاجة العمال مِنْ قِبَلِ أصحاب العمل.

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٩٢٧).
(٢) انظر: الجانب الإعلامي في خطب الرسول ﷺ.

الخاتمة

وبعد أن انتهيتُ مِنْ دراسة موضوعات البحث، أسجِّلُ هنا أهم ما ورد فيه من نتائج، وهي:

١ ـ أن مِنْ أبرز معاني التربية: التهذيب والرِّفعة والسُّمُوَّ والترقية والتزكية للروح والعقل والجسم.

٢ ـ التربيةُ أكثرُ وأوسع في الشمول والتكامل مِنْ عملية التعليم؛ وذلك لأن هدف التربية تنميةُ جميع جوانب الإنسان وصقلها.

٣ ـ القرآن والسُّنَّة هما منهج التربية الذي تَرَبَّى عليه الصحابةُ رضوان الله عليهم على يديْ رسول الله ﷺ، وهو الذي ينبغي أن تتربَّى عليه الأمةُ في كل جيل.

٤ ـ أن الدعوة إلى تصحيح الاعتقاد مستمرةٌ دائمًا؛ إما تأسيسًا، وإما تأكيدًا.

٥ ـ أن أول واجب على المكلَّف معرفتُه هو الاعتقادُ الصحيح، لا النظر والشك كما يقول المتكلِّمون.

٦ ـ أن قضيةَ إثبات وجود الله تعالى لم تكن محلَّ نزاعٍ بين النبي ﷺ وقومه في ذلك الزمان، وإنما كان محلّ النزاع في تعدُّد الآلهة، وأخذ التشريع من دون الله تعالى.

٧ ـ أن التوازن في العلم والعمل والتربية عليه سِمَةٌ مِنْ سمات هذا الدين البارزة فيه.

٨ ـ أن أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ ما داوم عليه صاحبُه وإن قلَّ.

٩ ـ مراعاةُ أحوال المكلَّفين في الموعظة وتخوُّلُهم بها، وتحديثُهم بما يتناسب مع إدراكهم وعقولهم، وإزالة ما أفسدوه، وتصحيحُ خطئهم ـ دون تعنيف ـ بالرفق واللين.

١٠ ـ من منهج التربية إقامةُ الحدود إذا وقع موجبُها مِنَ المكلَّفين، وإنكار المنكَرات الظاهرة، وتغييرُها بالوسائل الشرعية؛ كالهُجران والتعزير بالقول والفعل.

١١ ـ أن النصيحة قد تكون سِرًّا، وقد تكون علانيةً بحسب المصلحة في ذلك.

١٢ ـ استفحالُ الشرِّ والفساد في الأرض سببُه إهمالُ النصيحة وتركُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتركُ الظالمين يَعيثون في الأرض فسادًا بلا رادع ولا زاجر.

١٣ ـ الاعتقادُ بأن المستقبل لهذا الدين، وأنه لا بد مِنَ الصبر، وبذلُ التضحية في سبيل ذلك، مع الثقة التامَّة بالتمكين دون تعجُّلٍ للنتائج، وأن النصرَ قريبٌ إن شاء الله تعالى.

١٤ ـ القدوةُ مِنْ أعظم وسائل التربية المؤثرة في النفس البشرية.

١٥ ـ الترغيبُ والترهيب وسيلةٌ علاجيةٌ لتقويم النفس البشرية، وتغرس فيها التوازُن الجامع بين الرغبة والرهبة.

١٦ ـ القصة وسيلةٌ تربوية مهمة، ينبغي توظيفُها في غرس المعتقد الصحيح والأخلاق الحسنة في النفوس.

١٧ ـ الأحداث وسيلةٌ مِنْ وسائل التربية، ينبغي للمربِّين استغلالُها والاستفادة منها في تزكية النفوس وتنبيه العقول لِمَا فيه خيرٌ في الدين والدنيا، ولتصحيح المفاهيم الإسلامية وغرسها وتنميتها في القلوب.

١٨ ـ الطريقة المُثلى في تزكية النفوس تتمثَّل في عقد الصِّلة الدائمة بين هذه النفوس وبين الله تعالى في كلِّ قولٍ، أو فعلٍ، أو فكر، أو شعور، أو اعتقادٍ في كل اللحظات والأوقات.

١٩ ـ حَثَّتِ التربيةُ النبوية على الاهتمام بالجسم ووقايته، والمحافظة على سلامته؛ لأنه يمثل جزءًا مهمًّا من ماهية الإنسان، وهو مبعَثُ الطاقة والقوة لحمل التكاليف الربانية التي كُلِّف بها الإنسانُ في هذه الحياة الدنيا.

٢٠ ـ العقل أساس المعرفة والتكليف عند الإنسان؛ لأنه وسيلةُ إدراكه؛ عن طريقه يتمُّ ترتيب المعارف وتنظيمها وتوظيفها في المجال المناسب لها؛ لهذا اهتمت التربية النبوية بتربيته، بحيث حدَّدت له المنهجَ الصحيحَ للنظر، والمجالاتِ التي له حقُّ التفكير والتأمُّل فيها، والاستنتاج والتحليل، كما حددت له المجالات التي ليس له حقُّ التدخل فيها، وإنما عليه التسليم المطلق بها.

٢١ ـ الحكمةُ في الدعوة والتربية هي معرفةُ الحقِّ والعمل به على الوجه الشرعي.

* * *

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المراجع

📖 القرآن الكريم.

○ إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الأزرق (ت بعد ٨٩٠هـ):

- تسهيل المنافع في الطب والحكمة المشتمل على شفاء الأجسام، وبحاشيته كتاب الطب النبوي، لمحمد بن أحمد الذهبي، طبع سنة ١٩٧٨م، المكتبة الشعبية، بيروت.

○ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير الجزري (ت٦٣٠هـ):

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الشعب.

○ ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (ت٦٠٦هـ):

- جامع الأصول في أحاديث الرسول، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، دار الفكر، بيروت.

- النهاية في غريب الحديث، طبعة أنصار السُّنَّة المحمدية، باكستان، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وطاهر أحمد الزاوي.

○ الآجري، أبو بكر محمد بن الحسين (٣٦٠هـ):

- الشريعة، الطبعة الأولى، مطبعة أنصار السُّنَّة المحمدية، تحقيق: محمد حامد الفقي.

○ أحمد فايز:

- طريق الدعوة في ظلال القرآن، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى.

○ أحمد قدامة:

- قاموس الغذاء والتداوي بالنبات، موسوعة غذائية صحية عامة، دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.

○ ابن إسحاق، محمد بن إسحاق المطلبي (ت١٥٠هـ):

- السير والمغازي، تحقيق: د. سهيل زكار، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

○ الأصبهاني، أبو الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر (ت٣٦٩هـ):

- أخلاق النبي ﷺ وآدابه، تحقيق: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي.

○ **ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت٦٦٨هـ):**
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: د. نزار رضا، طبع سنة ١٩٦٥م، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

○ **الإمام البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه (ت٢٥٦هـ):**
- صحيح البخاري، طبعة محققة على عدة نسخ وعن نسخة فتح الباري، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، دار الفكر.

○ **بدر محمد ملك وخليل محمد أبو طالب:**
- السبق التربوي في فكر الشافعي، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، طبع سنة ١٤٠٩هـ.

○ **الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي (ت٤٦٣هـ):**
- اقتضاء العلم العمل، طبعة المكتب الإسلامي، ط٣، ١٣٨٩هـ، تحقيق: الشيخ الألباني.

○ **البغوي، الحسين بن مسعود (ت٥١٦هـ):**
- شرح السُّنَّة، حققه شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي.

○ **البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (ت٨٥٨هـ):**
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الطبعة الهندية.

○ **البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ):**
- دلائل النبوة، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، دار المعرفة، بيروت.

○ **الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩هـ):**
- الجامع الصحيح، وهو سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ، مكتبة مصطفى الحلبي، مصر.

○ **ابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت٧٢٨هـ):**
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام، جمع وترتيب عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، دار العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.
- درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

- العبودية، تحقيق: خالد عبد اللطيف العلمي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت.
- دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، تحقيق: محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

○ **ابن الجوزي، الإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن (ت٥٩٧هـ):**
- زاد المسير في علوم التفسير، طبعة المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- صفة الصفوة، حقّقه محمود فاخوري، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ، دار المعرفة، بيروت.
- صيد الخاطر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تلبيس إبليس، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ذم الهوى، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى.

○ **الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت٣٩٨هـ):**
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.

○ **حافظ بن أحمد حكمي (ت١٣٧٧هـ):**
- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، المطبعة السلفية.

○ **الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري (ت٤٠٥هـ):**
- المستدرك على الصحيحين في الحديث، وفي ذيله تلخيص المستدرك للذهبي، دار الفكر، بيروت، طبعة سنة ١٣٩٨هـ.

○ **ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ):**
- فتح الباري، الطبعة السلفية، تحقيق: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
- شرح نخبة الفكر، طبعة دار الكتب العلمية.
- الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: د. طه محمد الزيني، مكتبة الكليات الأزهرية.
- التقريب، دار الكتب العلمية.
- تهذيب التهذيب، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، المطبعة الهندية.

○ **ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت٤٥٦هـ):**
- المحلى، دار الفكر.

○ الحلبي، علي بن برهان الدين:
- السيرة الحلبية، طبعة الحلبي.
○ ابن حنبل، أحمد الشيباني (ت٢٤١هـ):
- المسند، وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، دار صادر، بيروت.
○ الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد (ت٣٨٨هـ):
- أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، تحقيق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمٰن، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
○ خليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ):
- تاريخ خليفة، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة ودار القلم، ط٢، سنة ١٣٩٧هـ.
○ الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن (ت٢٥٥هـ):
- السنن، تحقيق: عبد الله هاشم يماني، حديث أكاديمي للنشر والتوزيع، باكستان، ١٤٠٤هـ.
○ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت٢٧٥هـ):
- سنن أبي داود، راجعه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
○ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ):
- سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
- مختصر العلو، طبعة المكتب الإسلامي.
○ الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت٦٦٦هـ):
- مختار الصحاح، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
○ الراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ):
- مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
○ الحافظ زين الدين، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب، المعروف بابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ):
- جامع العلوم والحكم، الطبعة الثالثة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ.

- نور الاقتباس من مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس ﵄، علّق عليه وقدّم له عز الدين البدوي النجار، مكتبة المدني ومطبعتها، جدة.
○ رؤوف شلبي:
- الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، مناهجها وغاياتها، دار القلم، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
○ الزرقاني، محمد بن عبد الباقي بن يوسف (ت١١٢٢هـ):
- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، دار المعرفة، بيروت.
○ الزمخشري، الجار الله محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ):
- الفائق في غريب الحديث، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، توزيع دار الباز، مكة المكرمة، الطبعة الثانية.
○ السرخسي، شمس الدين محمد بن أبي سهل (ت٤٨٣هـ):
- المبسوط، صحَّحه جماعة من العلماء، دار المعارف، الطبعة الثانية.
○ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت٢٣٠هـ):
- الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.
○ سلمان بن فهد العودة:
- الغرباء الأولون: أسباب غربتهم، ومظاهرها، كيفية مواجهتها، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
○ سليمان بن عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت١٢٣٣هـ):
- تيسير العزيز الحميد، طبعة المكتب الإسلامي، الطبعة الثامنة، ١٤٠٩هـ.
○ سليمان الندوي:
- الرسالة المحمدية، مكتبة دار الفتح، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٣٩٣هـ.
○ ابن سيد الناس، محمد بن محمد اليعمري (ت٧٣٤هـ):
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّير، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م، دار الجيل، بيروت.
○ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر (ت٩١١هـ):
- لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م.
- تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، المكتبة التجارية، سنة ١٣٧١هـ.
- تنوير الحوالك، شرح على موطأ مالك، طبعة المكتبة الثقافية، بيروت، سنة ١٩٧٣م.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، نشر محمد أمين دمج.
○ الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (ت٧٩٠هـ):
- الموافقات، تحقيق: عبد الله دراز، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
○ الخطيب الشربيني (ت٩٧٧هـ):
- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، طبعة مصطفى البابي الحلبي.
○ الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني (ت١٣٩٣هـ):
- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، الطبعة الثالثة، طبعة الجامعة الإسلامية.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٣هـ.
○ الشوكاني، محمد بن علي (ت١٢٥٠هـ):
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدارية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، طبع عام ١٤٠١هـ.
- نيل الأوطار، دار الفكر.
○ ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان الكوفي (ت٢٣٥هـ):
- المصنّف، حققه عبد الخالق الأفغاني، الدار السلفية، الهند.
○ د. صالح أحمد رضا:
- قطوف من رياض السنّة، دراسة تحليلية لأحاديث مختارة من كتاب رياض الصالحين، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت.
○ الصديقي، محمد بن علان الشافعي الأشعري المكي (ت١٠٥٧هـ):
- دليل الفالحين لشرح رياض الصالحين، ١٤٠٢هـ، المكتبة العلمية، بيروت.
○ الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر (ت٣١٠هـ):
- تاريخ الأمم والملوك، المكتبة التجارية، القاهرة.
- جامع البيان في تفسير القرآن، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ، مكتبة مصطفى الحلبي، مصر.
○ الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت٣٦٠هـ):
- المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، طبعة وزارة الأوقاف العراقية.
- المعجم الأوسط، مكتبة قره جلبي زاده، إستانبول.

○ د. عابد بن محمد السفياني:
- الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، مكتبة المنارة، مكة المكرمة.
○ ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر (ت١٣٩٣هـ):
- تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، تونس.
○ عباس محجوب:
- أصول الفكر التربوي في الإسلام، اعتنى بتصحيحه سمير أحمد العطار، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، مؤسسة علوم القرآن، الإمارات.
○ ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (ت٤٦٣هـ):
- جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الطبعة الأولى، بذيل كتاب الإصابة، ١٣٩٦هـ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
○ عبد الحميد الصيد الزنتاني:
- أسس التربية الإسلامية في السنّة النبوية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس.
○ عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ (ت١٢٨٥هـ):
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، صححه وعلق عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.
- صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، مكتبة دار الأرقم، الكويت.
○ عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت٢١١هـ):
- المصنف، ومعه كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي، رواية الإمام عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، توزيع المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
○ عبد القادر بدران (ت١٣٤٦هـ):
- تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ، دار المسيرة، بيروت.
○ عبد الله بن محمد الغنيمان:
- شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة.

○ عبد المجيد الشاذلي:
- حد الإسلام وحقيقة الإيمان، طبعة جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي.
○ عبد المحسن بن حمد العباد:
- عشرون حديثًا من صحيح البخاري، دراسة أسانيدها وشرح متونها، الطبعة الثانية، عام ١٤٠٤هـ، مطابع الرشيد، المدينة.
○ عبد المنعم صالح العلي العزي:
- تهذيب مدارج السالكين لابن القيم الجوزية، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، دار الخاني، الرياض.
○ عبد الوهاب بن لطف الديلمي:
- معالم الدعوة في قصص القرآن، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، دار المجتمع، جدة.
○ أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ):
- الأموال، تحقيق: محمد خليل هراس، دار الفكر العربي، مكتبة الكليات الأزهرية.
○ ابن أبي العز، القاضي علي بن محمد الحنفي (ت٧٩٢هـ):
- شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: جماعة من العلماء، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٠هـ.
○ علي جابر الحربي:
- منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.
○ أبو الحسن علي الحسني الندوي:
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار الأنصار، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٣٩٣هـ.
○ د. عماد الدين خليل:
- ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٣٩٩هـ.
○ ابن العماد، عبد الحي بن أحمد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ):
- شذرات الذهب، دار الآفاق الجديدة.
○ العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد (ت٨٥٥هـ):
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار الفكر.

○ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ):
- إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي.
○ ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ):
- مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام بن محمد بن هارون، دار الفكر، بيروت.
○ الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨٧١هـ):
- القاموس المحيط، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.
○ القاسمي، محمد جمال الدين (ت١٣٣٢هـ):
- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، تحقيق: محمد بهجة البيطار، دار إحياء الكتب العربية.
- محاسن التأويل، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
○ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري المروزي (ت٢٧٦هـ):
- عيون الأخبار، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
○ ابن قدامة، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد (ت٦٣٠هـ):
- المغني، الناشر مكتبة الجمهورية العربية، مكتبة الكليات الأزهرية، الأزهر، القاهرة.
○ القرطبي، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري (ت٦٥٦هـ):
- المفهم في شرح تلخيص مسلم، (مخطوط).
○ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١هـ):
- الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.
○ القسطلاني، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد (ت٩٢٣هـ):
- إرشاد الساري شرح القسطلاني على البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
○ ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد (ت٧٥١هـ):
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت.
- الفوائد، الطبعة الثالثة، تحقيق: جابر يوسف.
- الطب النبوي، دار إحياء الكتب العربية.
- زاد المعاد، مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين، دار الكتاب العربي، بيروت.
- مفتاح دار السعادة، دار الكتب العلمية، بيروت.

- إغاثة اللهفان، دار العلم، دمشق، بيروت.
- مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت.
○ الكاندهلوي، محمد يوسف (ت١٩٦٥م):
- حياة الصحابة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
○ الشيخ عبد الحي الكتاني:
- نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، دار الكتاب العربي، بيروت.
○ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ):
- تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت.
- السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، ط. عيسى الحلبي، سنة ١٣٨٤هـ.
- البداية والنهاية، حققه د. أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- شمائل الرسول، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: مصطفى عبد الواحد.
○ الكنكوهي، أبو مسعود رشيد أحمد (ت١٣٢٣هـ):
- لامع الدراري على جامع البخاري، سنة الطبعة ١٣٩٥هـ، المكتبة الإمدادية، مكة المكرمة.
○ ابن ماجه، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٥هـ):
- السنن، حققه محمد فؤاد عبد الباقي.
○ مالك بن أنس (ت١٧٩هـ):
- الموطأ، صححه ورقّمه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
○ المباركفوري، صفي الرحمٰن:
- الرحيق المختوم، الجامعة السلفية، الهند، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ، جدة.
○ المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمٰن عبد الرحيم (ت١٣٥٣هـ):
- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، طبعة دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ.
○ محب الدين الخطيب (ت١٣٨٩هـ):
- مع الرعيل الأول، الطبعة السابعة، نشره قصي محب الدين الخطيب.
○ محمد إبراهيم محمد إبراهيم:
- الجانب الإعلامي في خطب الرسول ﷺ، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
○ د. محمد أمين المصري:
- المجتمع الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ، دار الأرقم، الكويت.

○ محمد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ):
- تفسير المنار، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت.
○ د. محمد رواس قلعجي:
- التفسير السياسي للسيرة، الناشر دار السلام، بيروت.
○ د. ا. ي. فنسنك:
- مفتاح كنوز السنّة، ونقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي، إدارة ترجمان السنّة، لاهور، المكتبة الإمدادية، مكة المكرمة.
○ محمد سعيد المولوي:
- المربي محمد ﷺ، التربية النبوية - شمولها - أهدافها - طرائقها، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ، مكتبة العروبة، الكويت.
○ د. محمد سليمان الأشقر:
- أفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام الشرعية، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.
○ محمد صادق إبراهيم عرجون:
- محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
○ محمد الغزالي:
- فقه السيرة، بتخريج الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثامنة، ١٤٠٨هـ، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
○ محمد فؤاد عبد الباقي (ت١٣٨٨هـ):
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.
- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، المكتبة العلمية، بيروت، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.
○ محمد قطب إبراهيم:
- منهج التربية الإسلامية، طبعة دار الشروق، الطبعة السابعة، ١٤٠٣هـ.
- دراسات قرآنية، طبعة دار الشروق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
- مفاهيم ينبغي أن تصحح، دار الشروق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.
- حول تطبيق الشريعة، مكتبة السنّة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- قبسات من الرسول، دار الشروق، الطبعة التاسعة، ١٤٠٤هـ.
- مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

○ محمد ناصر الدين الألباني:
- صحيح الجامع الصغير وزياداته، طبعة المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.
- مختصر الشمائل المحمدية، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ، مكتبة المعارف، الرياض.
- السلسلة الصحيحة، طبعة المكتب الإسلامي.
○ محمد نعيم ياسين:
- كتاب الإيمان أركانه وحقيقته، طبعة مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.
○ محمد نور سويد:
- منهج التربية النبوية للطفل، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة الرابعة.
○ المزي، جمال الدين يوسف (ت٧٤٢هـ):
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، حققه الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة.
- تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، المكتب الإسلامي، الدار القيمة، تحقيق: عبد الصمد شرف الدين، إشراف زهير الشاويش.
○ الإمام مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ):
- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
○ المطرزي، أبو الفتح ناصر بن عبد السيد بن علي الخوارزمي (ت٦١٦هـ):
- المغرب في ترتيب المعرب، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت.
○ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي:
- إمتاع الأسماع، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
○ مناع خليل القطان:
- مباحث في علوم القرآن، الطبعة الثامنة، ١٤٠١هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
○ المناوي، محمد عبد الرؤوف (ت١٠٣١هـ):
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، الطبعة الثانية، دار المعرفة، ١٣٩١هـ، بيروت.
○ المنذري، أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (ت٦٥٦هـ):
- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ.
○ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت٧١١هـ):
- لسان العرب، دار صادر، بيروت.

○ أبو الأعلى المودودي:
- الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت.
○ الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت٥١٨هـ):
- مجمع الأمثال، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.
○ النسائي، أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر (ت٢٥٥هـ):
- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
○ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت٤٣٠هـ):
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر، بيروت.
○ الإمام النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الدمشقي (ت٦٧٦هـ):
- شرح صحيح مسلم، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الأذكار النووية، دار الفكر، بيروت.
○ ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري (ت٢١٨هـ):
- السيرة النبوية، حققها مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار الكنوز الأدبية.
○ ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ):
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، طبعة دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠١هـ.
○ الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر (ت٨٠٧هـ):
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، طبعة سنة ١٤٠٦هـ، دار المعارف، بيروت.
- كشف الأستار، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي.
- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، حققه محمد عبد الرزاق حمزة، المطبعة السلفية، القاهرة.
○ الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (ت٤٦٨هـ):
- أسباب النزول، طبعة سنة ١٣٩٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
○ ونسنك:
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، رتّبه لفيف من المستشرقين، الطبعة الأولى، ١٩٣٦م.

○ د. وهبة الزحيلي:
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
○ يوسف عبد الرحمٰن المرعشلي:
- فهرس أحاديث تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.
○ يوسف القرضاوي:
- ثقافة الداعية، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ، المكتبة الإسلامية، إستنبول، تركيا.
- من أعلام التربية العربية الإسلامية، الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٩هـ.
○ د. إبراهيم عبد، د. تشارلز، و. إيرنج، وآخرون:
- الموسوعة الطبية الحديثة، أشرف على إخراجها، وقام بالترجمة إلى اللغة العربية د. أحمد عمار وآخرون، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م، تصدرها لجنة النشر العلمي، وزارة التعليم العالي، سجل العرب، القاهرة.
○ محمد شفيق غربال:
- الموسوعة العربية الميسرة، اشترك في تأليفها أكثر من مئة عالم من بلاد العرب، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ومؤسسة دار الشعب، القاهرة.

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة